

التقاليد والعادات الدمشقية

خلال عهود

السلجوقيين - الزنكيين - الأيوبيين

د. فراس حياوي السامرائي

د. فراس سليم حياوي السَّامرَّائي

التَّقاليد والعادات الدِّمشقيَّة

خلال عُهُود

السّلجوقيِّين - الزِّنكيِّين - الأيُّوبيِّين

الأوائل
2004

الكتاب : التَّقاليد والعادات الدِّمشقيَّة
خلال عُهُود
السّلجوقيِّيْن. الزِّنكيِّيْن. الأيُّوبيِّيْن
تأليف: د. فراس سليم حياوي السّامرّائي

قرؤوا فوصلوا
لنقرأ حتَّى نصل

الطَّبعة الأولى
آب 2004 م
جُمادى الآخر 1425 هـ

مُوافقة وزارة الإعلام: 75539 تاريخ 29 / 9 / 2003 م

النَّاشر : **الأوائل** للنَّشر والتَّوزيع
سُوريَّة . دمشق الإدارة : ص . ب 3397
هاتف : 00963 11 2233013
فاكس : 00963 11 2460063
البريد الإلكتروني : alawael@scs-net.org

التَّوزيع : دمشق ص . ب 10181
هاتف وفاكس: 00963 11 2248255
البريد الإلكتروني: alawael@daralawael.com
جوَّال : 00963 93 411550
00963 93 418181

موقع الدَّار على الإنترنت :
www.daralawael.com

تصميم الغلاف: مُحمَّد خير مقاو
الإشراف الفنِّي : يزن يعقوب
التَّدقيق والمُراجعة: إسماعيل الكردي

الفهرس

الإهداء

إلى والدَيَّ الكريمَيْن ** برّاً بهما ** وامتناناً لهُما ؛

إلى شقيقتي وأشقّائي ** عضداً ** وعوناً ؛

إلى رُوح عمِّي العزيز ربيع ** تكريماً ووفاءً لِذكْراه؛

أُهدي ثمرة هذا الجهد المُتواضع ؛ حُبّاً وتقديراً وعرفاناً ؛

فراس

المُقدِّمة

بدايةً؛ هُناك مُسوِّغات دفعتْني لدراسة موضوع دمشق في هذه المُدَّة، في تلك المنطقة من بلاد الشَّام، وذلك للدَّور الذي أدَّته في تاريخ الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، مُنذُ أنْ وطئت أرضَهَا قبائلُ العرب، بعد خُرُوجهم من الجزيرة في أزمان مُوغلة القدَم، وتأكَّد ذلك من خلال اهتمام المُؤرِّخين والباحثين في تاريخ بلاد الشَّام في المُدَّة التي نحنُ بصددها، فعلى الرّغم من الاهتمام بالجوانب السِّياسيَّة والحربيَّة، فإنَّ الجوانب الاجتماعيَّة لم تلقَ الاهتمام المطلوب، والعناية التي تستحقُّها، ما خلا ذلك القدر اليسير الذي لا يتناسب وأهمِّيَّة دمشق في التَّاريخ، ولعلَّ مُسوِّغ ذلك هُو تركيز الباحثين على الجانب العربي الذي كان بين المُسلمين والصّليبيِّين.

والواقع أنَّ دراسة المُجتمع العربي الإسلامي في دمشق في هذه المُدَّة، يُعَدُّ من أكثر الدِّراسات تعقيداً، وذلك لأنَّ هذه المدينة ضمَّت طوائف مُتعدِّدة، شكَّل العرب غالبيَّتها العُظمى؛ إذْ إنَّ اللُّغة التي يتكلَّمها سُكَّان دمشق هي العربيَّة، ليست للعرب فحسب، بل لبقيَّة طوائف المُجتمع الدِّمشقي آنذاك، لأنَّها لُغة العلم والحضارة، فضلاً على أنَّها لُغة الدِّين الإسلامي الذي يجب أنْ تُؤدَّى فرائضه بها. ومن الأقوام التي سكنت دمشق، التُّركمان الذين جاؤوا في عهد زنكي، إنْ لم يكن قبله، وجاء صلاح الدِّين الأيُّوبي بالأكراد، وإلى جانب هذه الأقوام كان للجنُود الجراكسة والأتراك وُجُود؛ إذْ استقدمهم الحُكَّام والأُمراء الذين حكموا دمشق.

وهكذا تنوَّع سُكَّان دمشق، وتباينت عقائدهم الدِّينيَّة، وقد شكَّل المُسلمون الغالبيَّة العُظمى، وإلى جانبهم عاش المسيحيُّون واليهُود، وقد كان لكُلٍّ من هؤلاء أحياءٌ عُرفت بهم، وتميَّزت كُلُّ طائفة بعقائدها وعاداتها، مُستفيدة من رُوح التَّسامح الاجتماعيَّة في دمشق، ولهذا التَّباين وجدنا أنفسنا أمام مُجتمعات مُتعدِّدة، لا مُجتمع واحد.

وهذه الأوضاع قد تتقارب وتتباعد أحياناً، لحُكم الظُّرُوف التي تسود في المنطقة الواحدة، لكُلِّ ذلك؛ توفَّرت أسباب اختياري لهذا الموضوع، وإذا كانت دراستنا قد انصبَّت على أحوال المُجتمع الإسلامي ضمن حُدُود مدينة دمشق، وعبر مُدَّة الحُرُوب الصَّليبيَّة، إلاَّ أنَّها لم تُهمل العناصر والطَّوائف التي ضمَّها المُجتمع الدِّمشقي من خلال تعايش هذه الفئات، برغم اختلاطها مُسهمة - معاً - في البناء الحضاري والأنتُوغرافي[1]، والدِّيمُوغرافي[2]، الذي تميَّزت به مدينة دمشق.

لقد قُسِّمت الدِّراسة إلى خمسة فُصُول، فقد تناول الفصل الأوَّل البُنية الجغرافيَّة لمدينة دمشق، من حيثُ الموقع والحُدُود والسَّطح، مع استعراض سريع للتَّطوُّرات السِّياسيَّة التي مرَّت بها المدينة.

أمَّا الفصل الثَّاني؛ فقد خُصِّص لدراسة فئات المُجتمع الدِّمشقي في هذه المُدَّة وابتداءً بدراسة الفئة الحاكمة وتوابعها، وفئة رجال الدِّين، وفئة أرباب الفكْر والعلم، وفئة التُّجَّار، وفئة الفُنُون الجميلة، والفلاَّحين، والفئات الأُخرى.

أمَّا الفصل الثَّالث، فقد جُعل لدراسة الأحوال المعاشيَّة، والتي تشمل الطَّعام، والملابس، والحمَّامات، والخانات، والصِّحَّة العامَّة، والأسواق، ووسائل الرُّكُوب، فضلاً على مُستوى المعيشة والأسعار.

بينما تناول الفصل الرَّابع صُوراً مُتباينة من الحياة الاجتماعيَّة، والتي تضمَّنت الأعياد، والمُناسبات، ووسائل التَّسلية المُختلفة، والتي تعكس لنا حياة المُجتمع الدِّمشقي في ذلك الوقت.

وعنيَ الفصل الخامس، من هذه الدِّراسة، بالعائلة، ومُفرداتها، ومكانتها، وعلاقاتها بغيرها، كجُزء من علاقات المُجتمع مع بعضه في المصالح والمسؤوليَّات الاجتماعيَّة التي

---

(1) علم دراسة المظاهر المادِّيَّة للنَّشاط الإنساني من عادات وتقاليد، كالمأكل، والملبس، والمشرب، وهي الدِّراسة الوصفيَّة للمُجتمع، وشرحها بطريقة وصفيَّة، إبراهيم مُدكور، مُعجم العُلُوم الاجتماعيَّة، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، 1975، ص11.

(2) علم يبحث في السُّكَّان من حيثُ أعدادهم، والتَّغيُّرات التي تطرأ عليهم، والعوامل التي تنشأ عليها هذه التَّغيُّرات، وهُو يُعنى بدراسة التَّركيب السُّكَّاني؛ إذ يُقسِّم المُجتمعات إلى طبقات على أساس النَّوع والحالة الاجتماعيَّة والتَّوزيع التَّعليمي والدِّيني، إبراهيم مُدكور، مُعجم العُلُوم الاجتماعيَّة، ص270.

تتوَّجت بشعُور التّكافل الاجتماعي، فضلاً على تناول أوصاف قُصُور الأُمراء والميسورين، التي نقلتها لنا الرّوايات تفصيلاً، دُون أنْ تلتفت إلى ما يُماثلها من مساكن العامَّة.

وخُتم البحث بخُلاصة، أوضحت أهمَّ النّتائج التي استطاعت الدِّراسة تسليط الضّوء عليها، وذلك من خلال مُناقشة كُلِّ حالة وظاهرة عرفها المُجتمع العربي الإسلامي في مدينة دمشق، في المُدَّة التي تناولتها الدّراسة، كما يتَّضح ذلك من خلال فُصُول البحث.

وهذه الدِّراسة ـ شأنها شأن غيرها من الدِّراسات الأكاديميَّة ـ قد اعتمدت عدداً من المصادر والمراجع والبُحُوث الحديثة، والتي توزَّعت في ميادين مُختلفة تاريخيَّة وأدبيَّة وجُغرافيَّة، فضلاً عن كُتُب الحديث، والفقه، واللُّغة، وكُتُب الرِّجال، وفيما يأتي عرض وتحليل مُوجز لبعضها[1] من خلال مُؤلِّفيها:

1 ـ حمزة بن أسد بن يصلي القلانسي (555هـ/ 1160م)، في كتابه (ذيل تاريخ دمشق)، وهُو كتاب مُختصٌّ بمدينة دمشق، جَمَعَ مُؤلِّفه أحداثها السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة حتَّى وفاته، وقد أَفَدْتُ منه توضيح الحالة السِّياسيَّة، بالإضافة إلى ذكره الحالة العامَّة للمُجتمع، وتأثُّرها بهذا الحاكم أو ذلك، وهُو كتاب يجمع السّياسة والاقتصاد والحالة الاجتماعيَّة.

2 ـ علي بن الحُسين بن هبة الله بن عساكر (571هـ/ 1176م)، في كتابه (تاريخ مدينة دمشق)، وهُو كتاب واسع ومُتخصِّص بمدينة دمشق، فقد استعرض تاريخ المدينة، وما حلَّ بها من الأعيان، وقد أَفَدْتُ منه في تحديد مواقع الشّوارع والمحلاَّت وأقسام المدينة الأُخرى، فضلاً عن رسم صُورة عن مكانة المرأة من خلال التَّرجمات الكثيرة التي ذكرها في كتابه، وهُو كتاب أغنى البحث كثيراً بفُصُوله كُلِّها.

3 ـ عبد الله بن مُحَمَّد بن حامد المعروف بالعماد الأصفهاني (597هـ/ 1200م)، في كتابه (الفتح القسي في الفتح القُدسي)، وهُو كتاب مُكرَّس لصلاح الدِّين؛ حيثُ رافق المُؤلِّفُ صلاحَ الدِّين للفترة من (583هـ ـ 589هـ)، وهُو مُتميِّز بأُسلوبه الدّيواني، واشتماله على فقرات خطابيَّة؛ بحيثُ يصعب على الباحث استخراج الحقائق التَّاريخيَّة، وقد أَفَدْتُ منه في رسم سياسة صلاح الدِّين العامَّة، وإلى جانب ذلك، كان كتاب (البرق الشَّامي)

(1) وقد نهجنا أُسلوب سنة وفاة المُؤلِّف في ترتيبها باستثناء الرّحلات؛ إذْ وضعناها ضمن كُتُب الجغرافيا.

الذي اختصره البنداري وسمَّاه (سنا البرق الشَّامي)، وهُو كتاب للمُدَّة التي نحنُ بصددها، وقد أَفَدْتُ منه في رسم الحالة العامَّة للمُجتمع في فترة البحث.

4 ـ بهاء الدِّين أبي المحاسن بن رافع بن شدَّاد (622هـ/ 1234م)، في كتابه (سيرة صلاح الدِّين)، وهُو مُخصَّص لسَرْد سيرة صلاح الدِّين، وقد أَفَدْتُ منه في تحديد أعمال صلاح الدِّين الاجتماعيَّة، وأثرها على المُجتمع، بالإضافة إلى أنَّه نقل صُوراً عن الحياة العامَّة.

5 ـ علي بن مكرَّم بن الأثير (630هـ/ 1235م)، في كتابه الكبير (الكامل في التَّاريخ)، وهذا الكتاب غَنيٌّ عن التَّعريف في حوليَّاته، وقد أفدتُ منه كثيراً في رسم الصُّورة السِّياسيَّة، بالإضافة إلى ذكْره لبعض فئات المُجتمع، وإلى جانبه كان كتاب ابن الأثير (التَّاريخ الباهر في الدَّولة الأتابكيَّة)، والذي عرض خلاله تاريخ الزّنكيِّين، بالإضافة إلى الأحداث العامَّة للمُدَّة التي نحنُ بصددها، وقد أَفَدْتُ منه في رسم الحالة السِّياسيَّة في عهد نُور الدِّين، بالإضافة إلى أعماله الاجتماعيَّة للمدينة.

6 ـ عُمر بن أحمد بن العديم (665 هـ/ 1266 م)، في كتابه (زُبدة الطَّلب في تاريخ حلب)، وهُو كتاب جَمَعَ مُؤلِّفه الحوادث العامَّة للمنطقة، وقد أَفَدْتُ منه كثيراً في فُصُول البحث، ابتداءً من النَّاحية السِّياسيَّة، مُرُوراً بالأحوال الاجتماعيَّة، وللمُؤلِّف كتاب آخر، هُو (الوصلة إلى الحبيب في ذكر الطَّيِّبات والطِّيب)، وهُو كتاب وَصَفَ أطعمة المُجتمع في الفترة التي نحنُ بصددها، وقد أَفَدْتُ منه في تحديد بعض الأطعمة العامَّة أو الخاصَّة في الفترة التي نحنُ بصددها.

7 ـ عبد الرّحمن أبو شامة (665 هـ/ 1266 م)، في كتابه الرَّوضتَيْن في أخبار الدَّولتَيْن، وهُو كتاب جامع لتاريخ المنطقة، وقد أَفَدْتُ منه في عدَّة مواضع منها النَّاحية السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة...إلخ. وللمُؤلِّف كتاب آخر، وهُو (تراجم القرنَيْن السَّادس والسَّابع، المعروف بالذَّيل على الرَّوضتَيْن)، وقد أَفَدْتُ منه في ترجمة عدد من أعيان دمشق في هذه الفترة.

8 ـ عزّ الدِّين عبد الله بن شدَّاد (684 هـ/ 1285 م)، في كتابه (الأعلاق الخطيرة)، في القسم الخاصّ بدمشق، وقد أَفَدْتُ من هذا الكتاب كثيراً، لأنَّه جاء ليُكمل فترة ابن عساكر؛

بحيث كان جامعاً للجوانب والأُمُور العامَّة لدمشق، وكان مُلازماً لفُصُول البحث؛ لأنَّ مُؤلِّفه من المُعاصرين للأحداث التي تناولناها.

9 ـ مُحَمَّد بن سالم بن واصل (695 هـ/ 1298 م)، في كتابه (مُفرِّج الكُرُوب في أخبار بني أيُّوب)، وقد أَفَدْتُ منه في سدِّ بعض ثغرات فُصُول البحث، فهُو كتاب جامع لأُمُور الحياة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة وغيرها.

10 ـ ابن فضل الله العُمري (749 هـ/ 1348 م)، في كتابه الموسوعي (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، وقد أَفَدْتُ منه فيما توزَّعت أهمِّيَّته على موضوعات البحث؛ إذْ كان مُعاصراً للمُدَّة، ونقل صُوراً من الصُّور الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة بين ثنايا كتابه، أفادت البحث كثيراً، وعبر فُصُوله جميعها.

11 ـ أحمد بن علي القَلْقَشَنْدي (821 هـ/ 1418 م)، في كتابه (صُبح الأعشى في صناعة الإنشا)، وأهمِّيَّته في إسعاف الباحث في سدِّ ثغرات فُصُول البحث.

12 ـ مُحَمَّد بن أحمد بن طُولون (953 هـ/ 1546 م)، في كتابه القلائد الجوهريَّة في تاريخ الصَّالحيَّة، وهُو كتاب جامع لأخبار ضاحية الصَّالحيَّة، وهي إحدى ضواحي المدينة، وقد أَفَدْتُ منه كثيراً من الأُمور المُتعلِّقة بالضَّاحية وتخطيطها، ولابن طُولون كتاب آخر بعُنوان (فصِّ الخواتم فيما قيل في الولائم)، وهُو مُتخصِّص بالطَّعام وأنواع الولائم، وقد أَفَدْتُ منه كثيراً في موضوع الطَّعام والشَّراب.

13 ـ وإلى جانب ذلك؛ كانت كُتُبُ التَّراجم المُعاصرة هي الأُخرى مِمَّا أعان الباحث على إنجاز عمله، ومنها مُعجم الأُدباء لشهاب الدِّين ياقوت الحموي (626 هـ/ 1228 م)، وكتاب (وفيَّات الأعيان)، لشمس الدِّين ابن خلكان (681 هـ/ 1282 م)، فضلاً عن كُتُب حَوْلِيَّة أُخرى غنيَّة بتراجم الأشخاص مثل (مرآة الزَّمان) لسبط ابن الجوزي (654هـ/ 1256م)، وكتاب (البداية والنِّهاية)، لأبي الفداء ابن كثير (774هـ/ 1372م)، وهُو كتاب جَمَعَ التَّراجم والأحداث التَّاريخيَّة، كما كان (لشذرات الذَّهب) لعبد الحيِّ بن العماد الحنبلي (1089هـ / 1678م)، دوره في هذا المعنى.

14 ـ كما كـانت لكُتُب الجَغرافيـا دورهـا في إغنـاء البحـث بالمعلومـات ، ومنـها كتـاب (صُورة الأرض) لُمحَمَّد بن علي بن حوقل (367 هـ/ 979 م) ، و(أحسن التّقاسيم) لُمحَمَّـد ابـن أحمـد المقدسـي (375 هـ/ 986 م) ، و(مُعجـم البلـدان) ليـاقوت الحمـوي (626 هـ/ 1228 م) ، وهُو مـن أهـمِّ المصـادر الجغرافيَّـة المُعـاصرة لُمدَّة البحـث ، فضـلاً عـن كُتُـب المكتبـة الجغرافيَّـة الأُخرى ، ولا ننسى في هذا الجانب كُتُـبَ الرّحـلات ، ومنـها (رحلـة ابـن جُبير) أبـي الحسـن مُحَمَّد بن جُبير (614 هـ/ 1217 م) ، والتي أَفَدْتُ منها كثيراً ، ولأغلب فُصُول البحث ؛ خاصَّة وأنَّه مـن المُعـاصرين للفترة التي نحنُ بصددهـا ، بالإضافـة إلـى (رحلـة بنيـامين) ، لبنيـامين التّطلسي (569 هـ / 1173 م) ، و(رحلة ابن بطُّوطـة) ، أبـي عبـد اللـه بـن إبراهيـم بـن بطُّوطـة (779 هـ / 1377 م) ، وغيرها ، والتي أغنت البحث بالمعلومات القيِّمة .

15 ـ وأخيراً ؛ فإنَّ البحث اعتمد على الكثير من المراجع ، سواء كانت على شكل كُتُب أو بُحُوث ومقالات منشورة في الدّوريَّات باللُّغة العربيَّة واللُّغات الأجنبيَّة ، والتي لـم تقتصـر فائدتها على مُجرَّد كونها تطرَّقت إلى بعض جوانب هذه الدِّراسة فحسب ، بل فسحت المجـال للبحث والمُناقشة ، وتصحيح ما وَرَدَ بعد المُقارنة ، أو الأخذ بآرائها ، ومنها مُؤلَّفات سعيد عبد الفتَّاح عاشور ، والتي أغنت البحث بالآراء والأفكار القيِّمـة ، وكذلـك مُؤلَّفـات مُحَمَّـد كُـرد علي العديدة ، والتي كانت لدمشق حصَّة كبيرة فيها ، وقـد أفـادتْني فـي ثنايـا البحـث كثيراً ، فضلاً عن كتاب المُجتمع الإسلامي لمُؤلِّفه أحمد رمضان الذي أغنى البحـث بأفكـاره القيِّمـة ، وكذلك مُؤلَّفات نقولا زيادة ، التي أفادتني في المُقارنة بين مُسـتوى المعيشـة وأسـعار السّـلع... وهُناك كُتُبٌ أُخرى لا يسمح المجال لذكْرها .

الفصل الأوَّل:

البُنية الجَغرافيَّة
والاستقراء التّأريخي لمدينة دمشق

أوّلاً: ـ البُنية الجَغرافيَّة.

اشتقاق اسم دمشق.

الموقع والحُدُود.

وصف المدينة.

سطح المدينة.

ثانياً: ـ الاستقراء التّأريخي.

الفاطميُّون.

السّلاجقة.

الزّنكيُّون.

الأيُوبيُّون.

المماليك.

أوّلاً: ـ البُنية الجَغرافيَّة:

ـ اشتقاق اسم دمشق:

تباينت الرّوايات التّاريخيَّة وتعدَّدت في تحديد معنى اسم مدينة دمشق[1]، فهي من جهة تعني الخفَّة أو سُرعة الجري، أو السُّرعة في العمل، يُقال: إنَّها دمشق وناقة دمشق؛ أيْ السّريعة، قال:

وصاحِبِيَ ذاتُ هبات دمشق كأنَّها بعد الكلال زورق[2]

وتُطلق لفظة دمشق على النّاقة السّريعة الجريان، وتُكنّى بها المرأة التي تعمل بخفَّة يدها أثناء العمل[3]، وقيل إنَّها سُمِّيت بذلك لأنَّهم تَدَمْشقوا[6] في بنائها؛ أيْ أسرعوا[4]، وقد ترد دمشق بمعنى الهواء الطِّيب العطر. وأصل اسمها في الرُّومانيَّة دوومسكس (أيْ مسك مُضاعف لطيبها؛ لأنَّ (دوو) للتَّضعيف، ومسكس هُو المسك)[5]، ويبدو أنَّ هذا الرَّأي يتَّفق وموقعها، وطيب هوائها، وهذا المعنى يدلُّ على وصف المكان الجميل البناء الكثير البساتين، وقد وصفها الحموي بأنَّها (البلدة المشهورة قصبة الشَّام، وهي جنَّة الأرض بلا خلاف؛ لحُسن عمارة، ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة، ونُزهة رقعة، وكثرة مياه)[6].

---

(1) الدّمشق، النّاقَّة الخفيفة السّريعة، مُحَمَّد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، الدّار المصريَّة للتَّأليف والتّرجمة، ب، ت، 11/ 393.

(2) عليّ بن الحُسين بن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق، صلاح الدِّين المُنجِّد، دمشق، 1954، 1/ 171، مُحَمَّد بن علي بن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أُمراء الشَّام والجزيرة، تحقيق سامي الدَّهَّان، دمشق، 1956، ص15، ابن منظور، لسان العرب، 11/ 393.

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 1/ 18، ابن منظور، 11/ 393، فاروق عبَّاس وهيب، الحياة الاجتماعيَّة في دمشق خلال العصر الأُموي، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة، بغداد، 1986، ص21.

(4) يُقال دَمْشَقَ، يُدَمْشِقُ، دَمْشَقَةُ، ودمْشاق، ما إذا أسرع، وكُلُّ سريع دَمْشَق، ابن شدَّاد الأعلاق الخطيرة، ص15، مُحَمَّد مُرتضى الزّبيدي، تاج العروس، بَيْرُوت، 1966، 6/ 348.

(5) ياقوت الحموي، مُعجم البُلدان، بَيْرُوت، 1956، 2/ 463.

(6) الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 463.

وقد وَرَدَ عن الرَّسول ﷺ، أنَّه تلا قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[1]، قال: (هل تدرون أين هي؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هي بالشّام، بأرض يُقال لها الغُوطة، مدينة يُقال لها دمشق، هي خير مدائن الشّام)[2]، وقال أيضاً ﷺ: (أربع من مدائن الجنَّة وأربع من مدائن النّار، فأمَّا مدائن الجنَّة: فمكَّة والمدينة وبيت المَقْدس ودمشق، وأما مدائن النّار: القسطنطينيَّة وطبريَّة وأنطاكية المُحترقة وصنعاء)[3].

وذكر الحموي أنَّ اسمها مُقتبس؛ إذْ (سُمِّيت دمشق بدماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نُوح عليه السّلام)[4]، ونُسبت إلى غُلام إبراهيم عليه السّلام العازز (بنى دمشق، وكان حبشياً، وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج إبراهيم من النّار، وكان يُسمِّى الغُلام دمشق، فسمَّاها باسمه)[5]، وكان مُتصرِّفاً في مال إبراهيم جميعه[6].

وسكنتْ دمشقَ قبل الإسلام أقوام مُتعدِّدة وكثيرة، وكان لكُلٍّ من هذه الأقوام لُغتها التي تُميِّزها من غيرها من الأقوام الأُخرى، فنشأ من ذلك اختلاف المعنى (وَرَدَ في قائمة تحمس تمسقو، وفي الآشوريَّة دمسقي وتمشكي، وفي العبريَّة أيضاً، ثُمَّ وَرَدَتْ بعد ذلك بفكِّ الحرفَيْن المُدغمَيْن... كما في السّريانيَّة)[7]. ويرى ابن عساكر أنَّ الاسم مُرتبط - مُنذُ القدم - بقصَّة إبراهيم السّلام، وتُضاف إلى اللّفظة الهاء، فتُؤنَّث، ويُصبح دمشقه؛ فتعني السُّرعة، ويُقال (دمشق، مدمشق، دمشقة، ودمشاق إلاَّ أسرع)[8].

---

(1) سُورة المُؤمنون، آية (50).

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 1/ 193.

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 1/ 209.

(4) الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 463.

(5) عبد الله بن البكري، مُعجم ما استعجم، تحقيق مُصطفى السّقَّا، القاهرة 1947، 2/ 556، الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 463.

(6) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق رُورُونيا كرفُولسكي، ط2، بَيْرُوت، 1986، ص171.

(7) هارتمان، سادة دمشق، دائرة المعارف الإسلاميَّة، 9/ 266.

(8) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 1/ 18.

أمَّا عـن تـاريخ بنـاء المدينـة[1] ؛ فقديـم جـداً ، وقـد يقـترن مـع قصَّـة هُبُـوط آدم وحـوَّاء (عليهما السّلام) ، فقد أورد ابن عساكر ذلك بقوله : (أوَّل حائط وُضع علـى وجـه الأرض ، بعد الطّوفان ، حائط حرَّان ودمشق ، ثُمَّ بابل)[2] ، ويذكر ابن عساكر أنَّ نُوحاً ـ عليه السّـلام ـ اختطَّ حرَّان ، ثُمَّ دمشق[3] ، وعليه ؛ فإنَّ دمشـق تُعَدُّ مـن المُدُن القـديمة ، والتـي هـي (الكعبـة ومصر ودمشق والجزيرة والأبلة ونينوى وحرَّان السّوس الأقصى)[4] .

نخلص ممَّا سبق ذكْره في ما يتَّصل بدمشق إلـى أنَّـها مدينـة ضاربـة الجُـذُور فـي أعمـاق الماضي السّحيق ، يُؤيِّد ما اتَّصف به موقعها .

ـ الموقع والحُدُود :

تُعَدُّ مدينة دمشق من أهمِّ مُدُن بلاد الشَّام وأقدمها[5] ، لما تمتَّعت به المدينة من موقع مُهمٍّ ومُتميِّز بـين الشّـرق والغـرب ، وهـي مدينـة قديمـة يمتـدُّ تاريخـها إلـى آلاف السّـنين ، فقـد فتحها القائد الرُّوماني (بارمينيو) بأمر الإسكندر المقدوني سنة (333 ق . م) ، ثُمَّ صارت تحـت سيطرة السّلوقيِّيْن خُلفاء الإسكندر ، وانتشرت فيها الحضارة الإغريقيَّة والثَّقافيَّة والهلينستيَّة ، لُغة ومُعتقداً وعُمراناً ، وتعـايش اليُونـان مـع الآراميِّـيْن سُكَّان البـلاد الأصليِّيْـن ؛ حيـثُ كـان لجاليتهم حيّاً خاصّاً[6] يُظنُّ بأنَّه كـان إلـى الغـرب مـن السّـاحة العامَّـة ، وتميَّزت شـوارع الحـيِّ

---

(1) تعدَّدت الرّوايات حول بناء دمشق ، فبعضها يذكر أنَّها بُنيت في عهد إبراهيـم عليـه السّلام ، أو في زمانـه ، في حين يرجع آخر إلى عهد الإسكندر في عهد علاقة دمشقش ، الحموي ، مُعجم البُلدان 2/ 463 ، ابـن عسـاكر تـاريخ مدينة دمشق 1/ 18 ، فاروق عبَّاس وهيب ، الحياة الاجتماعيَّة في دمشق خلال العصر الأُموي ، ص34 .

(2) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، 1/ 11 .

(3) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، 1/ 11 .

(4) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، 1/ 11 . وهيب الحياة الاجتماعيَّة في دمشق خلال العصر الأُموي ، ص24 .

(5) أَسَّس القائد الآرامي (رزُّوق بن البـدع) مملكـة آرام دمشـق ، والتـي اشـتُهرت بعُمرانـها وقُصُورهـا ، ومنـها قصـر البريص الذي وصفه المسعودي بأنَّه (بناء عجيب يُقال له البريص ، وكان يجـري فيـه الخمـر مـن قديـم الزّمـان ، وقـد ذكره الشُّعراء أثناء مدحهم لمُلوك غسَّان بن مـارب وغـيرهم ، علـي بـن الحُسـين المسعودي ، مُرُوج الذَّهـب ومعـادن الجوهر ، تحقيق قاسم الشّمَّاعي ، ط1 ، بَيْرُوت ، 1987 ، 2/ 214 ، طه باقر ، مُقدِّمـة فـي تـاريخ الحضـارات القديمـة ، بغداد ، 1956 ، 2/ 271 .

(6) انظر تخطيط الأحياء بمُلحق رَقْم (20) ص 295 .

بالاستقامة والتّقاطع بعضها مع بعض، بزوايا قائمة تحصر فيما بينها وحدات سَكَنيَّة، أُطلق عليها اسم (الجريرات)، ممَّا جعل تسييجها العُمراني يُشبه رُقعة الشّطرنج، وهُو تنظيم يتماثل مع تخطيط المُدُن الإغريقيَّة، ويُؤمِّن الأغراض العسكريَّة التي تتطلَّب الحركة والسُّرعة والتّنظيم والدِّقَّة[1].

كان الشّارع المُستقيم الذي يبلغ طُوله (1500م) وعرضه (25.5م)، يربط الباب الشَّرقي والباب الغربي، وعلى جانبَيْه أماكن التِّجارة والبيع[2]، وقد ظلَّت المدينة على هذه الحال حتَّى تحريرها سنة 14 هـ/ 636 م[3].

شهدت المدينة تحوُّلاً طُوبُوغرافيَّاً وأنثُوغرافيَّاً[4]، مُنذُ أنْ تَمَّ تحريرها خلال عمليَّات التّحرير العربيَّة، وعبر القُرُون التَّالية؛ برزت خُصُوصيَّتها السِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، فبعد أنْ كان سُور المدينة[5]، قد حدَّ من سعتها طيلة الفترات السَّابقة، إلاَّ أنَّها شهدت توسُّعاً ضمن الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة، الأمر الذي استوجب أنْ تتجاوز حُدُود

---

(1) طه باقر، مُقدِّمة تاريخ الحضارات، 2/ 311، وما بعدها، قُتيبة الشّهابي، أبواب دمشق، دمشق، 1996، ص21.

(2) قُتيبة الشّهابي، أبواب دمشق، ص27، خالد مُعاذ، دمشق في عهد ابن عساكر، بحث منشور ضمن أعمال ندوة ابن عساكر، دمشق، 1979، ص134.

(3) تَمَّ تحرير دمشق صُلحاً بعد حصارها من جميع أبوابها، فقد كان أبو عُبيدة بباب الجابية، وخالد بالباب الشَّرقي، وعَمْرو بن العاص بباب تُوما، ويزيد بن أبي سُفيان بالباب الصّغير، وشرحبيل بن حسنة بباب الفراديس، أحمد بن يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بَيْرُوت، ب، ت، 2/ 140، مُحَمَّد بن جرير الطّبري، تاريخ الرُّسُل والمُلُوك، تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، ط4، القاهرة 1979، 3/ 441، الحموي، مُعجم البُلدان، 3/ 466.

(4) انظر الخارطة، (18-19) ص 291-293.

(5) يرجع سُور المدينة إلى العهد الآرامي، وبالضّبط؛ إلى الألف الثَّاني قبل الميلاد؛ حيثُ دعت الضّرورة لبنائه لصدِّ الهجمات الآشوريَّة المُتكرِّرة عليها، وقد خضع لعمليَّات ترميم لمرَّات عديدة، فقد أعاد الرُّومان الذين قضوا على حُكم السّلُوقيِّين سنة 64 ق.م، الأُمُور الدّفاعيَّة والأبواب؛ حيثُ أحاطوا المدينة بسُور حجري ضخم مُستطيل الشّكل، يضمُّ بداخله الأحياء الآراميَّة واليُونانيَّة والقبطيَّة، وقد بلغ طُول السُّور (1500م) وعرضه 750م، ويُحيط بمسافة مقدارها (105هكتار) (1.05كم)، وكانت جوانبه تُوازي الخُطُوط المُستقيمة التي تُحيط الشّوارع، فتنمو وتتوسَّع حسبها، إلاَّ جانبه الشَّمالي، الذي كان يُماشي نهر بردى، وهُو خندق طبيعي لا يُمكن تجاوزه، قُتيبة الشّهابي، أبواب دمشق، ص130، 27، عفيف بهنسي، الشَّام، بغداد، 1980، ص104-105. انظر المُلحق رَقْم (21) ص 297.

السُّور[1] لتنشأ ضواحي جديدة[2] خارج السُّور وسط البساتين المُنتشـرة حولـها، وقـد وصـف ابـن جُبير المدينـة بقولـه: (والبلـد ليس مُفـرط بـالكِبَر، وهُـو مـائل للطُّـول، وسككُه ضيِّقـة ومُظلمة، وبناؤه قصب وطين بعضها البعض، وهُو كُلُّه ثلاث طبقـات، ويحتـوي مـن الخَلْق ما تحتويه ثلاث مُدُن؛ لأنَّه أكثر بلاد الدُّنيـا خلقاً وحسنة، كُلُّـه خـارج، لا داخـل)[3]، وهُـو - بقوله هذا - يقصد الغُوطة[4]، ومـا تحتويـه مـن المبـاني والمُنتزهـات الجميلـة، وهـي مـا تُحيط المدينة من قُـرى شـجراء[5] والتـي حدَّدهـا الحمـوي بقولـه: (وإلـى أقصـى الغُوطـة مسير يـوم واحد)[6]، والتـي يحدُّهـا مـن الغـرب كُـلٌّ مـن الرَّبـوة والمزَّة[7] وداريَّـا[8]، وتنتهي بـالجنوب بصحنايا والأشرفيَّة وسبينة...إلخ[9]، أمَّا من الشَّمال، فيحدُّهـا جبـلا: قاسيون وسـنير[10]،

---

(1) انظر مُحَمَّد عبد القادر خريسات، التَّوسُّع العُمراني في مدينـة دمشـق، بحث مُقدَّم ضمـن مُؤتمر بـلاد الشَّام، عمَّان 1992، ص416.

(2) لقد تطوَّرت المدينة في الفترات السَّابقة، وآخرها في الدَّولة الفاطميَّة؛ حيثُ نشـأت بعـض الضَّواحـي كضاحيـة العقيبة، وهي تصغير (العقبة)، وسُمِّيت بذلك لوُقُوعها على مُنحدر الـوادي إلى الشَّمال، وضاحيـة الشَّاغور في الجنوب، وقصر الحُجَّاج في الجنوب الغربي، وكذلك نشأت في العهد الأيُّوبي وعـهد المماليك نـواحٍ أُخرى، منـها السُّويقة في جنوب المدينة، وسُوقيَّة في شمال المدينة، سُوفاجيه، دمشق الشَّام، بَيْرُوت، 1936، ص33، ص41، انظر قائمة المحلاَّت، مُلحق رَقْم (8)، ص 262.

(3) مُحَمَّد بن أحمد بن جُبير، رحلة ابن جُبير، بَيْرُوت، 1964، ص255.

(4) اسم مُشتقٌّ من الغائط المُطمئن من الأرض، وجَمْعُهُ غيطان، وهي تعني الوادي المُتَّسع، أو البساتين، وقـد تـأتي بلفظة المُثنَّى نحو قول أحدهم:

سـقى اللـه أرض الغُوطتَيْـن وأهلـها ... فلـي بجنـوب الغُوطتَيْـن شُـجُون

ومـا ذُقـتُ طعـمَ المـاء إلاَّ اسـتخفَّني ... إلـى بـردى والنَّـيربَيْن حنـين

والغُوطة بساتين تُحيط بدمشق من جهاتها الأربعة، وتدخل بذلك الصَّالحيَّـة، الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 468، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، دمشق، 1956، ص9.

(5) مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص14.

(6) الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 468.

(7) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص13، 33، 130، 181، 302.

(8) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 1/ 105، 171، 172، 119.

(9) وكذلك سبيات وحُوش الرَّيحانة، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص14.

(10) ويُسمُّونه بجبل الحُلو، وهُو فرع من فُرُوع جبال لُبنان الشَّرقيَّة، وإلى ما بعد القرن السَّابع ما كان يُطلق على هذَيْن الجبلَيْن إلاَّ اسم سنير وجبل الثَّلج، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص14-15، انظر الخارطة رَقْم (19). ص293.

ومن الجنوب الجبل الأسود وجبل مانع، في حين يحدُّها من الشّرق أرض المرج[1]. والظّاهر أنَّ المؤرِّخين قدَّروا الغُوطة، وحدَّدوها على الصُّورة التي ما رآها كُلٌّ واحد في عصره، فكانت تتَّسع حسب توسُّع السُّكَّان وانتشارهم، فقد حدَّد أحد المؤرِّخين الغُوطة بأنَّها تُطلق على الصّقع الذي يروي حول دمشق، بين الجبل البُحيرتَيْن (بُحيرة المرج وبُحيرة الهيجانة)[2]، في حين وصفها آخر، أنَّ الشَّام الثَّالثة الغُوطة، ومدينتها العُظمى دمشق[3].

تقع دمشق في منطقة تُحيط بها البساتين والقُرى[4] من جوانبها الأربعة، ويُحيطها السُّور الذي يليه خندق يفصلها عن بساتين الغُوطة، باستثناء الشّمال حين يجري نهر بردى من الغرب إلى الشّرق، وتنتشر القُرى كنُقاط بيضاء تمتدُّ إلى أطراف البادية، وتتسلَّق جوانبها حتَّى سفح جبل قاسيون، وقد وصف أحوالها ابن القلانسي في عهد طغتكين سنة 498هـ/ 1104م، بقوله (حسُنتْ أحوال دمشق وأعمالها... وعمرتْ بجميل سياسته... واتَّفق أنَّ الأسعار رخصتْ، والغلاَّت ظهرتْ، وانبسطت النَّاس في عمارة الأملاك في باطن دمشق، وظاهرها لإحسان سيرته وإجمال مُعاملته...)[5]، ولهذا؛ نجد توسُّع المدينة وظُهُور ضواحي جديدة خارج السُّور، في هذا التَّاريخ تتَّصل بالمدينة الأُمِّ؛ ومنها العقيبة[6] والشّجاج[7] والصَّالحيَّة[8] ثُمَّ السُّويقة[9]، وسُويقة صاروجا[10]، وهي ضمن حُدُود المدينة،

---

(1) وهُو إقليم متَّسع تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف الغُوطة، وهُو مُختصٌّ بزراعة الحُبُوب والذُّرة في الصّيف، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص15، وكذلك يحدُّها من الشَّرق - أيضاً - قرية الرّيحان السّقُّونيَّة، وحُوش مُباركة، وحُوش الرّيحانيَّة، وحُوش النّشَّابيَّة، وغيرها، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص14، انظر الخارطة رَقْم(20)، ص295.
(2) مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص13.
(3) مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص14.
(4) انظر المُلحق الخاصّ بقُرى ومنازل دمشق رَقْم (10) ص282.
(5) حمزة بن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بَيْرُوت، 1908، ص145.
(6) وهي تصغير العقبة، وسُمِّيت بذلك لوُقُوعها على المُنحدر الذي يلي النّهر، سُوفاجيه، دمشق الشَّام، ص33.
(7) تقع في الجنوب في حين يقع قصر الحُجَّاج في الجنوب الغربي وإلى جوارها، سُوفاجيه، دمشق، ص33.
(8) وهي من ضمن قُرى دمشق، واختلف المُؤرِّخون في تسميتها، فمنهم مَنْ قال: سُمِّيت بذلك لتجمُّع الصّالحين قُرب سفح جبل قاسيون، وقيل نسبة لجبل صالح، وقيل غير ذلك، مُحَمَّد بن طُولون الصّالحي، القلائد الجوهريَّة في تاريخ الصَّالحيَّة، تحقيق سامي الدّهَّان، دمشق، 1949، 1/ 24.
(9) وتقع في الجنوب من المدينة، وفيها خانات ومرافق نُزُول القوافل، سُوفاجيه، دمشق، ص41.
(10) وتقع شمالي المدينة، وهي نسبة إلى صارم الدِّين صاروجا أحد نُوَّاب دمشق في عهد المماليك، سُوفاجيه، دمشق، ص41، صفوح خيِّر، مدينة دمشق 1969، ص163.

التي لا تتجاوز مسير يوم واحد إلى أقصاها، على حدِّ تعبير ياقوت الحموي، الذي عاش في المُدَّة نفسها التي نحنُ بصددها، أمَّا من النَّاحية السِّياسيَّة؛ فهي تمتدُّ إلى مناطق واسعة بصفتها قاعدة الشَّام، فشملت فلسطين وبَيْرُوت وحمص وتدمر[1] وغيرها.

- وصف المدينة:

وهي مصر الشَّام، كثيرة الأشجار[2] سهليَّة جبليَّة[3]، بل هي أجل مدينة بالشَّام كُلِّه من حيثُ مساحة أرضها؛ إذْ لا يُوجد بالمغرب مكان أنزه منها[4]، وهي قصبة الشَّام، وجنَّة الأرض بلا خلاف، لحُسن عمارتها وتضاريسها، وكثرة الفواكه فيها[5]، ووصفها ابن جُبير بأنَّها (جنَّة المشرق، حُسن المُؤنق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقرَّ بناها، وعروس المُدُن التي اختليناها، وقد تحلَّت بأزاهير، وتَحَلَّت بحُلَلٍ سُندُسيَّة من البساتين، وخلت من موضوع الحُسن بالمكان المكين...)[6]، وهي مدينة ليس لها نظير، في الرُّبع المسكون قرية بجامع لم ترَ مثله[7].

أُحيطت المدينة بسُور لحمايتها من الهجمات المُعادية، وقد قسمها هذا إلى قسمَيْن، خارج السُّور وداخله، وزُوِّد السُّور بأبراج للمُراقبة والرّصد، ومُعالجة الأعداء في حالة تهديدهم المدينة، فقد تعرَّض هذا السُّور إلى أعمال الصِّيانة لمرَّات عديدة، كان آخرها في عهد نُور الدِّين الذي اعتنى به عناية كبيرة، وأتمَّ ما كان ناقصاً منه، وأدخل فيه حارة اليهُود،

---

(1) فيليب حتّي، تاريخ سُوريا ولُبنان، ترجمة كمال اليازجي، (بَيْرُوت، 1959). 2/ أحمد رمضان المُجتمع الإسلامي، (القاهرة، 1977)، ص88.

(2) شمس الدِّين المقدسي، حُسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن، 1906)، ص126.

(3) أبي عبد الله مُحَمَّد شيخ الرّبوة، تُحفة الدّهر في عجائب البرِّ والبحر (بطرسبورغ، 1865)، ص193.

(4) إبراهيم بن مُحَمَّد الأصطخري، المسالك والممالك، تحقيق مُحَمَّد جابر عبد العال، دار العلم، (بَيْرُوت، ب، ت)، ص45.

(5) الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 463، عبد المُؤمن بن عبد الحقِّ البغدادي، مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي مُحَمَّد البجاوي (بَيْرُوت، 1954)، 2/ 543.

(6) الرّحلة، ص255.

(7) بدر الدِّين محمود، الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظّاهر، تحقيق هانس أرنست (المظهرة، 1962)، ص38.

وقوّى ما كان مُتهدّماً، ولم يجر أيُّ تعديل على تخطيطه من بعده، إلاَّ فيما يخصُّ ترميمه، لدوام الحاجة إليه[1].

للمدينة أبواب عدَّة[2] وهي الباب القبلي[3]، وباب كيسان[4]، وباب الشّرقي[5]، وباب تُوما[6]، وباب سلامة[7]، وباب الفراديس[8]، وباب الفرج[9]، وباب الجابية[10]. وقد أكَّد ابن جُبير أنَّ للمدينة ثمانية أبواب، فيها منارة، وربَّما قصد بذلك الأبراج التي في الأبواب[11]، وهذا ما أكَّده الرَّحَّالة ابن بطُّوطة، وفي ذلك يقول أحدهم:

دمشق في أوصافها جنَّة خُلد راضية

---

(1) صلاح الدِّين المُنجِّد، دمشق القديمة، دمشق، 1945، ص14 ـ 16.

(2) كانت للمدينة أربعة أبواب، ويتَّضح ذلك عند مُحاصرتها من قبَل الجيش الإسلامي سنة 14هـ/ 636م، فقد كان أبو عُبيدة بباب الجابية، وخالد بالباب الشَّرقي، وعَمْرو بن العاص بباب تُوما، ويزيد بالباب الصّغير (القبلي)، أحمد بن يحيى البلاذري، فُتُوح البلدان، تحقيق عبد الله أنس الطَّبَّاع وعُمر الطَّبَّاع، ط1، بَيْرُوت، 1987، ص165، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، 2/ 140، الطّبري، تاريخه، 3/ 441، انظر مُلحق رَقْم(4)، ص256.

(3) ويُعرف ـ أيضاً ـ بالباب الصّغير، وكذلك بالباب الشّاغور، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 22/ 185، وعبد القادر الرّيحاوي، خُطط مدينة دمشق، بحث منشور ضمن أعمال ندوة ابن عساكر، دمشق، 1979، ص99.

(4) وهُو الباب الذي أُقيمت عليه كنيسة بُولص فيما بعد، عبد القادر الرّيحاوي، خُطط، ص99.

(5) سُمِّي بهذا الاسم لوُقُوعه شرقي البلاد، ويتكوَّن من ثلاثة أبواب: باب كبير في الوسط، وبابان صغيران جانبَيْه، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق 2/ 1985، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص35، ويُضيف ابن جُبير: فيها منارة بيضاء يُقال إنَّ عيسى (عليه السّلام) ينزل فيها، الرّحلة، ص254.

(6) وهي تُنسب إلى عظيم من عُظماء الرُّوم اسمه تُوما، وكانت له ببابه كنيسة، جُعلت مسجداً فيما بعد، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 185.

(7) سُمِّيت بذلك تفاؤلاً؛ لأنَّه لا يتهيَّأ القتال على البلد إلاَّ من ناحيته، لما دُونه من الأنهار والأشجار، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 186.

(8) في الشّمال، وهي منسوبة إلى محلَّة خارج الباب تُسمَّى الفراديس، هي ـ الآن ـ خراب، والفراديس بلُغة الرُّوم تعني البساتين، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 186، كما وتُسمَّى باب العمارة، البلاذري، فُتُوح البُلدان، ص165.

(9) سمَّاها نُور الدِّين بهذا الاسم تفاؤلاً لما وجد فيها من التَّفريج بفتحه، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص36.

(10) وهي غربي البلد، منسوبة إلى قرية الجابية، وبهذا ثلاثة أبواب، أحدها كبير، وبابان صغيران، مثل الباب الشّرقي، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 187.

(11) الرّحلة، ص271، سنة 1955، راجع مُلحق أبواب المدينة رَقْم (4) ص256.

أمَــــا تـــــرى أبوابـــــها   قــــد جُعلـــــت ثمانيـــــة[1]

وهُناك أبواب أُخرى وهي باب الجنيق[2]، وباب الحديد[3]، وباب الجنان[4]، كما وتُوجد في السُّور أبواب صغيرة تُفتح عند وُجُود حاجة إليها[5]، وربَّما اختلاف المُؤرِّخين في عدد الأبواب يعود إلى غَلْق باب، وفَتْح آخر؛ تبعاً للحاجة، ولهذا؛ نجد كُلاً من ابن عساكر وابن شدَّاد، قد ذكر ثمانية أبواب، إضافة إلى ذكْر الثَّلاثة الباقية، فقد بيَّنا أنَّـها مُغلقة، وربَّما للمُدَّة التي نحنُ بصددها.

وقد صُمِّمت واجهات هذه الأبواب بشكل هندسي وعلمي، تدلُّ على مُستوى رُقيّ العمارة وفنِّ البناء، فقد وَصَفَهَا القَلْقَشَنْدي بقوله: (إنَّ بانيها جعل كُلَّ باب من هذه الأبواب لكوكب من الكواكب السّبعة، وصوَّر عليه صُورتـه)[6]، ولهذه الأبواب أهمِّيَّة عند النَّاس لعلاقاتها ببعض التّقاليد والأعياد وغيرها، فقد أورد ابن عساكر؛ إذْ يقول: (إنَّ كيسان لزُحل، باب الشَّرقي للشَّمس، باب تُوما للزُّهرة، باب الصّغير للمُشتري، وباب الجابية لزُحل، باب الفراديس لعُطارد)[7]، وهذا الجانب يُؤكِّد معرفة أهل دمشق بالفَلَك والأجرام السَّماويَّة، وما يتَّصل بالأبراج وقراءة المُستقبل.

كما دُعِّم السُّور بخندق لأغراض تعبويَّة؛ حيثُ يُسهم بحماية المدينة، ويدفع عنها مخاطر الأعداء؛ لأنَّه كان مغموراً بالمياه، وهُو يدور حول السُّور الذي يصفه القَلْقَشَنْدي

---

(1) مُحَمَّد بن إبراهيم بن بطُّوطة، رحلة ابن بطُّوطة، بَيْرُوت، 1964، ص97.

(2) ويقع في الشّمال، وهُو منسوب إلى محلَّة الجنيق، وهي محلَّة كبيرة، وهُو ـ الآن ـ مسدود، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 186، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص35، ويُعتقد أنْ تكون بين باب تُوما وباب السّلامة.

(3) وهُو خاصٌ بالقلعة، وسُمِّي بذلك لأنَّ كُلَّه حديد، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 186، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص16.

(4) وهُو غربي البلد، سُمِّيت بالجنان، وهي البساتين، وكان مسدوداً، ثُمَّ فُتح، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 186، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص36.

(5) وهي باب عند حارة الخطب، وتُعرف بباب ابن إسماعيل، وكذلك باب في المربعة، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 187، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص36.

(6) أحمد بن علي القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى وصناعة الإنشا، القاهرة، 1914، 4/ 92.

(7) تاريخ مدينة دمشق، 1/ 15، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 92.

بقوله: (وهي مدينة عظيمة البناء ذات سُور شاهق... يُحيط بها خندق، يطوف الماء منه بالقلعة، إذا دعت الحاجة إليه أُطلق على جميع الخندق المُحيط بالمدينة، فيعمّها)[1].

أمَّا القلعة[2]؛ فهي من أشهر أبنية دمشق ومُنشآتها العسكريَّة، فقد ذكر ابن كثير أنَّ أتشز ابن أوف، أوَّل مَنْ بنى القلعة بعد سيطرته على دمشق، وانتزاعها من الفاطميِّين[3]، وقد أُكملت في عهد تاج الدَّولة تتش[4]، على الزَّاوية الشَّماليَّة الغربيَّة من السُّور، وهي على شكل مُستطيل بأبعاد (220م × 160م)، لها مدخلان، وتضمُّ ثلاثة عشر بُرجاً، أحدها بُرج الحمام، يأوي إليه الحمام الزّاجل، وكان في القلعة قصر السُّلطان[5] الرَّسميّ، ومن حوله دوائر الحُكُومة، وكذلك منزله الخاصّ، وما يتعلَّق به من مرافق، وفيها رُدهة العرش، أو الإيوان، فضلاً على المُنشآت العسكريَّة المعروفة، كما اشتملت على سُوقها الخاصّ وحمَّاماتها ومسجدها لصلاة الجمعة والمُناسبات الدِّينيَّة الأُخرى[6].

وممَّا زاد من جمال المدينة الغُوطة التي تُحيط بالمدينة في جوانبها الأربعة، وهي عبارة عن مساحة واسعة من البساتين والمزارع[7]، ساعد على قيام عدد من القُرى كان تعدادها في عهد الملك المُعظَّم مائة وسبعين قرية عامرة، منها أربع وثلاثون قرية سُلطانيَّة[8]، وسائرها أملاك لأهلها[9]، ويظهر أنَّ قُرى الغُوطة تشمل على مناطق واسعة، وقد رُوي

---

(1) صُبح الأعشى، 4/ 92 ـ 93.

(2) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص37.

(3) أبو الفداء بن كثير، البداية والنّهاية، تحيق مُحَمَّد أبو مُلحم وآخرون، ط2، بَيْرُوت، 1987، 12/ 122.

(4) وهُو تاج الدَّولة أبو سعيد بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقَّاق السّلجوقي، تُوفِّي سنة 488هـ/ ، شمس الدِّين أحمد بن خلكان، وفيَّات الأعيان، تحقيق مُحَمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، ط1، 1948، 1/ 264.

(5) بنى نُور الدِّين زنكي دار المسرَّة، وهي في غاية الحُسن، وأنشأ إلى جوارها حمَّاماً، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص38.

(6) صفوح خيِّر، مدينة دمشق، ص165 ـ 166.

(7) تشمل الغُوطة على خمسة آلاف بُستان، وثلاثمائة وخمسة وأربعين بُستاناً، وعلى خمسة وخمسين كرماً، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص13.

(8) ويُطلق عليه ـ الآن ـ الأميريَّة، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص20.

(9) مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص19.

عن الرَّسول ﷺ، يقول (يوم الملحمة الكُبرى فسطاط المُسلمين بأرض يُقال لها الغُوطة، مدينة يُقال لها دمشق، خير منازل المُسلمين يومئذ)[1]، وقد تغنَّى بها الشُّعراء، فوصفها أحدهم:

سقى الله أرض الغُوطتَيْن وأهلها	فلي بجنوب الغُوطتَيْن شُجُون
وما ذُقتُ طعمَ الماء إلاَّ استخفَّني	إلى بردى والنَّيرَبَيْن حنينُ
وقد كان شكّي من الفُراق يرد عني	فكيف أكون اليوم وهُو يقينُ؟
فوالله ما فارقتُكُم قالياً لكم	ولكنْ؛ ما يقضي فسوف يكونُ[2]

وتغنَّى آخر بجمالها؛ إذْ يقول:

دمشق في شوق إليها مدح	وإنْ لجَّ واشٍ أو ألحَّ عذولُ
بلاد بها الحصباء دُرٌّ وتربها	عبيرٌ وأنفاس الشّمال شُمُولُ
تسلسل فيها ماؤها وهُو مُطلق	وصحَّ نسيم الرّوضِ وهُو عليلُ[3]

ووَصَفَهَا شاعر آخر بقوله:

صَفَتْ دُنيا دمشق لقاطنيها	فلستَ ترى بغير دمشق دُنيا
تفيض جداول البلّور فيها	خلال حدائق ينبتن وشيا
مُكلَّلة فواكههنَّ أبهى	المناظر في مناظرنا وأهيا
فمن تفاحة لم تعد حداً	ومن أترجه لم تعد ثديا[4]

---

(1) الرَّبعي، فضائل الشَّام، دمشق، 1950، ص27.

(2) الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 467، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص9.

(3) عبد الله بن أبيل الدّاوداري، كُنز الدُّرر وجامع الغُرر، تحقيق سعيد عبد الفتَّاح عاشور، القاهرة، 1962، 2/ 395.

(4) الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 467.

ـ سطح المدينة:

يُوصف سطح دمشق بأرض مُستوية تُحيطها الجبال، وتكثر فيه المياه والأشجار والمزروعات[1]، فضلاً على خُصُوبتها، وفي الهضبة الواقعة شرقي جبل حرمون، في لُبنان وجنوبي دمشق، تبدو آثار البراكين الخامدة[2]... ويُفسَّر ازدهار الزِّراعة في منطقة دمشق بسبب خُصُوبة الأرض ووفرة المياه، الأمر الذي وفَّر لسُكَّانها حياة اقتصاديَّة نشطة، فيما تحوَّلت بعض جهاتها إلى مُنتزهات عامَّة، كانت أماكن يقصدها سُكَّان دمشق للاستمتاع بها، وخاصَّة يوم السّبت[3].

وتعتمد المدينة بمياهها على نهر بردى الذي ينبع من مُرتفعات الزّبداني في جبل لُبنان الشَّرقي، ومن منطقة تُعرَف بالفيجة، ثُمَّ يتَّجه شرقاً ليسقي قسماً كبيراً من الأراضي، ويروي بساتينها ودُورها[4].

ثُمَّ يتفرَّع بعدها إلى فُرُوع عدَّة تمرُّ بدمشق[5]، وقد وصفه أبو الفداء بقوله: (أنهر دمشق من الكنيسة يُقال لها الفيجة، وهُو أوَّل ما يخرج مقدار ارتفاع ذراع من عرضه، يجري في شُعب يتفجَّر منه العيُون، ثُمَّ يجتمع مع النّهر يُقال له بردى، ويُستخرج من ذلك سائر أنهر دمشق)[6].

---

(1) أبو الحسن بن حوقل، صُورة الأرض، بَيْرُوت، 1956، ص160، الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 465.

(2) أحمد رمضان، المُجتمع الإسلامي، ص70.

(3) ابن أبي أُصيبعة، عيُون الأنباء في طبقات الأطبَّاء، تحقيق نزار رضا، بَيْرُوت، ب، ت، ص674، حبيب زيات، أيَّام السّبوت عند العبَّاسيِّين، مجلَّة المشرق، م1، لسنة 1931، ص45.

(4) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص182، أحمد رمضان، المُجتمع ص17.

(5) وهي سبعة فُرُوع، مجرى الوادي، وهي بردى، والسّتَّة المقسومة منه، وهي نهر داريًّا، ودُونه نهر القنوات، ودُونه نهر بانياس، وعلى يسرة بردى في الجانب الشّرقي الآخذ شمالاً إلى الأعلى نهر يزيد، ودُونه نهر تُورا، ابن فضل الله العُمري مسالك الأبصار، ص184 ـ 186، أبو العبَّاس أحمد المقريزي، السُّلُوك لمعرفة دُول المُلُوك، تحقيق مُحَمَّد مُصطفى زيادة، ط1، القاهرة، 1956، 1/ 230، كما وينقل أبو شامة قصيدة طويلة يمدح دمشق ومحاسنها، ويستعرض خلالها الأنهار السّبعة، أبو مُحَمَّد بن عبد الرّحمن أبو شامة، الرّوضتَيْن في تاريخ الدّولتَيْن، تحقيق مُحَمَّد حلمي مُحَمَّد أحمد، القاهرة، 1962، 1/ 627 ـ 630.

(6) عماد الدِّين إسماعيل أبو الفداء، تقويم البُلدان، باريس 189، ص230 ـ 231.

وتقع المدينة على حافَّة الصَّحراء العربيَّة الشّماليَّة، ويلعب الحاجز المُزدوج (جبال لُبنان وجبال لُبنان الشَّرقيَّة)، دوره في حمايتها من ناحية الشّمال، ومن أشهر هذه المُرتفعات جبل حرمون وجبل قاسيون، ومن الجنوب يحميها الجبل الأسود وجبل المانع، ولكنَّها مكشوفة من الشّرق[1].

أمَّا مناخها؛ فقد وُصف بأنَّه مُلائم للصّحَّة؛ إذْ تسود المدينة الرِّياح الشَّرقيَّة، وإنْ كانت تهبُّ عليها - أيضاً - رياح غربيَّة تجلب الثّلج والمطر، كما تهبُّ عليها في الرّبيع رياح الخماسين من وقت لآخر.

وتتفاوت فيها درجات الحرارة بين ستٍّ درجات مئويَّة في مُنتصف كانون الثَّاني، وستٍّ وعشرين درجة في مُنتصف حُزيران، ولكنْ؛ في الغالب، تتمتَّع المنطقة بمُناخ أكثر اعتدالاً من المناطق الشَّرقيَّة المُجاورة؛ حيثُ يزداد المدى الحراري في اللّيل والنّهار والصّيف والشّتاء[2] في تلك البقاء.

وقد أسهم نهر بردى في زيادة جماليَّة المدينة من خلال الغُوطة المشهورة المُمتدَّة من جبال لُبنان إلى إقليم قليل المطر، قبل أنْ تفيض مياهها أبعد من ذلك غرباً من بطائح عتيبة، وهذه الواحة الرّائعة تُعَدُّ - بحقٍّ - روضة من الرّياض؛ إذْ صارت مركزاً حضاريّاً وتجاريّاً، وذلك لخُصُوبة تُربتها من جهة، ولوُقُوعها على الطَّريق المُمتدِّ من الشّمال إلى الجنوب، مُخترقاً الأراضي الدّاخليَّة[3]؛ إذْ (تشمل هذه الغُوطة على خمسة آلاف بُستان، وثلاثمائة وخمسة وأربعين بُستاناً، وعلى خمسمائة وخمسين كرماً)[4]، وقد ذكر ياقوت الحموي[5] جنَّات الدُّنيا ثلاث[6]، غُوطة دمشق، ونهر بلخ، ونهر الأبلة، ودمشق - بهذا الموقع - احتلَّت مكانة مُهمَّة في حركة التِّجارة بين بلاد العرب وسواحل البحر المُتوسِّط.

---

(1) هارتمان، مادَّة دمشق، دائرة المعارف الإسلاميَّة، 9/ 265.
(2) هارتمان، مادَّة دمشق، دائرة المعارف، 9/ 265.
(3) ويذكر بنيامين أنَّ نهر أبانة كان يجري داخل المدينة، ويُوزِّع ماءه على البُيُوت الخاصَّة، بقناطر تمرُّ بالأسواق والأزقَّة، وأبانة هُو بردى كما جاء في التّوراة، رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حدَّاد، ط1، بغداد، 1945، ص115.
(4) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص13، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص19. عفيف بهنسي، الشَّام، ص104، هارتمان، مادَّة دمشق، دائرة المعارف الإسلاميَّة، 9/ 265.
(5) مُعجم البُلدان، 4/ 264.
(6) وقيل جنَّات الدُّنيا أربع: غُوطة دمشق، وصفد سمرقند، وشعب بوان، وجزيرة الأبلة، الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 264.

ثانياً: الاستقراء التّاريخي:

ظهرت في هذه المرحلة من التَّاريخ الإسلامي إمارات أثَّرت ـ بشكل مُباشر ـ على الحياة السِّياسيَّة العامَّة لمدينة دمشق؛ إذْ استطاعت هذه الإمارات أنْ تُحقِّق استقلال البلاد، بعد طَرْد الغُزاة من المشرق والمغرب على السّواء، وأنْ تُقيم أنظمة حُكم إسلاميَّة مُهمَّة، ومن هذه الإمارات على وجه الإيجاز:

1 ـ الفاطميُّون[1] (359 ـ 468/ 969 ـ 975م):

كانت دمشق تحت حُكم الفاطميِّيْن مُنذُ عام 359هـ/ 969م، وذلك عندما استطاع جعفر بن فلاح[2] من دُخُولها بعد مُقاومة عنيفة، وأقام الخُطبة للخليفة الفاطمي، وقُطعت الخُطبة عن الخُلفاء العبَّاسيِّيْن[3]، ولكنَّ سيطرة الفاطميِّيْن على دمشق ظلَّت غير مُستقرَّة[4]، فقد كانت مُدَّة حُكم الوُلاة في دمشق ليست بطويلة، وأثَّر ذلك في المفاسد الحُكُوميَّة وسوء الإدارة، ومع هذا فقد قام هؤلاء الوُلاة بترميم السُّور والاهتمام بالزّراعة، ممَّا أدَّى إلى ظُهُور عدد من الضّواحي الزِّراعيَّة خارج السُّور[5]، ولكنَّ الاضطرابات السِّياسيَّة وغلاء

---

(1) هُناك دراسة مُهمَّة عُنوانها (تاريخ مدينة دمشق خلال الحُكْم الفاطمي) للدُكتُور مُحمَّد حُسين محاسنة، دارالأوائل، ط1، 2001؛ فلتُراجَع لمَنْ أراد الاستزادة.

(2) أبو علي جعفر بن فلاح الكناني، أحد قُوَّاد المُعزّ أبي نعيم الفاطمي، صاحب أفريقيا، استطاع دُخُول دمشق سنة 359هـ، وظلَّ حتَّى سنة 360هـ، حين وفد الحسن القرمطي في المدينة، واستطاع الدِّفاع عنها إلى أنْ قُتل، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 1/ 312.

(3) أبو العبَّاس المقريزي، اتِّعاظ الحُنفا في أخبار الأئمَّة الفاطميِّيْن الخُلفا، تحقيق جمال الدِّين الشَّيَّال، القاهرة 1948، ص175، ابن كثير، البداية والنِّهاية، 11/ 285.

(4) خضعت دمشق إلى القرامطة سنة 360هـ، وذلك حين دخلها الحسن القرمطي بعد معركة الدكَّة قُرب دمشق، ولكنَّ الفاطميِّيْن تمكَّنوا من استردادها سنة 362هـ، ثُمَّ كانت حركة التّكتكين التُّركي (363 ـ 367هـ)، والذي زال كما زال نُفُوذ القرامطة؛ إذْ استطاع الفاطميُّون من استعادة دمشق من حوزتهم، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص1 ـ 20. عبد الرّحمن بن خلدون، العبَر، دار الكتاب العربي، 1958، 4/ 536، المقريزي، اتِّعاظ الحنفا، ص176، خاشع المعاضيدي، الحياة السِّياسيَّة في بلاد الشَّام، ط1، بغداد، 1976، ص35، وما بعدها.

(5) سُوفاجيه، دمشق الشَّام، ص32، **صفوح خيِّر**، دمشق، ص156.

وقلّة الأقوات، وآخرها ما حدث سنة 468هـ/ 1075م، من انتشار المجاعة والحاجة إلى الغذاء[1].

كُلُّ هذا سَهَّل مُهمَّة السّلاجقة الذين تمكّنوا من السَّيطرة على دمشق سنة 468هـ/ 1075م، حين استطاع أتشز التّركماني[2] دُخُول المدينة بعد حصارها[3]، وقد ساعد على ذلك انتفاء الغذاء والحاجة إليه، ممّا اضطرَّ أهلها إلى تسليمها[4] تحت هذه الحالة، فأعاد السّلاجقة الخطبة للخليفة العبَّاسي القادر بالله، وقُطعت الخُطبة عن الخليفة المُنتصر بالله الفاطمي[5].

2 ـ السّلاجقة (468 ـ 541هـ/ 1075 ـ 1146م):

وبعث أتشز التّركماني إلى الخليفة في بغداد يُبلغه باستسلام دمشق له من جهة، وارتفاع الأسعار وقلّة الأقوات من جهة أُخرى، ممّا حمّله على إطلاق الغلاَّت الزِّراعيَّة لفلاَّحي المرج والغُوطة من أعمالها، فأدَّى ذلك إلى تحسين حال أهلها، كما أبلغ أتشز الخليفة أنَّه حذف من الآذان بدمشق جُملة (حيَّ على خير العمل)، بعد أنْ كان يُؤذَّن بها على منابر دمشق وسائر الشَّام في الفترة الفاطميَّة، ولعلَّ فعل السّلاجقة هذا يدلُّ على مُوافقتهم للخلافة العباسيَّة في سياستها، ولاسيَّما في الجوانب المذهبيَّة المُباينة للخلافة الفاطميَّة بمصر.

استقرَّ الأمر لأتشز في دمشق وبلاد الشَّام، وخشي أنْ يعود الفاطميُّون إلى مُهاجمته، فجهَّز حملة من العرب والتُّركمان والتُّرك، وسار إلى مصر، وذلك سنة 469/ 1076م، لكنّه فشل في مسعاه فشلاً ذريعاً، حرَّك على أثره المُدُن الرّئيسة في بلاد الشَّام بإعلان ولائها للخلافة الفاطميَّة، وممَّا زاد الأمر خُطُورة أنْ أرسل الخليفة الفاطمي جيشاً لحصار دمشق بقيادة

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص108 ـ 106.

(2) الأقسيس أتشز بن أوف، ويُلقَّب بالملك المُعظَّم، وهُو أوّل مَنْ استعاد دمشق من أيدي الفاطميّين، ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 120 ـ 122.

(3) حُوصرت دمشق سنة 468هـ، في عهد المُعلَّى بن حيدرة نائب دمشق من قَبَل الفاطميّين، علي بن كرم بن الأثير، الكامل في التّاريخ، بَيْرُوت، 1978، 8/ 122.

(4) ثار أهل دمشق، وطردوا عامل الفاطميّين المُعلَّى بن حيدرة، وولُّوا عليه انتصار بن يحيى المصمودي، المعروف برزين الدَّولة الذي لم يستطع إدارة البلد، ممّا أدَّى إلى غلاء الأسعار، وقلَّة الأقوات، إضافة إلى حصار المدينة من قَبَل أتشز، ابن الأثير، الكامل، 8/ 122.

(5) ابن الأثير، الكامل، 8/ 122، ابن كثير، البداية و النّهاية، 12/ 120، خاشع المعاضيدي، الحياة السّياسيَّة، ص90.

نصر الدَّولة الجُيُوشي، كُلُّ هذا دعا أتشز التُّركماني إلى مُراسلة تتش[1]، الذي لبَّى دعوته، وتوجَّه إلى دمشق، وعلى أثر ذلك؛ عاد نصر الدَّولة بجيشه، وتوجَّه إلى السَّاحل[2].

ولَمَّا وصل تتش إلى دمشق، خرج أتشز لاستقباله، وأعلن طاعته له، ولكنَّ تتش قَتَلَهُ لأسباب خاصَّة بينهما سنة 472هـ/ 1079م[3].

حَكَمَ تتش (471 ـ 487هـ/ 1079 ـ 1094م)؛ إذْ (أحسن السِّيرة بأهلها، وعدل فيهم)[4]، وتوسَّعت مملكته كثيراً، حتَّى شملت دمشق وفلسطين، وصار كُلٌّ من أقستقر[5] صاحب حلب، وبُوران[6] صاحب الرّها، تحت خدمته، ولَمَّا سعى هؤلاء للاستيلاء على حمص تحت حُكم بني مُلاعب وطرابلس، التي كانت تحت حُكم جلال الملك بن عمَّار، وضمِّها إلى مملكة تتش، فشلا في تحقيق ذلك[7].

استقبل تتش موت ملكشاه[8]، فاستولى على هيت سنة 486/ 1093، (وعاد إلى دمشق يتجهَّز لطلب السَّلطنة)[9]، وبعد أنْ جَمَعَ العسكر، طلب من أقستقر الاستسلام له، فأجابه؛ لأنَّه لم يجرؤ على مُعارضته، ولا سيَّما بعد أنْ دبَّ الخلاف بين أولاد صاحبه ملكشاه، وعلم أنَّه لا طاقة له على مُعارضته، فصالحه، وصار معه، وليس هذا فحسب، بل أرسل إلى بوران صاحب الرّها وحرَّان وباغي سيان، صاحب أنطاكية، يُشير عليهما

---

(1) هُو تاج الدَّولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 1/ 264.

(2) ابن الأثير، الكامل، 8/ 126.

(3) قُتل أتشز لأُمُور واهية، وهي أنَّه لم يَعد كثيراً في تلقِّيه، وعاتبه على ذلك، فاعتذر بأُمُور لم يقبلها، فقبض عليه في الحال، وقَتَلَهُ، ابن الأثير، الكامل 8/ 126، ابن ميسر، أخبار مصر، ص26.

(4) ابن الأثير، الكامل، 8/ 126.

(5) أبو سعيد أقستقر بن عبد الله، المُلقَّب قسيم الدَّولة، ت487هـ، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 1/ 217 ـ 218.

(6) وهُو مملوك السُّلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 1/ 218.

(7) فشل تتش في توحيد جُهُود مَنْ معه، فقد انفضَّ عنه أصحابه بحيلة دبَّرها له ابن عمَّار، صاحب طرابلس الذي بعث إلى أقستقر بالهدايا والتُّحف، وعرض عليه المناشير التي بيده من السُّلطان بالبلد، والتَّقدُّم إلى النُّوَّاب بتلك البلاد بمُساعدته والشَّدِّ معه والتّحذير من مُحاربته، فقال أقستقر: لا أُتابعك من معصية السُّلطان، فرحل على أثرها مع ابن عمَّار، وتركوا تتش، فرجع عن ذلك، ابن الأثير، الكامل، 8/ 160.

(8) أبو الفتح بن ألب أرسلان مُحَمَّد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، المُلقَّب جلال الدِّين، 485هـ، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 4/ 370 ـ 375.

(9) ابن الأثير، الكامل، 8/ 166.

بطاعته، حتَّى يروا ما كان بأولاد ملكشاه[1]، وبعدها؛ سار تتش بالقوى الثَّلاث مُتوجِّهاً إلى فارس؛ للحُصُول على السَّلطنة.

وفي طريقه استولى على الرّحبة[2]، ثُمَّ صار إلى نصيبين[3]، ففتحها سنة 486/ 1093م، كما عزل صاحب الموصل، وبذلك أنهى إمارة بني عقيل[4]، كما استولى على ميافارقين من حُكَّامها بني مروان[5]، ولكنَّ خُطَّته تغيَّرت حين قرَّر الرُّجُوع إلى مكانه، بعد أنْ تركه كُلٌّ من صاحب حلب والرّها[6].

وكَرَدٍّ فعل على ذلك؛ حاصر تتشُ حلبَ (487هـ/ 1094م)، واستطاع من دُخُولها، وضمَّها إلى إمارته التي لم ينعم بها طويلاً؛ إذْ تُوفِّي في السَّنة نفسها[7].

ترك تتش ولدَيْن؛ أحدهما فخر المُلُوك رضوان، وشمس المُلُوك دقَّاق، والتي صارت دمشق من حصَّته (489 ـ 498هـ/ 1095 ـ 1104م)، ولكنَّه لم يتمتَّع بمقدرة سياسيَّة تُؤهِّله لمُواجهة الأوضاع القلقة التي عاشتها المنطقة في نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وكنتيجة للظُّرُوف؛ ظهرت بعض البُيُوتات الحاكمة التي يُطلق عليها (الأتابكيَّات)[8]، والتي زاولت نشاطها بعد وفاة دقَّاق سنة 498هـ/ 1104م)؛ إذْ ترك طفلاً صغيراً لم يستطع أنْ يقوم بمهمَّات الحُكْم.

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 8/ 166 ـ 167.

(2) الرّحبة قرية من قُرى دمشق، وقيل في الطَّريق إلى دمشق، الحموي، مُعجم البُلدان، 3/ 33 ـ 34.

(3) نصيبين مدينة عامرة في بلاد الجزيرة على جادَّة القوفل من الموصل إلى الشَّام الحموي، مُعجم البُلدان، 5/ 288.

(4) عُزل حاكمها الأخير إبراهيم مرعش العقيلي، انظر خاشع المعاضيدي، دولة بني عقيل في الموصل، بغداد، 1968، ص137.

(5) أبو المُظفَّر منصور (413 ـ 486)(آخر حُكَّام بني مروان، انظر زمباور، مُعجم الأنساب والأُسر الحاكمة، ترجمة السَّيِّدة كاشف وآخرون، بَيْرُوت، 1980، ص207.

(6) عُمر بن العديم، زبدة الطَّلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدَّهَّان، دمشق 1968، 1/ 109 ـ 110.

(7) توجَّه تتش إلى الرّي، واستولى عليها سنة 488هـ عليها، فخُطب له على المنابر في الشَّام وبغداد، وعندها خرج بركيا روق من أصبهان لمُحاربته؛ إذْ دارت معركة انتهت بهزيمة تتش، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص27، ص132، ابن الأثير، الكامل، 8/ 176.

(8) الأتابك لفظ تُركي مُكوَّن من مقطعَيْن أتا: ومعناه أب، وبيك: ومعناه أمير، وكان يُطلق على مُربِّي أولاد السّلاجقة من الأتراك، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان 1/ 316، وصار هؤلاء الأتابك يحكمون البلاد، وهي إما أتابكيَّة صغيرة أو أتابكيَّة كبيرة حسب تسلُّطهم، عاشور، العلاقات بين الشّرق والغرب، بَيْرُوت، 1972، ص72.

استطاع طغتكين[1] أنْ يُؤسِّس أتابكيَّة دمشق؛ إذْ حكم خمساً وعشرين سنة (497 ـ 522هـ/ 1104 ـ 1128م)، والتي تحسَّنت في عهده الحال على حدِّ قول ابن القلانسي (وحسنتْ أحوال دمشق وأعمالها بأيالته، وعُمِّرت بجميل سياسته، واتَّفق أنَّ الأسعار رخصتْ، والغلاَّت ظهرتْ، وانبسطتْ الرّعيَّة في عمارة الأملاك في باطن دمشق وظاهرها، لإحسان سيرته، وإجمال مُعاملته، وبذل العدل فيهم...)[2]، وفي عهده؛ أتى الإفرنج من جهة فلسطين، وذلك سنة 520هـ/ 1126م، وحملوا على دمشق، ونزلوا في المرج الصّغير عند قرية سفحيا[3]، فراسل طغتكين على أثر ذلك للتُّركمان في ديار بكر وغيرها، وانتهت الحال بنُزُوح الإفرنج[4]، عن المدينة بعد عقد مُعاهدة بين دمشق ومملكة بيت المَقْدس سنة 502هـ/ 1108م، والتي حقَّق الإفرنج بها منافع تجاريَّة[5]، وتسبَّبت في خسارة طغتكين لبعض المناطق ذات المردود الاقتصادي، وتُوفِّي طغتكين سنة 522هـ/ 1128م، تاركاً ابنه تاج المُلُوك بُوري وليّاً للعهد[6].

استلم تاج المُلُوك بُوري[7] (522 ـ 525هـ / 1128 ـ 1130م)، منصبه، وبادر إلى استيزار طاهر المرزباني[8]؛ إذْ كان نافذ الكلمة عند الرّعيَّة، وصادف أنْ أتى داعيَّة من الباطنيَّة قادم

---

(1) ظهير الدِّين أبو منصور طغتكين بن عبد الله بن أتابك صاحب الشَّام، مملوك تاج الدَّولة تتش بن ألب أرسلان السّلجوقي، تُوفِّي سنة 522هـ/ ابن تغرى بردى، النُّجُوم الزَّاهرة في مُلُوك مصر والقاهرة، المُؤسَّسة المصريَّة للطّباعة ب. ت 5/ 524 عبد الحميد العبَّادي، قيام دولة المماليك في مصر والشَّام، بَيْرُوت، 1969، ص77.

(2) ذيل تاريخ دمشق، ص145.

(3) وهي إحدى قُرى مرج الصّفر إحدى نواحي دمشق، ابن الأثير، الكامل 8/ 322.

(4) ابن الأثير، الكامل، 8/ 322.

(5) ستيفين رنسيمان، تاريخ الحُرُوب الصّليبيَّة، ترجمة السَّيِّد الباز العريني، بَيْرُوت، 1967، 2/ 159، مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، دمشق، 1928، ص395.

Belloc, The Crusader the world debet, London, 1937, p.218.

(6) تَرَكَ طغتكين ابنه تاج المُلُوك في دمشق، وذلك عند خُرُوجه للقاء الإفرنج، والذين استطاع الانتصار عليهم بمُعاونة التُّركمان، ابن الأثير، الكامل، 8/ 322.

(7) هُو تاج المُلُوك بُوري بن طغتكين، واستطاع أنْ يضمَّ مناطق كثيرة، تُوفِّي سنة 525هـ، مُوسى بن مُحَمَّد اليونيني، ذيل مرآة الزّمان، ط1، الهند، 1954، 3/ 251 ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 218.

(8) وهُو الوزير أبو علي ظاهر بن سعد المرزباني وزير طفتكين، ومن ثمَّ ابنه بُوري، وكان نافذ الكلمة على الرّعيَّة، ابن القلانسي، ذيل، ص220، نُعمان قساطلي، الرّوضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء، ط2، دار الرّائد العربي، 1982، ص46.

من بغداد يُدعى (بهرام) الـذي دعـا النَّـاس إلـى مذهبـه، وأعانـه الوزيـر، فتبعـه خَلْـق كثيـر، وأعطاه بانياس، فعظم الأمر لبهرام، لدرجة أنَّه راسل الإفرنج على تسـليم دمشـق مُقـابل أنْ يُسلِّموا صُوراً، وعلى أثر ذلك؛ زحفت الإفرنج لحصار المدينة[1]، ولكنَّ بُوري علم بالأمر، فأمر بقَتْل الإسماعيليَّة في دمشق، وكذلك قتـل وزيره طاهر، وهكـذا وجـد الإفرنـج، لَمَّـا وصلوا، أنَّ الظُّرُوف قد تبدَّلت، فحـاصروا المدينـة لُمدَّة، ثُـمَّ تركوهـا، ورحلـوا، وفـي سـنة (525هـ/ 1131م)، وثب أحد الباطنيَّة علـى بُـوري، فجرحـه انتقامـاً، فضعـف جسـمه مُتـأثِّراً بذلك، ومات سنة 526هـ/ 1132م)[2].

تولَّى الحُكْم من بعده شمس المُلُوك إسماعيل (525ـ 529هـ/ 1131ـ 1135م) بوصيَّة من والده[3]، واستطاع خلال مُدَّة حُكمه من القيـام بأعمـال بنـاء وتحريـر الأراضـي المُجـاورة؛ إذْ استطاع من ضمِّ بعلبك وحصنَـيْ اللَّبـوة وشـيزر والشّـقيف[4]، إلـى أنْ تـهاون مـع الإفرنـج، فرجع إلى دمشق، وكان إسماعيل ظالماً، فقد حاول قَتْـل أُمِّـه[5]، فلمَّـا علمـتْ بـه قَتَلَتْـهُ؛ إذْ (قُتل في حضرتها، وأقامت أخاه محمود مقامه)[6]، وذلك سنة 529هـ/ 1135م.

تولَّى شهاب الدِّين محمود (529ـ 533هـ/ 1135ـ 1139م)، الحُكْم بوصيَّة من والدتـه، وفي عهده؛ حاصر عماد الدِّين زنكي[7] دمشق، ولكنَّـه صـالح أهلـها، ورجـع إلـى حلـب،

---

(1) زحف الإفرنج لحصار دمشق، وذلك سنة 523هـ/ 1228م، ولكنَّهم انسـحبوا بعـد أنْ وجـدوا خـلاف مـا اتَّفقـوا عليه، ابن الأثير، الكامل، 8/ 328ـ 329.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص229ـ 230.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص234ـ 235.

(4) كانت هذه المناطق تابعة إلى تاج المُلُوك، باعتبارها مُستحفظ يحفظه، فلمَّـا مَلَـكَ شـمس المُلُـوك، بَلَغَـهُ أنَّ أخـاه مُحَمَّد صاحب بعلبك قد راسلهما مثلـه، ولَمَّـا طلـب منه تسـليمها، رفـض، فسـار، وسـيطر عليـهما، ابـن الأثـير الكامل، 8/ 338، 342.

(5) قام شمس المُلُوك بخيانة بلاده بالتَّعاون مع العدوِّ، فضلاً على أعماله الأُخرى التي روَّجت قَتْلَهُ، بدر الدِّين ابـن قاضي شهبة، الكواكب الدُّرِّيَّـة فـي السِّيرة النُّوريَّـة، تحقيـق محمـود زايـد، ط1، بَيْرُوت، 1971، ص130، أمـين الرِّيحاني، التَّكلُّبات، ط2، بَيْرُوت، 1948، ص86.

(6) علي بـن الحُسـين بـن عسـاكر، تـاريخ مدينـة دمشـق، مخطـوط بمكتبـة أمير المُؤمنـين(ع) النَّجف، تحـت رَقْـم 108/ 175، ج 65، ورقة 119، ابن الأثير، الكامل 8/ 346.

(7) وهُو عماد الدِّين بن سنتر بن عبد الله آل ترعـان، ابـن خلكـان، وفيَّـات الأعيـان، 1/ 217ـ 218، عمـاد الدِّيـن خليل، عماد الدِّين زنكي، الموصل 1985، ص31، وبعدها.

غير أنَّ شهاب الدِّين تعرَّض إلى عمليَّة اغتيال من ثلاثة غُلمان، فقتلوه بفراشه في القلعة، وأتوا بأخيه جمال الدِّين صاحب بعلبك مكانه[1]، ولكنَّ جمال الدِّين مرض، وتُوفِّي أثناء حصار المدينة سنة 533هـ/ 1339م)[2].

وكان القائم بشُؤُون المدينة مُعين الدِّين أتشز[3]، فقام بإحضار مُجيبر الدِّين[4] بن مُحمَّد بُوري، ووَضَعَهُ مكان أبيه، ومكَّنَهُ من الوُصُول إلى الحُكْم، ولهذا؛ نجد مُجيبر الدِّين يُعطي مُعين الدِّين بعلبك[5] مُكافأة له، ومع هذا؛ نهض مُعين الدِّين بتدبُّر أُمُور دمشق، بالرَّغم من تعرُّضها لحصار الإفرنج سنة 542هـ/ 1147م، ونتيجة لهذه الظُّرُوف؛ راسل سيف الدَّولة غازي[6] صاحب الموصل، الذي بادر إلى إرسال قُوَّة كبيرة استطاعت أنْ تُلحق الهزيمة بالإفرنج[7]، وتُوفِّي في هذه المُدَّة مُعين الدِّين، وحزن النَّاس على فُراقه[8].

إنَّ الفراغ الذي تركه مُعين الدِّين في دمشق أدَّى إلى تدخُّل الإفرنج المُستمرِّ في شُؤُون المدينة، ولهذا؛ نجد مُجيبر الدِّين يستنجد بهم ضدَّ نور الدِّين، الذي حاصر المدينة سنة 549هـ/ 1154م[9]؛ لأنَّه وجد بسيطرة نُور الدِّين زوال حُكْمه، ولكنَّ وُقُوف جماعة الأحداث[10] إلى جانب نُور الدِّين سهَّل له الاستيلاء على مدينة دمشق سنة 549/ 1154م[11].

---

(1) ابن القلانسي، ذيل، ص268 ـ 269، ابن الأثير، الكامل، 8/ 364.

(2) ابن الأثير، الباهر في تاريخ الدَّولة الأتابكيَّة، تحقيق عبد القادر طليمات، مصر، 1963، ص58.

(3) هُو مُعين الدِّين ابن أتشز مُدبِّر الأُمُور في حلب، أحد مماليك طغتكين، تُوفِّي سنة 544هـ، ابن العماد بن الحنبلي، شذرات الذَّهب في أخبار مَنْ ذَهَبَ، بَيْرُوت، ب، ت 4/ 138.

(4) مُجيبر الدِّين ابن جمال الدِّين مُحَمَّد بن تاج الدَّولة بُوري التُّركي، ت564هـ/ الحنبلي، شذرات الذَّهب، 4/ 211، زامباور، مُعجم الأنساب، ص340.

(5) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص58.

(6) سيف الدِّين غازي، صاحب الموصل، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان 3/ 175.

(7) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص290، ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص88.

(8) نُعمان قساطلي، الرَّوضة الغنَّاء، ص48.

(9) استضعف الإفرنجُ مُجيبرَ الدَّولة، وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا الفتك والنَّهب والسَّبي فيها، وزاد الأمر حين جعلوا على أهل المدينة قطعيَّة كُلَّ سنة، وكان رسولهم يأتي ويأخذها، أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 236.

(10) الأحداث هُم جماعة تمتَّعوا بمكارم الأخلاق، وقد وصفهم ابن جُبير بأنَّهم (يُدينون بالفُتُوَّة وأُمُور الرُّجولة كُلّها)، ولهُم أثر مُعين على سُكَّان المدينة، الرِّحلة، ص252، عُمر الدّسوقي، الفُتُوَّة عند العرب، مصر، ب، ت، ص250.

(11) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص327، ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص106 ـ 107.

3 ـ الزّنكيُّون (549 ـ 577هـ/1154 ـ 1181م):

استطاع نُور الدِّين من دُخُول المدينة بمُعاونة الأحداث والزّناطرة[1] ؛ إذْ فتح لـه الأهـالي الباب الشَّرقي ، فدخل ، وملَكَ المدينة ، باستثناء القلعـة التـي كـان فيـها مُجيبر الدِّيـن ، الـذي اتَّفق معه ، فمنحه حُكْم حمص عوضاً عن دمشق ، فأجابه ، ورحل إليها[2] ؛ إذْ استقرَّ فيـها ، وبهذا ؛ صار تابعاً لنُور الدِّين ، بعد أنْ كان هُو صـاحب البـلاد ، ممَّا يسَّر لنُـور الدِّيـن القضـاء على أُسرة طفتكين التُّركيَّة ، وفتح الطَّريق أمامه لتحقيق الوحدة التي جاهد أبـوه مـن أجلـها ؛ إذْ كانت دمشق المعبر الوحيـد لمُهاجمـة الولايـات والمُقاطعـات التـي كـانت ترزح تحت حُكـم المُحتلِّين الإفرنج[3] .

وبدأ نُور الدِّين أعماله بتأليف القُلُوب حوله ، فَجَمَعَ الفُقـهاء والقُضـاة وتُجَّـار المدينـة ، وشاورهم في أُمُور البلاد[4] .

ويروي لنـا التَّـاريخ فـي سـيرته السَّـابقة أنَّ اللّقـاء المُشـترك بـين مصـر وسُـوريا نجـح فـي مُواجهة العدوِّ المُشترك ، وألحق به الهزيمة ، حتَّى ظهر أنَّهما يُشكّلان قاعدة صلبة لنُواة الوحدة العربيَّة الشّاملة[5] ، ولهذا ؛ نجد توجُّه أبي شُجاع شاور[6] إلى دمشق ، يطلب النّجدة مـن نُـور الدِّين على مُنافسة ضرغام بن سوار[7] ، الذي سيطر على الـوزارة ، وعزلـه فـي عـهد الخليفـة الفاطمي العاضد سنة 558هـ/ 1162م[8] ، وقد تَـمَّ الاتِّفـاق بينـهما علـى أنْ يكـون لنُـور الدِّيـن

(1) الزّناطرة هُم فئة من سكّان المدينة مُولعة بتحريك الفتَن والقلاقل ، مُحَمَّد حلمي ، الرّوضتَيْن ، 1/ 85، حاشية رَقْم(5).

(2) ابـن القلانسي ، ذيـل تـاريخ دمشـق ، ص327، ابـن الأثـير ، التَّـاريخ البـاهر ، ص106 ـ 107 ، أبـو شـامة ، الرّوضتَيْن ، ويُذكر أنَّ مُجيبر الدَّولة سار إلى العراق ؛ إذْ ابتنى له داراً من المدرسة النّظاميَّة ببغداد ، وظلَّ هُناك إلى أنْ مات عماد الدِّين إسماعيل أبو الفداء ، المُختصر في أخبار البشر ، ط1 ، مصر ، 1325 ، 3/ 29 .

(3) ابن شامة ، الرّوضتَيْن ، 1/ 216 .

(4) أبو شامة ، الرّوضتَيْن ، 1/ 241 .

(5) فهمي توفيق فيصل ، الفاطميُّون والصّليبيُّون ، بَيْرُوت ، 1980 ، ص126 .

(6) أبو شُجاع شاور بن مُجير ، وزير الخليفة الفاطمي في مصر ، وكان له عدد من المُنافسـين ، ومنـهم ضرغـام ، ابـن الأثير ، التَّاريخ الباهر ، ص120 ، أبو شامة ، الرّوضتَيْن ، 1/ 331 .

(7) ضرغام بن سُور ، المُلقَّب بالمنصور ، وهُو أحد أُمراء المنطقة ، استطاع أنْ يجمع الجُمُـوع ، ويتقـدَّم إلـى القـاهرة ، ويستلم منصب الوزارة بدلاً عن شاور ، أبو شامة ، الرّوضتَيْن ، 1/ 331 ـ 232 .

(8) ابن الأثير ، التَّاريخ الباهر ، ص120 ، أبو شامة ، الرّوضتَيْن 1/ 331 .

حصَّة من البلاد المصريَّة، ويكون تحت إمرته، وقد سيَّر ـ بالفعل ـ أسد الدِّين شيركوه[1] إلى مصر بالعساكر سنة 559هـ/ 1163م؛ إذْ استطاع من خلع ضرغام من الوزارة، وإعادتها إلى شاور، غير أنَّ شاور أحسَّ بالخطر على مصير الخلافة الفاطميَّة كُلِّها، فتنكَّر لعهده، وانقلب على نُور الدِّين، لدرجة أنَّه راسل الإفرنج، واستنجد بهم ضدَّ أسد الدِّين، حين سار إلى مصر للمرَّة الثَّانية، وذلك سنة 562هـ/ 1166م، فهُرعوا إلى نجدته، واجتمعوا على حربه، ولهذا؛ خاف بعض عساكره من الهزيمة، وكان عددهم لا يزيد على ألفَيْ رجل، ففكَّروا بالعودة إلى الشَّام، فاعترضهم شرف الدِّين برغش[2]، وهُو أحد المماليك الدّوريَّة قائلاً: (مَنْ يخاف القتال أو الأسر فلا يخدم المُلُوك، بل يكون في بيته مع امرأته، والله؛ لأنْ عُدنا إلى نُور الدِّين من غير غلبة، ولا بلاء نُعذر فيه، ليأخذنَّ من مالنا من أقطاع وجامكيَّة، وليعودنَّ علينا بجميع ما أخذناه مُنذُ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المُسلمين، وتفرُّون عن عدوِّهم، وتُسلِّمون مثل مصر إلى الكُفَّار)[3]، واستطاع أسد الدِّين على أثر ذلك ومَنْ معه أنْ يقف أمام جُمُوع شاور والإفرنج، وقد عجب بعضهم من هذه الحادثة بقولهم (إنَّ ألفَيْ فارس تهزم عساكر مصر وإفرنج السَّاحل)[4]، ولهذا؛ لم يجد شاور سوى الصُّلح، فأجابه أسد الدِّين أنْ لا يبقى الإفرنج في البلاد، ولا يتسلَّموا أيَّ قرية منها، ثُمَّ عاد إلى دمشق[5].

كان لابُدَّ على شاور من أنْ يُحافظ على مركزه، ولم يتحقَّق ذلك إلاَّ بالتَّعاون مع الإفرنج، الذين وعدهم بشُحنة القاهرة، وأنْ تكون أبوابها مع فُرسانهم ليمنعوا نُور الدِّين من إنقاذ عسكره إليهم، وثَمَّة بند في المُعاهدة ينصُّ على أنْ يكون لهُم من دَخْل مصر كُلَّ سنة مئة ألف دينار[6]، كُلُّ هذا حدث بعد خُرُوج أسد الدِّين من مصر مُباشرة، وذلك في سنة

(1) هُو أسد الدِّين شيركوه بن نجم الدِّين أيُّوب، قائد شُجاع خدم نُور الدِّين حتَّى وفاته سنة 564هـ، ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص119.

(2) شرف الدِّين بُرغش صاحب سقيف، أحد مماليك نُور الدِّين، وكان شُجاعاً مقداماً، ابن الأثير، الكامل، 9/ 95.

(3) ابن الأثير، الكامل، 9/ 95، وبنفس المعنى أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 165، مُحَمَّد بن سالم بن واصل، مُفرِّج الكُرُوب في أخبار بني أيُّوب، تحقيق جمال الدِّين الشيَّال، مصر، 1953، 1/ 148.

(4) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص133، أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 365.

(5) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 366.

(6) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 366.

562هـ/ 1166م، فاستنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنُور الدِّين ليُنقذه من العدوِّ المُحتمل، فأجابه نُور الدِّين، وبَعَثَ له أسد الدِّين شيركوه للمرَّة الثَّالثة، وذلك سنة 564هـ/ 1168م، وطَلَبَ في هذه الحملة من صلاح الدِّين أنْ يُرافقه[1].

استطاع أسد الدِّين أنْ يدفع الإفرنج عن مصر، ويُصبح وزير الخليفة العاضد، وتمكَّن من حُكْم البلاد، وأمسك بزمام الأمر والنّهي، ولكنَّ أمره لم يستمرّ في الوزارة، فقد تُوفِّي في العام نفسه، وخلفه ابن أخيه صلاح الدِّين[2].

استطاع صلاح الدِّين من تنفيذ رغبة نُور الدِّين، فَقَطَعَ الخُطبة عن الخليفة العاضد، وأعلن الخُطبة للخلافة العبَّاسيَّة من جديد في مصر، آنذاك؛ حين توفَّرت له فُرصة، مرض الخليفة العاضد في سنة 569هـ/ 1169م[3]، حين قام شمس الدِّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن المُحسن أبو المضاء البعلبكي في مصر بقَطْع الخُطبة للعاضد، والدُّعاء في خُطبته للخليفة العبَّاسي المُستضيء بنُور الله[4].

ابتهج نُور الدِّين بهذا الكسب السِّياسي للخلافة العبَّاسيَّة، وطلب من كاتبه عماد الدِّين أنْ يكتب رسالة عامَّة تُقرأ في العالم الإسلامي كُلِّه، وبشارة خاصَّة تُقرأ بحضرة الخليفة في بغداد، وسُرعان ما عادت البشارة بجوابها، وهي - في الحقيقة - جوهر وحدة مصر والشّام، فقد وصل أُستاذ دار العزيز رسول من الخليفة عماد الدِّين صندل، ووَرَدَ صُحبته الشَّريف لنُور الدِّين مُكمّلاً مُعظّماً مُجمّلاً بأُهبته السّوداء، وحلله المُوشيَّة، وطوقه المُذهَّب ولوائه الجليل، وحضر أكابر الدَّولة والخواصُّ، وكان يوماً مشهوداً؛ إذْ قُرأ كتاب الدِّيوان على مسمع النّاس، ثُمَّ لبس نُور الدِّين الفرجيَّة[5]، وتقلَّد السّيفَيْن، ووضع الطّوق في

(1) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 366.

(2) ابن الأثير، الكامل، 9/ 102.

(3) في نفس السَّنة؛ أُعلن عن إنهاء الخلافة الفاطميَّة، وعادت مصر إلى حاضرة الدَّولة العربيَّة، أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 502، ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 283 - 284.
Watt, W, Montgomery, The Majesty that was Islam, The Islamic world, London, 1976, p. 245-246.

(4) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 292، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب في أخبار بني أيُّوب، 1/ 200.

(5) وهي ثوب واسع له كُمَّان، وله سعة، ويُصنع من الصُّوف الوبر، وهي لباس النِّساء أيضاً، أبو الحسن إسماعيل ابن سيده، المُخصَّص، المكتب التِّجاريّ، بَيْرُوت، ب، ن، 4/ 89، ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص54.

عُنقه، وخرج راكباً من داخل القلعة، واللّواء الأسود منشور على رأسه، وتقلّد السّيفَيْن، دلالة على تقليده الإقليمَيْن مصر والشّام، وخرج إلى ظاهر دمشق، ونُثر عليه الذَّهب، وانتهى في مسيره إلى الميدان الأخضر، ثُمَّ عاد إلى القلعة[1]، وقد عجب النَّاس من تقليد الخليفة لنُور الدِّين، ولهذا؛ روى أبو شامة عن ذلك بقوله: (وسألتُ عن معنى تقليد السّيفَيْن، فقيل: هُما للشَّام ومصر، وللجَمْع له بين البلدَيْن)[2].

لقد كان الأمل من هذه الوحدة التي جمعها الخليفة العبَّاسي بتقليد السّيفَيْن القضاء على الصّليبيِّيْن واستعادة بيت المَقْدس، أُمنيَّة نُور الدِّين القديمة، فقد أمر بصُنع منبر خشبي جميل تحمله جُيُوشه إلى بيت المَقْدس، وممَّا يُؤكِّد هذه الفكْرة ما جاء في جوابه للخليفة العاضد حين بعث إليه يُهنِّئه برحيل الفرنج عن دمياط، ويظهر أنَّ الخليفة العاضد كان يتشاقل كثيراً من وُجُود الأتراك في بلاده، ولهذا؛ نجده يكتب لنُور الدِّين كتاباً يطلب منه تقليصهم واقتصارهم على صلاح الدِّين وخواصِّه، فَكَتَبَ إليه نُور الدِّين يمدح الأتراك، ويُعلمه بأنَّه (ما أرسلهم واعتمد عليهم إلاَّ لعلمه بأنَّ قنطاريَّات[3] الإفرنج ليس لها إلاَّ سهام الأتراك، وأنَّ الإفرنج لا يخافون إلاَّ منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في البلاد المصريَّة، ولعلَّ الله سُبحانه وتعالى يسَّر بهم فَتْحَ بيت المَقْدس)[4].

ثُمَّ بعث إلى صلاح الدِّين يأمره بالتَّحرُّك نحو الكرك[5]، حين كان يُحاصرها، فاعتذر صلاح الدِّين عن القُدُوم، مُدَّعياً بأنَّ الوضع غير مُستتبٌّ في مصر، فغضب نُور الدِّين لذلك، وترك حصار الكرك، ولهذا؛ نجده يُرتِّب الأوضاع لدُخُول مصر، ولاسيَّما بعد أنْ التحق إلى مصر أفراد أُسرة صلاح الدِّين، وفي مُقدِّمتهم أبوه نجم الدِّين أيُّوب[6].

---

(1) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 505، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 2/ 218 ـ 219.

(2) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 505.

(3) وهي نوع من الرِّماح، وهي لفظة من أصل يُوناني (Keniorlon)، وسُمِّيت بهذا لأنَّها تُصنع من نوع من الخشب يحمل هذا الاسم باليُونانيَّة، جمال الدِّين الشَّيَّال، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 183، حاشية رَقْم (2).

(4) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 183.

(5) خلال المُدَّة السَّابقة، كان نُور الدِّين قد ضمَّ مناطق، وأغار على مناطق أُخرى، كطرابلس وأنطاكية ومرعش وبهنسا ومرزبات من أجل الوحدة، وأرسل إلى صلاح الدِّين عندما كان يُحاصر الكرك، أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 549، وما بعدها، حُسين مُؤنس، نُور الدِّين محمود، ط1، القاهرة، 1959، ص346.

(6) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص158 ـ 159.

عقد صلاح الدِّين اجتماعاً مع مُشاوريه عندما بلغه أنَّ نُور الدِّين عازم على القُدُوم إلى مصر، وخرج الجميع بالاتِّفاق على التَّصدِّي لنُور الدِّين، باستثناء والده الذي خالفهم جميعاً، وطلب من ابنه الإذعان لأمر نُور الدِّين، وعدم مُواجهته، حتَّى شاء القدر أنْ ينتهي هذا الأمر بوفاة نُور الدِّين بعلَّة الخوانيق سنة 569هـ/ 1172م، وبذلك حُسم النِّزاع[1].

ترك نُور الدِّين ولداً صغير السِّنِّ لا يتجاوز الحُكْم، دُعي بالصَّالح إسماعيل، وقد اتَّفق أُمراء أبيه على تمليكه، وأحضروا كتاب الله، وأُحضر القاضي كمال الدِّين الشّهرزوري[2]، والأمير شمس الدِّين بن المُقدَّم[3]، والطَّواشي جمال الدِّين الرّيحاني[4]، أكبر الخدم، وشهاب الدِّين بن العجمي[5]، أمين الأعمال، والشَّيخ إسماعيل[6] خازن بيت المال، واتَّفقوا جميعاً على وحدة الكلمة، وجعلوا شمس الدِّين بن المُقدَّم مُقدَّم العسكر، وإليه المرجع في الأُمُور كُلِّها، وكتبوا إلى وُلاة الأطراف، وطلبوا منهم مُبايعة الملك الصَّالح، وإقامة الخُطبة باسمه، في حين جلس صلاح الدِّين بمصر للعزاء ثلاثة أيَّام، وأمر بإقامة الخُطبة فيها للصَّالح، وضرب باسمه السكَّة[7].

أمَّا شمس الدِّين بن المُقدَّم؛ فأقام بدمشق، وإليه إمرة العساكر، وانفرد جمال الدِّين ريحان بالقلعة، وظلَّ القاضي مُديراً لأُمُور الدّولة، طمعت الإفرنج بالبلاد من جديد؛ بسبب الفراغ السِّياسي الفاعل، فحاصروا بانياس، ولم يستطع شمس الدِّين من دفعهم، ولهذا؛ نجده يعقد هدنة، وذلك سنة 570هـ/ 1175م[8].

---

(1) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص161، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 258ـ 259.

(2) كمال الدِّين الشّهرزوري قاضي البلد والحاكم في جميع أُمُوره من الدّيوان والوقف وغير ذلك، ابن الأثير، الكامل، 9/ 131، ابن طُولون، قُضاة دمشق، ص47.

(3) من أكابر أُمراء نُور الدِّين، ثُمَّ نرى الوصاية على ولده الصَّالح إسماعيل، وقُتل سنة 583هـ، أبو المحاسن يُوسُف ابن تغرى بردى، النُّجُوم الزَّاهرة، المُؤسَّسة المصريَّة، ب ت، 6/ 105، 6/ 105.

(4) وهُو جمال الدِّين الرّيحاني كبير الخدم، وكان شديد التَّمسُّك لسيِّده نُور الدِّين، ولهذا؛ نجده يعتصم بالقلعة، ولم يُسلِّمها؛ لأنَّه اعتبر ذلك خيانة لصاحبه نُور الدِّين وولده، ابن الأثير، الكامل، 9/ 131.

(5) شهاب الدِّين العجمي أمين الأعمال في عهد نُور الدِّين، مُحَمَّد مُوسى باشا، أدب الدُّوَل المُتتابعة، ط1، دار الفكر الحديث، 1967، ص31.

(6) وهُو إسماعيل خازن بيت المال، باشا، أدب الدُّوَل المُتتابعة، ص31.

(7) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص162.

(8) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 233.

وكان هذا الحدث بداية الانقسام والضّعف[1] في بلاد الشّام، ولهذا؛ رأى صلاح الدِّين ضرورة تدارك هذا الأمر الخطير قبل استفحاله، فَكَتَبَ إلى القاضي كمال الدِّين يقول: (لو أنَّ نُور الدِّين يعلم أنَّ بينكم مَنْ يقوم مقامي، لسلَّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يُعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده، والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفرَّدتُم بمولاي وابن مولاي دُوني، وسوف أصل إلى خدمتكم، وأُجازي أنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كُلاً منكم على سُوء صنيعه في ترك الذَّبِّ عن بلاده...)[2].

كانت رسالة صلاح الدِّين إنذاراً إلى مُدبِّري الأمر في دمشق، وسعى كُلٌّ منهم بدعوته للوُقُوف إلى جانبه، ليكسب رضاه، ولاسيَّما وأنَّه أعلن الهدف من وُصُوله إلى دمشق هُو خدمة الملك الصّالح الوريث الشّرعي، وابن مولاه الأوَّل نُور الدِّين، وهكذا استطاع صلاح الدِّين من دُخُول دمشق بطلب من أُمرائها[3]، وظهر صلاح الدِّين - حين وُصُوله - أنَّه يُريد خدمة الملك الصّالح.

هكذا تلقَّى أهل دمشق صلاح الدِّين بالفرح والسُّرُور، وقضى ليلته فيها، ثُمَّ ترك أخوه سيف الدِّين طغتكين والياً على دمشق يحكمها باسم الملك الصّالح، ولم يبخل على أهل المدينة بالمنح والعطايا من خواصِّ الصّالح، فأرضاهم، وزاد في فرحهم وسعادتهم[4].

---

(1) طمح سيف الدِّين بن مودود ببعض ما بيد ابن أخيه، فاستولى على البلاد الجزريَّة، وهرب سعد الدِّين بن كشتكين الخادم النّائب بقلعة الموصل، خاصَّة؛ بعد وُصُول أنباء وفاة نُور الدِّين، أمَّا شمس الدِّين علي بن الدّاية وأخوانه الذين بحلب؛ فقد راسلوا الملك الصّالح، ولكنّه لم يُجبهم في الوقت نفسه، فاستطاع سعد الدِّين بن كشتكين من الوُصُول إلى حلب والاجتماع بشمس الدِّين علي، وأظهر لهُم أنَّه من المُخلصين له، ابن الأثير الكامل، 9/ 126، أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 593.

(2) ابن الأثير، الكامل، 9/ 127، التَّاريخ الباهر، ص163، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 2/ 7.

(3) ابن الأثير، الكامل، 9/ 130، ابن العديم، زبدة الطّلب، 3/ 19، عماد الدِّين إسماعيل أبو الفدا، المُختصر في أخبار البشر، 3/ 56، ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، نُسخة مُصوَّرة عن أيا صُوفيا مكتبة السُّليمانيَّة، إسطنبول تحت رَقْم (3439)، سفر 27، ورقة 21.

Clande Cahen, Le Syrie Du Nord a L'epeque des craisades, Paris 1940, p. 415-417.

(4) يُوسُف بن رافع بن شدَّاد، سيرة صلاح الدِّين، تحقيق جمال الدِّين الشَّيَّال، ط1، القاهرة، 1962، ص6، وقد صَدَرَتْ طبعة جديدة مُحقَّقة تحقيقاً علمياً مُمتازاً، تدارك المُحقِّق فيها أخطاء جمَّة على الطَّبعة السَّابقة، بعُنوان سيرة السُّلطان النَّاصر صلاح الدِّين الأيُّوبي النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفيَّة، تحقيق أحمد إيبش، دار الأوائل، 2003، وأبو الفداء، المُختصر، 3/ 56، ورنسيمان، تاريخ الحُرُوب الصّليبيَّة، 3/ 651.

أمَّا أهل حلب؛ فقد استنجدوا بسيف الدِّين غازي صاحب الموصل الذي استجاب لنجدتهم، وتوجَّهوا إلى صلاح الدِّين، والتحم الفريقان عند فروة حماة[1]، وقد انتهت المعركة بينهم بانتصار صلاح الدِّين[2]، الذي لم يكتف بذلك، بل تبعهم، وحاصرهم، وأخيراً؛ صالحوه على أخذ المعرَّة وكفرطاب وحماة[3].

وبهذا؛ حانت الفُرصة لصلاح الدِّين أنْ يُعلن الدَّولة الأيُّوبيَّة في مصر والشَّام، وذلك بعد انتصاره على مُنافسيه[4]، فبادر بقَطْع خُطبة الملك الصَّالح، وأزال اسمه من السكَّة.

تلك هي آخر أيَّام الزّنكيَّة، والتي نجح أُمراؤها بتحرير قسم من بلاد الشَّام من الاحتلال الصّليبي المُعتدي، وكان نُور الدِّين يقف في مُقدِّمة هؤلاء الأُمراء الذين حقَّقوا الوحدة السِّياسيَّة للدَّولة العربيَّة، وسُلطتها الشَّرعيَّة بعودة الخُطبة للخليفة في بغداد، فضلاً عن تحقيق المجد السِّياسي للزِّنكيِّين بوحدة مصر والشَّام.

4 ـ الأيُّوبيُّون (570 ـ 648 هـ/1174 ـ 1250م):

خرج السُّلطان صلاح الدِّين من مصر قاصداً الشَّام، بعد أنْ تأكَّد من عجز الملك الصَّالح لصغره، وأنَّه لا يستطيع أنْ ينهض بالأمر وأعباء المُلك[5]، وقد استخلف أخاه الملك العادل في مصر.

ولكنْ؛ لابُدَّ من مُراسلة الخليفة العبَّاسي المُستضيء بنُور الله[6] (566 ـ 675 هـ/ 1170 ـ 1179م) ليبعث له تقليداً على ما بيده من المُلك، وبالفعل؛ وصلته خُلع الخليفة من بغداد،

---

(1) وهي منطقة تُشرف على مدينة حماة، مكوَّنة من قلعتَيْن مُتقابلتَيْن، الحموي، مُعجم البُلدان، 3/ 335 ـ 336.

(2) ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 25، باشا، أدب الدُّوَل المُتتابعة، ص32.

(3) ابن شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 264، 639.

(4) اعتصم كبير الخدم ريحان في قلعة دمشق، ولم يُسلِّمها لصلاح الدِّين، مُعتبراً ما قام به خيانة لسيِّده نُور الدِّين، ولكنَّ صلاح الدِّين أرسل القاضي كمال الدِّين الشّهرزوري ليُقنعه بالاستسلام لصلاح الدِّين، ابن الأثير، الكامل، 9/ 131، علي بن مُحَمَّد البنداري، سنا البرق الشّامي، تحقيق فتحيَّة النّبراوي، القاهرة، 1979، ص21. ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 288.

(5) ابن شدَّاد، صلاح الدِّين، ص50، أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 604 ـ ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 25.

(6) أبو مُحَمَّد الحسن بن يُوسُف المُستجد بن مُحمَّد، بُويعَ بالخلافة سنة 566هـ/ 1170م، علي بن مُحَمَّد الكازروني، مُختصر التَّاريخ، تحقيق مُصطفى جواد، بغداد، 1972، ص237.

ومرسوماً بولاية مصر والشَّام وغيرها، وبذلك اعترف الخليفة الرَّسميّ بحُكْمه خَلَفاً شرعيّاً لنُور الدِّين[1].

وُفِّق صلاح الدِّين - في خلال فترة حُكْمه (570 - 589هـ/ 1174 - 1193م) - في إقامة دولة عربيَّة كُبرى واسعة الأرجاء، ومُمتدَّة الأطراف، شملت مصر والشَّام واليمن والحجاز وغيرها، ولكنَّه اتَّخذ سنة 579/ 1183 مدينة دمشق حاضرة له[2]، بيد أنَّ وفاته سنة 589هـ/ 1193م، حالت دُون تحقيق أُمنيَّته في وحدة البلاد العربيَّة الإسلاميَّة الكاملة.

كانت وفاته بداية تشتُّت الوحدة التي حقَّقها بكفاحه المُستمرّ طيلة سنوات حُكْمه، وإيذاناً بانقسام مملكته من بعده[3].

وظهر الخلاف بين الأخوَيْن العزيز[4]، والأفضل[5]، حول تبعيَّة بيت المَقْدس، وذلك سنة 590هـ/ 1194م، وكان يبدو أنَّ هذا هُو السَّبب المُباشر للصدام بينهما، ولكنْ؛ كان خلفه

---

(1) أرسل الخليفة توقيعاً من الدّيوان بالسّلطنة ببلاد الشَّام ومصر، ومع الأعلام السُّود، وفي ذلك يقول أحدهم:

يا أيُّها الملك العزيز فضله	لقد غدوت بالعُلا مبليا
كفى أمير المُؤمنين شرفاً	أنَّك أصبحتَ له وليا
طارحكَ الوُدَّ على شحط النَّوى	فكُنتَ ذاك الصَّادق الوفيا
أولاكَ من الباسة زخرافة	لم يُولها قبلكَ آدميًّا
تماسبت الرَّوض سنا وبهجة	حتَّى حكته رونقاً وزيًّا

أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 639 - 640.

(2) كان لموقع دمشق أثره في اعتبارها قاعدة لانطلاق الجُيُوش المُحرِّرة للمُدُن الشَّاميَّة والجزيرة، بالإضافة إلى كونها مركز انطلاق عساكر صلاح الدِّين باتِّجاه شمال الشَّام، محمود ياسين التّكريتي، الأيُّوبيُّون، شمال مصر والشَّام والجزيرة، بغداد 1981، ص84.

(3) تقسَّمت مملكة صلاح الدِّين بين أولاده، فالدّيار المصريَّة لابنه العزيز عُثمان، والشَّام لابنه الأفضل نُور الدِّين، وحلب لابنه الظّاهر غياث الدِّين، والكرك والشّوبك لأخيه سيف الدِّين مُحَمَّد، وحماة وتوابعها للملك المنصور مُحَمَّد بن تقي الدِّين عمر، وحمص والرّحبة لأسد الدِّين شيركوه الصّغير، أمَّا إقليم اليمن؛ فمُستقرٌّ للملك ظهير الدِّين سيف الدِّين طغتكين بن أيُّوب أخي السُّلطان، أبو شامة الرَّوضتَيْن 2/ 238، 266، ابن الكثير، البداية والنّهاية، 13/ 7 مُحَمَّد مُرتضى الزّبيدي، ترويح القُلُوب في ذكر المُلُوك بني أيُّوب، تحقيق صلاح الدِّين المُنجِّد، دمشق، 1969، ص89، وما بعدها.

(4) أصبح الملك العزيز أكبر الأُمراء، وهذا ما حرَّضه على الاستقلال بالسّلطنة، وعلى عزل أخيه الأفضل من الشَّام، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 115، باشا، أدب الدُّول، ص86.

(5) وهُو أكبر أبناء صلاح الدِّين، والمعهود له بالمُلك من بعده، وكان قد استوزر ضياء الدِّين ابن الأثير مُصنِّف المثل السّائر، فأغراه بطَرْد أُمراء أبيه، ففارقوه إلى إخوانه العزيز والظّاهر، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 115، باشا، أدب الدُّول، ص86.

عاملاً رئيساً خفيّاً لهذا الصّراع؛ وهُو حُبُّ السّلطنة والتّسلُّط والاستبداد بالمُلك، ضاربَيْن بمصالح الأُمَّة عرض الحائط، فقد استطاع الملك العادل[1]، أنْ يُحرِّض بعضهما على بعض[2]؛ بحيثُ انضمَّ إلى حلبة الصّراع الذي تجدَّد سنة 591هـ/ 1195م، عندما قدم العزيز بالعساكر من مصر لأخذ دمشق من الأفضل، ففسح المجال أمام العادل لنصرة الملك الأفضل، والذي استطاع من الإيقاع بأُمراء الملك العزيز من الصّلاحيَّة (نسبة إلى صلاح الدِّين)، والأسديَّة (نسبة إلى أسد الدِّين شيركوه)؛ حيثُ فارقوه، وانضمَّ إليهم الأكراد، الذين توجَّهوا إلى جبهة الأفضل وعمِّه العادل. رجع الملك العزيز إلى مصر، وقويت بذلك شوكة العادل الذي علم بضعف الأفضل، ولهذا؛ نجده يُقنعه بالتَّوجُّه إلى مصر، وأراد ـ بذلك ـ أنْ يُشعر الملك العزيز بالمنَّة، فهُو الذي أعاده إلى مُلكه بعد أنْ كان زواله مُحقَّقاً، وفي نفس الوقت اتَّفق مع العزيز أنْ يكون نائبه على دمشق، ويكون هُو السُّلطان الأعظم، وبهذا الاتِّفاق؛ أُخرج الملك الأفضل من دمشق إلى صرخد[3] بحوران؛ حيثُ عكف على التّقوى والعبادة وكتابة القُرآن، ولبْس الصُّوف الخشن، وأضحى العزيز زعيم البيت الأيُّوبي من النَّاحية الاسميَّة، تخضع له فلسطين ودمشق، فضلاً عن مصر، وجرى ذكْر اسمه في خُطبة الجُمعة بحلب، على أنَّ الملك العادل ـ أصبح بعد إقامته في دمشق ـ يُسيِّر هذه الدَّولة وُفق هواه ومشيئته[4].

تُوفِّي العزيز سنة 595هـ/ 1198م، تاركاً ولده الصّغير المنصور بن العزيز، فتولَّى الأفضل الوصاية عليه، على أنْ لا يُذكر اسم الأفضل في الخُطبة، ولا يُنقش اسمه على النُّقُود، وتكون وصايته سبع سنوات، ولكنَّ الأفضل استغلَّ الفُرصة، وأرسل الظّاهر صاحب حلب، وتوجَّه إلى دمشق، ونزل الميدان الأخضر[5] لاستردادها، ولكنَّ الملك العادل كان أسبق إلى المدينة، ممَّا

---

(1) هُو الملك العادل سيف الدِّين مُحَمَّد بن أيُّوب أخو السُّلطان صلاح الدِّين، ص615، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 173.

(2) كارل بروكلمان، تاريخ الشُّعُوب الإسلاميَّة، ترجمة نبيه أمين فارس، ومُنير البعلبكي، ط7، بَيْرُوت، 1977، ص361.

(3) واستقرَّ أمر العادل بدمشق، ابن الأثير، الكامل، 9/ 234 ـ 236.

(4) ابن الأثير، الكامل، 9/ 234 ـ 236، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة 6/ 149، السَّيِّد الباز العريني، الشّرق الأدنى في العُصُور الوُسطى، بَيْرُوت، 1967، 1/ 116.

(5) علي بن أنجب بن السّاعي، الجامع المُختصر في عُيُون التَّواريخ وعُيُون السّير، تحقيق مُصطفى جواد، بغداد، 1953، 9/ 4.

جعله يتراجع إلى مصر، غير أنَّ العادل تبعه، واستطاع دُخُول القاهرة سنة 597هـ/ 1200م، وحصل على مُوافقة الأُمراء بعزل المنصور، وصار هُو السُّلطان على مصر وغيرها[1].

على أنَّ دولة العادل تعرَّضت لتهديد صليبي[2]، فضلاً عن الاضطرابات في الكرك وطرابلس وغيرها، وأخيراً؛ استطاع العادل من الاستيلاء على إقليم أرمينيا، سنة 604هـ/ 1207م، وأرسل بذلك إلى الخليفة في بغداد يطلب التّقليد بمصر والشَّام وخلاط وبلاد الجزيرة، وجاء التّقليد إلى دمشق، وتلقَّاه العادل بسُرُور شديد، وكان يوماً مشهوداً[3].

تطوَّرت الأوضاع خلال هذه الفترة بعد وفاة الملك العادل سنة 615/ 1218م، تقسَّمت مُمتلكاته بين أولاده، فقد صارت مصر من حصَّة الملك العادل مُحَمَّد، بينما صارت الشَّام من حصَّة الملك المُعظَّم عيسى[4]، ورغم ذلك؛ توجَّه الملك الكامل إلى الشَّام لينتزع من أخيه البلاد، ولكنَّ الملك المُعظَّم استنجد بأخيه الملك الأشرف صاحب ميافارقين وبلاد الجزيرة.

تُوفِّي الملك المُعظَّم سنة 625 هـ/ 1227م، وخلفه ابنه النّاصر، وهُو شابٌّ لا يتجاوز الحادية والعشرين من عُمره، لم يكن على حظٍّ من التّجربة والخبرة، فتوجَّه إلى الكامل بعساكره في 626/ 1228م، فاستولى على بيت المَقْدس ونابلس، وعندئذ؛ استنجد النّاصر داود بعمِّه الأشرف مُوسى، فقدم لمُساعدته، غير أنَّ الكامل والأشرف اتَّفقا على الاستيلاء على دمشق سنة 626 هـ/ 1228م، واقتسام مُمتلكات ابن أخيهما، حتَّى لا تقع بأيدي الصّليبيِّين[5].

---

(1) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 2/ 235، السَّيِّد الباز العريني، الشّرق الأدنى، 1/ 116.

(2) طمع الإفرنج بالبلاد مرَّة أُخرى، فقد هاجموا عكَّا سنة 594 / 1197، واندفعوا نحو السّاحل، وقصدوا صيدا وبَيْرُوت التي تركها صاحبها لمَّا علم بوُصُولهم إلى صيدا، أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 2/ 233، وزاد طمعهم بالمُسلمين، بعدما لمسوا تفرُّقهم، فأسرعوا يتسلَّلون إلى داخل البلاد، حتَّى هاجموا حماة سنة 601هـ/ 1204م، وأخذوا النِّساء الغسَّالات من باب البلد، ولولا شجاعة ملكها المنصور لما أُبعد من أهلها أحد، باشا، أدب الدُّول المُتتابعة، ص46 ـ 47.

(3) ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6 / 165 / 166.

(4) ابن كثير، البداية و النّهاية، 13 / 86 ـ 87.

(5) ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 233، السَّيِّد الباز العريني، الشّرق الأدنى، 1/ 226.

على أثر ذلك؛ تَمَّ اتِّفـاق جديـد[1]، صـارت بمُوجبـه دمشـق للأشـرف، والـذي تزعَّـم خلاله الحلف[2] ضدَّ الملك الكامل لُمدَّة ثلاث سنوات، وكانت وفاة الأشرف مُوسى سـنة 636 هـ/ 1238م، بداية عهد الفوضى.

توجَّه الملك العادل مع صلاح الدِّين داود صاحب الكرك، لُمحاصرة دمشـق التـي تولَّى الدِّفاع عنها الصَّالح إسماعيل، الذي وليها بعد وفاة الأشرف مُوسى[3].

استولى الأشرف على دمشـق سـنة 636 هـ/ 1238م، وهـي السَّـنة نفسـها التـي تُوفِّي[4] فيها، فتولَّى حُكْم دمشق ـ بعد ذلك ـ الملك الجواد، وهُو أحد أحفاد العادل الذي شغل نفسـه بمُهاجمة النَّاصر داود صاحب الكرك، فحلَّت به هزيمة مُنكرة، انصرف على أثرها إلـى اللّـهو والصَّيد، فقد ذُكر أنَّه قال: (إيش أعمل بالملك باز وكلب أحبُّ إلي من هـذا؟)[5]، ولـهذا؛ نجده يعرض على الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب أنْ يتسـلَّم دمشـق، مُقابل الحُصُول علـى سـنجار والرَّقَّة وعانه، فأجابه على ذلك[6].

انتقل الصَّالح أيُّوب إلى دمشق سنة 636 هـ/ 1238م، وصادف أنَّه كان هُناك شقاق بـين جيش العادل الثَّاني، فَكَتَبَ إلى الأُمراء المصريِّيْن يطلب مُساعدتهم، بعد أنْ تحرَّك بستَّة آلاف فارس، ولكنَّ الموقف تغـيَّر، فقـد انحـاز النَّـاصر داود صـاحب الكـرك إلـى العـادل، بعـد أنْ

---

(1) على ضوء هذا الاتِّفاق؛ صارت دمشق للملك الأشـرف، أمَّا النَّـاصر؛ فقنـع بـالكرك والسَّلط والبلقـاء، التـي حصل عليها من الأشرف، مُقابل التَّنازل عن دمشق، ابن كثير، البداية والنِّهاية، 13/ 157 ـ 159، ياسين العُمري، روضة الأخبار في ذكر الأخيار، مخطوط بمكتبة المجمـع العلمـي العراقـي، برَقْـم 1318، ورقـة (120)، السَّـيِّد البـاز العريني، الشَّرق الأدنى، 1/ 127.

(2) ضمَّ الحلف الذي تزعَّمه الأشرف صاحب حلب النَّاصر يُوسُف المعروف صلاح الدِّين الصَّغير، وصاحب حماة المُظفَّر تقيُّ الدِّين محمود، السَّيِّد البازالعريني، الشَّرق الأدنى، 1/ 130.

(3) ابن كثير، البداية والنِّهاية، 13/ 159، السَّيِّد الباز العريني، الشَّرق الأدنى، 1/ 131.

(4) ابن كثير، البداية والنِّهاية، 13/ 159، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 312.

(5) هُو الملك الجواد يُونس بن مودود بـن مُحَمَّـد بـن أيُّـوب، خـدم عنـد عمَّيـه الملكَيْـن الكـامل والمُعظَّـم الأيُّوبيَّيْـن، وشارك الملك الكامل في حصاره لدمشق، وعند وفاة الكامل؛ استلم دمشق كنائب فيها، تُوفِّي سنة 641هـ، يُوسُف ابن قزا أُوغلي سبط ابن الجوزي، مرآة الزَّمان في تاريخ الأعيان، الهند، حيـدر أبـاد، 1951، 8/ 743، ابـن كثـير، البداية والنِّهاية، 13/ 175، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 338.

(6) المقريزي، السُّلُوك، 3/ 274.

رفض إعطاءه دمشق، وانضمَّ إلى العادل الأُمراء الأيُّوبيُّون أصحاب بعلبك وحمص وحلب، ولم يبقَ مع الصّالح سوى أمير حماة، وبالمُقابل؛ أحسَّ عسكر الصّالح بحراجة موقعهم، فتركوه، ولم يبقَ معه سوى مئة رجل من خواصّه، فاختطفه نفر من البدو، غير أنَّ النّاصر داود صاحب الكرك استطاع أنْ يعتقله عنده مع زوجته شجرة الدُّرّ ومملوكه، وحين وصل الخبر إلى العادل، كَتَبَ إلى النّاصر يطلب منه إطلاق سراحه[1].

أطلق النّاصر داود الصّالح أيُّوب في سنة 639 هـ/ 1241م، واعترف به سُلطاناً، وتوجَّه الاثنان إلى بيتِ المَقْدس ليحلف يمين الولاء والإخلاص، على أنْ يتولَّى الصّالح أيُّوب سلطنة مصر، ويحكم النّاصر داود الشّام وإقليم الجزيرة، وهذا الاتِّفاق عزَّز من العلاقة بين الصّالح إسماعيل صاحب دمشق والملك العادل[2].

اختلفت الأُمُور في مصر؛ إذْ تولَّى العادل الثّاني زمام الحُكْم، وتحكَّم الملك الصّالح في أُمُور البلاد، ولكنَّه واجه خطراً في دمشق؛ ألا وهُو تحالف الأيُّوبيِّين في دمشق وحمص والكرك سويّاً مع الصّليبيِّين لمُقاتلة الصّالح، مُقابل الوعد بالحُصُول على قلعتَيْ شقيف، أو نود، وصفد، وجانب من ساحل الشّام، وبمُقتضى هذا الاتِّفاق؛ جاز للصّليبيِّين أنْ يحصلوا من دمشق على متانة جيشهم، غير أنَّ فُقهاء دمشق أعلنوا بأنَّ هذه التِّجارة تُعَدُّ مُخالفة للشَّريعة الإسلاميَّة[3].

وبالمُقابل؛ قام الملك الصّالح أيُّوب بالتَّوجُّه إلى الخوارزميَّة[4] مُستنجداً بهم[5]، ولم يكتف بهذا، بل اتَّصل بالإفرنج، وعرض عليهم إطلاق سراح الذين وقعوا بيده من أسرى،

---

(1) ابن كثير، البداية، والنّهاية، 13/ 165، السيِّد الباز العريني، الشّرق الأدنى، 1/ 136 ـ 137.

(2) ياسين العُمري، روضة الأخبار، ورقة 121، السيِّد الباز العريني، الشّرق الأدنى، 1/ 137.

(3) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 166 ـ 167، السيِّد الباز العريني، الشّرق الأدنى، 1/ 140.

(4) إحدى الطّوائف الإسلاميَّة السّاكنة في إقليم خوارزم شاه، وهي عدَّة أُسر أشهرها أُسرة أنوشكين، الذي استطاع التّدرُّج في الوظائف السّلجوقيَّة، حتَّى عيَّنه السُّلطان ملكشاه والياً على إقليم خوارزم سنة 470هـ/ 1127م، وأخيراً؛ خرَّبها جنكيز خان، ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 164، نافع توفيق العبُّود، الدَّولة الخوارزميَّة، بغداد، 1978، ص18، وما بعدها.

(5) رنسيمان، تاريخ الحُرُوب الصّليبيَّة، 3/ 377.

إضافة إلى تسليمهم عسقلان لقاء وُقُوفهم[1] على الحياد بين الطَّرَفَيْن، وبهذا؛ حقّق الملك الصّالح نصراً دبلُوماسيّاً؛ إذْ استطاع من شطر الإفرنج إلى قسمَيْن، أحدهما وقف إلى جانب الصّالح إسماعيل، والآخر وقف على الحياد بينهما[2].

تجدّدت الخلافات بين الصّالح أيُّوب وعمّه الصّالح إسماعيل، وانضمَّ النّاصر داود إلى الملك الصّالح صاحب دمشق، وقام النّاصر بطلب المُساعدة من الفُرسان؛ لقاء منحهم بيت المَقْدس ومناطق أُخرى[3].

وازداد الخطر المُشترك[4]، بتحالف الصّالح إسماعيل صاحب دمشق، والمنصور إبراهيم صاحب حمص، وضيفه خانون، الوصيَّة على حلب، واستطاعت الجُيُوش الثَّلاثة من هزيمة الخوارزميَّة قُرب الرّهاسنة 639 هـ/ 1241م[5].

اندفعت الخوارزميَّة بعشرة آلاف فارس نحو بلاد الشَّام، فأغاروا على القلاع التي صادفتهم في طريق دمشق، وحتَّى دمشق لم تسلم من عمليَّات النَّهْب والحَرْق، وبعدها؛ توجَّهوا إلى بيت المَقْدس، التي استطاعوا من دُخُولها، ودمَّروا، وأتلفوا مُعظمها، وبذلك؛ عادت بيت المَقْدس نهائيّاً إلى المُسلمين، اتَّجهت القُوَّات الخوارزميَّة إلى غزَّة؛ إذْ اشتبكت بالتَّعاون مع قُوَّات الصَّالح أيُّوب ضدَّ الجُيُوش الصَّليبيَّة، وبالتَّعاون مع المنصور إبراهيم صاحب حمص، وصحبته قُوَّات دمشق، فضلاً عن النّاصر داود صاحب الكرك، واستطاعت الخوارزميَّة وقُوَّات الصَّالح أيُّوب الانتصار بالمعركة التي سُمِّيت حطِّين الثَّانية[6]، وذلك لأنَّها أعظم كارثة حلَّت بالصّليبيِّين بعد معركة حطِّين سنة 583 هـ/ 1187م[7]، ونتيجة

(1) رنسيمان، تاريخ الحُرُوب الصّليبيَّة، 3/ 377. التّكريتي، الأيُّوبيون، ص278.

(2) ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 323.

(3) رنسيمان، تاريخ الحُرُوب الصّليبيَّة، 3/ 389 التّكريتي، الأيُّوبيُّون، ص279.

(4) تكرَّرت غارات الخوارزميَّة على حلب والمعرَّة من الشَّام؛ حيثُ ارتكبوا الفواحش والقتل ما ارتكبه التّتر، أبو الفداء، المُختصر، 3/ 168.

(5) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 168، سعيد عبد الفتَّاح عاشور، الحركة الصَّليبيَّة، ط4، القاهرة، 1982، 2/ 1996.

(6) كما أُطلق عليها اسم عزَّة الثَّانية تيمُّناً بمعركة عزَّة الأولى التي وقعت سنة 637 هـ/ 1239م، عاشور، الحركة الصّليبيَّة، 2/ 999.

(7) عاشور، الحركة الصّليبيَّة، 2/ 999.

لمّا تقدّم أرسل[*] حملة عسكريّة لمُهاجمة دمشق، واستعدّ أهلها للحصار، ولكنْ؛ لانعدام المسيرة بالقلعة، ولتخلّي الحلبيّين عنه[1]، بالإضافة إلى حرق الخوارزميّة قصر العادل وامتداد الحريق إلى العقيبة، فاحترقت كُلُّها، وقُطعت الأنهار، وغَلَت الأسعار، وجرى بدمشق أُمُور بشعة جداً[2]، على حدّ تعبير ابن كثير، فاستسلم الصّالح إسماعيل، واشترط أنْ يخرجوا سالمين، فأجيبه، وعُوِّض عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالها، وذلك سنة 643 هـ/ 1245م[3].

تُوفِّي الملك الصّالح أيُّوب[4] سنة 648هـ/ 1250م، فصارت دمشق إلى الملك المُعظّم تُورانشاه[5].

استفحل أمر الإفرنجة في هذه المُدّة، ولاسيّما بعد احتلالهم دمياط، ولهذا؛ نجد الملك المُعظّم يستهلُّ حياته بمُحاربتهم، حتّى أبلى بها خير بلاء، حين هزمهم هزيمة مُنكرة في فاسكور والمنصورة، وذلك سنة 648 هـ/ 1250م[6]، وابتهجت دمشق بهذا النّصر، والجدير بالذّكْر أنّ الملك المُعظّم أرسل إلى نائبه في دمشق جمال الدّين مُوسى بن يغمور[7] بملابس الملك الأسير لويس التّاسع[8].

(*) الملك الصّالح نجم الدّين أيُّوب، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزّاهرة، 6/ 324.

(1) ابن تغري بردي، النُّجُوم الزّاهرة، 6/ 324.

(2) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 177.

(3) المقريزي، السُّلُوك، 1/ 321، عاشور، الحركة الصّليبيّة، 12/ 1000.

(4) لَمّا مات الملك الصّالح إسماعيل، أحضرت زوجته شجرة الدُّرّ بعض خواصّه، وأعلمتْهُم وفاته، وأوصتْهُم بكتمان موته خوفاً من الإفرنج، ودار أُمُور الدّولة الطّواشي جمال الدّين مُحسن، حتّى عودة الملك المُعظّم تُورانشاه من الموصل، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 342ـ 243، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزّاهرة، 6/ 364.

(5) الملك المُعظّم تُورانشاه ابن الملك الصّالح نجم الدّين أيُّوب ابن الملك الكامل، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزّاهرة، 6/ 364.

(6) ابن تغري بردي، النُّجُوم الزّاهرة، 6/ 366.

(7) وهُو جمال الدّين مُوسى بن يغمور، وهُو نائب الملك الصّالح أيُّوب والملك المُعظّم في دمشق، واستلم النّيابة بعد جمال الدّين بن مطروح، تُوفِّي سنة 663، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 30.

(8) وقد لبس يغمور الملابس في احتفال كبير بيوم النّصر، وكانت تشمل اسكرلاط والتّحتة سنجاب، وفيه بُكلة من الذّهب، أبو مُحَمَّد عبد الرّحمن أبو شامة، تراجم رجال القرنَيْن السّادس والسّابع المعروف بالذّيل على الرّوضتَيْن، تحقيق مُحَمَّد زاهد بن الحسن الكوثري، ط2، 1974، ص184.

اتَّسم عهد الأيُّوبيِّين المُتأخِّرين بالمُنافسة والمُنازعة فيما بينهم، حتَّى وقف بعضهم إلى جانب الأعداء الصّليبيِّين للإيقاع بأخيه لينتزع مُلكه، ولم يكن يعلم ما يجني الأعداء من قتال الأُخوة والفرقة، وهذا ما يُؤسف له؛ لأنَّه انتهى بانهيار ما أنجزه الزّنكيُّون والأيُّوبيُّون الأوائل من بناء الوحدة السِّياسيَّة، فضلاً عن استمرار الاحتلال، وأصدق وصف يجمعهم قول القاضي الفاضل: (وأمَّا هذا البيت؛ فإنَّ الآباء منه اتَّفقوا، فملكوا، وإنَّ الأبناء منهم اختلفوا، فهلكوا)[1].

5 ـ المماليك (648 ـ 690 هـ/1250 ـ 1290م):

اختلف الملك المُعظَّم نجل الملك الصّالح أيُّوب مع مماليك أبيه، فعاملهم بقسوة، وأخذهم بالعُنف، كما أساء إلى أرملة أبيه شجرة الدُّرِّ[2] التي قدَّمت له كُلَّ المُساعدة ليستلم السَّلطنة بعد أبيه، ولهذا؛ نجدها تتدبَّر قَتْلَهُ، واستبدَّت بالسُّلطة[3].

وكَرَدٍّ فعل على عمليَّة قَتْل الملك المُعظَّم تحرَّك النّاصر يُوسُف بن العزيز مُحَمَّد بن الظّاهر غازي، فاتح بيت المَقْدس، ومَنْ كان معه من مُلُوك بني أيُّوب منهم الصّالح إسماعيل ابن العادل، وكان أحقُّ الموجودين بالمُلْك؛ من حيثُ السِّنِّ والرِّياسة، ومنهم النّاصر بن المُعظَّم، والملك الأشرف مُوسى إبراهيم بن أسد الدِّين شيركوه صاحب حمص، وتوجَّهوا إلى دمشق، واستطاعوا من السَّيطرة[4] عليها للمُدَّة (648 ـ 658 هـ/ 1250 ـ 1260م)، وخلال هذه المُدَّة، وصل كتاب الملك قُطز للنَّاصر، وعدَّه نائبه بدمشق، وأنَّه لا يُنازعه، ولا يُقاومه، وذلك للوُقُوف أمام الخطر المُشترك الزّاحف من الشّرق[5]، والمُتمثِّل بالمغول، ولهذا؛ سار

(1) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 2/ 331 ـ 332.

(2) هي شجرة الدُّرِّ بنت عبد الله، جارية الملك نجم الدِّين أيُّوب، وأُمُّ ولده خليل، وكانت معه، وكان الملك الصّالح يُحبُّها حُبّاً عظيماً، ويعتمد عليها في أُمُوره، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 373، وما بعدها، مُحَمَّد بن أحمد بن إياس، بدائع الزُّهُور في وقائع الدُّهُور، ط1، مصر، 1911، 1/ 85.

(3) ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 373.

(4) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 191.

(5) يذكر بعض الدّارسين ـ نقلاً عن النُّويري ـ أنَّ الملك النّاصر قد زار هُولاكو، وسأله عن مدى استعداد القُوّات المصريَّة لصدِّ جحافل المغول، فأجابه مُوهماً إيَّاه بأنَّها ضعيفة، ولا تحتاج إلى قُوَّة كبيرة لكَسْرها، وقد أخذ هُولاكو بذلك، وترك مع قائد جيشه قُوَّة قليلة، وبذلك خدم النّاصر المُقاومة العربيَّة خدمة كبيرة، لا يخفى أنَّ الاستعدادات المصريَّة كانت على درجة عالية من القُوَّة والتّدريب، ونحنُ لم يتبيَّن لنا مدى علاقة الملك النّاصر مع هُولاكو حتَّى يسأله مثل هذا السُّؤال المُهمِّ من جهة، ولم يتبيَّن لنا أثر زيارة النّاصر لهُولاكو من جهة أُخرى، عجمي محمود الجنابي، المُقاومة العربيَّة للغزو المغولي حتَّى عين جالوت، أُطروحة دكتُوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، بغداد، 1990، ص187.

النّاصر إلـى برزة[1] ، لُمواجهـة المُحتلّيْن ، بعـد أنْ علـم بسيطرتهم على حلب ، وكَتَبَ إلى صاحب الكرك والمُظفّر قُطز ، ولكنّ النّاصر توجّس خيفة منهم ، فوجد من مصلحته أنْ يستقرّ بالقلعة ، ويعتصم بها[2] ، وعلى أثر ذلك ؛ توجّه وفد من النّصارى إلى هُولاكو ، وطلبوا منـه الأمان على أنْ تُفتح له باب تُوما ، فدخلوا دمشق ومعهم النّصـارى حاملي صليـب المسيـح ، وهُم يُنادون (ظهر الله ، الدِّين الصَّحيح دين المسيح) ويذمُّون دين الإسلام وأهله[3] .

هكذا صارت دمشق بيد الغُزاة المغـول ، وظلّـت ، إلـى أنْ جـاء المُظفّـر قُطـز مـن مصـر ، واستعادها بعد معركة عيْن جالوت سنة 658 هـ/ 1260م ، أمَّا وضع المماليك بصُورة عامّـة فـي مصر ؛ فقد انتقل المُلك إلى ملكتهم شجرة الدُّرّ ، التي استغلّت بالحُكْم ، ونالت تـأييد الأُمـراء المماليك ، ثُمّ تزوّجت مـن المُظفّـر قُطـز[4] ، فـانتقلت السَّـلطنة إليـه فـي سـنة 657 هـ/ 1259م ، وكان في تلك المُدَّة قد احتلّ المغول بلاد الشَّام كما أشرنا سابقاً ، في سنة 657 هـ/ 1259م ، ممّـا كان سبباً في دفع قُطز لجيشه بالتَّوجُّه إلى بلاد الشَّام لُمهاجمة المُحتلّين المغـول ، فكـانت معركـة عيْن جالوت سنة 658 هـ/ 1260م ، التي ألحـق بـها الجيـش المصـري بـالمُعتدين المغـول الهزيمـة ، وكانت ـ بحقٍّ ـ معركـة فاصلـة ، أوقفـت الخطـر فـي دولـة الإسـلام ، ودخـل دمشـق فـي أُبّهـة واحتفال ، وفرح به النَّـاس فرحـاً شـديداً ، ودعـوا لـه دُعـاء كثيـراً[5] . وطـهّر بـلاد الشَّـام مـن فُلُولهم ، ووحَّدها من جديد[6] ؛ حيثُ قام بترتيب أُمُور الشَّام ، واستناب بدمشـق الأمير عـزّ الدِّين سنقر الكبير ، بعدها ؛ خرج قـافلاً إلـى مصـر ، وفـي طريقـه داهمَتْـهُ جماعـة كـانت قـد اتّفقت مع الأمير بيبرس البنداري على قَتْله[7] .

---

(1) وهي قرية من قُرى الغُوطة شمالي دمشق ، الحموي ، مُعجم البُلدان 1/ 563 .

(2) المقريزي ، السُّلُوك ، 2/ 418 ، وما بعدها .

(3) ابن كثير ، البداية والنّهاية ، 13/ 232 .

(4) سيف الدِّين التُّركي أحد مماليك الملك الصّالح أيُّوب الكـامل بـن الملـك المُظفَّـر سيـف الدِّيـن مُظفَّـر بـن عبـد الله المغري ، وهُو ثالث السَّـلاطين المماليك ، بعـد المُعزّ والمنصـور ، ابـن كثيـر ، البدايـة والنّهايـة ، 13/ 238 ، ابـن تغـري بردي ، النُّجُوم الزَّاهرة ، 7/ 72 .

(5) ابن كثير ، البداية والنّهاية ، 13/ 235 .

(6) استولى التّتر على دمشق سنة 657 ـ 658 هـ ، ووضعوا المنـاجيق علـى القلعـة وغربهـا ، وضربـوا حيطانـها ، وأخـذوا حجارها ، ورموا المدينة بها ، فهدَّموا الكثير من شُرفها ، وتدانت للسُّقُوط ، ابن كثير ، البداية والنّهاية ، 13/ 232 .

(7) ابن تغري بردي ، النُّجُوم الزَّاهرة ، 6/ 83 .

استطاع الظّاهر بيبرس[1] الذي خلف قُطز سنة 658 هـ/ 1260م، أنْ يُعيد الوحدة العربيَّة بين مصر والشَّام، وفي عهده؛ تواردت الأخبار - وهُو بدمشق - بزحف جديد قامت به طلائع التّتار على بلاد الشَّام، فتوجَّه - أوَّلاً - إلى الرّحبة، ومنها إلى حمص، لكنَّهم فرُّوا من لقائه، وظلَّت الشَّام مُوحَّدة طوال مُدَّة حياته، إلى وفاته سنة 676 هـ/ 1277م[2].

خلفه ابنه مُحَمَّد السّعيد[3]، لكنَّه خُلع بعد عامَيْن، فتولَّى أخوه العادل سلامش[4] السَّلطنة من بعده سنة 678 هـ/ 1279م، وكان في السّابعة من عُمره، فاستبدَّ المنصور قلاوون[5]، وخلعه بعد مائة يوم، ونفاه إلى الكرك.

ويُعَدُّ المنصور قلاوون من السَّلاطين الذين أسهموا في توطيد سُلطة دمشق، بالرَّغم من خُرُوج نائبه عليه الأمير سنقر الأشقر[6]، والذي أعلن نفسه ملكاً على دمشق، بعد أنْ نال تأييد الأُمراء والقُضاة والأعيان ورُؤساء البلد، وبناء على ذلك؛ أرسل المنصور جيشاً كثيفاً ألحق الهزيمة بعسكر سنقر، فأعاد - بذلك - وحدة مصر والشَّام من جديد[7].

ومن الجدير بالذِّكْر أنَّ دمشق - طيلة الحُكم المملوكي (648 - 690 هـ/ 1250 - 1290م) -، كانت تابعة لمصر في إدارتها بصُورة مُباشرة، وكان نُـوَّاب أُمراء المماليك[8] يُسيِّرون السُّلطة

(1) هُو الأسد الضّاري الملك الظّاهر رُكن الدَّولة أبو الفُتُوح بيبرس بن عبد الله البنداري الصّالحي التُّركي، تُوفِّي سنة 676 هـ، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 235، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 7/ 94.

(2) ابن شاكر الكتبي، عُيُون التّواريخ، 21/ 135.

(3) وهُو ناصر الدِّين أبو المعالي مُحَمَّد المُلقَّب السّعيد، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 289، شمس الدِّين مُحَمَّد الذّهبي، دُول الإسلام، ط1، حيدر أباد الدّكن، 1365، 2/ 234 سعيد عبد الفتَّاح عاشور، الظّاهر بيبرس القاهرة، 1963، ص161.

(4) تقلَّد الملك العادل بدر الدِّين سلامش الحُكْم، بعد خَلْع السّعيد نفسه، مُقابل تعويضه بالكرك والشّويك والصّفر سنة، اشترط أنْ يكون سيف الدَّولة قلاوون أتابكه، ابن الأثير، الكامل، 13/ 305.

(5) وهُو أتابك بدر الدِّين سلامش، ولقبه الملك المنصور، وتمَّت له البيعة، وكان قد وضع سنقر الأشقر نائبه على دمشق، وحرص على أخذ البيعة له، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 305 - 306.

(6) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 306.

(7) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص115.

(8) انظر المُلحق الخاصَّ بأسماء الحُكَّام والأُمراء والنُّوَّاب، رَقْم (1)، 249.

فيها، بعد أنْ يتمَّ تعيينهم من مصر، ويرى ابن فضل الله العُمري في كتابه مسالك الأبصـار، أنَّ حُكَّام الأقاليم الشَّامية كانوا يُلقَّبون بلقب أمير، في حين كان حاكم دمشق يُلقَّب أمير الأُمراء، وهذه كناية عن أهمِّيَّة دمشق بين الولايات الشَّاميَّة. وهكذا شغلت هذه الفترة بالنُّظُم السِّياسيَّة المُتوالية التي نهضت بأعباء تحرير البلاد العربيَّة الإسلاميَّة من الغُزاة الصّليبيِّيْن والتّتار، حتَّى تكلَّل الأمر بالنّصر في عهد دولة المماليك.

الفصل الثَّاني:

فئات المُجتمع والتّركيب السُّكَّاني في دمشق

1 ـ فئة الحُكَّام.

2 ـ فئة رجال الدِّين.

3 ـ فئة أرباب الفكْر والقلم.

4 ـ فئة التُّجَّار.

5 ـ فئة الصُّنَّاع.

6 ـ فئة الفلاَّحين.

7 ـ فئة أهل الذِّمَّة.

8 ـ فئة القبائل العربيَّة (الأعراب).

9 ـ فئة الأحداث (الفتوة).

10 ـ عناصر السُّكَّان الأُخرى.

كانت وُجهات نظر الباحثين مُتباينة في تصنيف المُجتمع، وذهبوا في ذلك مذاهب مُختلفة، فهُو في نَظَر صاحب كتاب الحُرُوف[1]، يتكوَّن من ثلاث طبقات: وهي طبقة الفلاسفة، وطبقة عُلماء الدِّين، وطبقة العامَّة والجُمهُور، التي لا تحتاج في حياتها إلى استخدام قواها العقليَّة من تفكير أو تعقُّل، بل تقتصر على حفظ ما رُسم لها، وفي مكان آخر، يقسم طبقات المُجتمع تقسيماً على قُدرات الأفراد العقليَّة، وهُم:

أ ـ الأفاضل الذين هُم من ذوي الآراء في الأُمُور العظام.

ب ـ حَمَلَة الدِّين، وذوو الألسنة؛ البُلغاء والشُّعراء والكُتَّاب، ومَنْ يجري مجراهم.

ت ـ المُقدَّرون، وهُم الحُسَّاب والمُهندسون والشُّعراء والأطبَّاء، ومَنْ يلتحق بطبقتهم.

ث ـ المُجاهدون والمُقاتلون والحَفَظَة، ومَنْ يتَّصل بطبقتهم.

ج ـ الماليُّون (أيْ مُكتسبو الأموال) من فلاَّحين ورُعاة وباعة، ومَنْ نُسب إليهم، وفي الخُلاصة؛ تكون هرميَّة المُجتمع في نَظَر الفارابي قائمة على أساس الملكات الإداريَّة، وهي الصِّناعات، وما شاكلها، وليس على أساس توزيع الثَّروات وامتلاك وسائل الإنتاج الأساسيَّة، على أنَّ الإنسان باستطاعته أنْ ينتقل عبر الطَّبقات بجُهُوده[2]، في حين نجد أخوان الصَّفا، قد قسَّموا المُجتمع إلى تسع طوائف، وهي:

أ ـ طائفة أصحاب الشَّرائع والتَّنبُّؤات وأصحاب النَّواميس.

ب ـ أهل العلم والحُكماء وأصحاب الرِّياضيَّات.

ج ـ المُلُوك والسَّلاطين والأُمراء وأصحاب السِّياسات والمُتعلِّقة بخدمتهم.

د ـ البنَّاؤون والزُّرَّاع، وذلك بسبب نظرتهم في الإنتاج والموادِّ الطَّبيعيَّة.

هـ ـ أصحاب الحِرَف والمُصلحين للأمتعة.

---

(1) مُحَمَّد بن مُحَمَّد الفارابي، الحُرُوف، بعناية مُحسن مهدي، 1970، ص65 ـ 66، 133 ـ 134.

(2) عبد السَّلام العالي، الفلسفة السِّياسيَّة عند الفارابي، بَيْرُوت، 1979، ص73 ـ 74.

و ـ التُّجَّار والباعة والمُسافرون والمُستوردون.

ز ـ الخَدَم.

ح ـ الضُّعفاء.

ط ـ السُّؤَّال والمُكدُّون وأشكالهم[1].

وقيل: إنَّ مُعاوية قال لصعصعة بن صوحان: صفْ لي الدُّنيا، فقال: (خَلَقَ الله النَّاس أطواراً، فطائفة للسِّياسة، وطائفة للفقه والسُّنَّة، وطائفة للبأس والنّجدة، والآخرون بين ذلك يكدرون الماء، ويقلون السّعر)[2].

كما صنَّف العامري المُجتمع إلى طبقات، هي:

1 ـ صنف المُلُوك أعزَّة وولاة المنابر والأسر.

2 ـ وصنف الغُزاة.

3ـ وصنف الجُمهُور من أُمناء العرب، المُقيمين بديارهم، الذين اكتسبوا شرف الانتساب[3].

بينما قسَّمه السّبكي إلى سبعة أقسام (من حيثُ أفراده، وعناصر ووظائف كُلُّ فرد، وما ينبغي عليه مُبتدئاً بالسُّلطان، ومُنتهياً بأرباب الحِرَف)[4].

أمَّا المقريزي؛ فقد قسَّمه تقسيماً اقتصاديَّاً إلى سبعة أقسام: فقد جعل الأوَّل لأهل الدَّولة، والثّاني للتُّجَّار وأهل النّعمة والرّفاه، والثّالث للباعة ومُتوسِّطي الحال من أهل السُّوق، والرّابع للفلاَّحين، والخامس للفُقراء، وهُم جُلُّ الفُقهاء وطُلاَّب العلم، والسّادس أرباب الصُّنَّاع، والسّابع ذوي الحاجة والمسكنة، وهُم السُّؤَّال الذين يتكفَّفون من النَّاس،

---

(1) رسائل أخوان الصّفا، دار صادر، بَيْرُوت، 1957، 3/ 348 ـ 426.

(2) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، القاهرة، 1965، 2/ 193. أبو حيَّان التّوحيدي، البصائر والذّخائر، تحقيق الكيلاني، دمشق، 1964، 1/ 48.

(3) مُحَمَّد بن يُوسُف العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، بعناية غراب، 1964، ص173.

(4) تاج الدِّين نصر السّبكي، مُعيد النّعم ومُبيد النّقم، تحقيق مُحَمَّد علي النَّجَّار وآخرون، القاهرة، 1948، ص5، وما بعدها، وقد نهجْنَا هذا الأُسلُوب في هذا الفصل.

ويعيشون عليهم[1]، في حين يرى ابن خلدون أنَّ المُجتمع يتكوَّن من أساسَيْن: هُما السُّلطان والرّعيَّة، والسُّلطان هُو المالك للرَّعيَّة، القائم في الأُمور عليها (فالسُّلطان مَنْ له رعيَّة، والرّعيَّة مَنْ لها سُلطان)[2]، بينما يروي الصّابي: أنَّ عوامل أُخرى تلعب في تكوين طبقات المُجتمع كالسُّلطة والثّروة والمهنة[3]، وربَّما كان يتَّصل في هذا الجانب بمَنْ سبقه من الكُتَّاب[4].

وعليه؛ فإنَّ فلاسفة المُسلمين، وأهل الفكْر منهم - في عُمُومهم - يرون: أنَّ القُدرات العقليَّة والاقتصاديَّة والإداريَّة والمهنيَّة والرّسميَّة والعقائديَّة، تصحُّ لأنْ تكون أُسساً لتقسيم المُجتمع، ومن هذا المزيج الفكْري رأينا المُجتمع الدِّمشقي، فضلاً على سيادة العُنصر العربي فيه من حيثُ صفته العامَّة، إلاَّ أنَّه - طبقيّاً - يتألَّف من الفئات الآتية:

1 - فئة الحُكَّام:

نقصد بهذه الفئة: السَّلاطين، وأُمراء الأنظمة السِّياسيَّة، ومَنْ يُحسب بطبقتهم من عوائلهم ونُوَّابهم ووُزرائهم وذوي الجاه والوُلاة والمُلتحقين بخدمة الحُكَّام، ممَّن شملتْهُم مُدَّة البحث عن دمشق، وهي في ظلِّ الخلافة الفاطميَّة الحُكَّام السّلاجقة، والأُمراء الزّنكيِّيْن والأيُّوبيِّيْن والمماليك. وقد اختلفت آثار هذه الفئة باختلاف توجُّهاتها؛ من حيثُ اهتمامها بالمصالح العامَّة للمُجتمع، وإهمالها هذا الجانب لأسباب داخليَّة أو خارجيَّة أو ذاتيَّة، نستعرضها بالصُّور التَّالية: فقد كانت دمشق تابعة للحُكْم الفاطمي في مصر للمُدَّة (359 - 468 هـ/ 969 - 1075م)؛ حيثُ أُقيمت - خلالها - الخُطْبة للخليفة الفاطمي، وقُطعت عن الخُلفاء العبَّاسيِّيْن[5]، ولكنَّ نُفُوذ الفاطميِّيْن انكمش في دمشق سنة (468 هـ/ 1075م)، حين

---

(1) أحمد بن علي المقريزي، إغاثة الأُمَّة بكَشْف الغُمَّة، تحقيق مُحَمَّد مُصطفى زيادة وجمال الدِّين الشَّيَّال، مصر، 930، ص72 - 73.

(2) عبد الرّحمن بن خلدون، المُقدِّمة، المكتبة التِّجاريَّة، مصر، ت، ص88. أدب الدُّوَل، ص62.

(3) هلال بن مُحسن الصّابي، رُسُوم دار الخلافة، بغداد، 1964، ص90 - 95.

(4) عَمْرو بن بَحر الجاحظ، البُخلاء، القاهرة، 1971، ص125، كتاب الحيوان، القاهرة، 1947، 3/ 36، الرّسائل، رسالة في مناقب التُّرك، بعناية هارون، القاهرة، 1964، 1/ 71 - 72، الحسن بن علي التّنوخي، نشوان المُحاضرة بعناية عبُّود الشّالجي، بَيْرُوت، 1971، 251، الفرج بعد الشِّدَّة، بعناية عبُّود الشّالجي، بَيْرُوت، 1978، شارل بلا، الجاحظ وبيئته البصرة، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دمشق 1961، ص95.

(5) ابن الأثير، الكامل، 8/ 122، ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 120، خاشع المعاضيدي، الحياة السّياسيَّة، ص90.

استطاع أتشز[1] التُّركماني، السَّيطرة عليها، وأنهى - بذلك - حُكْم الفاطميِّين على يد التُّركمان[2] الذين حكموا دمشق للفترة (468 - 471 هـ/ 1075 - 1078م).

وفي ظلِّ الحُكْم السّلجوقي الذي امتدَّ بين (471 - 541 هـ/ 1078 - 1146م) برز دور الحُكَّام السّلاجقة كقُوَّة ضارية في البلاد؛ إذْ استطاعت من بسط سيطرتها على مناطق بلاد الشَّام، ومنها دمشق، فضلاً عن انكماش القوى العربيَّة[3] أمامها، وقد ظهر دورهم - بوُضُوح - عند تعرُّض البلاد للهَجْمة الصَّليبيَّة؛ إذْ ظهرت قُوَّتهم وشجاعتهم، ولهذا؛ استخدم الحُكَّام الألقاب العربيَّة التي تدلُّ على الهيبة والفخر[4].

استطاع الزّنكيُّون بقيادة نُور الدِّين السَّيطرة على دمشق سنة (541هـ/ 1146م)، وبذلك؛ أنهى حُكْم السّلاجقة، وخلال مُدَّة حُكْمه استطاع من إعادة الطّمأنينة إلى المُسلمين[5] بعد تفاقم الخطر الإفرنجي، وتهديدهم لحُدُود الدَّولة الإسلاميَّة، فقد استطاع نُور الدِّين زنكي من تحرير الأراضي العربيَّة، ابتداءً من دمشق، وقد اتَّبع سياسة المُسالمة مع أصحابها، وأخذ يدعم الوحدة أمام الإفرنج، حتَّى وفاته سنة 569/ 1173، وهذا ما جعله يُجنِّد قوى المنطقة من عرب وسلاجقة وأكراد وأتراك[6] وغيرهم.

وبناء على هذه الظُّرُوف الصّعبة، عاشت فئة الحُكَّام في عهد نُور الدِّين حالة من التَّقشُّف والزُّهد، وذلك لظُرُوف البلد في مُواجهة التّهديدات الخارجيَّة، فقد استطاعت من تحقيق التّكافل الاجتماعي للتَّخفيف من مُعاناة النَّاس عن طريق الصَّدقات والإحسان، فقد ذكر ابن

---

(1) وأتشز بن أوف الخوارزمي، ويُلقَّب بالمُعظَّم، كما عُرف بأقسيس في أكثر المصادر، ابن الأثير، الكامل، 8/ 126.

(2) حَكَمَ أتشز دمشق ثلاث سنوات، وقَتَلَهُ تتش سنة 471، ابن الأثير، الكامل، 8/ 126.

(3) ومن القوى العربيَّة في تلك المُدَّة بني عقيل في الموصل، وبني مرداس في حلب، وبنو الجرَّاح في فلسطين، انظر خاشع المعاضيدي، الحياة السِّياسيَّة ص7، وما بعدها، ص52، وما بعدها، ص64، وما بعدها.

(4) تلقَّب تتش تاج المُلوك، وتلقَّب رُضوان بفخر المُلوك، وتلقَّب دقَّاق شمس المُلوك، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص112، 137، 130، 142، 145.

(5) استطاع عماد الدِّين زنكي - والد نُور الدِّين - من تحرير مناطق كثيرة؛ أهمَّها استرداد الرّها، ابن الأثير، الكامل، 8/ 326، 329، 131، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 2/ 79.

(6) آق سنقر جدُّ نُور الدِّين، هُو مملوك السُّلطان السّلجوقي عضد الدَّولة ألب أرسلان، فهُم - إذنْ - مماليك سلاجقة سيطروا على مقاليد الحُكْم في بغداد، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 4/ 271.

واصل أنَّه (ما تصدَّق به على الفُقَراء في شهر زاد عن ثلاثين ألف دينار)[1]، كما أعلن أمام القوم عن إسقاطه رُسُوم دار البطِّيخ[2] وسُوق النَّقل وضمان الأنهار، وكَتَبَ بذلك، وقُرأ على المنبر بعد صلاة الجُمعة، فاستبشر النَّاس بصلاح الحال، وإعلان النَّاس برفع الدُّعاء إلى الله تعالى بدوام أيَّامه[3]، وزعم أنَّ إسقاطه المُكُوس والضَّرائب كان تقرُّباً إلى الله تعالى[4].

لقد زخر تاريخ نُور الدِّين بأعماله الخيريَّة الكثيرة في كافَّة المجالات الاجتماعيَّة، فقد روى ابن واصل بأنَّه: (تقدَّم بإحصاء عن مَحَالِّ دمشق من المساجد الخراب، فأناف عن مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كُلِّه، وعيَّن له وقوفاً)[5]، وبنى بدمشق - أيضاً - دار الحديث، وأوقف عليه الكثير من الأوقاف، والتي وصفها ابن واصل بقوله: (أوَّل دار للحديث سمعنا عنه)[6].

كما اهتمَّ ببناء أسوار بلاده وقلاعها، ومنها دمشق التي أحكم بناءها، وأخرج الأموال الكثيرة من مصالحها، ولم يكن يُحاسب قُضاته على شيء من الوُقُوف، ويقول (أنا قلَّدته أنْ يتصرَّف فيها كما يجب، ثُمَّ ما فَضُلَ من مصاريفها وشُرُوط واقفيها يُصرف على بناء الأسوار وخُطط الثُّغُور)[7].

ومن منافذ التَّكامل الاجتماعي الأُخرى - في نَظَر نور الدِّين - الاهتمام بالعلم ومُؤسَّساته ودُور الصُّوفيَّة، فقد بنى في دمشق المدرسة النُّوريَّة، والتي تُعرَف بالمدرسة النُّوريَّة الصَّغيرة[8]،

---

(1) كما وكان يُحضر جماعة من البُلدان، فيسألهم عن المُحتاجين، حتَّى يصرف إليهم صدقاتهم من نفقته الخاصَّة، وممَّا يحصل عليه من مبالغ أهل الذِّمَّة، إضافة إلى ذلك، فقد كان يصرف إليهم الكسوة، وما يحتاجونه من أُجرة خياطة، وغيرها، وكان يرى أنْ تصل الصَّدقات في آخر كُلِّ شهر، ولم يكتف بذلك، بل شمل الهدايا التي تُهدى إليه من قِبَل المُلُوك، وغيرهم، فكان يُرسلها إلى مجلس القضاء، ليبعها، ويُنفقها في سبيل الله، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 280 - 281.

(2) وهُو المكان الذي يُباع فيه البطِّيخ، ثُمَّ اتَّسع استعماله؛ ليُطلق على المكان الذي تُباع فيه الفواكه، مُحَمَّد حلمي، الرَّوضتَيْن، 1/ 241 - حاشية(5).

(3) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 241.

(4) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 550.

(5) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 181.

(6) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 284.

(7) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 281.

(8) عبد القادر بن مُحَمَّد النّعيمي، الدَّارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، دمشق، 1951، 1/ 606.

والتي وَصَفَها ابن جُبير، بقوله: (ومن أحسن مدارس الدُّنيا، منظر مدرسة نُور الدِّين رحمه الله، وبها قبره، وهي قصر من القُصُور الأنيقة، ينصبُّ فيها الماء من شاذروان، وسط نهر عظيم، ثُمَّ يمتدُّ الماء في ساقية مُستطيلة، إلى أنْ يقع في صهريج كبير وسط الدّار...)[1].

كما بنى بالمدينة المُستشفى النُّوري، المعروفة في غاية الحُسن والجمال، ووقف عليه الوُقُوف الجليلة[2].

وبنى - أيضاً - الرّبط والخوانق للصُّوفيَّة في جميع البلاد، وأدرَّ عليها الإيرادات الكثيرة، وكان يُحضر مشايخ الصُّوفيَّة، ويُقرِّبهم، ويُدنيهم، ويتواضع لهُم، وبنى - أيضاً - الخانات على الطُّرُق، فحقَّق أمن النَّاس وأموالهم واستقرارهم في أيَّام الشّتاء من البرد والمطر[3]، بالإضافة إلى بنائه الأبراج على الطُّرُق، بين المُسلمين والإفرنج، للدِّفاع والحماية، وجعل بها مَنْ يحفظها من المُقاتلة ومعهم الطُّيُور الهوادي، فإذا رأوا من العدوِّ أحداً أرسلوا الطُّيُور استعداداً وحذراً واحتياطاً لأنفسهم، ولم يبلغ العدوُّ منهم غرضاً[4].

ويُنسب إليه أنَّه بنى مكاتب الأيتام، وأجرى عليها وعلى مُعلِّميها العطايات الوافرة[5]، روى أنَّه بنى أوَّل دار كشف، وسمَّاه دار العدل، وكان السّبب[6] في بنائها تجاوز أسد الدِّين شيركوه على حُقُوق النّاس، فقد ذكر ابن واصل جواب أسد الدِّين لَمَّا علم ببناء الدّار بما فيه: (اعلموا أنَّ نُور الدِّين ما أمر ببناء هذه الدّار إلاَّ بسببي وحدي...)[7]، وقد لقيتْ هذه الدّار دَعْماً من لدن نُور الدِّين فيما ذكر (أنَّه كان يلعب الكُرة، فرأى إنساناً يُحدِّث آخر،

---

(1) الرّحلة، ص256.

(2) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 283.

(3) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص171.

(4) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 283.

(5) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 284، النّعيمي، الدّارس، 1/ 99.

(6) لَمَّا طال مقام نُور الدِّين بدمشق، وأقام أمراؤه ومنهم أسد الدِّين شيركوه، وكان أكبر أمير معه، وقد عظم شأنه وعلا مكانه، حتَّى صار شريكاً له في المُلك؛ اقتنى الأملاك، وأكثر فيها؛ إذْ كثرت الشّكاوى إلى كمال الدِّين الذي رفع - بدوره - ذلك إلى نُور الدِّين، فأمر أنْ تُنشأ دار العدل، عبد الرّحمن بن إسماعيل أبو شامة، عُيُون الرَّوضتَيْن، تحقيق أحمد البسيوني، دمشق، 1991، 1/ 260.

(7) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 8، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 268.

ويُشير بيده، فأرسل إليه، وسأله عن حاله، فقال: (لي مع الملك العادل حكُومة، هذا غُلام القاضي ليُحضره إلى مجلس الحُكم يُحاكمني على الملك الفلاني)[1]، فعاد الرَّسول إليه، ولم يتجاسر أنْ يُعرِّفه بمقالة الرَّجل، وكتمه الأمر، ولكنَّ نُور الدِّين لم يقبل منه إلاَّ الحقَّ، فألقى الكُرة من يده، وترك الميدان مُتوجِّهاً إلى القاضي كمال الدِّين الشّهرزوري، فقال له: (إنِّي جئت مُتحاكماً، فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري، فلمَّا حضر ساواه بخصمه، وحاكمه، فلم يثبت عليه حقٌّ، وثبَّت المُلك لنُور الدِّين، فقال حينئذ للقاضي ولمَنْ معه: هل ثبتت له عندي حقٌّ؟ فقالوا: لا، فقال: اشهدوا أنِّي قد وهبتُهُ هذا المُلك الذي حاكمني عليه، وحوله دُوني، وقد كُنتُ أعلم أنَّه لا حقَّ له عندي، وإنَّما أحضرت معه لئلاَّ يظنَّ أنِّي ظلمتُهُ، فحين ظهر أنَّ الحقَّ لي وهبتُهُ له)[2]، فإذا كان نُور الدِّين يحترم هذه الدّار بهذه الدّرجة، فكيف - إذنْ - بباقي أفراد الفئة الحاكمة أو المُجتمع بأسره، وذُكر أنَّه دخل يوماً إلى خزانة بيت المال، فوجد مالاً لا يستحقُّه البيت، فسأل عنه، فقيل: إنَّه مُرسَل من القاضي كمال الدِّين، فأمر بإرجاعه، لكنَّ القاضي أعاده إلى مكانه، وطلب من مسؤول البيت أنْ يُخبره، فلمَّا وجد المال أنكر جواب القاضي كمال الدِّين، فردَّه، وقال لرسوله: (قُل لكمال الدِّين أنتَ تقدر على حمل هذا، أمَّا أنا؛ فرقبتي رقيقة لا أطيق حمله، والمُخاصمة عليه بين يدي الله، يُعاد قولاً واحداً، فأعاده)[3]، ولهذا؛ نجد أبا شامة، يُلخِّص أعماله بقوله: (وألقى الإسلام جرانه بدمشق، وثبَّت أوتاده، وأيقن الكُفَّار بالبوار، ووهنوا، واستكانوا)[4]، وبالمُقابل؛ نجد الخليفة العبَّاسي يُقلِّده أمارة الشَّام ومصر[5].

وفي دولة الأيُّوبيِّين التي ابتدأها صلاح الدِّين، والتي حكمت للمُدَّة (570 - 658 هـ/ 1174 - 1267م)، تخلَّلتها حُرُوبهم مع الصّليبيِّين، وقد استمرَّ صلاح الدِّين بمنهجه في مُواجهة الصّليبيِّين، فقد أكمل أعمال نُور الدِّين من ناحية، وإضافة إليها بهذا المعنى من

(1) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 266.
(2) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 267.
(3) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 267.
(4) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 241.
(5) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 505.

ناحية أُخرى[1]، فضلاً عن اهتمامه بالإصلاح الاجتماعي والعُمراني والثّقافي والدِّيني والحرص على مال المُسلمين، فقد عُرف بتقواه، وحُبِّه للفُقراء وأهل المعرفة، والبناء والعمارة، فمن اهتمامه أنَّه أنشأ في دمشق مدارس لتدريس العُلُوم على المذهب المالكي، كالمدرسة الصّلاحيَّة[2] التي أنشأها بالقُرب من المُستشفى النُّوري[3].

ومن وسائله في الاهتمام بالدِّين الإسلامي والمُسلمين، أنَّه بنى العديد من المساجد والخوانق[4]، والخانات لإيواء المُسافرين، فقد أمر سنة 567هـ/ 1171م، بتحويل الكثير من السُّجُون إلى مساجد[5]، كما أمر بتجديد مسجدَيْن أحدهما يُعرف بسُوقيَّة باب الصّغير، والآخر بالباب الشَّرقي من دمشق يُعرَف بمسجد النّخلة[6].

كما بنى الخانقاه النّاصريَّة نسبة إليه في دمشق، وموقعها خلف قيساريَّة الصّرف، وكانت داره عندما كان والياً على دمشق[7]، ويبدو أنَّ اهتمامه ببناء دُور الصُّوفيَّة قد انتقل إلى أُخته ستّ الشَّام التي أنشأت الخانقاه الحُساميَّة[8]، ولم يقف الأمر عند إنشاء المساجد ودُور العلم للصُّوفيَّة فحسب، بل حظي العُلماء والفُقهاء والصُّوفيَّة بالمكانة اللائقة، وأغدق عليهم كرمه وإحسانه، وكان إذا سمع بأحدهم زاره في داره، ليستزد من علمه.

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 9/ 131.

(2) وقد نهج هذا النّهج تقيّ الدِّين بن شاهنشاه، ابن أخي صلاح الدِّين، ببناء المدرسة التّقويَّة، والتي تُسمَّى بنظاميَّة الشَّام، وهي من المدارس السّتّ المشهورة في دمشق، والتي من مُدرِّسيها فخر الدِّين ابن عساكر الذي انتهت إليه رئاسة الشّافعيَّة بالشّام، أحمد أحمد بدوي، الحياة العقليَّة عصر الحُرُوب الصّليبيَّة، القاهرة، ب، ت، دُريد عبد القادر نُوري، سياسة صلاح الدِّين الأيُّوبي في مصر والشّام، بغداد، 1976، ص435.

(3) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص253.

(4) وهي جمع خانقاه، وهي من الأماكن التي يُنشئها السُّلطان، وذوي اليسار، للمُتصوِّفة، وكانت تحتوي على وسائل الرَّاحة الكاملة، وذلك من أجل التَّفرُّغ للعبادة والتَّصوُّف، بعد أنْ يتخلَّص من رقّ العيش، عبدالمُطَّلب حمزة، الحياة الفكْريَّة في مصر في العصر الأيُّوبي والمملوكي، القاهرة، 1968، ص104، دُريد عبد القادر، سياسة صلاح الدِّين، ص437.

(5) أبي العبَّاس المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكْر الخُطط والآثار، بغداد، 1970، 2/ 187.

(6) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص76.

(7) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص193.

(8) وهي الخانقاه التي أنشأتها ستُّ الشَّام أُمُّ الأمير حُسام الدِّين، المُتوفَّاة سنة 587/ 1191، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص191.

أمَّا المُواصلات؛ فكانت هي الأُخرى من اهتماماته؛ إذْ عمد إلى إنشاء الخانات بوصفها أماكن راحة للمُسافرين، فقد أنشأ خاناً في الطَّريق الواصل بين دمشق وحمص، وصفه لنا ابن جُبير بقوله: (وهُو خان بناه صلاح الدِّين صاحب الشَّام، وهُو في نهاية الوثاقة والحُسن، بباب الحديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطُّرُق كُلِّها، واحتفالهم في تشييدها، وفي هذا الخان ماء جار يتسرَّب إلى سقاية وسط الخان، كأنَّها صهريج...)[1]، وعُمُوماً؛ فإنَّ هذه الخانات هي لحماية المُسافرين من جهة، ولتوفير الرَّاحة والاطمئنان من ناحية أُخرى، كما عَيَّن للغُرباء زاوية بالمسجد الجامع، وعيَّن لهُم أوقافاً كثيرة[2]، وهي استمرار لأعمال نُور الدِّين من قبله، وبذلك يكون قد نهج منهجه في أعمال البرِّ والتَّقوى.

ولهذا؛ استحق تقليد الخليفة بولايته على مصر والشَّام خلفاً شرعيّاً لنُور الدِّين[3].

ولكنَّ الحال اختلفت بعد صلاح الدِّين؛ حيثُ تركَّز اهتمام خُلفائه بالتّرف والبذخ، وهذا ما لاحظناه واضحاً في بذخ الأُمراء والسّلاطين، وإنفاقهم المال على شُؤُونهم الخاصَّة؛ إذْ منح الملك العادل سنة 610 هـ/ 1213م، لطبيبه مُهذّب الدِّين[4]، الذي تولَّى علاجه سبعة آلاف دينار مصريَّة، ولسائر مُلُوك الشّرق وغيرهم الذَّهب والخُلع[5]، وفي هذا السّباق من البذخ والإسراف جهَّز الملك العادل لابنته التي زوَّجها إلى الملك الظّاهر صاحب حلب جهازاً كان من جُملته (ثمانون هاون ذهب برسم المطبخ، ومائة هجين قماش؛ ملبوس وغيره، وثلاثمائة حمل جمل فرش وطرح...)[6]، وتكرَّرت هذه الاحتفالات، والتي تُصرف فيها الأموال الكثيرة للفخر والتّباهي، ففي ختان الملك الصّالح ابنه (خُتن معه أربعمائة غُلام من

---

(1) الرّحلة، ص247، طبعة 1955.

(2) الرّحلة، ص233، 257.

(3) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 640.

(4) العالم الفاضل مُهذَّب الدِّين أبو مُحَمَّد بن علي بن حامد الدّخوار، علاَّمة زمانه، انتهت إليه رئاسة الطِّبِّ، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص728، 736.

(5) ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص730.

(6) عبد الله بن أيبك الدّواداري، كنز الدُّرر وجامع الغُرر، تحقيق سعيد عبد الفتَّاح عاشور/ القاهرة 1962/ 3. 179 / 178.

أولاد كبار الدَّولة... وعُملت وليمة، ما شاهد النَّاس مثلها)[1]، وممَّا يُشير الاستغراب ما ذكر ابن شاكر الكتبي من أنَّ الملك النّاصر (كان يذبح في مطبخه كُلَّ يوم أربعمائة رأس من الغنم، غير الدّجاج والوزِّ وفراخ الحمام والخراف الرُّضَّع والأجدية، فإنَّها لا تُحصى، وكان يُنزل فضلات السّماط (يبيعها) الفرَّاشون والطَّبَّاخون وأرباب النّوالات على باب القلعة بدمشق، بأبخس الأثمان، فكانت تعمُّ أهل دمشق يستغنون بها عن الطّبخ في بُيُوتهم)[2]، وإنْ كُنَّا نستبعد استمرار هذه الحال، فهي دلالة على إمعان النّاصر في بذخه وانصرافه عن شُؤُون النَّاس.

ظهر المماليك، وهُم ينتمون إلى أُصُول مُختلفة[3]؛ إذْ كانوا يشترون بأعداد كبيرة، ويُسلِّمون إلى الطّواش المُشرف على طبقة أجناسهم، ليُؤهِّلهم لخدمة الأُمراء والسّلاطين[4]، لقد اهتمَّ السَّلاطين بأُمُور النَّاس، ومنهم السُّلطان بيبرس الذي طال مقامه في دمشق، وتبيَّن أثره في عدد الأعمال التي قام بها في المدينة، فقد حصَّنها، وجدَّد أبراج القلعة، بعد أنْ تعرَّضت للهدم من قبَل التّتر، وأنفق لأجل ذلك ألف ألف درهم، كما بنى لابنه السُّلطان السّعيد داراً بين الجسر وباب الحديد.

اهتمَّ الظّاهر بيبرس بما يهمُّ الحياة العامَّة في دمشق؛ إذْ بنى فوق بُرج الزّاوية المُطلِّ على الميادين وسُوق الخيل طارمة كبيرة، وبنى - أيضاً - عدداً من الحمَّامات عند باب القلعة الشَّرقي وخارج باب النّصر، وساق إليها الماء من باب النّصر، كما بنى الجسر الخشبي المُوصل بين الميدان وسُوق الخيل، الذي عمَّر بعض جوانبه، وأخيراً؛ بنى دُور يرسم البريديَّة، وأجرى إليهم الماء، ليرفع عنهم عناء النُّزُول لطلب الماء في مُزاحمة النّاس، وتوَّج أعماله بقصر جميل عُرف بالأبلق[5]، والذي اتَّخذه مقرّاً له عند استقراره في دمشق حتَّى وفاته سنة 676 هـ/ 1277م[6].

---

(1) الدّواداري، كنز الدُّرر، 3/ 179.

(2) ابن شاكر الكتبي، عُيُون التّواريخ، 20/ 257.

(3) كان السَّلاطين المماليك من أجناس مُختلفة، من الأتراك والرُّوم والجركس والأرمن وغيرهم، فالملك المُعزُّ تُركماني، والملك المُظفَّر قُطز بن عبد الله تُركي، والملك العادل كتبغا مغولي الأصل، وهكذا، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 211، 238، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 7/ 55.

(4) المقريزي، الخُطط، 2/ 218.

(5) مُحَمَّد بن علي بن شدَّاد، تاريخ الملك الظّاهر، اعتناء أحمد خطيط، بَيْرُوت 1983، ص354 - 355.

(6) ابن شاكر الكتبي، عُيُون التّواريخ، 21/ 135.

وأخيراً ؛ فإنَّ نيابة السَّلطنة وهي أعلى الوظائف في الدَّولة ، ويَعُدُّها ابن فضل الله العُمري سُلطاناً مُختصراً ، وذلك لكونه يتمتَّع بأكثر صلاحيَّات السُّلطان في النِّطاق الإقليمي الذي كلَّفهم به ، وهذا يعني أنَّهم يُشرفون على الجيش في الإقليم والشُّؤون الماليَّة وشُؤون البريد ، ولكنَّهم في بعض المناصب مثل الوزارة والقضاء وكتابة السِّرِّ وأُمراء الجيش ، لم يكونوا يملكون غير حقِّ الاقتراح ، وفيما عدا ذلك ، فإنَّ مُوظَّفي الإقليم كانوا يتبعون نائب الإقليم مُباشرة ، ويبدو أنَّ نائب دمشق يُسمَّى ملك الأُمراء ، وذلك كون دمشق قاعدة المُلك في الشَّام[1] .

ومِمَّنْ يلتحق بخدمة هذه الفئة في قُصُورهم :

ـ الحُماة والأعوان:

الحُماة ؛ وهُم مجموعة الرِّجال الذين يُقيمون بدُور الحماية للسَّلاطين والأُمراء[2] ، وهُم ليسوا من أفراد الجيش النِّظاميّ ، ولا يُستخدمون للأغراض الأُخرى ، إلاَّ عند الحاجة ، وتُنفق عليهم ـ عادةً ـ الأموال الكثيرة ، أمَّا الأعوان ؛ فهُم خاصَّة السُّلطان أو الأمير أو رفاقه ، يُصاحبونه ، ويُجالسونه في المنزل ، ويتقاضون رواتب خاصَّة ، وهُم المُستشارون الذين يستشيرهم الحُكَّام في أحوال الحياة ، وقد يكونون من مشايخ القوم أو أقرباء[3] الحُكَّام وعصبته ، وربَّما شكَّلوا مجلساً للشُّورى والمُناقشة وتبادل الأفكار ، لمُساعدة الحُكَّام في شُؤُون حُكْمهم ، ومن أعوان السَّلاطين الخاصكيَّة والجمدار[4] وأمير جاندر[5] ، والسُّلطان الدّوادار[6] .

---

(1) ابن فضل الله العُمري ، مسالك الأبصار ، ص115 .

(2) وينضمُّ إلى هؤلاء الأعوان حاجب الحُجَّاب وغيرهم ممَّن يُوافقون السُّلطان ، القَلْقَشَنْدي ، صُبح الأعشى ، 4/ 189 .

(3) أحمد رمضان ، المُجتمع ، ص90 ، جُرجي زيدان ، تاريخ التَّمدُّن الإسلامي ، دار الهلال ، ب ، ت ، 5/ 26 .

(4) وتتألَّف من كلمتَيْن ، أحدهما جاما ومعناها الثّوب ، ودار ومعناها مُمسك ، وهُو المُوظَّف المسؤول عن لباس السُّلطان وثيابه ، القَلْقَشَنْدي ، صُبح الأعشى 5/ 459 ، مُحَمَّد مُصطفى ، السُّلُوك ، 1/ 133/ حاشية (1) .

(5) ويتولَّى صاحبها مقام الحاجب ؛ أيْ يستأذن على دُخُول الأُمراء للخدمة ، القَلْقَشَنْدي ، صُبح الأعشى ، 4/ 2 ، مُحَمَّد مُصطفى ، السُّلُوك ، 1/ 133 حاشية (1) .

(6) ومكوَّنة من كلمتَيْن أحدهما الدّو والدّار ، معناها مُمسك ، وصاحبها يحمل دُواة السّلطان ، ويتولَّى أمرها مَنْ يلحق بذلك ، نحو تبليغ الرُّسُل عن السُّلطان أو الأمير ، وتقديم المُشاورة على مَنْ يحضر إلى الباب الشّريف ، القَلْقَشَنْدي ، صُبح الأعشى ، 4/ 19 ، 5/ 462 ، المقريزي ، الخُطط ، 2/ 222 ، مُحَمَّد مُصطفى ، السُّلُوك ، 1/ 141 حاشية (1) .

ـ الجواري[1]:

اهتمَّ الأُمراء والحُكَّام بشراء الجواري، كما يشترون الحلي والجواهر، وربَّما يرجع ذلك لأسباب خاصَّة[2]، حتَّى ضمَّ المُجتمع طائفة كبيرة منهن[3]، ومن الطّبيعي أنْ يَكُنَّ من ربَّات الحُسن ونافذات الكلمة، لأنَّ الجَمَال قُوَّة، والحُبُّ سلاح، فقد لَعبْنَ دوراً في قُصُور الأُمراء والسّلاطين، خاصَّة وأغلبهنَّ على درجة من الكفاءة[4] في أُمُور الحياة، حتَّى إنَّ الملك العادل اختار جارية من جواريه لتُصبح أُمَّاً لابنه، لحُسن إتقانها فنَّ الطّبخ، وإعجابه بطعام قد تناوله بمُناسبة، فكان طريقة في التّعرُّف عليها وزواجه منها[5]، وكذلك زواج الملك الصّالح أيُّوب من شجرة الدُّرّ[6] لكفاءتها ومقدرتها السِّياسيَّة، والتي أثبتت تلك الكفاءة فيما بعد، وعلى أيَّة حال؛ اختلفت مُعاملة السَّلاطين للجواري، حسب الأهداف والمُواصفات، فمنهم مَنْ ينتفع منها ماليَّاً في مجال الغناء[7] والمُوسيقى، أو للحُصُول على منصب أو جاه، أو يستخدمونهنَّ للجاسوسيَّة، وهذا ما فعله الملك المُعظَّم، فعندما قرَّر فريدريك الثَّاني غزو

---

(1) وهي ما يحصل عليهنَّ المُحرِّرون والفاتحون في الحرب، فهُنَّ مُلك الفاتحين، ولو كُنَّ من بنات المُلُوك أو الدَّهَّاقين، يستخدموهنَّ، أو يستولدونهنَّ، أو يتصرَّفون في بيعهنَّ تصرُّف المالك بملكه، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان 1/ 320، جُرجي زيدان، تاريخ التَّمدُّن الإسلامي، 5/ 35.

(2) يرجع ذلك إلى حالة التّفاخر بين الحُكَّام من جهة، وإلى حالة التّرف وتدفُّق الأموال وتراكمها من جهة ثانية، الأصفهاني، الأغاني، 16/ 137، أحمد رمضان، المُجتمع، ص91.

(3) فاق الفاطميُّون سواهم في الإكثار من الجواري، فقد كان في قصر الحاكم (10.000) جارية وخادم، وكانت لأُخته السَّيِّدة الشَّريفة ستُّ المُلك (8000) جارية، منها (1500) من البنات الأبكار، ولَمَّا قبض صلاح الدِّين على قُصُورهم وجد (12.000) نسمة ليس فيهم فَحْل سوى الخليفة وعائلته وأولاده... المقريزي، الخُطط، 1/ 36، 2/ 485، جُرجي زيدان، تاريخ التَّمدُّن، 5/ 135 ـ 136.

(4) كان تعليم الجواري وتَزيُّنهنَّ من أبواب الرِّزق الواسعة في ذلك العصر، حين كان المسؤول عنهنَّ، يُروِّينها الأشعار، ويُلقِّنها الغناء، ويُحفِّظها القُرآن، أو يُعلمهنَّ الأدب والنّحو والعروض، جُرجي زيدان، تاريخ التَّمدُّن، 5/ 36.

(5) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 4/ 279.

(6) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 165، السَّيِّد الباز العريني، الشّرق الأدنى، 1/ 36 ـ 37، أحمد رمضان، المُجتمع، ص91، ص277.

(7) اقتنى المُلُوك والسّلاطين وعلية القوم الجواري للغناء والطّرب، حتَّى أصبحت من الأشياء المألوفة في العصر المملوكي أنْ يكون لكُلِّ ملك أو أمير مجموعة من الجواري، الأصفهاني، الأغاني، 5/ 80، أحمد رمضان، المُجتمع، ص91، ص277.

الشَّام أرسل مَنْ يأتيه بالأخبار، ومن هؤلاء فارس كان على علاقة بـامرأة جميلـة، فاستطاع الملك المُعظَّم استدراجها بهدايا من الثّياب، الحرير، والعنبر، وأشياء كثيرة، وأعلمها عن رغبته في الحُصُول على المعلومات التي تَخُصُّ الإفرنج، فوافقت، ولَمَّا التقى الفارس بها، ووجد عندها الهدايا سألها، فأخبرته، فذُعر أوَّل الأمر، ولكنَّها مازالت تُلاطفه، وتتودَّد إليه، حتَّى اتَّفقا على مُساعدة الملك المُعظَّم، فكان إذا أتاه خطاب بعد ذلك من الإمبراطور، حمله لهذه المرأة التي بدورها تنقله إلى الملك المُعظَّم[1].

ـ العبيد:

ازداد عدد العبيد[2] في دُور المُلُوك والأُمراء في بلاد الشَّام، بازدياد مصادرهم من الغنائم والشِّراء وغيرها، حتَّى شكَّلوا طبقات وفرَقاً[3]، تُعرَف بأسماء خاصَّة، فمنهم التُّركي والرُّومي والأرمني والسّندي...إلخ.

لقد تعدَّدت مهام هؤلاء العبيد في خدمتهم لأسيادهم، فمنهم مَنْ كان في القسم الخاصِّ بالحريم، وهُم ـ في الغالب ـ من الخصيان[4]، ومن هؤلاء مَنْ تدرَّج في مسؤوليَّاته حتَّى بلغ أعلاها، فقد كان مُؤتمن الدَّولة الفاطميَّة عبداً خصيّاً[5]، وكذلك قرقوش الطّواشي[6]، وزير صلاح الدِّين، بينما كانت فئة منهم تُحسن الأعمال المنزليَّة بعد أنْ يتعلَّموا الصّنائع اللاَّزمة لتدبير المنزل، ففيهم الفرَّاش والطَّبَّاخ والخازن والوكيل والنَّقيب والبوَّاب

---

(1) جمال الدِّين الشيَّال، الجاسوسيَّة في حُرُوب الصّليبيِّين، مجلَّة المُقتطف، سنة 1941، ص466، حبيب زيات، احتيال المُلُوك الصّليبيِّين في رشوة النِّساء الفرنجيَّات، مجلَّة المشرق، مُجلَّد 36، لسنة 1938، ص55.

(2) أغلب العبيد في الدَّولة العربيَّة نتيجة الأسر أثناء الفُتُوح، فيتحوَّلوا إلى عبيد عند أسيادهم، وهكذا كانوا يقلُّون ويكثرون لكثرة الحُرُوب، ابن الأثير، الكامل، 4/ 147.

(3) وهي أشبه بفرَق الجُند، وهي فرَق من الغلمان الصّغار والرّجال والرّكبانيَّة وغيرهم، ابن الأثير، الكامل، 8/ 226، أحمد رمضان، المُجتمع، ص91.

(4) الإخصاء عادة شرقيَّة شائعة عند الآشوريِّين والبابليِّين والمصريِّين القُدماء، وأخذ عنهم الرُّومان والإفرنج، ولَمَّا شاع الحجاب بين المُسلمين، استخدموا الخصيان في دُورهم، وأوَّل مَنْ نهجتها سميراميس ملكة آشور نحو (2000) قبل الميلاد، جُرجي زيدان، تاريخ التَّمدُّن، 5/ 33 ـ 34.

(5) المقريزي، الخُطط، 1/ 377.

(6) وهُو أحد كبار الدَّولة الأيُّوبيَّة، كان شهماً شُجاعاً، بنى قلعة الجبل، وسلَّمه نُور الدِّين عكَّا، ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 34.

والملاَّح والركابي وغيرهم[1]، وإذا ازدادوا عن الحاجة في الخدمة أو الحراسة أو الحماية، اتَّخذ الغُلمان منهم زيدة لمجالسهم[2].

اختلفت مصادر أُصُولهم؛ فمنهم التُّركي والفارسي والبربري والزّنجي والصّقلّي من الذُّكُور والإناث[3]، وكانت الحُرُوب الصَّليبيَّة من عوامل زيادة العبيد والأرقَّاء في بلاد الشَّام.

2 ـ فئة رجال الدِّين:

وهُم في الإسلام قُوَّام المساجد والوُعَّاظ والقُضاة والقُرَّاء والفُقهاء والخُطباء والشُّهُود وغيرهم، وكان البعض يُسمِّيهم أهل العمامة[4]، تمييزاً من غيرهم من الطَّوائف الأُخرى، ولاسيَّما أرباب السُّيُوف[5]، وليس لهذه الفئة مظهر كهنوتي؛ ذلك لأنَّه في الإسلام لم تنشأ طبقة رجال الدِّين، كما في الأديان الأُخرى[6]، وإنَّما ظهرت هذه الطَّبقة نتيجة حاجة المُسلمين إلى القيام بواجبات دينهم، وقد جعل الحُكَّام من بعضهم سُلطة كبيرة لغايات سياسيَّة.

كان للمُعمَّمين دَوْر بارز في الحياة اليوميَّة، وذلك من خلال أثرهم الرُّوحي والثّقافي، وهُم ينتظمون ـ في الغالب ـ بمذهب الدَّولة الدِّيني، ولكنَّ هذا لا يمنعهم من الوُقُوف بوجه السُّلطان إذا ما رأوا حالات يغلب عليهما الباطل والمُنكر، فقد عُرف عن سُلطان العُلماء عبد العزيز بن عبد السّلام[7]، أنَّه ترك الدُّعاء على المنبر لسُلطان دمشق الملك الصّالح إسماعيل (627 ـ 640)، بسبب تحالفه مع الصّليبيِّيْن واستعانته بهم ليُساعدوه على ابن أخيه الملك الصّالح أيُّوب صاحب مصر، وسماحه لهُم بدُخُول دمشق لمُبادلة السِّلاح فيها، فضلاً عن

---

(1) أحمد رمضان، المُجتمع، ص91، جُرجي زيدان، تاريخ التَّمدُّن، 5/ 31.

(2) جُرجي زيدان، تاريخ التَّمدُّن، 5/ 32.

(3) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 211، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 7، 55، أحمد رمضان، المُجتمع، ص90.

(4) عاشور، المُجتمع، ص30.

(5) عاشور، المُجتمع، ص30.

(6) ظهرت هذه الفئة لتقوم بواجباتها الدِّينيَّة، ولكنَّ العُلماء جعلوها طبقة لغايات سياسيَّة، عبد المُنعم ماجد، تاريخ الحضارة العربيَّة في العُصُور الوُسطى، ط3، القاهرة، 1973، ص85.

(7) شيخ الإسلام عزّ الدِّين أبو مُحَمَّد عبد العزيز بن عبد السّلام بن أبي القاسم بن الحسن السّلمي الشّافعي، تُوفِّي 660 هـ، السّبكي، طبقات الشّافعيَّة، تحقيق، محمود محمد، القاهرة، ب، ت، 8/ 209، ومُوسى بن مُحَمَّد اليونيني، ذيل مرآة الزّمان، ط1، الهند، 1954، 1/ 505.

اتّفاقه معهم على تسليم صيدا وحصن أرنون وغيرها من ثُغُور السّاحل، وذلك سنة 639 هـ/ 1241م[1]، وكرَدٍّ فعل على ذلك؛ عزله الملك الصّالح إسماعيل في الجامع الأُموي، وسجنه في قلعة دمشق، وضيَّق عليه، ولكنَّ جماعة من العُلماء عزَّ عليهم ما انتهى إليه مصير كبير العُلماء عبد العزيز بن عبد السّلام، فشفعوا له، فاستجاب الملك الصّالح لهذا، وأفرج عنه خوفاً من نقمة النَّاس عليه[2].

أمَّا في عصر المماليك؛ فكانوا على درجة كبيرة من الشّجاعة؛ إذْ صانوا مكانتهم وقلمهم من الفساد، وحافظوا على كرامتهم وضمائرهم، فقد رُوي أنَّه لَمَّا خرج الملك الظّاهر بيبرس (658 هـ/ 676هـ)، إلى قتال المغول، حينما احتلُّوا الشَّام، أعانه رجال الدِّين بالفتوى التي تُجوِّز له أخذ المال من الرّعيَّة، لينتصر به في قتال العدوِّ، فكتب له فُقهاء الشَّام بما أراد، باستثناء مُحيي الدِّين النّووي[3]، الذي رفض هذا الأمر، فأرسل بطلبه، فقال له: اكتبْ خطَّكَ مع الفُقهاء، فرفض قائلاً: (أنا أعرف أنَّكَ كُنت بالرّقِّ للأمير بندقدار، وليس لكَ مال، ثُمَّ مَنَّ الله عليكَ، وجعلك ملكاً، سمعتُ عندكَ ألف مملوك، كُلُّ مملوك عبد له خوائص من الذَّهب، وعندك مئتا جارية، لكُلِّ جارية حقٌّ من الحلي، فإذا أنفقتَ ذلك كُلَّه، وبقيت مماليكك بالنّود الصُّوف، بدلاً من الخوائص، وبقيت الجواري بثيابهنَّ دُون حلي، أفتيتُكَ بأخذ المال من الرّعيَّة)، فغضب الظّاهر من كلامه، وقال: اخرج من بلدي، ويعني دمشق، فقال: السّمع والطّاعة، فخرج إلى نوى، فقال الفُقهاء: إنَّ هذا من كبار عُلمائنا، وممَّن نقتدي به، فأعاده إلى دمشق، فأمر برُجُوعه، فامتنع الشَّيخ، وقال: لا أدخلها والظّاهر بها[4]، وهذه الرِّواية فيها الكثير من الوُضُوح في شخصيَّة رجل الدِّين العادل، الذي لا تأخذه في مقالة الحقِّ والإنصاف مخافة الحُكَّام والمُلُوك، ويأنف مصانعتهم والتَّزلُّف إليهم.

---

(1) زين الدِّين عُمر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الوهَّابيَّة، 1877، 1/ 171 السّبكي، طبقات الشّافعيَّة، 8/ 210.

(2) جلال الدِّين السّيوطي، حُسن المُحاضرة في مُلُوك مصر والقاهرة، مصر، ب، ت، 2/ 79، جميل بيهم، المرأة في حضارة العرب، ط1، دار النّشر للجامعيِّين، 1962، ص277 - 278.

(3) يحيى بن شرف الدِّين بن حسن بن حجمة الجازمي، مُحيي الدِّين بن زكريا الدّمشقي العلاَّمة، تُوفِّي سنة 676هـ، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 294.

(4) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 2/ 225.

وكان رجال الدِّين يقولون كلمة الحقِّ دُون خوف في خُطبهم ومواعظهم، فقد ذُكر عن مجد الدِّين إسماعيل الواسطي[1]، أنَّه خطب مرَّة والظَّاهر بيبرس حاضر، فتوجَّه بالكلام له قائلاً: (إنَّك لن تُدعى يوم القيامة بيا أيُّها السُّلطان، ولكنْ؛ تُدعى باسمكَ، وكُلٌّ منهم يسأل عن نفسه إلاَّ أنتَ، فإنَّكَ تُسأل عن رعاياكَ، فاجعلْ كبيرهم أباً، وأوسطهم أخاً، وصغيرهم ولداً)[2]، ومُمارسة القضاء كان من المناصب المُهمَّة، ومَنْ يتولاَّه يشترط على السُّلطان شُرُوطاً مُعيَّنة، تجعله ينصرف بعدالة وحقَّانيَّة، وممَّا يُشار هُنا في ظلِّ حُكْم نُور الدِّين (541 ـ 569)، أنَّ القاضي كمال الدِّين الشّهرزوري قد قاضى نُور الدِّين، كما أسلفنا، في دار العدل بالسَّويَّة مع خصمه، ولَمَّا ثبت الحقُّ له، وتنازل عنه طوعاً، دلَّل على عدالته[3]، وإنَّ حُضُور نُور الدِّين إلى دار القضاء، يُعزِّز من هيبته ومكانة القاضي ومُؤسَّسة القضاء، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، تدلُّ هذه الرِّواية على تواضع نُور الدِّين وحُبِّه في إشاعته العدل بين النَّاس، ومن أجل ذلك؛ بنى دار العدل في دمشق، وسمَّاه دار الكشف، وكان يُشارك القُضاة والفُقهاء في مجالسهم يومَيْن في الأسبوع[4].

سار صلاح الدِّين على نهج نُور الدِّين في نَشْر العدل، وفَضّ المُنازعات، فقد اشتكاه يوماً رجل في دمشق من ابن أخيه، فأرسل مَنْ يُحضره، فحضر إلى مجلس الحُكْم، وجاء بِمَنْ يشهد عن أعماله، وقد وكَّل أبا القاسم[5] في المُخاصمة والمُنازعة، ثُمَّ جرت المُحاكمة على الرَّغم من محبَّته لابن أخيه، (ولكنَّه لم يُجامل في الحقِّ)[6]، وكان صلاح الدِّين يُردِّد مقولته المشهورة (أمَّا أنا؛ فلأنْ أُخطئ في الصَّفح، أَحَبُّ إليَّ من أنْ أُصيب في العُقُوبة)[7].

---

(1) عماد الدِّين إبراهيم بن عبد الرَّحمن بن سُور الواسطي، الفقيه الزَّاهد، تُوفِّي سنة 721هـ، الحنبلي، شذرات الذّهب، 6/ 24.

(2) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 2/ 225، جميل بيهم، المرأة، ص277 ـ 278.

(3) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 20/ 266 ـ 267.

(4) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدُّرِّيَّة، ص23.

(5) هُو أبو القاسم أمين الدِّين قاضي حماة، ابن شدَّاد، سيرة صلاح الدِّين، ص23.

(6) ابن شدَّاد، سيرة صلاح الدِّين، ص23، نُوري، سياسة صلاح الدِّين، ص416.

(7) ابن جُبير، الرِّحلة، ص270، نُوري، سياسة صلاح الدِّين، ص416.

ويظهر أنَّ القاضي[1] يتولَّى بالوراثة إذا أثبت الكفاءة والمقدرة[2]، فقد ولي منصب قضاء دمشق زكي الدِّين بن القاضي محي الدِّين بن زكي الدِّين قاضي قُضاة دمشق وأعمالها[3]، وظلَّ في منصبه حتَّى عزله الملك المُعظَّم، ووهب له قيادة وكلوته[4]، وهذا يدلُّ على مدى مكانة القاضي في دمشق حتَّى في حالة عزله.

وكان تنفيذ أحكام الشَّرع في أنحاء المدينة من عمل القُضاة الذين يقومون بذلك تحت إشراف قاضي القُضاة، وقد اقتصرت المُدَّة السَّابقة على تعيين قاضي قُضاة شافعي، واستمرَّت هذه الحالة حتَّى سنة 664هـ/ 1266م، حين أمر بيبرس بوُجُوب تعيين أربعة قُضاة، ليس بالقاهرة فحسب، بل في دمشق أيضاً، وفي هذا يقول أحدهم:

أهلُ دمشقَ استَرابوا	مِنْ كَثْرَةِ الحُكَّامِ
إذْ هُمْ جَميعاً شُموسٌ[5]	وحالُهُمْ في ظَلامِ[6]

كما كانت من واجبات القاضي قَمْع البدَع، والإشراف على توزيع الصّدقات، والاهتمام بالأيتام، والإشراف على الأوقاف العامَّة، وأنْ يتحرَّى أُمُور الشُّهُود، وأنْ يستشير العُلماء، ويجود على المُتصوِّفة والفُقراء[7]، وكان يحكم بالشّريعة في جميع القضايا التي

---

(1) انظر المُلحق الخاصَّ بالقضاء برَقْم (3)، ص255.

(2) شغل منصب القضاء شخصيَّات لها ثقلها العلمي والدِّيني، فقد اعتمد صلاح الدِّين على القاضي ابن عصرون، الذي ولاَّه القضاء في دمشق، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 2/ 29، كما واتَّصل بخدمته سنة 583هـ، القاضي بهاء الدِّين ابن شدَّاد الذي أثبت براعته في الجهاد، وتأليفه لصلاح الدِّين كتاباً يشمل فضائل الجهاد، ولهذا؛ ولاَّه قضاء العسكر، دُريد عبد القادر، سياسة صلاح الدِّين، ص416.

(3) أورد ابن أبي أُصيبعة طريقة عَزْله هذا القاضي، ومُحاولة توسُّط أُمِّه وبعض خواصِّه لردِّه إلى منصب القضاء، عُيُون الأنباء، ص729 ـ 730.

(4) الدّواداري، كُنُوز الدُّرر، 7/ 153.

(5) يعني القُضاة الذين عيَّنهم بيبرس سنة 664هـ، وجميعهم يحملون لقب شمس الدِّين، وهُم شمس الدِّين عبد الله بن عطاء الحنفي قاضي، وزين الدِّين بن مُحمَّد بن عبد السّلام بن علي بن عَمْرو قاضي المالكيَّة، وشمس الدِّين عبد الزّهرة الشَّيخ بن عَمْرو الحنبلي قاضي الحنابلة، وسُمِّي كذلك شمس الدِّين بن خلكان، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 542 ـ 543.

(6) المقريزي، السُّلُوك، 1/ 542 ـ 543.

(7) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 2/ 42 ـ 49، أحمد رمضان، المُجتمع، ص91.

غلبت عليها الأُمُور الشّخصيَّة، أمَّا القضايا التِّجاريَّة؛ فكانت من اختصاص الإدارة، ولم يكُنْ للقاضي باعٌ فيها، أمَّا أهل الذِّمَّة من المسيحيِّين واليهُود، فكانوا من اختصاص محاكمهم الدِّينيَّة الخاصة[1] بهم، ولم يكنْ للقضاء الإسلامي صلة في ذلك.

أمَّا المُحتسب؛ فهُو من الأفراد الذين يتولّون الوظائف المُتَّصلة بالأحكام الشّرعيَّة، فقد يُلقَّب بالشّيخ، وإنَّ منصبه ديني وخلقي، يُسند له الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر، ويُقال له مُتولِّي الحسبة، ووالي الحسبة[2]، وتُعَدُّ حسبة دمشق الوظيفة من بين الوظائف الدِّينيَّة بها، وترتيبها بعد قضاء العسكر، وكان من حقِّ مُحتسب دمشق تولية نُوَّاب الحسبة في أعمال دمشق.[3]

احتفظ الفاطميُّون بهذه الوظيفة التي كان يشغلها أحد العُلماء، ويُلقَّب بالشّيْخ[4] وكان المُحتسب من بعد ذلك العهد يقرأ سجلاً بتعيينه على المنبر، وله الأعوان من الرِّجال، وله صلاحيَّات واسعة، ويتقاضى مُرتَّباً شهرياً، قدره ثلاثون ديناراً[5]، واستمرَّت هذه الوظيفة في العهد الأيُّوبي، وكان يتولاَّها أحد العُلماء، وقد أورد القَلْقَشَنْدي نُسخة تقليديَّة، نصح فيها المُحتسب بأنْ يبتدئ بالنَّظَر أوَّلاً باللّين بالقول، ثُمَّ يُؤدِّي باللّسان، وأخيراً؛ يلجأ إلى استعمال السّوط[6]، وقد أُبيح له - أحياناً - أنْ يُشهِّر بالمدين[7].

احتلَّت الحسبة مكانة رفيعة في العهد المملوكي، على الرَّغم من كونها تحتلُّ المرتبة الخامسة من بين الوظائف الدِّينيَّة، وكان لصاحبها مجلس بالحضرة بدار العدل الشّريف[8]، وكانت لوظيفة المُحتسب أهمِّيَّة خاصَّة في تنظيم الحياة الاجتماعيَّة والعلميَّة اليوميَّة؛ حيثُ إنَّه يمنع الغشَّ في الصّناعات والمُعاملات والاهتمام بالنّظافة، وكُلُّ ما يتعلَّق بالمُجتمع

---

(1) نقولا زيادة، دمشق وعهد المماليك، بَيْرُوت، 1966، ص156.

(2) حسن الباشا، الفُنُون الإسلاميَّة والوظائف على الآثار الإسلاميَّة، القاهرة، 1966، 3/ 1027.

(3) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 193، حسن الباشا، الفُنُون الإسلاميَّة، 3/ 1037.

(4) عبد الرّحمن بن الشّيرازي، نهاية الرُّتْبة في طَلَب الحسبة، تحقيق السَّيِّد الباز العريني، بَيْرُوت، 1969، ص123، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 10/ 460، أحمد رمضان، المُجمع، ص99.

(5) وكانت الحسبة تُسند إلى وُجُوه المُسلمين والأعيان لأنَّها خدمة دينيَّة، المقريزي، الخُطط، 1/ 463، حسن إبراهيم حسن، الفاطميُّون في مصر، القاهرة، ب، ت، ص192.

(6) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 11/ 68 - 71، حسن الباشا، الفُنُون الإسلاميَّة، 3/ 1036.

(7) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 11/ 68 - 71، حسن الباشا، الفُنُون الإسلاميَّة، 3/ 1036.

(8) أحمد رمضان، المُجتمع، ص100.

وأخلاقه[1]، وما دُمنا في الحديث عن دَوْر المُجتمع، فإنَّنا نذكر رواية ياقوت الحموي في أعمال إضافيَّة للمُحتسب في اللاَّذقيَّة، وهي (أنَّ المُحتسب يجمع القحاب والغُرباء المُؤثرين للفساد من الرُّوم في حلقة، ويُنادي على كُلٍّ واحد منهم، ويُزايدون عليها، إلى دارهم ينتهون إليها ليلتها عليه، ويأخذونهم إلى الفنادق التي يسكنها الغُرباء بعد أنْ يأخذ كُلٌّ واحد منهم من المُحتسب خاتم المطران حُجَّة معه، ويعقب الوالي، فإنَّه متى وجد إنساناً مع خاطئة، وليس معه خاتم المطران ألزم خيانته[2]، ويبدو أنَّه أراد أنْ يحصر أماكن الفساد في نُقطة ضيِّقة تحت تصرُّفه، مَنَعَاً من انتشارها، هذا من جهة؛ وربَّما أراد أنْ يفرض غرامات ماليَّة على هؤلاء الأشخاص في هذا الطَّريق، من جهة أُخرى، تحقيقاً لإرشادهم إلى طريق التَّوبة والعفَّة، تماشياً مع حرص الإسلام على الأخلاق والمكارم.

أمَّا قُوَّام المساجد والوُعَّاظ والخُطباء؛ فإنَّهم مارسوا دورهم في الوعظ والإرشاد، وقد تُنسب إليهم مُهمَّات أُخرى، كما فعل الملك العادل حينما أرسل خطيب الجامع بدمشق، جمال الدِّين مُحَمَّد الدّولعي الشّافعي[3]، ونجم الدِّين خليل بن علي الحنفي قاضي العسكر[4] بسفارة إلى الدَّولة الخوارزميَّة.

3 ـ فئة أرباب الفكْر والقلم:

ويُنسَب إلى هذه الفئة كبار مُوظَّفي الدَّولة غير العسكريِّيْن، وقد اختلفت مسؤوليَّاتهم في الدَّولة باختلاف أصنافهم ومناصبهم وهُم الوزير[5]، وكاتب السِّرِّ[6]، وناظر الجيش[7]،

(1) السَّيِّد الباز العريني، الشّرق الأدنى، ص214.
(2) مُعجم البُلدان، 5/ 6.
(3) جمال الدِّين مُحَمَّد بن عبد الملك بن زيد بن ياسين الدّولعي، نسبة إلى الدّولعيَّة بالموصل، وُلِّي الخطابة في جامع دمشق بعد وفاة أبيه سنة 598، وكان فاضلاً، وظلَّ خطيباً حتَّى وفاته سنة 635هـ، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 36.
(4) أبو شامة، ذيل الرَّوضتَيْن، ص109 ـ 110، نافع توفيق العبُّود، الدَّولة الخوارزميَّة، بغداد، 1977، ص152.
(5) وهي من أجلِّ وظائف أرباب الأقلام؛ لأنَّها تلي السُّلطان، إذا نُصف، وعُرف حقَّه، ومُتولِّيها صاحب الكلمة النّافذة، وهي استمرار للفترات السّابقة، ابن فضل العُمري، مسالك الأبصار، ص119، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 28.
(6) مُصمِّم كتاب الكُتُب الواردة إلى السُّلطان، وكتابة أجوبتها، وتسفيرها، بعد أخذ توقيع السُّلطان عليها، والجُلُوس لقراءة القَصَص بدار العدل، بالإضافة إلى التّوقيع على بعض الأُمُور بجوار توقيع الوزير، بعد مُوافقة السُّلطان، ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص120، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 30.
(7) وظيفة جليلة يُسمَّى مُتولِّيها النّاظر، ويُساعده عدد من المُستوفين، وديوانه من أرفع دواوين الأموال، وفيه بيت التّواقيع والمراسيم السُّلطانيَّة، ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص120 ـ 121، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 30 ـ 31.

وناظر الأموال، وناظر الخزانة[1]، وناظر البُيُوت[2]، وناظر المال[3]، وناظر الاصطبلات[4]، وهي من تبعيَّة الحاكم في تسيير أُمُور الدَّولة، وتشمل هذه الفئة ممَّا يلتحق بخدمة الحاكم والسُّلطان في دولته، كما يُضاف إليها مجموعة العُلماء والأُدباء وأصحاب الأخبار، وقد حظيت هذه الطَّبقة باهتمام النُّظُم السِّياسيَّة التي تعاقبت على دمشق، فالزّنكيُّون عُرف عنهم اهتمامهم بالعُلماء[5]، فقد نُسب إلى نُور الدِّين (541 ـ 569هـ) اهتمامه بهؤلاء؛ إذْ كان يستدعيهم من أقصى البلاد، ويُسكنهم أفخر القُصُور، ومنهم شرف الدِّين ابن عصرون[6]، ولم يكتف بتكريمهم، بل بنى لهُم المدارس[7]، لينتفع النَّاس من عُلُومهم، ومن هذه المدارس مدرسته التي عُرفت باسمه بدمشق، والتي وصفها ابن جُبير (ومن أحسن مدارس الدُّنيا منظراً مدرسة نُور الدِّين رحمه الله، وبها قبره... وهي قصر من القُصُور الأنيقة، ينصبُّ عليها الماء من شاذروان، وسط نهر عظيم، يمتدُّ الماء على ساقيه)[8]، ولعلَّ اختيار نُور الدِّين مكان مثواه الأخير في المدرسة دليل حيٌّ على مدى احترامه للعلم والعُلماء، واقتفى صلاح

---

(1) وكانت الخزانة مُستودع أموال الدَّولة وإلى جانبها الخزانة الكُبرى، وفي الغالب يكون ناظرها من القُضاة، أو ممَّا يلحق بهم، ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص111، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 31.

(2) وإليه أُمُور السُّلطان كُلُّها من المطبخ والشّرابخانة، وله تصرُّف تامٌّ لكُلِّ ما يحتاجه السُّلطان، وتبعيَّته من الكسوة والنَّفقات ممَّا يجري مجرى ذلك، ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص121، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 31، المقريزي، الخُطط، 2/ 227.

(3) وصفها ابن فضل الله العمري بأنَّها وظيفة جليلة مُعتبرة، موضوعها حملة حُمُول المملكة إلى بيت المال، وأضاف المقريزي (ثُمَّ تلاشى المال وبيت المال، وذهب الاسم والمُسمَّى، ولا يُعرف اليوم ببيت المال..)، مسالك الأبصار، ص122.

(4) وهُو ديوان جليل مُباشرته في اصطبل السُّلطان، وما يتعلَّق به من أرزاق وغيرها، وهي وظيفة جليلة القدر، ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص22، المقريزي، الخُطط، 2/ 244 ـ 225.

(5) ربَّما استناداً إلى حديث الرَّسول ﷺ (صُحبة العالم زيادة في الدِّين وصُحبة الجاهل نُقصان منها) مُؤلِّف مجهول، كنز الأخبار، مخطوط بدار صدَّام للمخطوطات برَقْم 16096، ورقة (1).

(6) شرف الدِّين أبو سعد عبد الله أبي سري مُحَمَّد بن هبة بن مظهر الشَّافعي، من أعيان الفقهاء والفُضلاء تُوفِّي سنة 585هـ، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 2/ 256.

(7) عُدَّتْ مدارس دمشق إحدى وستِّين مدرسة، وهي مُوزَّعة على ما يلي: المدارس الشَّافعيَّة ثلاث وأربعون مدرسة، ومدارس الحنفيَّة إحدى وثلاثون مدرسة، ومدارس الحنبليَّة عشر مدارس، والمالكيَّة أربع مدارس، ومدارس الأطبَّاء ثلاث، أحمد الأربلي، مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحمَّاماتها، تحقيق مُحَمَّد أحمد الدّهَّان، دمشق، 1947 ـ ص14.

(8) الرّحلة، ص256.

الدِّين أثر نُور الدِّين بالاهتمام بالعُلماء والفُقَهاء، حتَّى عُدَّ فُقَهاء عصره، فكانوا ستُّمائة، كان يدفع لهُم رواتب ثابتة[1]، ولم يقتصر التّكريم على عُلماء العُلُوم الإسلاميَّة، بل امتدَّ إلى عُلُوم الطّبيعة، فقد ضمَّت دمشق مجموعة كبيرة من الأطبَّاء، منهم أبو المجد مُحَمَّد بن أبي الحكم[2] الطّبيب والفلكي، والمهندس المعروف أبو زكريًّا يحيى البياسي[3] طبيب صلاح الدِّين، وكذلك عُمر بن علي البدوخ الدِّمشقي[4]، الذي كان عالماً وشاعراً في الأدب، بالإضافة إلى شُهرته بالطِّبِّ، وفي عهد العادل؛ برز مُهذَّب الدِّين عبد الرّحيم[5]، والذي رافقه في أغلب رحلاته، وبجانب ذلك؛ عُرف من الأطباء المُهتمِّين بشُؤُون الصِّحَّة عدد كبير في هذه المُدَّة، زخرت بهم المصادر؛ ومنهم ابن النّفيس[6]، وابن أبي أُصيبعة الذي ترجم الكثير منهم[7]، وغيرهم[8].

---

(1) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، دمشق، 1970، 4/ 34.

(2) وهُو أبو الفضل أبو المجد عُبيد الله بن المُظفَّر بن عبد الله الباهلي، من الحُكماء المشهورين والعُلماء الأفاضل في الصّناعة الطّبِّيَّة، وكذلك في علم الهندسة والنُّجُوم، وكان يعرف الموسيقى، ويلعب العُود، ويُجيد الغناء والإيقاع وسائر الآلات، تُوفِّي في القرن السّادس، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص628.

(3) أمين الدَّولة أبو زكريَّا بن إسماعيل الأندلسي البياسي من الفُضلاء المشهورين والعُلماء المذكورين، تفنَّن بصناعة الطِّبِّ، وتميَّز بالعُلُوم الرّياضيَّة، ويُجيد اللّعب على العُود، وخدم صلاح الدِّين في مجال الطِّبِّ، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص628.

(4) أبو جعفر عُمر، كان فاضلاً في معرفة الأدوية المُفردة والمُركَّبة، وكان له في سُوق اللّبَّادين دُكَّاناً يُعالج فيه، تُوفِّي سنة 576هـ، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص628 ـ 630.

(5) هُو العالم الفاضل أبو مُحَمَّد بن علي بن حامد، علاَّمة زمانه، وإليه انتهت صناعة الطِّبِّ ومعرفته، وما ينبغي، ويُعرف بالدّخوار، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص728 ـ 736، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بَيْرُوت، 1981، ص218.

(6) وهُو صاحب التّصانيف الكثيرة، فقد صنَّف في أُصُول الفقه والمنطق، وكان مُشاركاً في الفُنُون، في مجال الطِّبِّ كان بعد ابن سينا، لإتقانه العلم وصنعته، تُوفِّي سنة 687هـ، السّبكي، طبقات الشّافعيَّة، 8/ 305 ـ 306، حكمت نجيب عبدالرحمن، دراسات في تاريخ العُلُوم عند العرب، الموصل، 1977، ص65 ـ 66.

(7) أَوْرَدَ ابن أبي أُصيبعة باباً كاملاً في كتابه عن أطبَّاء بلاد الشَّام، وخاصَّة من المُدَّة التي نحنُ بصددها، عُيُون الأنباء، ص609، ومابعدها.

(8) نبغ في دمشق، كذلك أبو الحكم المعروف بالحكيم (ت 574)، وابن صلاح عالم الحكمة، وتميَّز بالطِّبِّ (ت540)، ومُوفَّق الدِّين ابن مطران (ت 587)، وكذلك شرف الدِّين ابن الرّحبي (ت667)، ونجم بن المفتاح المعروف بابن العالميَّة (ت 635)، والجمال المُحقّق بن عبد الله الدِّمشقي (ت 649)، ابن أبي أُصيبعة عُيُون الأنباء، ص 659، 651، 675، 683، مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، طبعة 1970، 4/ 35، 40، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص216 ـ 223.

أمَّا في مجال الهندسة؛ فقد برز عدد من المُهندسين في تلك المُدَّة؛ منهم أبو الفضل عبد الكريم[1]، وزين الدِّين الأنصاري[2]، فضلاً عن إبراهيم بن سعيد الذي عاصر الظَّاهر بيبرس في دمشق؛ حيثُ أسندت له أعمال كثيرة في المدينة، وكان من المشهورين، حتَّى عُرف أبناؤه فيما بعد ببَني المُهندس[3]، فضلاً عن مُؤرِّخنا الجليل ابن واصل[4]، الذي برز في مجال الهندسة، وكذلك مُحَمَّد بن أبي المجد.

ونال التَّاريخ ما يستحقُّه من الاهتمام من الحُكَّام، وذلك من خلال بُرُوز أشهر المُؤرِّخين منهم الحافظ ابن عساكر[5]، مُحدِّث الشَّام ومُؤرِّخ مدينة دمشق، وكذلك عماد الدِّين الكاتب[6]، الذي كان مُرافقاً لصلاح الدِّين في كُلِّ تنقُّلاته، فكان مُؤرِّخاً حربيَّاً نقل إلينا في كُتُبه العديد من أخبار بني أيُّوب[7]، وكذلك بهاء الدِّين ابن شدَّاد[8]، وأُسامة بن

---

(1) أبو الفضل مُحَمَّد بن عبد الكريم الحارثي، وُلد بدمشق، وكان يُعرَف بالمهندس لشُهرته، فضلاً عن دراسته العُلُوم الأُخرى، وعمل بالسَّاعات، واستطاع أنْ يُصلح ساعة الجامع الأموي في دمشق، كما زاول مهنة الطِّبّ، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص669، أحمد تيمور، أعلام المُهندسين، ص47، أحمد رمضان، المُجتمع، ص105.

(2) زين الدِّين بن علي الأنصاري الدِّمشقي، المعروف بابن جُنحة الحنبلي، من أعيان أهل العلم، وله رأي صائب، وكان صلاح الدِّين يُسمِّيه عَمْرو بن العاص، مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، طبعة 1970، 4/ 35، أحمد رمضان، المُجتمع، ص91.

(3) أحمد تيمور، أعلام المُهندسين، ص51، أحمد رمضان، المُجتمع، ص105.

(4) جمال الدِّين مُحَمَّد بن واصل، مُؤرِّخ جليل صاحب كتاب مُفرِّج الكُرُوب، وهُو مُهتمٌّ بتاريخ بني أيُّوب، تُوفِّي سنة 697هـ، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 8/ 113.

(5) أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشَّافعي، مُؤرِّخ الشَّام، ت571، الحموي، مُعجم الأدباء، بَيْرُوت، ب، ت، 13/ 73، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 2/ 47، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النَّجَّار ووليد يعقوب، القاهرة، 1977، 6/ 96.

(6) أبو عبد الله صفيُّ الدِّين أبو الفرج مُحَمَّد، المعروف بعماد الدِّين الكاتب، تُوفِّي سنة 597، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 4/ 413.

(7) عبد المُنعم ماجد، النَّاصر صلاح الدِّين يُوسُف الأيُّوبي، مصر، 1958، ص14.

(8) أبو المحاسن يُوسُف بن رافع بن شدَّاد، وُلد بالموصل، سنة 539، وزار عدداً من المناطق، ومنها دمشق؛ حيثُ ولاَّه صلاح الدِّين قضاء العسكر والقُدس سنة 584هـ، ثُمَّ انضمَّ إلى الملك الظَّاهر صاحب حلب، واستطاع أنْ يبني مدرستَيْن، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 6/ 81، بروكلمان، تاريخ الأدب، 6/ 11.

مُنقذ[1]، الذي نبغ في الشّعر والكتابة، وأبو شامة[2]، فضلاً عن ابن خلكان[3]، والـذي يُعَـدُّ مدرسـة مـن مـدارس السِّيَر ومُؤلِّفيها، فضـلاً عـن مُمارسته القضـاء فـي الشَّـام فـي سـنة 659هـ/ 1261م، وظلَّ بمنصبه حتَّى وفاته سنة 681هـ/ 1282م، وكذلك ابن واصـل الـذي بـرز مُؤرِّخاً، فضلاً عن العُلُوم الأُخرى، ولهذا؛ يصفه أبو الفدا بأنَّه رجـل فـاضل بـرز فـي عُلُـوم كثيرة في المنطق والهندسة وأحوال الفقه والتّاريخ[4]، وهذه القابليَّة الموسوعيَّة في إتقان عـدد من العُلُوم نجدها تأخذ دورها في المُجتمع الدِّمشقي بـأكثر مـن جـانب، فـهذا عُمـر بـن علـي الدِّمشقي، كـان طبيبـاً وشـاعراً، ولـه تصـانيف فـي أُصُـول الفقـه والمنطـق وفُنُـون أُخـرى[5] كالطِّبِّ، وهذا أبو فضل الحارثي اشتهر مُهندساً، وعَمَل السَّاعات، واستطاع إصـلاح سـاعة الجامع الأُموي في دمشق، فضلاً عن مُزاولته الطِّبّ[6].

وممَّا يُشار إليه في هذا الصّدد، بيان ودعم الدَّولة لـهذه الطّبقـة، أنَّـها كـانت تدفـع لـهُم المُشاهرات والرّواتب المُجزية، لكـي ينصـرف العُلمـاء والفُقـهاء وأربـاب الفكـر فـي شُـؤُونهم العلميَّة والمعرفيَّة، فقد كان دخل الطَّبيب (300) درهم، والمُدرِّس (80) درهم، والإمام (40) درهم، والمُؤذِّن والمُعيد والمُحدِّث (30) درهم[7]، وكنتيجة لهذا الدَّعم الحُكُومي لـهذه الطّبقـة نشطت حركة التّأليف والتّصنيف في الفُنُـون العلميَّـة المُختلفـة، حتَّـى أمكـن البـاحثين مـن أنْ

---

(1) أبو المُظفَّر أُسامة بن مُنقذ بن علي بن مقلد الكناني الشّيزري، تُوفِّي سنة 584هـ، الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق، شُكري فيصل، دمشق، 1955، 1/ 498، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 1/ 81.

(2) عبد الرّحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدِّمشقي، مُؤرِّخ جليـل، تُوفِّي سنة 665هـ، السّبكي، طبقـات الشَّافعيَّة، 8/ 165 ـ 168، الحنبلي، شذرات الذَّهب، 5/ 318، بروكلمان، تاريخ الأدب، 6/ 14.

(3) شمس الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن مُحَمَّـد بـن خلكـان الشَّـافعي، تُوفِّي سنة 68، ابـن كثـير، البدايـة والنّهايـة، 13/ 318، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 7/ 353، الحنبلي، شذرات الذّهب، 5/ 371.

(4) أبو الفداء، المُختصر، 7/ 47، طبعة بَيْرُوت.

(5) السّبكي، طبقات الشّافعيَّة، 8/ 305 ـ 306، حكمت نجيب، دراسات في تاريخ العُلُوم، ص65 ـ 66.

(6) ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص669، أحمد تيمور، أعلام المُهندسين، ص47، أحمد رمضـان، المُجتمـع، ص105.

(7) أورد الأُستاذ نقولا زيادة الأرقام بالدُّولار، وقد قُمنـا بتحويلـها إلـى دراهـم، وذلـك اعتمـاداً علـى النّسبة التـي ذكرها الأُسـتاذ نقـولا علـى الصَّفحـة (168)، وهـي (17 درهـم يُسـاوي 19 . 1 دُولار)، ولا نـدري مـن أيـن حصـل الأُستاذ زيادة على معلُوماته، وبالدُّولار بالتّحديد، دمشق، ص147.

يحصروا مجموع المُؤلَّفات في هذه المُدَّة، فظهر أنَّها (918) مُؤلَّفاً وُزِّعت على الموضوعات الآتية وهي:

الفقه	271
التّفسير	164
التَّصوُّف	158
اللُّغة والأدب	135
التَّاريخ والجَغرافية	123
الطِّبّ والعُلُوم والفقه	52
الموسوعات	4
مُؤلَّفات مُتفرِّقة	11[1]

ومن هذا الجدول المذكور، نجد أنَّ ما أُلِّف في الموضوعات الدِّينيَّة هي (593) مُؤلَّفاً، والتي تُشكِّل ما يزيد على نصف مجموع ما أُلِّف، وربَّما يرجع ذلك إلى المرحلة التي تمرُّ بها المنطقة؛ إذْ التّهديد الصّليبي، وضرورة التَّمسُّك بالدِّين والعُلُوم الإسلاميَّة لمُواجهة التَّيَّارات الفكْريَّة الخارجيَّة، كما ساعد هذا التَّوجُّه على نبذ الخُصُومات والالتفاف حول الحُكَّام المُسلمين لمُواجهة العدوِّ الصّليبي، فقد لعبت هذه الفئة دوراً في توحيد القُوى الإسلاميَّة، من خلال تهيئة الرَّأي العامِّ الإسلامي، والتّعبئة الكُبرى للجهاد في سبيل الله؛ حيثُ مارس الكُتَّاب والشُّعراء والعُلماء والوُعَّاظ والخُطباء والأُدباء دورهم في هذا المجال[2].

4 - فئة التُّجَّار:

كانت التِّجارة أهمَّ دعائم الثّروة والمال في المُجتمع الدِّمشقي، وهي تنقسم - كما هُو معروف - إلى داخليَّة وخارجيَّة، وتعتمد - بصُورة عامَّة - على الوُسطاء وأصحاب رُؤساء الأموال، فقد شكَّلت التِّجارة الثّروة الحقيقيَّة في القرن السّادس والسّابع الهجريّين/ الثَّاني

(1) نقولا زيادة، دمشق، ص147.

(2) مُحَمَّد فتحي الحيالي، الإعلام خلال الحُرُوب الصّليبيَّة، أُطرُوحة دُكتُوراه، مطبوعة على الآلة الكاتبة، 1995، ص131، وما بعدها.

والثّالث عشر الميلاديّين؛ إذْ عملت الحُرُوب الصَّليبيَّة على ازدياد النّشاط التّجاري[1] بين الشّرق والغرب، وقد تلمَّس ذلك ابن جُبير، فقال كانت (قوافل المُسلمين تخرج من بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل بلاد المُسلمين)[2]، وهذا يعني أنَّ التِّجارة تتواصل في الظُّرُوف السِّياسيَّة المُختلفة بقدر ما تتمثَّل الحاجة إليها، فقد شهدت مُدَّة الحُرُوب الصَّليبيَّة هذا الأمر من خلال المعنى الذي أشار إليه ابن جُبير، وهُو يصف التِّجارة في بلاد الإفرنج والدّولة العربيَّة الإسلاميَّة بقوله: (لا يُمنع منهم أحد، ولا يُعترض، وللنَّصارى على المُسلمين ضريبة يُؤدُّونها في بلادهم، وهي من باب الأمانة)[3]، وكانت القبائل التِّجاريَّة القاصدة البلاد المصريَّة من دمشق تمرُّ بالمُقاطعات والولايات الخاضعة لسُلطة الصّليبيِّين، وهذا يُشير إلى نشاط التِّجارة بين الصّليبيِّين والمُسلمين، بل إنَّ حُقب الحرب نفسها والغزوات الصَّليبيَّة كانت تتخلَّلها نشاطات تجاريَّة ملموسة فيما ذكر القاضي الفاضل وهُو ينقل قول صلاح الدِّين الذي جاء فيه (ومن هؤلاء الجُيُوش البنادقة وغيرهم، كُلُّ هؤلاء تارةً يكونون غُزاة لا تُطاق ضراوة ضربهم، ولا تُطفئ شرارة شرِّهم، وتارة يكونون سُفَّاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال مجوبة...)[4]، لكنَّ أيَّام السّلم شهدت نشاطاً تجاريّاً واضحاً، ممَّا سهل نقل السّلع ذات الطَّابع الإسلامي إلى أُورُوبا[5]، ولهذا؛ نجد الرَّحَّالة الإيطالي سيمكوني الذي زار دمشق في هذه المُدَّة قد تعجَّب من أسواقها لما فيها من التُّحف والمصوغات الدّمشقيَّة، فقال: (لو كُنتَ خبَّأتَ دراهمكَ في عظم ساقكَ، لما توقَّفْتَ عن كسره؛ لتشتري بها!)[6].

أسهمتْ التِّجارة في الصِّناعات الثّمينة والمصنوعات والثّياب الفاخرة والأنيقة على تكوين طبقة من التُّجّار الذين شكَّلوا مورداً مُهماً لماليَّة الدَّولة من خلال الضّرائب على

---

(1) تنوَّعت البضائع المُصدَّرة خلال الحُرُوب الصّليبيَّة، فقد شملت المنسوجات كالأقمشة والثّياب، وكذلك النُّحاس والأصباغ والزُّجاج والأخشاب، يُوسُف مُزهر، تاريخ لُبنان العامّ، بَيْرُوت، 1958، 1/ 277، كما كانوا يحملون الياقوت والماس من الهند، واللُّؤلُؤ من البحرَين، والقطن والعاج من الحبشة، والأدهان والزُّيُوت العطريَّة من نيسابور، والثّياب المنسوجة والحرير من أصفهان، والقراطيس والسّنُّور والبُسُط من مصر، والخزف من البصرة، والحُصُر من عبادان، والمسك والكافور من الصّين، جُرجي زيدان، تاريخ التَّمدُّن الإسلامي، 5/ 45.

(2) الرّحلة، ص271 ـ 273.

(3) الرّحلة، ص260.

(4) أبو شامة، الرَّوضتَين، 1/ 412، أحمد رمضان، المُجتمع، ص119.

(5) أرنولد، الفنُّ الإسلامي وأثره على أُورُوبا، تُراث الإسلام، ط2، بَيْرُوت 1972، ص225.

(6) صفوح خيِّر، دمشق، ص165.

تجاراتهم، لكنَّهم - أحياناً - يتعرَّضون لأنواع من التَّعسُّف في الحياة، ممَّا جعلهم يتقدَّمون بشكاواهم إلى السُّلطة، عسى أنْ تستجيب لهُم، فقد حصل هذا فعلاً سنة 551هـ/ 1156م، حين أزال نُور الدِّين حقَّ التّسفير على التُّجَّار المُسافرين من دمشق إلى العراق، وتعقّبه رسمه، وإبطال اسمه[1]، وربَّما كان هذا رغبة منه في كسب التُّجَّار إلى جانبه لما يملكون من مال قد يُسعف الدَّولة عند الحاجة، وممَّا يُنسب لنُور الدِّين أنَّه اقتصر في ضرائبه على الجزية والخراج، وهُو ما يتَّصل بالزّراعة وضرائب أهل الذِّمَّة، وألغى ضرائب التُّجَّار من المُكُوس تأكيداً في منهجه على دعم التِّجارة والتُّجَّار، وهذا لا يمنع من وُجُود سلاطين أخذوا من التُّجَّار الشّيء الكثير[2] من أموالهم، وصلت إلى المُصادرة في وقت الأزمات[3].

وفي الغالب؛ لم يكن التُّجَّار يُسهمون في القتال والحُرُوب، فيما وضَّح ابن مُنقذ في وصف أحد أصدقائه بقوله: (هذا رجل برجاسي (أيْ تاجر) لا يُقاتل، ولا يخرج لقتال)[4]، غير أنَّ بعض التُّجَّار أُسندت إليهم وظائف إداريَّة مُهمَّة، فقد أسند الملك العادل إلى أبي إسحاق العسقلاني[5] التَّاجر منصب الوزارة في دولته، في حين شارك بعضهم في تموين حاجات السُّلطان، فهذا تقيُّ الدِّين توبة بن علي التّكريتي[6] الذي كانت له علاقات تجاريَّة واسعة مع عدد كبير من تُجَّار البُلدان الإسلاميَّة، قد أقرض المنصور سيف الدِّين قلاوون ألف درهم بلا فائدة، وأقرض غلمانه جُملة من الأموال، وإنْ كانت قليلة، لكنَّها تُشير إلى دعم التُّجَّار لحاجة السُّلطان[7]، ولا ندري ما إذا كانت هذه الحاجة شخصيَّة أم عامَّة.

---

(1) أحمد رمضان، المُجتمع، ص107.

(2) ظَلَمَ بعضُ السَّلاطين الرّعيَّةَ بالضّرائب الكثيرة، فهذا الملك المُعظَّم عيسى بن العادل، قد ظَلَمَ الرّعيَّة بالمُكُوس، بالإضافة إلى بعض السَّلاطين الذي خلَّفوا ثروة من المال، كان قسم منها من الضَّرائب المفروضة على التُّجَّار، أمثال الملك العادل، والملك الأفضل، باشا، أدب الدُّوَل المُتتابعة، ص75.

(3) استُخرج ثُلث أموالهم، وأُنفقت على المُقاتلة في الشَّام لصدِّ جحافل التّتار، ودعماً لـرُوح الجهاد، وذلك سنة 700هـ، ابن الوردي، 2/ 249، باشا، أدب الدُّوَل، ص75.

(4) ابن مُنقذ، الاعتبار، نَشْر فيليب حتِّي، 1930، ص141.

(5) صفيُّ الدِّين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله العسقلاني، تُوفِّي سنة 651هـ، حسن الباشا، الألقاب الإسلاميَّة في التَّاريخ والوثائق، القاهرة، 1957، ص85.

(6) تقيُّ الدِّين توبة بن علي بن مُهاجر بن شُجاع الرّبعي التّكريتي، تنقَّل في الخدم، حتَّى صار وزيراً بدمشق لمرَّات، تُوفِّي سنة 698هـ، ابن كثير، البداية والنّهاية، 14/ 6، الحنبلي، شذرات الذّهب، 5/ 441.

(7) صالح مهدي عبَّاس، النّشاط الثّقافي والحضاري، لأعيان أهل تكريت من بلاد الشَّام، موسوعة مدينة تكريت، بغداد، 1997، 3/ 257.

استمرَّ هذا النّهج في اقتراض المال دعماً للجهاد وصيانة مصلحة المُسلمين التي نـهضت بها الخلافة ببغداد، فحينما طلب صلاح الدِّين المُساعدة من الخليفة، وصل رسول الخليفة ومعه النّفط وجماعة من النَّفَّاطين، ومعهم رُقعة تتضمَّن الإذن للسُّلطان أنْ يقترض عشرين ألف دينار من التُّجَّار يُنفقها في الجهاد[1].

وللتُّجَّار دورهم في مُساعدة الحُكَّام في أوقات الخطر، ففي سنة 595هـ/ 1198م، حين اشتدَّت مُحاصرة الأفضل والظّاهر لدمشق، وقلَّت الأقوات، استقرض الملك العادل المال من التُّجَّار على أنْ يُسدِّدهم من أمواله الموجودة في قلعة جعبر[2].

من جانب آخر؛ اشتهر التُّجَّار بلقبَيْن أوَّلهما: الصَّدر أو الصّدرى، وثانيهما الخواجة أو الخواجكي، ويُسمّون كذلك التُّجَّار الخواجكيَّة[3]، وربَّما كان الاحتكاك بالتُّجَّار الأجانب سبباً في هذه التّسمية، ولم تتبيَّن - بالدِّقَّة - معاني هذه الألقاب، أو دلالاتها التِّجاريَّة.

5 - فئة الصُّنَّاع:

لقد احتلَّت دمشق في القرنَيْن السّادس والسّابع الهجريَّيْن مكانة رفيعة وتطوُّراً عظيماً في مجال الصّناعة، ممَّا ينعكس على أهمِّيَّة هذه الفئة التي عُرفت عن براعتها في صناعات مُتنوِّعة، منها السُّكَّر والورق الذي عُرف من أصنافه في أُورُوبا بالكاغد الشَّاميّ المنسوب إلى بلاد الشَّام، وفي الأندلس بشُهرة الكاغد والشّامي[4].

ومن الصِّناعات الأُخرى ذات الصِّلة بجانب البناء والعمارة، والتي برعت بها دمشق في تلك المُدَّة، صناعة الزُّجاج والقاشاني والخزف[5]، والذي يتكوَّن من أنواع جميلة، اشتهر منها ذُو البريق المعدني[6]، وخزف محزوز تحت الدّهان، وخزف مرسوم تحت الطّلاء[7].

---

(1) ابن شدَّاد، سيرة صلاح الدِّين، ص118 - 119.

(2) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 100، مُحَمَّد بن عبد الرّحيم بن الفُرات، تاريخ ابن الفُرات، تحقيق حسن مُحَمَّد الشَّمَّاع، البصرة، 1969، 4/ 2/ 163.

(3) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 5/ 490 - 495.

(4) أحمد رمضان، المُجتمع، ص108.

(5) زكي مُحَمَّد حسن، فُنُون الإسلام، القاهرة، 1948، ص289، أحمد رمضان، المُجتمع، ص108.

(6) وهُو نوع من الخرق، يحتوي على زخارف من كتابات كُوفيَّة، وهي ترجع إلى القرن الثّالث عشر، ريموند، الفُنُون الإسلاميَّة، ترجمة أحمد مُحَمَّد عيسى، ط2، مصر، 1958، ص218، مُنير كيَّال، فُنُون وصناعات دمشقيَّة، دمشق، 1964، ص153.

(7) ويظهر أنَّ الأواني المدهونة بطلاء واحد تقليد للخزف الصّيني، سعيد عبد الفتَّاح عاشور، الأيُّوبيُّون والمماليك في بلاد الشَّام، ص188 - 189، مصر والشَّام، بَيْرُوت، 1972، ص148.

وفي مجال الصِّناعات النّسيجيَّة، اشتهرت دمشق بالشُّقق[1] الحريريَّـة والقطنيَّـة، وفي الصِّناعات الجلديَّة، وكانت هُناك صناعات الرّباطات والرّشمات والـهماميز[2]، فضلاً على استخدام الجُلُود في تجليد الكُتُب؛ إذْ تميَّزت الكُتُب الإسلاميَّة بالكُعُوب المُستوية غير البارزة، ويمُساواتها في الحجم، وباشتمالها على امتداد الجانب الأيسر باللّسان[3]، أمَّا صناعة الأسلحة؛ فأشهرها صناعة السُّيُوف المُمتازة التي تُنقش على مقبضها وقبضتها[4] وواقيتها[5] الآيات الكريمة، وتُصنع لها الأعمال المُزخرفة[6].

ومن الصُّنَّاع المَهَرَة أُولئك الذين عُرفوا بالكفتيِّين[7] الذين كفَّتوا الأواني المعدنيَّة من القناديل والطّسوق والمباخر والمزهريَّات بالذّهب والفضَّة.

وكان أصحاب الحرَف والصُّنَّاع - في هذه المُدَّة - أكثر النَّاس وفاءً لتقاليدهم الموروثة، وتلقَّبوا بطوائف الكار أو الحرفة[8]، التي تُنظِّمها التّشكيلات النّقابيَّة، وكان تنظيم هذه الطّوائف على النَّحو التَّالي:

---

(1) وهي عبارة عن قماش طُوله تسعة أذرع، وعرضه ذراع، وقد كان صُنَّاع النّسيج يتفنَّنون في نَقْشه وصفّه، ممَّا يدلُّ على رُسُوخ قدمهم في هذه الطّريقة التي ذاع صيتها في القرن السّابع في دمشق وحلب وحمص وحلب وطرابلس، أحمد رمضان، المُجتمع، ص110.

(2) أحمد رمضان، المُجتمع، ص111.

(3) حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلاميَّة، مصر، ب، ت، ص459.

(4) وهي الحديدة العريضة التي تُلبس أعلى السّيف، وقد تكون كُرويَّة الشّكل، عبدالرّحمن زكي، السّيف في العالم الإسلامي، القاهرة، 1957، ص178.

(5) وهي الحديدة أسفل المقبض، مُعترضة على ضمٍّ لها طرفان ينتهيان بقطعتَيْن كُرويَّتَيْن، عبد الرّحمن زكي، السّيف، ص178.

(6) ويمتاز جوهر السّيف الدّمشقي بأشكاله الهندسيَّة المُحكمة الرّائعة، وبلونه المائل للبياض، مع عدم قُبُوله الصّدأ، وثُبُوت جوهره، كما امتاز بلونه مصنوعاً من قطعة واحدة لا لحام فيه، عبدالرّحمن زكي، السّيف في العالم الإسلامي، ص168.

(7) التّكفيت كلمة فارسيَّة من الفعل كفتن، بمعنى وضع مادَّة غالية الثّمن في مادَّة أرخص منها، ومُختلفة عنها في اللّون، بالكفت النُّحاس والبرونز بالذّهب والفضَّة، وقد ازدهر هذا الأُسلُوب في زخرفة المعادن في عصر السّلاجقة، وانتشر في مصر والشَّام في القرن السّابع الهجري، سُعاد ماهر، مشهد الإمام علي (ع) بالنّجف مصر، 1969، ص328، أحمد رمضان، المُجتمع، ص111، وربَّما تعني الفلونة.

(8) أحمد رمضان، المُجتمع، ص111 - 113.

- **الشَّيخ:**

وهُو مَنْ يرأس الطَّائفة، ويُعَيَّن بالانتخاب من بين رجال الحرفة، فيُصبح المسؤول عن الحرفة وعن مصالحها، ويقضي في المُنازعات بين أفرادها، وكانت قراراته وأحكامه نافذة، ومن واجباته - أيضاً - أنَّه يُمثِّل الحرفة أمام السُّلطات، وأنَّه يسعى إلى مُحاربة الغشِّ والتَّلاعب، كما يقوم بمَنْح الشَّهادة لمُمارسة المهنة[1]، وهُناك أعوانه أمين الصُّندوق والمُسنُّون المُلقَّبون بالاختياريَّة، وهُم أساتذة الطَّائفة، ويتعاونون مع الشَّيخ على إدارة الحرفة؛ حيثُ يُشكِّلون مجلساً استشارياً خاصَّاً بالحرفة.

- **الأُستاذ[2]:**

ويُدعى أُسطى[3]، وأحياناً (المُعلِّم)، وهُو يُمثِّل الجهة الرَّئيسة من الحرفة.

- **العامل:**

وكان دوره مُهمَّاً مع قلَّة مهارته في الطَّائفة، أمَّا انتقاله إلى طبقة أرقى من طبقته؛ فهذا الأمر يعتمد على إتقانه العمل من خلال استمراره في المُمارسة[4].

وهُناك أصحاب الحرَف الصَّغيرة، كالخطَّاطين والأساكفة والنَّاطور[5] والمزملاني[6]، وغاسل الموتى، والباعة المُتجوِّلون، وكذلك تُطلق كلمة عامَّة على المساكين من السُّؤَّال[7]، وإذا تعطَّل بعض أصحاب الحرَف الصَّغيرة، بسبب توقُّف الحرفة، بسبب الكساد أو البطالة، انصرف إلى اللَّهو، والنَّهب، وقَطْع الطُّرُق، والالتجاء إلى الأماكن المجهولة[8] والبعيدة.

---

(1) فُؤاد العادل، المُجتمع الشَّامي، مكان وسنة الطَّبع بلا، ص6.

(2) كلمة فارسيَّة ومعناها السَّيِّد المشهور بعلمه، وقد استُخدمت في العربيَّة للدَّلالة على الماهر، وهي مُعرَّبة؛ لأنَّه لا توجد في العربيَّة كلمة أصليَّة تجمع بين الذَّال والسِّين، أحمد رمضان، المُجتمع ص111، المُنجد في اللُّغة والإعلام، ط22، بَيْرُوت، 1986، ص10.

(3) وهي تحريف لكلمة أُستاذ، حسن الباشا، الفُنُون والوظائف، 1/ 61، أحمد رمضان، المُجتمع، ص113.

(4) أحمد رمضان، المُجتمع، ص113.

(5) وهُو العامل المُتطوِّع لحراسة الملابس في الحمَّامات، السّبكي، مُعيد النّعم، ص137.

(6) وهُو حامل الماء وعامل السَّبيل (السَّقَّا)، أحمد رمضان، المُجتمع، ص107.

(7) السّبكي، مُعيد النّعم، ص141، أحمد رمضان، المُجتمع، ص107.

(8) أحمد رمضان، المُجتمع، ص107.

أمّا أصحاب الفُنُون الجميلة - وأعني بهم أصحاب المهارات المُختلفة -؛ فمنهم الخطّاطون؛ وهُم أقرب أرباب الصّناعات إلى الفنّ والفكر عند المُسلمين، وقد زاول الكثير من رجال الدّولة والمُفكّرين هذا العمل، وعدُّوا ذلك شرفاً كبيراً لهُم، فقد احتلّ الخطّاط مكانة خاصّة عند رجال الدّولة، الذين كانوا يتسابقون لشراء المخطوطات الكاملة والنّماذج من كتابة الخطّاطين البارزين الذين يُذيّلون أعمالهم بالإمضاء للدّلالة عليهم[1]، ولم يقف الخطّاطون عند حدّ الخطّ الجيّد فحسب، بل شمل منهم فُنُون الكتابات الأُخرى؛ مثل التّجليد، والتّصوير، والتّذهيب، وقد يُميَّز الخطّاط بدقّة أعماله؛ إذْ كُتبت ألفاظ من بعض السُّور على حبّة أرز، أو حبّة قمح، وغير ذلك[2].

أمّا المُصوِّرون؛ فقد احتلُّوا مرتبة تختلف عن الخطّاطين[3]، فقد تركّزت أكثر أعمالهم في الكنائس والأديرة؛ حيثُ أتقنوا عملهم، ولم يكن لأماكن العبادة الإسلاميّة والمساجد والجوامع نصيب في ذلك، بسبب موقف التّحريم منه، وقد ظهر ذلك في ديرمران[4]، بسفح جبل قاسيون بدمشق؛ حيثُ احتوى على عدد من الصُّور والنُّقُوش، كما ظهر ذلك الإتقان وروعته في كنيسة مريم في ضواحي المدينة، والتي زارها ابن جُبير، وَوَصَفَهَا بقوله: (وهي حفيلة البناء[5] تتضمّن التّصاوير أمراً عجيباً، تُبهت الأفكار، وتستوقف الأبصار...)[6]، ولم يقتصر الرّسم والزّخرفة على الكنائس، بل شمل قُصُور الأُمراء، فعندما أمر الظّاهر بيبرس

---

(1) أحمد رمضان، المُجتمع، ص107.

(2) حسن الباشا، فُنُون الإسلام، ص156، أحمد رمضان، المُجتمع، ص107.

(3) يُطلب من المُصوِّر أنْ ينفخ الرُّوح فيمن صَوَّره، فلا يستطيع، فيُعذَّب أكثر، وبهذا؛ نجد مكانته تختلف عن الخطّاط، وهي مُهمّة يفخر صاحبها، وهذا ما يُؤكّده الحديث (إنّ الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صُور)، فنسنك ي، ب، واي، المُعجم المُفهرس للحديث النّبوي، ليدن، 1965، 3/ 435، ريشارد انفهاوزن فنّ التّصوير عند العرب، ترجمة عيسى سلمان، سليم التكريتي، بغداد، 1974، ص192، من التّرجمة.

(4) وهي محلّة عامرة آهله بالسُّكّان، وسُمِّيت بهذا الاسم لوُجُود الدّير فيها، وهي على تلّ مُشرف على مزارع الزّعفران، وقد ذَكَرَهَا الطّبري عند حديثه عن وُصُول خالد بن الوليد إلى دمشق، الطّبري، تاريخ الطّبري، 7/ 242، الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 533، لامنس، ديرمران، دائرة المعارف، 9/ 363.

(5) حفيلة البناء، بناؤها مُبالغ فيه، ابن جُبير، الرّحلة، ص255.

(6) الرّحلة، ص255.

بتشييد قصره الأبلق[1]، قام الصنَّاع بزخرفته بمائة أسد صوَّروها، زُخرفها أبيض في أسود في أدقِّ صُور[2]، ولا ندري بماذا يُفسِّر بيبرس هذا الاهتمام بفنِّ التّصوير، بالرَّغم من موقف الإسلام الواضح في ذلك، كذلك شمل هذا الفنُّ - فضلاً عن أماكن العبادة المسيحيَّة - القُصُور والدُّور والحمَّامات، فقد احتوى حمَّام سيف الدِّين بدمشق على عدد من الصُّور[3].

أمَّا المُوسيقيُّون والمُغنُّون والمُغنِّيات؛ فقد برز منهم ممَّن تتوفَّر فيه النّباهة والتَّفرُّد في هذا الميدان[4]، ولم تكن المُوسيقا والغناء تخلو من العبرة والموعظة، ذلك أنَّ المُوسيقا مُرافقة للشِّعر والأدب.

لقد اشتهر عدد من رجال المُوسيقا في دمشق عن بقيَّة مُدُن الشَّام، فمنهم أبو المجد بن أبي الحكم[5]، الذي يُجيد اللّعب بالعُود والإيقاع والغناء، وكذلك أبو زكريَّا البياسي الذي برع في العُود و(عمل الأرغن أيضاً، وحاول اللّعب به، وكان يقرأ عليه علم المُوسيقا...)[6]، فضلاً على عمله في مجال الطِّبِّ والمُوسيقا؛ حيثُ كان طبيب صلاح الدِّين[7]، إلى جانب هؤلاء، كان الكثير ممَّن اشتهر في مجال المُوسيقا والطِّب[8]. ويظهر أنَّ المُوسيقى قد لعبت دوراً في العلاج، استناداً إلى العلاج بالمُوسيقا، وهُو مُستوى مُتطوِّر من العلاج، ولهذا؛ نجد الأطباء في هذا العهد شاركوا في صُنع وتطوُّر الآلات المُوسيقيَّة.

---

(1) وهُو القصر الذي شيَّده الظَّاهر بيبرس سنة 665هـ، وهُو من عجائب الدُّنيا، يُشرف على الميدان الأخضر في الغُوطة، شيخ الرّبوة، تُحفة العجائب، ص39، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص252، أحمد تيمور، خيال الظِّلِّ ولعب التّماثيل المُصوَّرة عند العرب، ط1، القاهرة، 1957، ص79.

(2) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، طبعة 1971، 5/ 569 - 570، النّعيمي، مقامات الحريري المُصوَّرة، ص79.

(3) أحمد رمضان، المُجتمع، ص105.

(4) الأصفهاني، الأغاني، 2/ 122 - 129، أحمد رمضان، المُجتمع، ص101.

(5) ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص628.

(6) ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص637.

(7) ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص637.

(8) ومن عُلماء المُوسيقا صفيِّ الدِّين عبد المُنعم بن فاخر، نجم الدِّين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة، وفخر الدِّين السّاعاتي، وكذلك رشيد الدِّين بن خليفة، وعلم الدِّين قيصر، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص661 - 728.

ويظهر أنَّ المُوسيقا ظلَّت هواية مُحبَّبة للبعض من النَّاس بجانب حرَفهم الأصليَّة، فهذا الجمال البستهي، وهُو من المُوسيقيِّين الذين برزوا في بلاد الشَّام في القرن السّابع، والذي عُرف بمهارته على آلة الجفانة[1]، بينما كان يشغل وظيفة الخطابة بجامع التّوبة[2]، ولكنَّ أهل المدينة كرهوا[3] أنْ يكون خطيب الجامع من المُغنِّين والمُوسيقيِّين، فوضعوا القصائد للتَّشهير به، ومنها ما قاله شرف الدِّين بن عقيل[4]:-

يـــا مليكـــاً مـــلأ الرّحمـــن	بـــــالعدل زمانــــــهْ
جـــامع التّوبـــة قـــد	حمّلنـــي منـــه أمانـــهْ
قـــال قُـــل للملـــك الأشـــرف	أعلـــى اللـــه شـــانهْ
لـــي إمـــام واســـطي	يعشـــق الخمـــر ويانـَــهْ
والـــذي قـــد كـــان مـــن	قبـــل يغنـــى بالجفانـــهْ
فكمـــا كـــان ومـــازال	ومـــا يـــبرح حانـــهْ
فـــأعده النّمـــط الأوّل	واســـتبقَ ضمانـــهْ[5]

وممَّن مارس الغناء هواية أيضاً مُحَمَّد بن علي الدَّهَّان[6]، فقد كان يعمل بالدّهن، إضافة إلى كونه شاعراً ومُغنِّياً ومُوسيقياً، وممَّا تقدَّم؛ يبدو أنَّ الغناء والمُوسيقى قد احتلاَّ مساحة واسعة بين الأوساط المُختلفة؛ لأنَّها جميعاً تشترك بالوجدان والإحساس الدَّاخلي الذي يُعبَّر عنه بالعزف المُوسيقي.

---

(1) وهي في الأصل القيثارة، ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 175، أحمد رمضان المُجتمع، ص202.

(2) وهُو من مساجد دمشق المُهمَّة التي يرجع إلى القرن السّابع الهجري، أنشأه الملك الأشرف مُوسى بن الملك العادل أبو بكر في حيِّ العقيبة، وكان - سابقاً - خاناً يُدعى خان الزّنجاري، الذي اشتهر بالفسق والفُجُور، فأمر الملك الأشرف بهدمه، وبنى بدله جامع التّوبة، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص87، أبو شامة، ذيل الرَّوضتَيْن، ص163، النّعيمي، الدّارس في تاريخ المدارس، 2/ 426.

(3) وضعوا بدله الإمام عزِّ الدِّين عبدالسّلام خطيباً لجامع التّوبة، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص88.

(4) هُو الشّاعر المعروف أبو المحاسن مُحَمَّد بن نصر، المشهور بابن عتيق الأنصاري الدّمشقي، تُوفِّي سنة 630هـ، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 4/ 106، بروكلمان، تاريخ الأدب، 6/ 17.

(5) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص87، النّعيمي، الدّارس، 2/ 107.

(6) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، 4/ 108.

6 ـ فئة الفلاّحين:

تمتّع الفلاّح بمكانته الاجتماعيَّة الخاصَّة بين فئات المُجتمع الدِّمشقي، وقد ساعد على ذلك توفُّر مُقوِّمات الزِّراعة من المياه والأرض الخصبة، والموقع الذي ساعد في اختلاف نوع المحصول[1]، وطريقة السّقي التي تُسبِّب في تفاوت الضَّريبة الزّراعيَّة، على أنَّ الزِّراعة كانت هي المهنة الأُولى في النّشاط الاقتصادي[2].

عاش الفلاّحون في ظلِّ الحُكْم الفاطمي تحت حالة من عدم الاستقرار وتفاوت في الولاء، وقد ساعدت هذه الظُّرُوف غير المُستقرَّة على انحيازهم للسّلاجقة ضدَّ الفاطميِّين، وذلك سنة 466هـ/ 1073م، عندما دخل أتشز[3] دمشق.

وُصفت سياسة السّلاجقة الزِّراعيَّة بشُيُوع الإقطاع بنوعَيْه العسكري والمَدَني، وتشريع عدد من الضَّرائب الزِّراعيَّة التي ألحقت أضراراً بالفلاّحين، وفي ظلِّ هذه الحال كان على الفلاّح أنْ يُجهد نفسه لتحقيق منفعته الزِّراعيَّة، وفي هذا المعنى يُمكن أنْ نعدَّ السّلاجقة ممَّن قد دفع الفلاّحين في زيادة نشاطاتهم الزِّراعيَّة.

ولَمَّا جاء الزّنكيُّون مُتمثِّلين بحُكْم نُور الدِّين لدمشق، اهتمَّ هُو الآخر بهذا المعنى فأسقط عن الفلاّحين المُكُوس[4]، واهتمَّ بحَفْر التّرع والقنوات وتطهيرها[5]، فضلاً عن عنايته بغُوطة دمشق، فأعاد تقسيمها من النَّاحية الإداريَّة، ممَّا ترتَّب عليه توزيع الأراضي[6] على مُستحقِّين جُدُد؛ بمَنْ فيهم فريق من الأعراب[7].

---

(1) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، 4/ 188.

(2) الماوردي، الأحكام السُّلطانيَّة، مصر، ب، ت، ص141، وما بعدها.

(3) ألحق أتشز مظالم بأثرياء دمشق عن طريق الضّرائب وغيرها، فيما أسهم في إحداث الأزمة الاقتصاديَّة في دمشق، فضلاً عمَّا أحدثته الحُرُوب والمُنازعات الإقليميَّة بين الحُكَّام في تلك المُدَّة، أحمد رمضان، المُجتمع، ص172.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص109.

(5) أحمد رمضان، المُجتمع، ص172.

(6) لقد نهى الأتابك زنكي أصحابه عن اقتناء الأملاك، ويقول: إذا كانت البلاد لنا، فأيُّ حاجة بكم إلى الأملاك، فإنَّ الإقطاع تُغني عنها، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص126.

(7) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 203 ـ 204 مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص126، أحمد رمضان، المُجتمع، ص172.

لقد تمتَّع الفلاَّح بنوع من الحُرِّيَّة، فقد ذكر السّبكي أنَّ (الفلاَّح حُرٌّ، لا يد لآدميٍّ عليه)[1]، ولكنْ؛ لا يُسمح له بتَرْك الأرض إلاَّ بعد ثلاث سنوات[2].

وعليه؛ فإنَّ هُناك نوعَيْن من المُزارعين بمُوجب بيان، فيما ذكره القَلْقَشَنْدي، وهُما القراريَّة، وهُم المُستقرُّون في الأرض، والمُزارعون الطّوارئ[3]، وهُم النّازحون من جهات أُخرى[4].

ولم يكن الفلاَّح ممَّن يعمل بأجر أو بالسُّخرة، وإنَّما يعمل باتِّفاق بينه وبين مالك الأرض، ليضمن حقَّه في المحصول الذي تتراوح نسبته النِّصف أو الثُّلث، تبعاً لموقع الأرض وطريقة السّقي ونوع المحصول، ولكي يطمئنَّ الفلاَّح على حُصُوله على حُقُوقه الزِّراعيَّة، كان هُناك شُهُود يحضرون القسمة، مُقابل أجر يدفعه الفلاَّح لهُم، ولكنَّ الفلاَّح كان يتحمَّل مبالغ من المال للأعياد المعروفة[5]، والضّيافة[6] المُخصَّصة المُشتملة على مُنتجات الأرض والألبان واللُّحُوم[7]، فضلاً عمَّا يُقدِّمه الفلاَّح لمالك الأرض من ضرائب، كما كان عليه أنْ يدفع ضرائب أُخرى إلى السَّلاطين والحُكَّام، فيما أشار لهذه الضَّرائب شمس الدِّين سنقر الأشقر[8] الذي قرَّر على ضياع المرج والغُوطة مالاً على كُلِّ رجل، ما بين ألفَيْ درهم إلى خمسمائة درهم، وفرض ذلك - أيضاً - على ضياع بعلبك والبقاع[9]، وهذا الوضع هُو أحد النّتائج الملموسة للنِّظام الإقطاعي السّلجوقي، وهُو أُسلوب استخدمه السّلاجقة للحُصُول على المال عندما تخلَّت عن إيرادات الخراج، وبعد أنْ منحت العسكريِّين الإقطاع عوضاً عن مُرتَّباتهم[10].

---

(1) السّبكي، مُعيد النّعم، ص44، أحمد رمضان، المُجتمع، ص179.

(2) وربَّما كان أشدَّ من ذلك، فمَنْ نزح عن أرضه قبل هذه المُدَّة يُعاد إليها قهراً، السّبكي، مُعيد النّعم، ص44.

(3) وهُم المُزارعون الاحتياط، الذين يُستخدمون وقت الحاجة، وينتهون بانتهائها، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 3/ 458.

(4) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 3/ 458.

(5) شهاب الدِّين أحمد النُّويري، نهاية الأرب في فُنُون الأدب، القاهرة، 1976، 8/ 245.

(6) النُّويري، نهاية الأرب، 8/ 245.

(7) النُّويري، نهاية الأرب، 8/ 245.

(8) هُو شمس الدِّين سنقر الأشقر المنصوري، تولَّى وظائف عدَّة، منها العمل في الدّواوين بدمشق، وكذلك الإشراف على ترميم الحُصُون، واستقلَّ بدمشق سنة 678هـ، وحلف له الأُمراء بذلك، ولكنَّ المنصور قلاوون أرسل له قُوَّة استطاعت هزيمته، تُوفِّي سنة 709هـ، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 305، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 751.

(9) آشتور، التّاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ترجمة عبد الهادي عبلة، دمشق 1985، ص378.

(10) المقريزي، السُّلُوك، 1/ 154.

وفي ظلِّ حُكْم الزّنكيِّين تلمَّس الفلاَّحون حالة من الإصلاح والاهتمام بشُؤُونهم ومصالحهم، من خلال ما يُنسب إلى نُور الدِّين في هذا الشّأن، فقد ذكرت الرّوايات - كما ذكرنا سابقاً - أنَّ نُور الدِّين أسقط المُكُوس ورُسُوم دار البطِّيخ والبغل والأنهار، فضلاً على إبطاله ضمان الهريسة والجُبن واللّبن[1] وغيرها، وقد قرأ الأمر على النَّاس، فاستُقبل بالدُّعاء والشُّكر، وذلك سنة 553هـ/ 1158م[2]، كما منح نُور الدِّين مُجير الدَّولة[3] بعض الأراضي في حمص عوضاً عن دمشق التي سيطر عليها سنة 541هـ/ 1154م، كما ومنح بعلبك إلى نجم الدِّين أيُّوب[4]، على أنَّ نظام الإقطاع استمرَّ في العهد الزّنكي، وفقاً لمُتطلبات الحالة والظُّرُوف السّائدة، وبسبب أنَّ هذا النِّظام من الحُكْم السّلجوقي، وقد انعكس هذا سلباً على محدوديَّة تملُّك الأراضي بطبقة مُعيَّنة من الإقطاعيِّين[5]، انعكست بهذا المعنى على الفلاَّحين وسُوء العلاقة معهم وتردِّي حالتهم المعاشيَّة، وحتَّى يتمتَّع الفلاَّح بالحالة المُثلى من الإنتاج الزِّراعيّ وازدهاره، فقد أشارت الموارد إلى ضرورة تمتُّع الفلاَّح بحُرِّيَّة العمل والاستقرار بأرضه، الأمر الذي صنَّف الفلاَّحين إلى نوعَيْن من المُزارعين، منهم مَنْ كان مُستقرّاً (القراريَّة)، ومنهم مَنْ كان يُستخدَم وقت الحاجة (الطّوارئ)[6].

وقد سار صلاح الدِّين وخُلفاؤه على هذا المنوال، فقد اقتطع لابن أخيه الملك الأفضل (582 - 593هـ/ 1186 - 1196م) دمشق[7]، كما اقتطع العزيز (590 - 595هـ/ 1193 - 1198م)

---

(1) كانت رُسُوم تُوضع على المنتوجات الزِّراعيَّة من الأراضي المُستفيدة من نهر بردى، ورُسُوم على المُنتجات الصّناعيَّة والغذائيَّة كالهريسة واللّبن والجُبن وغيره، البسيوني، عُيُون الرَّوضتَيْن، 1/ 252، حاشية (1).

(2) أبو شامة، عُيُون الرَّوضتَيْن، 1/ 250 - 251.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص327، ابن الأثير، التّاريخ الباهر، ص106 - 107، أبو شامة، الرَّوضتَيْن 1/ 85.

(4) نجم الدِّين أيُّوب بن شادي والد السُّلطان صلاح الدِّين وأخ أسد الدِّين شيركوه، تُوفِّي سنة 567، أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 209، الحنبلي، شذرات الذّهب، 4/ 226.

(5) كان الإقطاع الأيُّوبي من موارد الدَّولة؛ إذْ جرت العادة في جميع الإقطاعات الأيُّوبيَّة بأنواعها؛ إذْ يُمنح الإقطاع مقدار ما يصله من نَقْد ومحصول، وكانت الوحدة النّقديَّة هي الدّينار الجيشي، وكان هذا الدّينار للأجناد والأتراك والتُّركمان في عهد صلاح الدِّين، ويُساوي ديناراً ذهبيّاً كاملاً، وذكر صاحب كتاب قوانين الدّواوين أنَّه اشتمل رُبع الدّينار الذّهبي الرّسمي، أسعد بن مماتي، قوانين الدّواوين تحقيق عزيز سُوريال عطيَّة، مصر، 1943، ص369، وكذلك، ص369، حاشية(9).

(6) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 237.

(7) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 237.

دمشق بعد الاستيلاء عليها لعمِّه العادل (593 ـ 615هـ/ 1196 ـ 1218م)، وعوَّض الملك الكامل (615 ـ 635هـ/ 1218م ـ 1237م) للنَّاصر داود (615 ـ 626هـ/ 1218 ـ 1228م) أراضي الكرك والبقاع والأغوار على سبيل التّعويض، بعد استيلائه على دمشق سنة 626هـ/ 1238م[1].

وفي الفترة المملوكيَّة كان الاهتمام بالزّراعة ومصالح الفلاَّحين أمراً ملموساً، وذلك من خلال توزيع البُذُور النقيَّة من قِبَل الدَّولة، والتي تُعرف باسم (التّقاوى السُّلطانيَّة)، ومن أجل تحقيق ذلك تُحمل البُذُور الجيِّدة من أماكن بعيدة، كما حصل في سنة 659هـ/ 1260م، حين أمر الظّاهر بيبرس (658 ـ 676هـ/ 1258 ـ 1277م)، أنْ تُحمل الغلاَّت من مصر إلى دمشق، ومنها وُزِّعت لتكون تقاوى للفلاَّحين[2] غير أنَّ الظّاهر بيبرس لم يكن راغباً في اعتماد دمشق على مصر بتزويدها بالحُبُوب الجيِّدة، وبناءً على ذلك؛ منع الفلاَّحين من نقلها من مصر، وأمرهم بزراعتها محلّيّاً في دمشق، الأمر الذي أدَّى إلى غلاء الأسعار، وذلك سنة 660هـ/ 1261م[3]، وفي تفسير هذه الظّاهرة، يعود الأمر إلى امتناع الفلاَّحين عن الزِّراعة مُستهدفين إلحاق الضّرر بالصّليبيِّين[4] الذين ما فتئوا يُغيرُون عليهم[5] في مُستعمراتهم في المنطقة العربيَّة، أُولئك الذين قَدموا حديثاً من أُورُوبا، غير أنَّ تحقيق الهدف الوطني أضرَّ ـ من جهة أُخرى ـ بسكَّان دمشق، فوقعوا تحت طائلة الغلاء وارتفاع الأسعار.

على أنَّ نظام الإقطاع استمرَّ في الفترة المملوكيَّة؛ حيثُ كان أصحاب الإقطاعات يُرسلون مندوبيهم في نهاية المواسم الزِّراعيَّة، لتقدير خرَّاج الأرض المزروعة، غير مُهتمِّين بظُرُوف الفلاَّحين العامَّة، كقلَّة الأمطار والآفات الزِّراعيَّة والمشاكل والفتن الدَّاخليَّة، ممَّا انعكس على الرِّيف وإنتاجه الزِّراعيِّ، الأمر الذي تتأثَّر فيه التزامات الفلاَّح الماليَّة بإزاء أصحاب الإقطاع، وقد يُحاسب الفلاَّح قضائيّاً في حال تقصيره الُمتعمَّد، وعدم إيفائه بالتزاماته، غير أنَّ الدَّولة ـ في ظُرُوف خاصَّة ـ تقع خارج إرادة الفلاَّح، تمنحه فُرصة،

---

(1) أبو الفدا، المُختصر، 6/ 41، طبعة بَيْرُوت.
(2) المقريزي، السُّلُوك، 1/ 446.
(3) الدّواداري، كنز الدُّرر وجامع الغُرر، 8/ 87.
(4) ابن جُبير، الرّحلة، ص273 ـ 275.
(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص136 ـ 141، ابن الأثير، الكامل، 9/ 76 ـ 87.

تُسامحه فيها بمُوجب مرسوم سُلطاني يُلغي الضَّرائب والمُلتزمات المُتحقِّقة على الفلاَّحين، رعاية من الدَّولة لمصالحهم، كما حصل في عهد السُّلطان النّاصر[1]، حين صدر مرسوم يُسامح ما بقي في ذمم أهالي الشَّام، وقد قُرئ هذا في الجامع الأُموي، وجاء فيه: (رسم بأمر الشَّريف... إنَّ تسامح مدينة دمشق المحروسة وسائر الأعمال الشَّاميَّة، بما فيها من البواقي المُساقة في الدّواوين المعمورة إلى المُدد المُعيَّنة في التّذكرة الكريمة المُتوجِّهة بالخطِّ الشَّريف، وجُملة ذلك من الدّراهم ألف ألف، وسبعمائة ألف، وستَّة وأربعون ألف، ومائة وخمسة وأربعون درهماً، ومن الغلال المُنوَّعة تسعة آلاف وأربعمائة غرارة، ومن الحُبُوب مائتان وثمان وعشرون غرارة، ومن الغنم خمسمائة رأس، ومن الفُولاذ ستُّمائة وثمان أرطال، ومن الزّيت ألفان وثلاثمائة رطل، ومن حبِّ الرُّمَّان ألف وستُّمائة رطل)[2]، وخُتمت هذه المُسامحة بعبارة: (فليتلقّوا هذه النّعمة بالشُّكر المديد، وسبيل كُلِّ واقف على هذا المرسوم الشَّريف، اعتماد الحكمة والوُقُوف عند مُدَّته ورسمه واسمه، وبعض آثار هذا الباقي المذكور بمحور رسمه، والخطّ الشَّريف شرَّفه الله تعالى وأعلاه حُجَّة بمُقتضاه)[3].

ويظهر ممَّا تقدَّم أنَّ المُسامحة الصّادرة من السُّلطان ليست على المحاصيل، بل تشمل أُموراً أُخرى من المبالغ النّقديَّة والمواشي وحتَّى الزّيت...إلخ، فهي تشمل الأرض وما عليها، ولا شكَّ أنَّ هذه الإعانة من قِبَل الدَّولة تُسهم -إلى حدٍّ كبير- في التّخفيف من كاهل الفلاَّحين بالخلاص من دَيْنهم، وتشجيعهم على مُواصلة العمل.

7 - فئة أهل الذِّمَّة:

وهُم أهل الكتاب المُعاهدون من نصارى ويهُود وغيرهم، ممَّن عاشوا مع أخوانهم المُسلمين برُوح من التَّسامح والحُرِّيَّة في مُمارسة طُقُوسهم وشعائرهم الدِّينيَّة، قال تعالى:

---

(1) هُو النّاصر مُحَمَّد بن السُّلطان المنصور قلاوون، وحكم بعد أخيه صلاح الدِّين، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 355.

(2) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 13/ 28-30.

(3) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 13/ 28-30.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1]، ويُسمّون في التّنزيل بأهل الكتاب[2]، والمُسلمون مسؤولون[3] عن حمايتهم؛ مُقابل دفعهم الجزية[4]، وقد ذكر ابن واصل أنَّ نُور الدِّين كان يرسم نفقته الخاصَّة في كُلِّ شهر من جزية أهل الذِّمَّة مبلغ ألفي قرطاس مصريَّة)[5].

حظي النّصارى بالمُعاملة الحسنة[6] من قِبَل الحُكّام المُتعاقبين في دمشق في عهد الفاطميِّين والسّلاجقة والزّنكيِّين، بما يتناسب ومبادئ الإسلام السّمحاء[7]، في احترام طُقُوس الأديان السَّماويَّة، ولهذا؛ نجد كنائس النّصارى[8] وأبراجهم ظلَّت قائمة تُمارس نشاطها العادي داخل المدينة وخارجها، وما كثرة الكنائس وتعدُّدها إلاَّ دليلاً على ما نقول، وليس هذا فقط، فقد تفنَّنوا في بناء هذه الكنائس، ولهذا؛ نجد ابن جُبير يصف كنيسة مريم في دمشق بقوله: (وهي حفيلة البناء، تتضمَّن من التّصاوير أمراً عجيباً، تُبهت الأفكار، وتُوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهي بأيدي الرُّوم، ولا اعتراف عليهم فيها)[9].

---

(1) البقرة، آية (62).

(2) مُحَمَّد بن عبد الكريم الشّهرستاني، الملل والنّحل، تحقيق مُحَمَّد سيِّد كيلاني، مصر، 1967، 1/ 208.

(3) كانت حُرُوب التّحرير عاملاً من عوامل دُخُول الكثير منهم في الحُكم الإسلامي ووُقُوعهم تحت حمايتهم، بعد أنْ سيطروا على المنطقة، وقد أشار إلى ذلك ابن جُبير عن إحدى قُرى المنطقة بقوله: (وهي للنّصارى المُعاهدين الذِّمِّيِّين) الرّحلة، ص217.

(4) تُؤخذ الجزية منهم حسب الإمكانيَّة، فعلى الفقير المُعيل دينار، والمُتوسِّط ديناران، والغني أربعة دنانير على رأس الحول، الشّيزري، نهاية الرُّتبة، ص79.

(5) مُفرِّج الكُرُوب، 2/ 284، باشا، أدب الدُّوَل، ص79.

(6) باستثناء ما ذكره ابن مُنقذ أنَّ القائد التُّركي صلاح الدِّين الفسياني سبى من اليهُود والنّصارى صبياناً ونساءً، وذلك من بعض الحُصُون التي استعاده جُنده، ويذكر أنَّ هذا القائد كان يظلم النَّاس ذمِّيِّين أو مُسلمين، الاعتبار، ص107.

(7) وكان اليهُود يُمارسون نشاطهم الدِّيني والاقتصادي بهُدُوء، حتَّى إنَّ أحد أبواب حلب سُمِّي باسمهم، عاشور، المُجتمع الإسلامي، ص228.

(8) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 126 ـ 132، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص269، وما بعدها، عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام، ص399 ـ 400.

(9) الرّحلة، ص255، انظر مُلحق الكنائس والأديرة برَقْم (16 و 17)، ص 286 ـ 288.

المُختلفة، تأكيداً منهم لتسامح الإسلام ودولته مع هذه الفئات، فقد سار الأيُّوبيُّون على خُطى أسلافهم في التَّسامح معهم، فقد ولَّى العادل سنة 579هـ/ 1183م، الصَّنيعة بن النَّحَّال ديوان الإنشاء، وما يتعلَّق بأُمُور السِّرِّ، وكان هذا نصرانيّاً، ثُمَّ أسلم، وفي ذلك يقول الشّاعر:

فـــاق المســيح دولـــة العـــادل حتَّـــى عـــلا علـــى الأديـــانِ

ذا أمـــير وذا وزيـــــر وذا والٍ وذا مُشـــرف علـــى الدّيـــوانِ[1]

كما شغل منصب الوزارة مُعين الدِّين السّامري[2]، وزير الملك الصّالح، وهُو الذي أرسله إلى الخليفة المُستعصم بالله؛ ليُصلح بينه وبين أخيه الملك الصّالح أيُّوب، وذلك سنة 643هـ/ 1245م[3].

غير أنَّ الفترة المملوكيَّة شهدت اختلافاً في تعامل المُسلمين مع أهل الذِّمَّة، وربَّما كان للظُّرُوف العامَّة المُحيطة سبب في ذلك، من خلال استشراء العُدوان الصّليبي والتّتري على دولة الإسلام، الأمر الذي تسبَّب في رُدُود الفعل المُعاكسة، فظهرت في تعامل المماليك مع أهل الذِّمَّة... ففي شعبان سنة 688هـ/ 1289م، خرج مرسوم من السُّلطان قلاوون بعدم استخدام أحد من أهل الذِّمَّة... اليهُود والنّصارى في شيء من المُباشرات الدّيوانيَّة[4]...)[5]، كما حدَّد المرسوم لون العمامة التي يلبسها هؤلاء، فكانت عمائم[6] النّصارى باللّون الأزرق، وعمائم اليهود باللّون الأصفر، وسَبَبُ هذا أنَّ أحد المغاربة المُتعصِّبين جلس بباب القلعة، فدخل بعض كُتّاب الدّيوان بعمائم بيض، فأكثر المغربي من توقيرهم واحترامهم، ظنّاً منه أنَّهم من المُسلمين، وعندما علم أنَّهم من أهل الذِّمَّة دخل على النّاصر مُحَمَّد،

---

(1) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 2/ 52، نقولا زيادة، سُوريّاً في زمن الصّليبيِّين، مجلَّة المُقتطف، 1975، ص19.

(2) مُعين الدِّين غزال بن المسلماني، وزير الملك الصّالح إسماعيل، أرسله تحت الحوطة إلى الدِّيار المصرية، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 178.

(3) المكين جرجيس العميد، أخبار الأيُّوبيِّين، دمشق، المعهد الفرنسي، 1958، ص471، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 2/ 175، باشا، أدب الدُّوَل المُتابعة، ص80.

(4) حُرمت عليهم الكتابة في الدّواوين وغيرها، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 453.

(5) المقريزي، السُّلُوك، 1/ 753.

(6) لقد أُمروا بتصغير عمائمهم، فلا تتجاوز سبع عشر أو عشر، باشا، أدب الدُّوَل، ص80.

وطلب منه تغيير زيٍّ أهل الذِّمَّة، ليُمكن تمييزهم عن المُسلمين، فلبسوا ما أُمروا من الزِّيِّ الجديد، فأنشد مُنشد على لون عمائمهم:

تعجبَّوا للنَّصارى واليهُود معاً	والسّامريين لَمّا عمَّموا الحرقا
كأنَّما بان بالأصباع مُستشهداً	نسر السّماء فأضحى فوقهم درقا[1]

وكَرَدِّ فعل على هذه التَّصرُّفات، قام بعض النّصارى بخيانة المُسلمين، وكشف أسرارهم[2] للفرنجة، الأمر الذي جعل الظّاهر يأخذ صبيانهم، ولم يكتف بذلك، بل أرسل بعضهم إلى مصر ليُربّوا هُناك[3]، كما تكرَّر موقفهم العدائي من المُسلمين؛ إذْ رحَّبوا بقُدُوم التّتار إلى دمشق سنة 658هـ/ 1260م، فأخذوا يدقُّون النّواقيس، وأدخلوا الخمر إلى المسجد الجامع[4]، فضلاً عن أنَّهم كانوا يُرغمون المُسلمين على الوُقُوف لهُم إذا عبروا، ويُبالغون في مواكب أعيادهم، ويصيحون: (انصر دين المسيح)[5]، وردّاً على هذه الأُمُور؛ قام المُسلمون بتخريب وإحراق كنيسة مريم، وهي كُبرى كنائسهم، فضلاً عن هدمهم كنيسة القرابين بحيِّ اليهُود بمدينة دمشق[6]، وذلك بعد أنْ وصلت إمدادات المُسلمين من مصر، ممّا تسبَّب في انسحاب التّتار من دمشق.

وبرغم وُجُود هذه الحوادث الطّارئة والتي لا تُمثِّل السّياسة العامَّة للدُّول، فإنَّ المُسلمين أحسنوا مُعاملتهم والدّفاع عنهم، لأنَّهم في ذمَّتهم، وقد تلمَّس ذلك المسيحيُّون، حتَّى إنَّهم

(1) السّيوطي، حُسن المُحاضرة، 2/ 179، ابن إياس، بدائع الزُّهُور، 1/ 143.
(2) أمَّا اليهُود؛ فلم يُؤذوا المُسلمين خلال هذه المحنة، ولم يُعاونوا التّتار، فضلاً عن أنَّ بعضهم اعتنق الإسلام رغبة منهم في إرجاعهم إلى مناصبهم في الدّواوين هذا، من جهة، والتّخلص من التّضييق من جهة أُخرى، باشا، أدب الدُّوَل، ص80.
(3) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 2/ 218، باشا، أدب الدُّوَل، ص81.
(4) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 2/ 206، باشا، أدب الدُّوَل، ص81، وقد فعل المغول نفس الشّيء حين قتلوا الخليفة العبّاسي، ودمَّروا بعض المُؤسَّسات الدّينيَّة، ولهذا؛ نجد البابا يُشجِّع الصّليبيِّين المسيحيِّين على التّحالف مع المغول ضدَّ عدوِّهم المُشترك الإسلام)، سعد مُحَمَّد المُؤمن، القلاع الإسلاميَّة في الأُردن في المُدَّة الأيُّوبيَّة والمملوكيَّة، ط1، عمَّان، 1988، ص44.
(5) شاكر مُصطفى، المُدُن في الإسلام، ط1، الكُويت، 1988، 2/ 217.
(6) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 2/ 218، باشا، أدب الدُّوَل، ص85.

فضَّلوا الحُكم الإسلامي على حُكْم الصّليبيِّيْن، حتَّى رضوا بالسّيادة العربيَّة[1]، وأثَّر ذلك في انتقال الكثير من العادات الشَّرقيَّة الإسلاميَّة إليهم في مظاهر السّكن[2] والطّعام[3] واللّباس[4]، والذي يعود إلى حُسن تعامل المُسلمين مع أهل الذِّمَّة، ومن ذلك لبس النِّساء من أهل الذِّمَّة الحجاب ليس تحشُّماً، بل رغبة منهم في مُحاكاة المُسلمات الأرقى حضارة[5]، فضلاً عن تلوين أصابعهنَّ بالحنَّاء، وتحدُّثهن بالعربيَّة، بكُلِّ طلاقة[6]، وقد ساعد هذا التّأثير في أوقات السّلم على النّشاط التِّجاريّ والتّبادل السّلعي، فيما ذكره ابن جُبير: (إنَّ قوافل المُسلمين كانت تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المُسلمين)[7]، بل إنَّه أشار في معرض حديثه عن هذه القوافل في ازدياد العلاقة بين الجانبَيْن، أنَّه غادر مدينة دمشق في قافلة تجاريَّة إسلاميَّة مُتَّجهاً إلى مدينة عكَّا الصّليبيَّة[8]، وثمَّة مُلاحظة مُهمَّة في فترة السّلم؛ إذْ كانت هُناك اتِّصالات حضاريَّة[9]، ومُعاملات اقتصاديَّة على جانب خطير من الأهمِّيَّة بين المُسلمين والصّليبيِّيْن[10]، وقد دفع هذا فيليب الرَّابع باتِّهام مَنْ جاء من الشّرق (بأنَّهم فقدوا إيمانهم بالدِّين المسيحي؛ لطُول اختلاطهم بالمُسلمين، وبأنَّهم يُنكرون المسيح، ويبصقون على

---

(1) أرنولد، الدَّعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط2، القاهرة، 1957، ص108.

(2) عاشوا في قُصُور فخمة، في داخلها أقواس ومقنات للمياه، كما أخذوا العادات المنزليَّة وعادات النّظافة، والتي يروي منها ابن مُنقذ الكثير، الاعتبار، ص140، عبدالقادر أحمد اليُوسُف، العلاقات بين الشّرق والغرب، صيدا، 1969، ص270.

(3) نَبَذَ الإفرنج الأُسلُوب الإفرنجي في إعداد الطّعام، فاستحسنوا الأطعمة العربيَّة، وصار السّعيد منهم مَنْ استطاع الظّفر بطبَّاخات شرقيَّات؛ حيثُ يأكل من طبيخهنَّ، ابن مُنقذ، الاعتبار، ص140.

(4) لبسوا الملابس الفضفاضة الواسعة، والتي تتناسب مع جوِّ الشّرق، كما يلبس أهل البلاد، عاشور، مُحاضرات في تاريخ الإسلام، ص415.

(5) ريتشارد انتهاوزن، فنُّ التّصوير عند العرب، ص44، عاشور، المُجتمع الإسلامي، ص240.

(6) ريتشارد انتهاوزن، فنُّ التّصوير، ص104.

(7) الرّحلة، ص271 ـ 272.

(8) الرّحلة، ص273.

(9) كان من أثر اختلاط العلم والمعرفة، أنْ هاجر إلى بلاد الشَّام عدد من العُلماء للاستفادة والدِّراسة، والمعروف أنَّ أوَّل مسيحي في الجبر هُو ليونارد فيوباشي Leonardo Fiboncci، وغيرهم أرنست باكر، الحُرُوب الصّليبيَّة، ترجمة السَّيِّد الباز العريني، القاهرة، 1960، ص192.

(10) عاشور، حياة الإسلام عصر الحُرُوب الصّليبيَّة، ص164.

الصّليب، ويعبدون الأوثان، ويُحالفون المُسلمين سراً، وأنّهم طالما خانوا القضيَّة المسيحيَّة)[1]، وهكذا نجد الخيانة للقضيَّة المسيحيَّة من وسائل اتّهام الصّليبيِّين، وربَّما جاء نتيجة إعجاب هؤلاء بسُلُوك وحضارة المُسلمين، الأمر الذي أقلق مُلُوك الغرب والبابويَّة.

أمَّا الزَّواج منهم؛ فهُو مُباح للمُسلم أنْ يتزوَّج من كتابيَّة، ولكنْ؛ لا يجوز العكس كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2]، وشواهد زواج المُسلمين من الذِّمِّيَّات ـ ولاسيَّما النّصرانيَّات في بلاد الشَّام ـ كثيرة، لدرجة أنَّ المُصاهرة من هذا النّوع قد تركت جيلاً عُرفَ بـ (البولاني)[3]، أو طبقة الأفراخ[4]، على ما يراه فيليب حتّي، والذي تميَّز بالشُّقرة والعُيُون الزّرقاء[5].

وأخيراً؛ كان للمسيحيِّين[6]، بطركان (بطريركان) في دمشق، أحدهما للنّساطرة، والثّاني لليعاقبة، وهُم يُعيَّنون بمرسوم من السُّلطان، وهُما مسؤولان أمامه عن طائفتَيْهما في عُمُوم منطقة دمشق[7].

أمَّا اليهُود[8]؛ فكان رئيسهم يُسمَّى النَّافذ في بادئ الأمر، ثُمَّ شاع استعمال الرّئيس، ويتمتَّع بنفس واجبات البطريك، وكان لكُلٍّ من البطريك والرَّئيس أعوان من الطّائفة،

---

(1) ديورانت، قصَّة الحضارة، 15/ 63.

(2) المائدة، آية (5).

(3) من لفظة Ponlains، ومعناها الأحداث الصّغار، فيليب حتِّي، تاريخ سُوريًا، 2/ 58.

(4) عاشور، تاريخ العلاقات بين الشّرق والغرب، بَيْرُوت، 1972، ص157، سالم زينو، حياة الصّليبيِّين ونُظُمهم، المجلَّة العسكريَّة، العدد (30)، 1965، لسنة 42، ص166.

(5) فيليب حتِّي، تاريخ سُوريًا ولُبنان، 2/ 258.

(6) كان المسيحيُّون في دمشق من السّريان الذين ينتمون إلى الكنيسة اليعقوبيَّة، رنسيمان، الحُرُوب الصّليبيَّة، 2/ 28.

(7) نقولا زيادة، دمشق، ص164.

(8) ترجع طائفة اليهُود في المدينة إلى العهد الرُّوماني، وتكاثرت؛ إذْ استطاعت من فتح معهد الثّقافة اليهوديَّة في المشرق في عهد الأُمويِّين، ومن حُسن حظِّ اليهُود في دمشق أنَّهم لم يُواجهوا المصاعب التي واجهها يهُود المُدُن الأُخرى جرَّاء دُخُول الصّليبيِّين إلى تلك المُدُن، بنيامين، رحلة بنيامين، حاشية (1)، ص172.

فالأوَّل كان يعتمد على الأساقفة والكَهَنَة، أمَّا الثَّاني؛ فكان ممَّن يعتمدهم: البرناس الذي كان يجمع الصّدقات، والمُقدّمون، والدّبان (المرقبان)، والخزَّان وبيت الدِّين (القاضي)، وكان لكُلٍّ منهم واجباته على نحو ما ينصُّ عليه ناموس اليهُود[1].

وربَّما ساعد هذا التّنظيم الدَّولة على الإشراف على شُؤُونهم من خلال القوائم التي تحتوي على أعداد اليهُود المُقدَّرة بثلاثة آلاف، والنّصارى الذين كان عددهم يزيد عن ذلك في منطقة دمشق[2]، ومعرفة مبالغ الضَّرائب التي تُجمع منهم، وتأكيداً في حُسن تعامل المُسلمين مع أهل الذِّمَّة من اليهود والنّصارى في دمشق، أنَّهم مُنحوا الحُرِّيَّة والإرادة الذّاتيَّة في حلٍّ مشاكلهم، الأمر الذي ساعد على تطوُّر جوانب مُهمَّة من المُؤسَّسات السّياسيَّة والإداريَّة[3].

8 ـ القبائل البدويَّة (الأعراب):

كانت القبائل البدويَّة قبل الإسلام تجوب منطقة بلاد الشَّام، ومنها دمشق، وهي تتناوب بين الاستقرار ونقيضه، حتَّى جاء الإسلام، فغلب على مُعظمها الاستقرار؛ إذْ أسهمت تلك القبائل في معارك التّحرير والفُتُوح التي سادت المنطقة، وكانت هذه القبائل تتكوَّن من (الأزد، حمير، زبيد، خولان، كنانة، قضاعة)[4]، بالإضافة إلى غسَّان وربيعة وعدد غير قليل من قيس وقُريش[5]، وغيرهم[6].

---

(1) نقولا زيادة، دمشق، ص166 ـ 167.

(2) لقد قدَّر بنيامين التّطيطلي عدد اليهُود في دمشق نحو ثلاثة آلاف، بينهم الكثير من أهل العلم والثّراء، كما أشار إلى وُجُود مائتَيْن من السّمرة، أمَّا عدد المسيحيِّين؛ فكانوا ـ بصُورة عامَّة ـ أكثر من اليهُود، بنيامين في بونة، رحلة بنيامين، ص117، نقولا زيادة، دمشق، ص172.

(3) نقولا زيادة، دمشق، ص166 ـ 167.

(4) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 1/ 275، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 204.

(5) عبد الأمير دكسن، الخلافة الأُمويَّة، بَيْرُوت، 1973، ص143.

(6) سكنت الغُوطة فُرقة من بني زبيد، وكذلك فُرقة من آل علي وآل فضل، وديارهم مرج دمشق بين أخوانهم آل فضل وبني عمِّهم آل مُرَّة، كذلك سكن بطن من زبيد وآل فضل عرب الشَّام، وكذلك الحريث بطن من زبيد من القحطانيَّة، فعرب الغُوطة مشايخ من القبائل تبدَّلت أسماؤها على التّوالي، كما تبدَّلت أسماء منازلهم في ظاهر دمشق والغُوطة، مُنذُ أنْ دخلت في حكْم العرب، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 204، وما بعدها، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص34.

عاشت هذه القبائل أيَّامها الأُولى قبل الإسلام على أطراف الحواضر، نظراً لُمزاولتهم الرّعي وحياة التَّنقُّل والارتحال، وفي أيَّام الجدب تضيق بهم الموارد المعاشيَّة، ممَّا يشيع بينهم حالات السَّلب والإغارة[1] على طُرُق التِّجارة والحواضر القريبة منهم، ممَّا دفع بالُمستقرِّين من القبائل العربيَّة إلى أنْ تعقد مع القبائل الُمرتحلة والُمغيرة الاتِّفاقيَّات والعُهُود الُمتوازنة المنافع للطَّرَفَيْن[2]، وممَّا يُشار إليه في هذا السّياق، أنَّ زعيم قبائل الكلبيِّين سنان بن عليان، حينما قصد مُحاصرة دمشق، فشل في ذلك بسبب مُقاومة أهلها، ولَمَّا حاول الكلبيُّون مرَّة أُخرى بعد وفاة[3] زعيمهم، فشل القائد الأرميني[4] في دمشق في التَّصدِّي لهُم، ونجح الكلبيُّون في الاستيلاء على غلاَّت دمشق، ونهبوا وأشاعوا الخراب في البلاد[5].

وكما أشرنا سابقاً، لم تكن حياة القبائل مُستقرَّة، بل يغلب عليها التَّرحُّل الدّائم طلباً للعُشب والماء، ممَّا جعلتهم عُرضة للمجاعة والحاجة الغذائيَّة في أيَّام الجدب وشحَّة الأمطار، برزت في هذا السّياق رواية لابن مُنقذ، ذكر فيها مهمَّة حربيَّة، بعثه فيها نُور الدِّين إلى بعض قبائل طي، أنَّه شاهدهم (وقد يبست جلُودهم على عظامهم بسبب مجاعتهم، لكنَّهم دافعوا عن أنفسهم، مُخاطبين إيَّاه بأنَّهم خير العرب، وليس فيهم مجذوم ولا أبرص ولا زمني ولا أعمى)[6].

ولم تكن الزّعامة لقبيلة في بلاد الشَّام تقتصر على بيت واحد في القبيلة، بل كانت تتناوب بين بُيُوتها، وذلك حسب الظُّرُوف العامة، فقد تزعَّمت قبيلة ربيعة عُمُوم القبائل السّاكنة في المنطقة في القرن السّادس الهجري، في عهد الأتابك طغتكين، وكان آل علي زُعماء ربيعة في مرج دمشق وغُوطتها[7]، قد نالوا كرم نُور الدِّين وتقديره حين وفدوا

---

(1) السّبكي، مُعيد النّعم، ص52.

(2) تحالف أمير طي وأمير كلب وصالح بن مرداس مع الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي على اقتسام بلاد الشَّام، مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، 1/ 249.

(3) فقد ضربوا داريًّا وتوابعها، ابن العديم، زبدة الطّلب، 1/ 250، أحمد رمضان، الُمجتمع، ص194.

(4) ابن مُيسَّر، أخبار مصر، ص26.

(5) أحمد رمضان، الُمجتمع، ص194، نقلاً من مخطوط ذيل مرآة الزّمان لسبط ابن الجوزي، ج12، ورقة 102، أ.

(6) الاعتبار، ص12.

(7) أحمد وصفي زكريًّا، عشائر الشَّام، ط2، دمشق، 1983، 1/ 86.

عليه[1]، وقد نالت هذه الزّعامة القبليّة من آل علي بن ربيعة من قبَل السّلاطين التّقليد الرّسميّ لمشيختها من عامل السُّلطان، أخي السُّلطان صلاح الدِّين[2].

ويُرجَّح أنْ يكون هذا التّقليد الرَّسميّ في الزّعامة القبليّة بسبب ما قدَّمته من مُساعدات، وتأكيداً لتناوب الأُسَر والبُيُوتات في زعامتها[3] للقبائل، إلى آل فضل رعاية الأيُّوبيِّين؛ إذْ رافق فضل الملك العادل في جولاته في دمشق، ممَّا تسبَّب في استمرار ولائه للأيُّوبيِّين، وتابعه ابنه مانع[4] من بعده، وكذلك مهنَّا بن مانع.

ومن المفاخر التي تُنسب لآل فضل من ربيعة، أنَّهم اشتركوا في قتال التّتار، وطردوهم من بلاد الشَّام، في معركة عَيْن جالوت، ممَّا دفع بالسُّلطان قُطز على مُكافأة مهنَّا بن مانع بمنحه إقطاعاً في منطقة حماة.

وفي ظلِّ حُكْم المماليك دعمت[5]، هذه الأُسَر في زعامتها للقبائل العربيَّة، وتوارثت بيت عائلة آل مهنَّا المشيخة القبليَّة، وهذا التَّعاون ساعد القبائل الأُخرى على الاستقرار بالجبال والمناطق الحُدُوديَّة، لُممارسة دورها الأمني، بعد أنْ احتفظ آل فضل بالزّعامة العامَّة للقبائل، فقد انحسر آل مُرَّة إلى الحُدُود في الجبال والتّلال[6]. على أنَّ حياة الاستقرار لبعض هذه القبائل منحتهم مظاهر التَّحضُّر، ومن هذه القبائل آل مُنقذ التي وُصفت حياتهم بين البداوة والتَّحضُّر، فقد توفَّر في بيئتهم الفُرسان والشُّعراء وعُلماء الفقه والنّحو، في حين برزوا في مجال الصّيد، على أنَّ أُمراءهم سكنوا القُصُور، وعقدوا مجالس الأدب والعلم منها، ونُسخ فيها القُرآن الكريم، والكُتُبُ القيِّمة من المخطوطات[7]، وممَّا أشارت الرّوايات

---

(1) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 203.

(2) باشا، أدب الدُّوَل المُتابعة، ص77، نقلاً عن مخطوط المنهل الصّافي لابن تغري بردي، ج3، ورقة 369.

(3) تحمي هذه الزّعامة القبائل الرُّحَّل في بلاد الشَّام والجزيرة ونجد؛ حيثُ ينتسبون إلى طي وكلب وزبيد...إلخ؛ حيثُ يكون زعيمهم من أنفسهم، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 203، أحمد وصفي، عشائر الشَّام، 1/ 86.

(4) وهُو حُسام بن مانع بن عيسى بن ربيعة، تُوفِّي سنة 630هـ، فخلفه ابنه مهنَّا بن نافع، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 3/ 203، باشا، أدب الدُّوَل المُتابعة، ص77.

(5) ولَّى الظّاهر بيبرس بعد موت مهنَّا بن مانع ابنَه عيسى، ليكون خلفاً له، حتَّى وفاته سنة 684 هجريَّة، كما وعَيَّن السُّلطان قلاوون ابنه مهنَّا بن عيسى حتَّى سنة 734هـ، باشا، أدب الدُّوَل المُتابعة، ص77.

(6) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 204 ـ 210، باشا، أدب الدُّوَل، ص77.

(7) ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 1/ 195 ـ 199، 409 ـ 410.

إلى شُهرة مُرشد بن علي بن مُنقذ، وهُو والد المُؤرِّخ المعروف أُسامة بن مُنقذ، أنَّه نسخ القُرآن ثلاثاً وأربعين مرَّة (منها ختمة كبيرة بالذّهب، وكَتَبَ بها عُلُوم القُرآن وقراءته وعربيَّته وناسخه ومنسوخه وتفسيره وسبب نُزُوله)[1].

9 ـ فئة الأحداث (الفُتُوَّة)[2]:

الحَدَثُ في اللُّغة هُو الفتي، وشابٌّ حَدَثٌ؛ فتيَّ السِّنِّ[3]، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[4]، وهي تُعبِّر عن مكارم الأخلاق، يقول بعضهم (الفُتُوَّة أنْ تُقرِّب مَنْ يبغضكَ، وتُكرِّم مَنْ يُؤذيكَ، وتُحسنُ على مَنْ يُسيء إليكَ، سماحةً لا كرماً، ومودَّةً لا مُسَاترة)، وقول آخر: (الفُتُوَّة تُحرِّكُ مَنْ تهوى لمَا تخشى وأمثال ذلك، فهذه أُمُور حسنة مطلوبة، سُمِّيت فُتُوَّة أمْ لم تُسَمَّ)[5]، ويظهر أنَّ الحدث مُرادف للفتى في اللُّغة أصلاً، فصار مُرادفاً له في الاصطلاح.

ويذكر ابن جُبير أنَّ في مدينة دمشق (طائفة تُعرف بالبنويَّة سُنِّيُّون يُدينون بالفُتُوَّة وأُمُور الرُّجُولة كُلِّها)[6] والبنويَّة هي إحدى فرق الفُتُوَّة على حدِّ قَوْل ابن المعمار (ولم تزل الفُتُوَّة تنقل، وهلمَّ جراً، إلى عصرنا هذا، حتَّى تفرَّعت، وصارت بُيُوتاً وأحزاباً وقبائل؛ كالرّهاصيَّة والسّجينيَّة والجليليَّة والمولائيَّة والبنويَّة، لما حدث بينهم من الاختلاف، وكُلٌّ مَنهم ذهب إلى رأي)[7]، وفي هذا يُعلِّق الدُّكتُور مُصطفى جواد على ذلك بقوله: (وأرى أنَّ الصَّحيح في ضبط هذا الاسم النّبويَّة، نسبة إلى النّبي عليه الصّلاة والسّلام، كالخليليَّة نسبة إلى إبراهيم الخليل، عليه السّلام، غير أنَّ البنويَّة؛ أيْ المُولَّدين من أبناء الفُرس في بلاد

---

(1) ابن مُنقذ، الاعتبار، ص93، ابن تغرى بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 5/ 560.

(2) ترجع الفُتُوَّة إلى عهد الرَّسول ﷺ، والذي ألبس الإمام علي (رض) لباس الفُتُوَّة، ثُمَّ ألبسه ما شاء، ويقولون: إنَّ هذا اللّباس أُنزل على النّبي في صُندوق، ويستدلُّون عليه بقوله: (يا بني آدم، قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سوأتكم)، وهُم يذكرون شجرة طويلة تمتدُّ من الإمام علي (ع) إلى أنْ تصل إلى الخليفة النّاصر لدين الله، الذي لبس لباس الفُتُوَّة، وألبسه، عُمر الدّسوقي، الفُتُوَّة عندالعرب، 2/ 437.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 2/ 437.

(4) الأنبياء، آية (60).

(5) الدّسوقي، الفُتُوَّة عند العرب، ص250.

(6) الرّحلة، ص255، Nicola A. Ziadeh, Urban Life in Syria, P.167.

(7) مُحَمَّد بن أبي مكرم بن المعمار، الفُتُوَّة، تحقيق مُصطفى جواد وآخرون، بغداد، 1958، ص147.

العرب)[1]، غير أنَّني أستبعد ما ذهب إليه الدُكتُور مصطفى جواد في التّفسير في نسبة هـؤلاء إلى النّبي ﷺ، لأنَّه لا أجد طريقاً لهذا التّفسير من نسبهم، كما أنَّني لا أستطيع أنْ أُؤكِّد صحَّة تسميتهم بالبنويَّة على أنَّهم من أبناء الفُرس، لأنَّه لم يتأكَّد لي ذلك، ولم تُشر الرّوايـات إلى أُصُولهم الفارسيَّة، غير أنَّني أميل إلى هذه التّسمية مُعتمداً على رواية ابن جُبير وابن المعمار.

وتُشير الرّوايات التّاريخيَّـة إلى دور فئة الأحداث في الظُّرُوف السِّياسيَّة والعسكريَّة لمدينة دمشق[2]، فقد أشار إلى ذلك ابن القلانسي بقولـه: إنَّ نُور الدِّين لـم يستطع السَّيطرة على دمشق 549/ 1154، إلاَّ بعد أنْ راسل الأحداث، وضَمن معونتهم لـه ومُساعدتهم مـن خلال ثورتهم على قائد الحامية السّلجوقي مُجير الدِّين في حصار دمشق، الأمر الـذي سهَّل له استلام المدينة[3].

ولقد لقيت هذه الفئة اهتماماً واسـعاً في الدَّولـة العربيَّـة الإسلاميَّة مـن خلال اهتمام الخلافة العبَّاسيَّة مُتَمثِّلة بالخليفة النّاصر، الـذي عمَّم هـذا الاهتمـام فـي كُـلِّ الولايـات الإسلاميَّة، بعد أنْ توجَّه إلى حُكَّامها بطلبه هذا، قال سبط ابن الجوزي في تأكيد ذلك (وفـي سنة 599هـ بعث الخليفة النّاصر لدين اللـه الخُلَـع وسراويل الفُتُـوَّة إلى الملك العادل الأيُّوبـي وأولاده... فلبس الملك العـادل السّراويل في رمضان بدمشـق)[4]، كما يزداد المعنى عنـد الصّفدي بقوله (وظهرت الفُتُوَّة والبندق والحمام الهادي، وتفنَّن النَّاس في ذلك... الأُمـراء، ثُمَّ المُلُوك، فألبسوا الملك العادل وأولاده سراويل الفُتُـوَّة[5]، وألبسـوا... صاحب حمص...

---

(1) مُصطفى جواد، مُقدِّمة كتاب الفُتُوَّة، ص70.

(2) تدخَّل هؤلاء بكونهم ينصرون حاكماً على آخر، طلباً للرِّئاسة، مُصطفى جواد، الفُتُوَّة وأطوارها وأثرها في توحيد الإسلام، مجلَّة المُجمَّع العلمي العراقي، مج 5 لسنة 1958، ص57.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص215ـ 327، نظير حسَّان سعداوي جيش مصر أيَّام صلاح الدِّين، القاهرة، 1956، ص104، نيكينا إيليسيف، الشّرق الإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة، منصور أبو الحُسن بَيْرُوت، 1986، ص416.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، 8/ 513.

(5) يتكوَّن لباس الفُتُوَّة من قلانس بيض على رُؤُوسهم قُلنسوة من الصُّوف، على كُلٍّ منها قطعة من النّسيج طُولها وعرضها إصبعَان، ثُمَّ سراويل، يرتدون الأقبية، ثُمَّ يُلبس عليها حزام من الوسط يُوضع به سكِّين كبير، ويلبسون في أرجلهم الإخفاق، فإنْ استقرَّ بهم المجلس، وخلعوا القلانس الصُّوف البيضاء، وتبقى في رُؤُوسهم قلانس من الزّروخان الأسود، كمال الدِّين بن الفوطي، مُجمَّع الآداب في مُعجم الألقاب، تحقيق مُصطفى جواد، دمشق، 1963، 1/ 1184، أحمد رمضان، المُجتمع، 116.

وصاحب شيراز والملك الظّاهر صاحب حلب...)[1] ولم يكتف بذلك، بل أرسل إلى أبي الفتح سُلطان الرُّوم[2] بلباس الفُتُوَّة[3] أيضاً.

وضع شُيُوخ الفُتُوَّة شُرُوطاً خاصَّة لِمَنْ ينتمي إلى هذه الفئة، وقد أجملها ابن جُبير بقوله: (... يُدينون بالفُتُوَّة وبأُمُور الرُّجُولة كُلّها)[4]، فضلاً على الصّفات الأُخرى، ومنها صدق الحديث وأداء الأمانة وأداء الفرائض واجتناب المحارم ونصرة المظلوم وصلة الرّحم والوفاء بالعهد، وغيرها من الأُمُور التي يجب توفُّرها في كُلِّ مُسلم[5]، وهي صفات عرفها العرب قبل الإسلام بنظام الفُروسيَّة.

وهكذا لعبت هذه الفئة دورها الذي لا يُستهان به، ليس في مدينة دمشق فحسب، بل في بلاد الشَّام، ويُمكن تسميتهم بالمُتطوِّعة الفدائيِّيْن في مُواجهة الغُزاة الصّليبيِّيْن، حتَّى صبَّ بعض المُتحيِّزين من المُستشرقين جام غضبهم على دور الأحداث في الحُرُوب الصَّليبيَّة، ومنهم آشتور، حين وصفهم (بكونهم مُرتزقة يشنُّون الحرب ضدَّ الصّليبيِّيْن)[6].

10 ـ عناصر السُّكَّان الأُخرى:

سكنت دمشق أقوام وجماعات عديدة عبر التّاريخ، وساعدت طبيعتها على ذلك؛ إذْ كانت بمثابة مكان جذب للأقوام والأديان والمذاهب التي عرفتها الشَّام عُمُوماً، وعندما جاءت الجُيُوش الصَّليبيَّة الأُولى كانت التّركيبة السُّكَّانيَّة لدمشق تتكوَّن من عناصر عربيَّة وتُركيَّة وكُرديَّة وسريانيَّة، فضلاً عن الأرمن وغيرهم، ومع هذا؛ كانت العناصر العربيَّة تُشكِّل الأغلبيَّة في العُمُوم[7]، ولكنْ؛ كانت دمشق منطقة جذب لهذه الأقليَّات، التي قصدتها عبر العُهُود من مناطق مُجاورة، طلباً للعمل؛ سواء في التِّجارة أو في الخدمة العسكريَّة وغيرها من الأعمال.

---

(1) صلاح الدِّين بن أيبك الصّفدي، نكت الهميان في نكت العميان، القاهرة، 1911، ص91.
(2) الغالب أبو الفتح غياث الدِّين كيسخرو بن قليج أرسلان السّلجوقي، ابن الأثير، الكامل، 9/ 267.
(3) ابن الفوطي، مُجمَّع الآداب ومُعجم الألقاب، 4/ 1248.
(4) الرّحلة، ص252.
(5) الدّسوقي، الفُتُوَّة، ص229.
(6) آشتور، التّاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص290.
(7) ابن مُنقذ، الاعتبار، ص12 ـ 14، ابن الأثير، الكامل، 9/ 53 ـ 55.

وكان الأتراك من الأقلِّيَّات الأُولى التي اندمجت في المُجتمع، وتصاهرت معه، وهُم ينتمون إلى شمالي الشَّام، ولاسيَّما[1] إلى الصّحراء المعروفة بصحراء التُّركمان، الواقعة بين بحر آرال وبحر الخزر، فضلاً عمَّن جاء منهم من تُركستان وبلاد ما وراء النّهر، فقد دفعت بهم السّلاجقة على هيئة أفواج مُتلاحقة[2]، بقصد الاستقرار والدُّخُول في خدمة الأُمراء المُجاورين[3]، وأوَّل مَنْ نزل بهم هارون بن خان سنة 454هـ/ 1062م، وكان معه جماعة من التُّرك والأكراد والدّيالمة والكرج، بلغ عددهم ألف رجل، فأقطعهم محمود بن نصر المرداسي معرَّة النُّعمان[4] سنة 459هـ / 1066م[5]، وقد ازدادوا زيادة فعَّالة، وكانت للأحداث العامَّة التي سادت في ظلِّ الحُكْم الفاطمي لدمشق، أثرها في تمرُّد هذه الجماعات التُّركيَّة على النُّظُم والقوانين[6] السّائدة التي كانت تقع - هي الأُخرى - تحت طائلة الارتباك والتّغيير، ممَّا دفع بهذه الجماعات التُّركيَّة إلى أُسلُوب السَّلب والنَّهب من المُدُن والقُرى المُجاورة، الأمر الذي انعكس على حال الأمن والاستقرار للمنطقة، غير أنَّ توفُّر بعض الصّفات الخاصَّة لهذا العُنصُر، كالاستعداد الحربي المُمتاز وجمال الصُّورة، شجَّع الحُكَّام من سلاجقة وزنكيِّيْن وأيُّوبيِّيْن على الإكثار منهم، للانتفاع في خدمتهم العسكريَّة والخدمة بالحرس[7]، وغيرها من المهمَّات العسكريَّة، حتَّى إنَّ نُور الدِّين قد أشار بمقدرتهم العسكريَّة في مُواجهة الصّليبيِّيْن، فيما نقلت الرّوايات أنَّه خاطب الخليفة العاضد الفاطمي بعد أنْ طلب منه، هذا

---

(1) بدأ العُنصُر التُّركي يظهر عاملاً فعَّالاً في العالم الإسلامي مُنذُ أيَّام الخليفة العبَّاسي المُعتصم، وكانوا يُجلبون من أسواق النّخاسة الإسلامي وهُم غلمان، مُحَمَّد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيُّوبي، مصر 1968، ص51.

(2) كلود كاهين، تاريخ العرب والشُّعُوب الإسلاميَّة، ط3، 1983، ص242، عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ص411.

(3) ابن مُنقذ، الاعتبار، ص49، 66، 55، 96، 116، 122.

(4) وهي على وزن المسرة، وقد كثرت المعاني والحُدُود فيها، فقد جعلها القَلْقَشَنْدي ضمن حُدُود حماة، في حين جعلها أبو الفدا بين أحد عشر درجة وأربعين، هذا من ناحية الطُّول، أمَّا من ناحية العرض؛ فقد جعلها خمس عشر درجة وخمسة وأربعين) تقويم البُلدان، ص260 - 261، صُبح الأعشى، 4/ 141، مُحَمَّد سليم الجُندي، تاريخ معرَّة النُّعمان، تحقيق مُحَمَّد رضا كَحَّالة، دمشق، 1963، 1/ 130، 377.

(5) عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام، ص410.

(6) العبُّود، الدَّولة الخوارزميَّة، ص36.

(7) مُحَمَّد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيُّوبي، ص51.

الأخير، التّقليل من أعدادهم التي رافقت صلاح الدِّين في دُخُوله مصر بقوله: (... بأنَّ قنطاريَّات الإفرنج ليس لها إلاَّ سهام الأتراك، وأنَّ الإفرنج لا يخافون إلاَّ منهم...)[1].

أمَّا تجمُّعهم؛ فكان بمناطق محدودة، على ضوء ما ذكره أبو البقاء الدِّمشقي، أنَّهم سكنوا محلَّة الخلخال ومحلَّة المنيع، نحو قوله: (بمحلَّة الخلخال بها سُويقة وحوانيت وفرن وحمَّام، وهُو مسكن الأتراك) وكذلك المنيع والشّرقات، وفيه يدقُّ طبلخانتهم، وبها زاويتا الأرهميَّة والحُضُور، وهي تحفُّ... بالأعيان، وقد وصف لنا أحد الشُّعراء هذه المحلَّة بقوله:

يا حبَّذا يوماً بوادي جلَّق	ونُزهتي مع الغزال الحالي
من فوق الجبهة قبلَّتُهُ	مُرتشفاً لآخر الخلخال[2]

ومن العناصر الأُخرى، الأكراد الذين كانوا في المنطقة يتعايشون مع المُجتمع بكُلِّ حُرِّيَّة ونشاط، ولكنَّ أهمِّيَّتهم ازدادت بعد أنْ أصبحوا يُشكِّلون الأكثريَّة في جيش صلاح الدِّين، وأثَّر ذلك في اختلاف العلاقات بينهم وبين التُّركمان[3]، وجاء هؤلاء من مناطق تُركستان وشرقي آسيا الصُّغرى وشمالي العراق الذي كان لقُرب مسافته قد ساعد على سُهُولة انتقالهم، لقد لعبت بعض الشّخصيَّات منهم دورها لكسب ثقة الحُكَّام والأُمراء[4]، وذلك بعد أنْ أظهروا كفاءة ومقدرة، وخير مثال منهم شهده المُسلمون في العراق، بغِّض النَّظر عن انتمائهم القومي صُورة البطل صلاح الدِّين الأيُّوبي، الذي التحق أبوه بخدمة السُّلطان نُور الدِّين زنكي، وقد كافأه هذا بمنحه بعلبك، ثُمَّ مسؤولاً عن قلعتها، حتَّى صار من أُمراء الشَّام البارزين، والذي اتَّخذ من دمشق مسكناً له[5]، ويبدو أنَّ الأكراد قد اختاروا

---

(1) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 183.

(2) البدري، نُزهة الأنام في محاسن الشَّام، القاهرة، 1341، ص76.

(3) عن ذلك انظر ابن الأثير، الكامل 9/ 170 ـ 171.

(4) دخل الأكراد في خدمة الأُمراء والحُكَّام، وشاركوا في الجيش الذي أرسله شبل الدَّولة النّصر المُرادي سنة 424هـ/ 1033، للدِّفاع عن قلعة الصّفح من أنطرطوس على جبل الخليل، وقد نُسبت هذه القلعة لهُم بعد أنْ استقرُّوا فيها، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 41.

(5) أحمد رمضان، المُجتمع، ص57.

حيّاً خاصاً لسُكناهم في دمشق، عُرف بحيِّ الأكراد، وهُو على سفح جبل قاسيون، وذلك لتزايد عددهم وتوافدهم للمُشاركة في القتال ضدَّ الصّليبيِّين، فاختاروا فُسحة من الأرض إلى الشّرق من الصّالحيَّة، على سفح جبل قاسيون، فصار موطناً دائماً لهم[1].

في حين كان التُّركمان[2] من القبائل المُرتحلة[3]، عُرفوا بـ (الغزّ)[4]، جاؤوا من حُدُود السُّهُوب الآسيويَّة عبر شرقي آسيا، ونجحوا في تكوين قُوَّة عسكريَّة كُبرى، وسيطروا على مناطق عدَّة[5] في شرقي آسيا، ثُمَّ توغَّل زعيمهم باتِّجاه الغرب، واتَّجه إلى دمشق، وقد نجح من انتزاعها من السُّلطة الفاطميَّة سنة 468هـ/ 1075م، وحينما حاول أنْ يمتدَّ بسيطرته إلى مصر، أُلحقت به الهزيمة من قبَل الدَّولة الفاطميَّة، ففرح الدِّمشقيُّون بهذا الأمر؛ لسُوء سيرته، وقد دفعت هذه الحالة التي سادت دمشق بملكشاه زعيم السّلاجقة، أنْ يدفع بأخيه تتش إلى بلاد الشَّام بجيش سلجوقي سنة 470هـ/ 1077م، وتخويله على ما يستطيع السَّيطرة عليه في المنطقة، والتي بضمنها مدينة دمشق[6]، وقد تَمَّ له ذلك.

وفي ظلِّ هذه الحالة الجديدة، من سيطرة السّلاجقة على دمشق، التحق التُّركمان بخدمتهم، بعد أنْ فقدوا زعامتهم بمقتله من قبَل تتش، وبالرّغم من التحاق التُّركمان في خدمة السّلاجقة، كانت تغلب عليهم حياة البداوة، كأساليب السَّلب والنَّهب وتربية الخُيُول، فضلاً عن تطلُّعاتهم السِّياسيَّة التي كان يتوجَّس منها السّلاجقة خيفة، فأكثروا من مُراقبتهم، ولكنَّهم لم يستغنوا عن خدمتهم في الجيش، بسبب سُرعة حركتهم في المعارك التي تؤَمِّن مصالحهم من الغنائم[7]، وبعد أنْ انتابت دولة السّلاجقة عناصر الضَّعف السِّياسي

---

(1) صفوح خيِّر، مدينة دمشق، ص172.

(2) التُّركمان جيل من التُّرك سُمِّي به لأنَّه آمن منهم مائتا ألف في شهر واحد، فقالوا ترك إيمان، ثُمَّ خفِّفت إلى تُركمان، الشَّمَّاع، تاريخ ابن الفُرات، حاشية (70)، ص21.

(3) سيطروا على مناطق كثيرة منها، فارس والعراق وأرمينية والأناضول، هاملتون جب، صلاح الدِّين الأيُّوبي، حرَّرها يُوسُف أيبش، بَيْرُوت، 1973، ص51.

(4) مُحَمَّد حلمي، الرَّوضتَيْن، 1/ 285، حاشية (3).

(5) جب، صلاح الدِّين، ص51.

(6) جب، صلاح الدِّين، ص54-55.

(7) كلود كاهين، تاريخ العرب والشُّعُوب الإسلاميَّة، ص242.

لأسباب مُختلفة، وانحلَّت مملكتهم التي أوجدها تتش في دمشق، وجد التُّركمان الفُرصة سانحة لإشباع رغباتهم السِّياسيَّة؛ إذْ نجح بعضهم في تأسيس إمارات مُستقلَّة[1] خلال مُدَّة قصيرة، مُتَمَثِّلة بعدد من الأتابكيَّات.

أمَّا عن دورهم في الحياة الاجتماعيَّة؛ فقد ظهر بصُور شتَّى؛ منها انتشار بعض المُصطلحات والألفاظ والكلمات التُّركيَّة في الحياة اليوميَّة، في المُجتمع الدِّمشقي، في ذلك الوقت، كما ازداد دورهم ولحُسن خَلْقهم وجمال صُورتهم والإقبال على شراء الجواري الحسان من التُّركيَّات، والذي أكثر من امتلاكهنَّ في قُصُور ودُور علية القوم، لخصائصهنَّ المُختلفة الفنيَّة والجماليَّة.

كما اشتمل المُجتمع الدِّمشقي على أقلِّيَّات من عناصر أُخرى؛ منهم الأرمن والموارنة وغيرهم، فقد هاجر الأرمن من بلادهم من الشّمال، خلال أواسط القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، نتيجة للسِّياسة البيزنطيَّة، وزحف الأتراك السّلاجقة[2]؛ إذْ عُرفوا بنشاطهم المعماري، فإليهم يُنسب الفضل في كثير من التّحصينات[3]، فضلاً على مقدرة بعضهم في مجال السِّياسة، ويُخَصُّ بالذِّكر منهم أمير دمشق، الوزير بدر الدِّين الجمالي[4]، الذي تدرَّج في خدمة الخليفة الفاطمي، حتَّى وصل إلى منصب الوزارة[5]، وأشرف على أُمُور الدَّولة العامَّة[6]، وقد أورد ابن مُنقذ بعضاً من الشّخصيَّات الأرمنيَّة، والتي كان لها أثر في الحياة العامَّة في بلاد الشَّام من خلال مهاراتها في الرّماية والصّيد وشُؤُون الحرب، والتي وظَّفها بعضهم لخدمة آل مُنقذ[7].

---

(1) جب، صلاح الدِّين، ص55.

(2) سميل، الحُرُوب الصّليبيَّة، ترجمة سامي هاشم، ط1، بَيْرُوت، 1982، ص49، رنسيمان، تأريخ الحُرُوب، 2/ 28.

(3) المقريزي، الخُطط، 1/ 380، أحمد رمضان، المُجتمع، ص198.

(4) هُو بدر الدِّين الجمالي الأرمني الجنس، تقلَّد مناصب عديدة في عهد الخليفة المُستنصر بالله الفاطمي، وكان مملوكاً لجمال الدَّولة ابن عمَّار، ثُمَّ لُقِّب بالجمالي، وقد أثبت من الحزم والشّدَّة في إدارة شُؤُون الدَّولة، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 2/ 160، المقريزي، الخُطط، 2/ 382.

(5) وقد أثبت من الحزم والمقدرة؛ بحيثُ جعل الخليفة يُرسل له لتدبير أُمُور دولته، المقريزي، الخُطط، 1/ 382.

(6) سُلِّمت لبدر الدِّين السُّلطتَيْن الرُّوحيَّة والفعليَّة، حسن الباشا، الألقاب الإسلاميَّة، ص71.

(7) استعان آل مُنقذ بالأرمن في الصّيد والحرب، على حدٍّ سواء، ابن مُنقذ، الاعتبار، ص106.

غير أنَّ الأرمن يعوزهـم الثّبات في الـولاء، ممَّا جعلـهم موضـع ريبـة وشـكٍّ مـن قبَـل الآخرين، كما أنَّهم لم يستقرُّوا في مكان واحـد، بـل كـان سُكناهم يتجـدَّد بحُدُود ولائـهم ومصلحتهم، فنجدهم مرَّة مع الإفرنج[1]، وأُخرى مع الأتراك، وثالثة مع سُكَّان البلاد[2].

أمَّا الموارنـة[3]، فإنَّـهم طائفـة مـن الكـاثُوليك الشّـرقيِّين، ويُنسـبون إلـى الكنيسـة السُّوريَّة، وقد قَوِيَت شوكتهم في مُـدَّة الغـزو الصّليبـي، وتوزَّعـوا فـي مُـدُن بـلاد الشَّـام، ومنها دمشق[4]، ويُنسَب إليهم تعاونهم مع الغُزاة، ولذلك كانوا في موضع الرِّيبة والشّـكِّ من قبَل الأُمراء المُسلمين.

---

(1) يبدو أنَّهم كانوا من المُؤيِّدين للحكْم اللاَّتيني، ولهذا؛ نجدهـم مُرحِّبين بـالصّليبيِّين عنـد اقترابهم مـن أنطاكيـة، وكذلك كونهم مسيحيِّين من جهة، وأعداء للأتراك من جهة أُخرى، سميل، الحُرُوب الصّليبيَّة، ص49.

(2) عند حصار أنطاكية؛ نجدهم أشبه ما يكونون يتجسَّسـون لصـالح الحاميـة التُّركيَّة، وذلـك سـنة 491هـ/ 1097م، ولم يكتفوا بذلك، بل إنَّهم ـ بالمُقابل ـ نقلوا الإمدادات إلى داخل المدينة. سميل، الحُرُوب الصّليبيَّة، ص49 ـ 50.

(3) وهُم ينتمون إلى القدِّيس مارون، وهُم ـ بصُورة عامَّة ـ انزووا في الجبال الواقعة شمالي طرابلس، الأب بُطـرس صنو، تاريخ الموارنة، بَيْرُوت، 1972، 2/ 23، وما بعدها، عاشور، المُجتمع، ص237، أحمد رمضان، المُجتمع، ص62.

(4) رنسيمان، تاريخ الحُرُوب الصّليبيَّة، 2/ 299، أحمد رمضان ص62.

الفصل الثَّالث:

الأحوال المعاشيَّة

1 ـ الطَّعام.

2 ـ الملابس.

3 ـ ألبسة القدم.

4 ـ الحمَّامات.

5 ـ الخانات والفنادق.

6 ـ الصِّحَّة العامَّة.

7 ـ الأسواق.

8 ـ وسائل الرُّكوب.

9 ـ مُستوى المعيشة والأسعار.

لقد تناولنا في هذا الفصل مظاهر الحياة الاجتماعيَّة والمعاشيَّة العامَّة في دمشق، لكـون هذه المظاهر - في فقراتها - تعكس الحالة العامَّة التي عليها المُجتمع الدِّمشـقي، ومقـدار تعامله مع المظاهر الحضاريَّة، ودرجة رُقيِّه فيها؛ لأنَّها في الغالب تُصوِّر لنا الوجه الواقعـي والعملي للمُجتمع الدّمشقي، وتُنظِّم هذه الأحوال فقرات عدَّة نُدرجها كالآتي:

1 - الطّعام:

لقد اهتمَّ المُجتمع بالطّعام ومُكوِّناته، وذلك لأنَّه وسيلة استمرار الحيـاة، فقـد جاء في قولـه تعـالى عـزَّ وجـلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[1]، كمـا خصَّصت سُورة المائدة لذلك فضلاً عن ذكر الطّعام سبع وأربعين مرَّة بصيغ مُختلفة[2].

تعـدَّد ذكْـر الطّعـام والمائدة وأدبهما في كُتُب الحديث والأطعمـة والأشـربة والطِّـبِّ والذّبائح والأضاحي[3]، وتكرَّر في كُتُب اللُّغة والمعاجم.

وكـانت حيـاة الجزيـرة قبـل الإسـلام تمتـاز بالبسـاطة وعـدم التَّكلُّف بسـبب الظُّـرُوف الطَّبيعيَّة الصّعبـة، ولـهذا؛ نجـد طعـام سُكَّانها بسيطاً لا يعـدو الـثّريد والتّمـر[4]، والخُبز[5]، واللّبن[6]، واللّحم[7].

---

(1) سُورة البقرة، آية (172).

(2) نبيلة عبد المُنعم داود، أدب المائدة، بحثٌ مُقـدَّم للندوة القطريَّـة الثَّامنـة لتـاريخ العُلُـوم عنـد العـرب، 150 - 17 نيسان، 1986، مركز إحياء التُّراث العلمي العربي، ص4، وما بعدها.

(3) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 118، نبيلة عبد المُنعم، أدب المائدة، ص4.

(4) ويتَّضح ذلك في قول أحد زُعماء الخوارج: (وأما بعـد؛ فإنَّكَ كُنتَ أعرابيَّاً بدويَّاً تستطعم الكسرة، وتحفُّ التّمرة)، الجاحظ، البيان والتّبيين، 2/ 310.

(5) رُوي عن النّبي ﷺ، قوله: (أكرموا الخُبز؛ فإنَّ الله مُسَخِّرٌ له السّموات والأرض، وكُلُوا سقط المائدة) ابـن عبد ربّه، العقد الفريد، 6/ 293، طبعة، 1948.

(6) سُئِلَ أعرابيٌّ عن اللّبن فقال: (ليس في الألبان أحلى من لبن الحلفة)، الجاحظ، البيان والتّبيين، 2/ 390.

(7) كان اللّحم مُتوفِّراً في الجزيرة، يُؤكِّد ذلك قـول أحدهـم: (تـأكل مـا دبَّ ودرج إلاَّ أمُّ حبَّيـن) وأمُّ حبَّيـن أُنثى الحرباء، ابن قتيبة، عُيُون الأخبار، 3/ 209.

وفي صدر الإسلام استمرَّت هذه البساطة؛ إذْ كان الطّعام المُفضَّل لرسول الله ﷺ هُوَ الثّريد، فقد رُوِي عنه ﷺ، قال: (سيِّد الطّعام الثّريد)[1].

ويظهر أنَّ الطّعام قد تطوَّر وتعدَّدت ألوانه في الفترات اللاّحقة، وممَّا يُشير إلى ذلك الخليفة عُمر (رضي الله عنه) فيما رُوِي عنه أنَّه دُعِي إلى عُرس، فرأى قدراً أصفر وأحمر وواحدة مُرَّة، وأخرى حُلوة، وواحدة مُحمّضة، فخلطها كُلَّها في قدر عظيم، وقال: (إنَّ العرب إذا أكلت هذا قتلت بعضها بعضاً)[2]، وحيثُما نتدبَّر هذه الرِّواية التي نُسبت إلى الخليفة عُمر (رضي الله عنه) نعتقد أنَّ دلالتها تُشير إلى أنَّ الخليفة استغرب من تنوُّع الطّعام وأصنافه، حتَّى اعتبرها حالة تُشير إلى التّرف، الذي يكون من ضرره ألاَّ يكترث صاحبه بدم أخيه، ولا تشغله حالة التّكافل الاجتماعي بينه وبين أخوانه من المُسلمين، لكنَّ هذه الرّتابة في نوعيَّة الطّعام وألوانه عند العرب قبل الإسلام، وفي صدره الأوَّل، قد تغيَّرت بمُرُور الوقت نتيجة لتطوُّر المُجتمع في حياته العامَّة، فضلاً عن انفتاحه على مُجتمعات جديدة؛ إذْ امتدت الدَّولة العربيَّة من الصّين شرقاً إلى الأندلس غرباً، وأثَّر هذا في انتقال العادات والتَّقاليد بين الشُّعُوب والأُمم التي ضمَّتها دولة العرب والمُسلمين، وقد صاحب ذلك استقرار العرب في هذه الرُّقعة الواسعة وتصاهرهم مع تلك الشُّعُوب، وتمتَّعت الدَّولة بالواردات الماليَّة الواسعة، ممَّا انعكس على حالة الرّفاه في المُجتمع، وكان الطّعام من وسائل هذا الرّفاه الأساسيَّة، فتنوَّعت وتعدَّدت ألوانه وأصدافه وطريقة طهيه وإعداده، حتَّى كانت دمشق سبَّاقة في هذا المضمار بسبب تمتُّعها بالخيرات المُختلفة، وانتساب عناصر سُكَّانها إلى أُمم وجماعات لها تُراثها الموروث في هذا الجانب.

ولا شكَّ أنَّ افتراق المُجتمع الدِّمشقي إلى طبقات مُختلفة ومُتباينة في مُستواها المعاشي والاقتصادي، جعلها تختلف في أشكال موائد طعامها، فالأُمراء والحُكَّام والأغنياء من الخاصَّة قد اشتملت موائد طعامهم على أنواع من الأطعمة والأشربة المُختلفة، والتي كانت تتناسب - في مُحتوياتها - مع طبيعة المُناسبة والاحتفال، وهذا ممَّا يدلُّ على قُدرتهم الاقتصاديَّة، وكانت العامَّة من أبناء المُجتمع تختلف بطبيعة طعامها من حيثُ مُحتوياته

---

(1) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 8/ 4.

(2) الجاحظ، البُخلاء، 1/ 136، وكان الخليفة عُمر (رضي) إذا استعمل رجلاً (اشترط عليه أربعاً: منها أنْ لا يأكل نقيّاً، أي أراد منه الابتعاد عن التّرف في المأكل)، ابن قتيبة، عُيُون الأخبار، 1/ 16.

وألوانه وفي مُناسباتها المُختلفة، فهي ـ في عُمُومها ـ لا ترقى إلى موائد الأغنياء والطّبقة الحاكمة من أبناء المُجتمع الدِّمشقي.

ولعلَّ المُدَّة الأيُّوبيَّة كانت أكثر الفترات وُضُوحاً في هذا المعنى، لما عُرف عنهم من اهتمامهم بشُؤُون الطّعام وألوانه، ومُشاركة الآخرين لهُم موائدهم، فهذا صلاح الدِّين يُحبُّ مُشاركة الجُنُود والفُقراء وحتَّى الأسرى، كجزء من سيرته الإسلاميَّة، فكان يُشارك جُنُوده في طعامهم، ويأكل مع النَّاس، ثُمَّ ينهض إلى خيمته البسيطة[1]، وكان يُحضر سماطه فئات المُجتمع كافَّة؛ إذْ يأكل طعامه الكبير والصّغير والغني والفقير، وقد زاد في هذا النّهج بعدما تحقَّق له النّصر بوقعة الكمين[2]، (جلس السُّلطان في خيمته، بعد أنْ انتظم له عقد النّصر في ملكه، فدعا ممَّن كان له أسيراً أنْ أُحضر، فأنعم عليه، وأطعمهم، وأواهم، وكساهم، وألبس مُقدّمهم الكبير فروته الخاصَّة... ثُمَّ نقلهم إلى دمشق)[3].

كانت ولائمه الخاصَّة لأُمراء الأقاليم المُجاورة لمدينة دمشق بُغية توطيد العلاقة بينه وبين أولئك الأُمراء، وكان يهتمُّ بهذا الجانب، فيما روى لنا الأصفهاني أنَّه دعا عماد الدِّين، صاحب سنجار، إلى دمشق ردّاً لدعوته التي أقامها، وقد استقبله أروع استقبال، وقدَّم له سماطاً ضمَّ أنواعاً من الأطعمة، وصفها الأصفهاني بقوله: (وسأل السُّلطان يُوازره ويزوره... وتقرَّب إلى قلبه، ورفع من قدره، وصار العسكران مُختلطَيْن، وجلسا مُنبسطَيْن، ووقف للأُمراء والعُظماء سماطَيْن[4]، كالسّمطَيْن، وقرأ القُرَّاء، وأورد الشُّعراء... ثُمَّ بسط السّماط... وصُفَّت الأجفان، وأحضر الطّهاة من كُلِّ حاجة وباجة[5]،

(1) ابن العديم، الوصلة إلى الحبيب، ص299.

(2) وهي الوقعة التي قادها السُّلطان صلاح الدِّين على جهة السّاحل، واستطاع تحقيق النّصر على الصّليبيِّين لحُسن تدبيره، فقد حصل على عدد كبير من الأسرى، منهم خازن الملك، وسُمِّيت بالكمين لأنَّه استطاع أنْ يُنظِّم كميناً خاصّاً، كان السَّبب في انتصاره، الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القُدسي، تحقيق مُحَمَّد محمود، القاهرة، ب، ت، ص448.

(3) الأصفهاني، الفتح القسي، ص449 ـ 450.

(4) السّماط وهُو ما يُوضع عليه أطباق الطّعام، في حين نجد أهل بغداد يُسمُّونه طبقاً، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 6/ 245، شهاب الدِّين الخفاجي، شفاء العليل، تحقيق مُحَمَّد عبد المُنعم، مكان الطّبع ـ لا يُوجد، عبد الحُسين الرّحيم، الخدمات العامَّة، بغداد، 1987، ص45.

(5) باجة، النّوع أو الشّكل، الأصفهاني، الفتح القسي، ص220.

وخروف ودجاجة، وحامة[1] وحليز[2]، وحامض وقابض، ومطبوخ ومشوي، ومصنوع ومقلي، ما طاب مذاق مذقه ومحضه[3]، وطالت الأيدي في بسطه وقبضه)[4].

وتكرَّر هذا عند زيارة الملك الأشرف[5] إلى الملك العزيز، صاحب حلب، سنة 620هـ/ 1222م؛ إذْ جمع الأخير لهذه المُناسبة كبار الأُمراء والمُعمَّمين، ومدَّ سماطاً للنَّاس، وبعدها أحضر الخُلع الكامليَّة[6]، وهذا ما يجعل مُناسبات الولائم بين الأُمراء فُرصة لتبادل الخُلع والهدايا فيما بينهم.

كما كان للسَّلاطين الأيُّوبيِّين اهتماماً خاصاً بمطبخهم وإدارتها، حتَّى اشتملت تلك المطابخ على عدد من العاملين؛ منهم الطبَّاخون ومُساعدوهم ورئيسهم، إلى جانب الجاشنكير[7]، الذي يقوم بتقديم الطَّعام إلى السَّلاطين، ويتذوَّقه بحضرتهم، ومن مُلحقات المطبخ السّلطاني الشّراب خانة أيْ: بيت الشّراب، كما يُسمَّى أحياناً، وكذلك الحوائج خانة، وهُو المكان المُعدُّ لخزن المأكولات[8].

وثَمَّة مسألة أُخرى كانت تُثير اهتمام السَّلاطين، وهي أنَّهم إذا ما تذوَّقوا طعاماً في مُناسبة ما، أو مكان ما، ونال رضاهم ومذاقهم، كانوا لا يُخفون إعجابهم بنوع الطّعام، وطريقة طبخه، فيما رُوي عن الملك الكامل أنَّه تزوَّج من جارية بسبب حُسن إتقانها أُسلوب الطّبخ وطريقته، التي تعرَّف عليهما من خلال طعام قُدِّم له، وكانت تلك الجارية والدة الملك العادل[9].

---

(1) أيّ شيء حُلو كالحلاوة، الأصفهاني، الفتح القسي، ص220.

(2) الحليز من العثرات والطّعام ما كان وحده، أو محموضة، الأصفهاني، الفتح القسي، ص220.

(3) وهُو الخالص، مُحَمَّد بن أبي بكر الرّازي، مُختار الصّحاح، بَيْرُوت، 1981، ص184.

(4) الأصفهاني، الفتح القسي، ص220.

(5) أبو الفتح مُظفَّر الدِّين مُوسى بن الملك العادل، وُلد سنة 578هـ، وحكم مدينة دمشق، تُوفِّي سنة 615هـ، ودُفن بقلعتها، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة 6/ 300.

(6) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 4/ 130.

(7) لفظ فارسي مُكوَّن من جاشي وكير، ومعناها مَتْذُوق، وهُو مَنْ يذوق الطّعام في حضرة الملك، للتَّعرُّف على خُلُوِّه من السُّمُوم، وهُو مَنْ يُدير المطبخ أو السّفرجي، سُلَيْمان محجوب، الوصلة إلى الحبيب، ص393.

(8) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 10، 12، سُلَيْمان محجوب، الوصلة إلى الحبيب، ص391.

(9) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 4/ 279، وهي أُمُّ فاطمة خاتون، زوجة الملك العزيز بن الملك الظَّاهر صاحب حلب.

وبسبب الإنفاق الكبير وحالات الإسراف والتّبذير التي كانت تنعم مطابخ السّلاطين وتزايد تكاليفها، فقد أشارت الرّوايات إلى ما كان عليه مطبخ الملك النّاصر من النّفقات التي نستبعد أنّها تُشير إلى حقيقة الأمر، فيما ذُكر أنّه كان يذبح (كُلّ يوم أربعمائة رأس من الغنم، غير الدّجاج والإوزّ وفراخ الحمام والخراف الرُّضّع والأجدية فيما لا تُحصى، وكان ينزل فضلات الطّعام يبيعها الفرّاشون والطّبّاخون وأرباب النّولات، على باب القلعة بدمشق بأبخس الأثمان، فكانت تعمّ أهل دمشق يستغنون بها عن الطّبخ في بُيُوتهم)[1]، حتّى رُوي أنّ السُّلطان النّاصر زار أحد أصدقائه، فمدّ له (سماطاً من الأطعمة الفاخرة ومن أنواع الدّجاج المحشو بالسُّكّر والقلويّات شيئاً كثيراً)[2]، فأثار إعجابه فقال: (في أيّ وقت يتهيّأ لك عمل هذا كُلّه؟)[3]، فأجابه صاحب الدّار (والله؛ هذا كُلّه من نعمتكَ ومن سماطكَ، ما صنعتُ شيئاً منه، وإنّما اشتريتُهُ من عند باب القلعة)[4]، وبرغم أنّنا نستبعد هذا، ولكنّه يدلّ على مدى ما يُنفقه السُّلطان على الأطعمة، حتّى قُدّر مجموع نفقاته في كُلّ يوم أكثر من عشرين ألف درهم[5]، وإذا ما صحّت هذه الرّوايات، فيما أشارت إليه في الإسراف بالنّفقات، فلاشكّ أنّنا نتّهم الملك النّاصر بسُوء التّدبير والتّقدير؛ إذْ أُحيطت بلاد المُسلمين بمخاطر الشّرق المُتمثّلة بالمغول، ومخاطر الغرب المُتمثّلة بالعُدوان الصّليبي.

وقد نهج الأغنياء منهج السّلاطين في الإنفاق على الأطعمة، فيما رُوي عن تلوُّن أطعمتهم بأنواع عديدة من اللُّحُوم والفاكهة المُشتملة على الخوخ والرُّمّان والتُّفّاح والمُشمش، والذي اصطلح عليه خُوخ دمشق، حتّى وصفه الأصفهاني بقوله: (كانت أيّام المُشمش... كانت كُرات من التّبر[6] مصنوعة، وبالورس[7] مصبوغة صفر، كأنّها الرّايات النّاصريّة حلا

---

(1) ابن شاكر الكتبي، عُيُون التّواريخ، 20/ 258.
(2) ابن شاكر الكتبي، عُيُون التّواريخ، 20/ 259.
(3) ابن شاكر الكتبي، عُيُون التّواريخ، 20/ 259.
(4) ابن شاكر الكتبي، عُيُون التّواريخ، 20/ 259.
(5) ابن شاكر الكتبي، عُيُون التّواريخ، 20/ 259.
(6) الذّهب غير المضروب؛ لأنّه إذا ضُرب صار دنانير، الرّازي، مُختار الصّحاح، ص74.
(7) وهُو نبات أصفر يُزرع في اليمن، ويُصنع به، الرّازي، مُختار الصّحاح، ص76.

ذوقاً، ولو نُظم جوهره لكان طوقاً، وهُو أحلى مـن السُّكَّر، وأعبق من المبهر[1]، وأحسن هيئة من النّارنج الأحمر والليمون المُركّب المُدوّر)[2].

وللأغنياء - أيضاً - ولائمهم الكبيرة بمُناسباتهم المُختلفة كمُناسبات الأفراح التي تضمُّ وليمة العُرس[3]، والخرس[4]، والعقيقة[5]، والوكيرة[6]، والوخيمة[7]، والنّقعة[8]، والعذير[9]، والمأدبة[10]، والحذاقة[11]، وكذلك وليمة الأملاك[12]، والغيرة[13] والفرع[14]، ويبدو أنَّ هذه الولائم كانت وسيلة من وسائل التَّجمُّع والألفة، فضلاً عن هدفها الأساسي الذي عُقدت من أجله، وقد انعكس هذا على فنِّ المطبخ وصناعته، يُؤيِّد ذلك ما أشار إليه ابن العديم في كتابه الوصلة إلى الحبيب، في ذكره الطَّيِّبات والطِّيب؛ إذْ ذكر أنواعاً عديدة من الأطعمة والحلويات، وكانت هذه الأخيرة قد أثارت إعجاب الأصفهاني، وهُو يُهدي لصاحبه علم الدِّين الشّاشاني[15] قطائف دمشق، فقال:

يا رَاقدات في الصُّحونِ مُستوطنات في سُكُونِ

(1) وهُو النّرجس أو الياسمين، الأصفهاني، الفتح القسي، ص222.

(2) الفتح القسي، ص222.

(3) مُحَمَّد بن طُولون، فصُّ الخواتم فيما قيل في الولائم، تحقيق نزار أباظة، ط1، دمشق 1983، ص43.

(4) وهي للوُلاة، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، 50.

(5) وهي للمولود الجديد، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص51، ابن الحاج، المدخل، 3/ 291.

(6) وهي لبناء البيت، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص52.

(7) وهي لمُصيبة الموت، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص58.

(8) لقُدُوم المُسافر من سفره، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص58.

(9) لختان المولود، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص60.

(10) لضيافة الزّائرين والضُّيُوف، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص67.

(11) لختم المُتعلِّم القُرآن؛ حيثُ تُعمل بعض المراسيم الخاصَّة بذلك، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص65.

(12) وهي لعقد النّكاح، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص95.

(13) وهي مُخصَّصة لشهر رجب، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص93.

(14) وهي لأوَّل إنتاج النّاقة، ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص92.

(15) هُو الحسن بن سعيد بن عبد الله الشّاشاني، من شُعراء الموصل، وكان فقيهاً، غلب عليه الشِّعر، وترك بلده، وتجوَّل في الأمصار، ومنها دمشق، تُوفِّي سنة 579هـ، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 1/ 386.

يَحلبْـــنَ أمثـــالَ العرائـــسِ	بـــين أبكـــارٍ وعـــونِ
أو كالعقـــائل فـــي الخُـــدُورِ	اعْتقلْـــنَ علـــى ديُـــونِ
هُـــنَّ اللّذيـــذاتُ اللّوائـــذُ	بالسُّـــهُولِ مـــن الحُـــزُونِ
أو كالتَّمـــائم للصَّحـــافِ	ومَـــا نَسَـــبَهُنَّ إلـــى حَنُـــونِ
السُّـــكريَّاتُ الفرَيقـــاتُ	القلائـــل والشُّـــؤُون[1]

أمَّا طعام الطّبقة المُتوسِّطة؛ فكان وسطاً بين طعام الأغنياء وطعام الفُقراء، وذلك تبعاً لمكانة التي تتمتَّع بها الأُسرة والمورد الذي تكسبه، وهُم بطبيعة الحال، يُشكِّلون ـ مع الفُقراء ـ أغلبيَّة أفراد المُجتمع الدّمشقي، ومع هذا؛ فإنَّ طعامهم، كان يتكوَّن من الخُبز واللّحم والدّجاج[2]، والتّمر واللّبن وغيرها[3]. ولا شكَّ أنَّ الطّبقة الفقيرة في طعامها كانت تفقد بعض مُكوِّنات طعام الطّبقة المُتوسِّطة وُفقاً لحالاتها المعاشيَّة الضّعيفة.

غير أنَّ بلاد الشَّام ـ على الرَّغم ممَّا تمتَّعت به من الرّفاهية والعيش الرّغيد في أوقات السّلم والاستقرار ـ وقعت تحت طائلة المجاعة الغذائيَّة في أوقات الحرب والمشاكل والفتَن، الأمر الذي ينعكس على المُستوى المعاشي والاقتصادي لطبقات المُجتمع الذي أشرنا إلى طبيعة طعامها فيما سبق، ففي سنة 583هـ/ 1187م، حينما حقَّق السُّلطان صلاح الدِّين النّصر على الصّليبيِّين، بعد أنْ اعتصر كُلَّ الإمكانيَّات الاقتصاديَّة تجاه تحقيق النّصر، الأمر الذي تسبَّب في قلَّة قُوت النَّاس وغذائهم، فلجأ إلى أخذ الغذاء من الأَسْرى؛ ليُجهِّز جيشه، فكان يأخذ (من الرَّجل عشرة دنانير، ومن المرأة خمسة دنانير، ومن كُلِّ صغير دينارَيْن، الذَّكَر والأُنثى على السّواء)[4].

---

(1) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 546 ـ 547، وهي قصيدة طويلة ذكَرَهَا أبو شامة بتفاصيلها.

(2) يذكر ابن العديم أنواع طهي الدّجاج وصناعته، الوصلة إلى الحبيب في ذكْر الطّيِّبات والطّيب، تحقيق سُلَيْمان محجوب ودُرِّيَّة الخطيب، حلب، 1988، 2/ 519.

(3) أورد ابن العديم شرحاً مُفصَّلاً للأشربة والخلالات، الوصلة إلى الحبيب، ص481، 503، 513، 617، 655.

(4) ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 362، مُؤلِّف مجهول، كنز الأخبار، مخطوطة بمكتبة المُجمع العلمي العراقي برَقْم 1218، ورقة 159.

وفي سنة 616هـ/ 1219م، أوعز الملك المُعظَّم[1]، صاحب دمشق بتخريب سُور مدينة القُدس والمناطق الزِّراعيَّة المُحيطة بها، ليحرم بذلك المُعتدين الصّليبيِّين[2] من الانتفاع من خيراتها، ممَّا انعكس على أهلها، فهجروها إلى المناطق المُجاورة، كدمشق وحلب والكرك وغيرها، وتعرَّض النَّاس من هجرتهم تلك إلى المجاعة والحاجة الغذائيَّة، وربَّما هلك البعض منهم بسبب الجُوع والعطش، وفي حال أُخرى؛ نُسب إلى أولاد الملك النّاصر[3] ـ ضمن الظُّرُوف الصّعبة ـ أنَّهم سلَّموا حصن الكرك إلى الملك نجم الدِّين أيُّوب[4]، مُقابل تأمينه الخُبز لفُرسانهم، فضلاً عن مُستلزمات أُخرى اتَّفقوا عليها[5].

ولم تكن مُدَّة الحُرُوب الصَّليبيَّة تحمل صفات عُدوان الدُّوَل الأوروبيَّة على الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة فقط، بل ضمَّت ـ إلى جانبها ـ صفحات أُخرى تتَّصل بآثار الحياة الاجتماعيَّة الإسلاميَّة في الحياة الغربيَّة؛ إذْ تعلَّم الصّليبيُّون من العرب فنَّ ترتيب الموائد، وصناعة الكثير من الأطعمة الشَّرقيَّة، عن طريق استخدام الجواري والإماء، فقد كان أصحاب الموائد من العرب والإفرنج لا يرغبون غيرهنَّ في هذا الفنِّ، فقد أخذت النِّسوة الصّليبيَّات أسرار الطّبخ العربي في جُملة ما أخذْنَ من تقاليد الحضارة الشّرقيَّة، ومن تلك ما رواه ابن مُنقذ عن وصف مائدة أحد الفُرسان (جئنا إلى دار فارس من الفُرسان... وقد اعتفى من الدِّيُون والخدمة، وله بأنطاكية مُلك يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة في غاية النّظافة والجُودة، ورآني مُتوقِّفاً عن الأكل، فقال: كُلْ طيِّب النّفس، فأنا لا آكل من طعام الإفرنج، ولي طبَّاخات مصريَّات، ما آكل إلاَّ من طبخهنَّ، ولا يدخل داري لحم الخنزير)[6].

---

(1) الملك المُعظَّم عيسى بن العادل، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 130.

(2) استغلَّ الإفرنج توجُّه الملك المُعظَّم إلى دمياط، فتوجَّهوا إلى القُدس للسَّيطرة عليها، وهي تعني السَّيطرة على الشَّام، ولهذا؛ نجد المُعظَّم يشرع لإعادتها، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 244.

(3) هُو الملك الظّاهر (شادي) والملك الأمجد، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 362.

(4) وهُو الملك الصّالح نجم الدِّين أيُّوب، وهُو عزيز النّفس طاهر اللّسان، تُوفِّي سنة 648هـ، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 231.

(5) شمل الاتِّفاق تأمين الخُبز لمائتيْ فارس، وخمسين ألف دينار، وثلاثمائة قطعة قُماش والذّخائر التي بالكرك، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 262.

(6) الاعتبار، ص103 ـ 104.

كما استعمل الإفرنج التّوابل وصناعة طبخها، كجُزء من تأثُّرهم بالمائدة العربيَّة؛ حيثُ بدؤوا باستعمالها مُنذُ القرن السّادس الهجري/ الثّاني عشر الميلادي، حتَّى صارت الأطعمة لا تُستساغ ولا تلذُّ لديهم إلاَّ باستعمالها[1]، كما أسهم الإفرنج في توصيل تجارة الرّوائح العطريَّة والتّوابل والحلويات العربيَّة إلى الأسواق الأُورُوبيَّة، من خلال اهتمامهم بها، وهُم في بلاد الشَّام، ومن ذلك الورد الدِّمشقي والرّوائح العطريَّة التي عُرفت بها مدينة دمشق، بالإضافة إلى أنواع من الزُّيُوت[2].

أدخل الصّليبيُّون إلى بلادهم كثيراً من مظاهر الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة التي تعرَّفوا عليها، أو سلبوها في معاركهم، كآلات الطّعام والشّراب وأطباق وأباريق ومباخر وموائد، من ذلك ما ذكره الأصفهاني عمَّا غنمه الإفرنج من هذه الأدوات في إحدى غزواتهم؛ حيثُ قال: (... وعاد المُستأمنون من الإفرنج الذين أنهضهم السُّلطان في براكيس[3] من الإفرنج، ليغزوا في البحر، ويكونوا - أيضاً - لنا جواسيس، فرجعوا وقد غنموا، وكسروا وقسروا فظفروا... ومعها براكيس... وأُخذ المال، وحيزت تلك المراكب، وجُذبت إلى السّاحل، فإذا هي مشحونة بالكرائم الجلائل من كُلِّ آنية مطبوعة ذهبيَّة، وحلية مصوغة، وآلة فِّضيَّة، وأباريق وأكواب وأقداح وأطباق وسبائك وصفائح وكاسات وطاسات وشربات...)[4].

ويقع ضمن هذا دُخُول بعض النّباتات والثّمار والمحاصيل إلى البلاد الأُورُوبيَّة، ومنها السُّمسُم والأرز واللّيمون والبطِّيخ والمُشمش المعروف بخُوخ دمشق[5]، وكذلك الرُّمَّان وغيرها كثير، وكانت تُشاهَد في بعض الأحوال على موائد الأثرياء في إيطاليا[6].

---

(1) ابن العديم، الوصلة إلى الحبيب، ص408.

(2) جُورج حدَّاد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، مطبعة الجامعة السُّوريَّة، 1958، ص484.

(3) البراكيس، جَمْع بروكس، وقد ذكر جمال الدِّين الشَّيَّال أنَّ البروكوس أو الباكوس ضَرْبٌ في السُّفُن بين البريق والغُرناطة، وهي مأخوذة من الإيطاليَّة (Barcasa)، ويُقابلها بالفرنسيَّة (Barque)، وبالإنكليزيَّة (Bark)، مُفرِّج الكُرُوب، 2/ 338، حاشية (2).

(4) الفتح القسي، ص460.

(5) ابن العديم، الوصلة إلى الحبيب، ص406.

(6) جُورج حدَّاد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص484.

وانتظاماً مع قُدرة العرب على الاقتباس من الإفرنج، والتَّأثُّر بالنّافع على صغر مساحته؛ فإنَّهم قد تأثَّروا ببعض فُنُون الطّعام، فيما روى ابن العديم، وخصَّ بالذِّكْر منها نوعاً من الخُبز عُرف بخُبز البيض[1].

وفي ميدان آداب الطّعام، فالرّاجح أنَّ الدِّمشقيِّيْن - عُمُوماً؛ بمُختلف طبقاتهم وموائدهم - كانوا ضمن آداب المائدة الموروثة من العرب المُسلمين مُنذُ الصَّدر الأوَّل للإسلام التي ذُكرت في أحاديث الرَّسول ﷺ؛ إذْ لم تقع أيدينا على موارد تُبيِّن خُصُوصيَّة أهل دمشق في هذا المعنى. وللطّعام عند العرب آداب يجب مُراعاتها وعدم تخطِّيها، وإلاَّ عَيْبٌ على مَنْ تجاوز تلك الحُدُود، فيُصبح عندها مذموماً سيِّئ الصّيت بين النَّاس، فقد أرسى رسول الله - ﷺ - قواعد أدب الطّعام عند العرب، فقد رُوي عن النّبي - ﷺ - إذا فرغ من طعامه، قال: (لك الحمد ربَّنا غير مكفي، ولا مُودَّع، ولا مُستغنى ربَّنا)[2] كما ونهى - ﷺ - عن الأكل في السُّوق، يقول: (الأكل في السُّوق دناءة)[3]، كما قال ﷺ: (إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، فإنَّ الشّيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله)[4]، كما كره العرب ذكْر الطّعام في مجالسهم؛ لأنَّ انعقادها لأغراض غير الطّعام، وقد ذكر ذلك أحدهم بقوله: (جنِّبوا مجالسنا ذكْر النِّساء والطّعام، فإنَّ أبغض الرَّجل وصفاً لبطنه وفرجه، وإنَّ من المُرُوءة أنْ يترك الرَّجل الطّعامَ وهُو يشتهيه)[5].

ومن عُرْف الآداب العامَّة في الطّعام عند العرب شدُّ الإزر على الوسط، وتصغير اللُّقمة، وتشديد المضغ، ومصُّ الماء مصّاً، وأنْ لا يفكَّ الإزر لئلا يتَّسع، وليأكل كُلٌّ من بين يدَيْه، وقال[6] أحدهم: (إيَّاك ونهم الصّبيان... ونهش الأعراب والمهنة، وكُلْ ما بين يدكَ، واعلم أنَّه

(1) الوصلة إلى الحبيب، 2/ 660.

(2) ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البُخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار الفكر، ب، ت، 9/ 580.

(3) ابن قُتيبة، عيُون الأخبار، 3/ 214، ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 6/ 297.

(4) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 6/ 397، مُحَمَّد بن أحمد الأبشيهي، المُستطرف - مصر، ب، ت، 1/ 197.

(5) ابن قُتيبة، عيُون الأخبار، 1/ 220.

(6) ابن قُتيبة، عيُون الأخبار، 1/ 214، ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 6/ 298، النُّويري، نهاية الأرب في فُنُون الأدب، 3/ 338 - 346.

إذا كان الطّعام شيئاً طريفاً أو لُقمة كريمة أو مُضغة شهيَّة، فإنَّما ذلك للشَّيخ المُعظَّم والصّبي المُدلَّل، ولستَ واحداً... فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعاً، واحذر من سُرعة الكظة وسرف البطنة، واعلم أنَّ الشّبع داعية البشم، وأنَّ البشم داعية السّقم، وأنَّ السّقم داعية الموت)[1].

ومن قواعد تناول الطّعام، أنْ تتقدَّم الفاكهة لسُرعة هضمها، ويُكره أكل ما لم يُطلب أكله منها، ثُمَّ الحلاوة[2]، وينبغي قلَّة الكلام والصّمت[3]، على الموائد، وكذلك الأكل دُون الشّبع، وأنْ لا يدخل اللُّقمة إلى الفم، إلاَّ بعد أنْ يزدرد الأُولى، ولا يعضُّ اللُّقمة في فمه، ثُمَّ يُعيدها إلى الإناء، وليأكل بلطافة وهُدُوء، وأنْ لا يمصَّ أصابعه، ممَّا علق بها من طعام، ولا يُخرج شيئاً علق بأسنانه، وليذر التَّمدُّد والتَّمطِّي والتّثاؤب والبُصاق واللّعب بالخاتم والعبث باللّحية والعمامة، والعبث بالفاكهة والرّياحين، ولا يعضُّ الفاكهة نهشاً، بل يقطع منها حاجته بالسكِّين قطعاً، وليكن شُربه مصاً وكرعه جرعاً[4].

وفي أدب الطّعام غسل الأيدي قبل الطّعام وبعده، ولا يُمسُّ شيء قبل الطّعام، ويُستحبُّ ترك تنشيفها قبل الطّعام؛ لأنَّه رُبَّما كان المنديل وسخ يتعلَّق باليد، ويُستحبُّ تقديم الصّبيان على الشُّيوخ في الغسل قبل الأكل، لأنَّه رُبَّما فُقد الماء، وأيدي الصّبيان أقرب إلى الوسخ، أمَّا بعد الطّعام؛ فإنَّ الشُّيوخ تُقدَّم كرامة لهُم[5].

أمَّا عن تسمية الوجبات؛ فقد كان العرب يتناولون في الصّباح الباكر الحليبَ والعسلَ، أو الحليب والسُّكَّر، أمَّا الفُطُور؛ فكان أفراد الأُسرة يتناولون عند شُرُوق الشّمس في إحدى غُرَف البيت، وعند انتصاف النّهار[6]، يجتمع أفراد الأُسرة لتناول الغداء، وقد جرت العادة أنْ

---

(1) ابن قُتيبة، عيُون الأخبار، 3/ 216 ـ 217.

(2) ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص71، وكانت الفاكهة تُقدَّم بأطباق ومعها السّكاكين والمناديل وماء الورد، لتطييب الحُضُور، وخاصَّة موائد الأُمراء، نبيلة عبد المُنعم داود، أدب المائدة، ص8.

(3) أكَّد الإمام الغزالي أنَّ الإسلام يُوجب (أنْ لا يسكنوا على الطّعام، فإنَّ ذلك من مسيرة العجم، ولا يتكلَّمون، ولا يتحدَّثون بحكايات الصّالحين في الأطعمة وغيرها). إحياء عُلُوم الدِّين، وبذيله كتاب المُغني عن حمل الأستار في الأسعار، لعبد الرّحيم العراقي، ط1، بَيْرُوت، 1986، 2/ 8.

(4) نبيلة عبد المُنعم داود، أدب المائدة، ص8، نقلاً عن كتاب الطّبخ لابن سيَّار الورَّاق.

(5) ابن طُولون، فصُّ الخواتم، ص77.

(6) رُبَّما كان هذا بعد الظُّهر مُباشرة.

تُدعى الأضياف، وتُولم الولائم، في مثل هذا الوقت من النّهار[1]، أمَّا العشاء؛ فكان تناوله بعد صلاة العصر[2]، ولكنَّ استخدام العسل والسُّكَّر لا يتوفَّر عند عامَّة النَّاس، بل عند الأغنياء منهم[3]، الذين ربَّما اختلفوا عن غيرهم من الطّبقات في آداب المائدة وقواعدها.

وبرغم ما تذكره لنا المصادر عن آداب الطّعام في العصر العبَّاسي وما بعده، فهي استمرار للمُدد السَّابقة؛ لأنَّها عادات وتقاليد موروثة لا تظهر فجأة، بل هي تتعامل مع التَّطوُّر الزَّمني، وتتَّصل بالازدهار الحضاري للحياة الدِّينيَّة الإسلاميَّة العامَّة، ومنها المُدَّة التي تناولهما البحث.

2 ـ الملابس:

اهتمَّ قسم من المُؤرِّخين بذكْر الملابس وأوصافها، ومَنْ يرتديها من بين فئات المُجتمع، فقد أورد الطّبري[4] إشارات كثيرة تَخُصُّ ملابس الخُلفاء ورجال الدّولة، في حين نجد الأصفهاني[5] يُشير إلى ملابس الأثرياء من النَّاس، من مُغنِّين وشُعراء وأهل البادية، أمَّا ابن منظور[6]؛ فإنَّه ذكر الكثير من الملابس وأنواعها وألوانها بشكل عامٍّ، وعلى نفس النّهج الذي سار عليه ابن سيده[7]، والمُلاحظ أنَّ هذه الإشارات تَخُصُّ المُسلمين في الغالب، في حين نجد أنَّ بعضها يخصُّ أهل الذِّمَّة، وعُمُوماً؛ فقد كانت التّفاصيل في وصف ملابس الخُلفاء، وعلية القوم، ورجال الدِّين، وأهل الفكْر والقلم، تغلب على معلوماتنا في ما يتَّصل بهذا الجانب، بينما نفتقر إلى وصف مُماثل عن ملابس عامَّة النَّاس، ولاسيَّما الفُقراء، ولم يقع بين أيدينا ما يُشير إلى خُصُوصيَّة دمشق في هذا المعنى، ممَّا يجعلنا نميل إلى أنَّ الدِّمشقيِّين لم يخرجوا عن العادة المألوفة والموروثة في زيِّ اللّباس عند العرب عبر عُصُورهم المُنصرمة.

---

(1) أشرنا سابقاً إلى المُناسبات التي تُقام لأجلها الولائم؛ وهي عديدة.

(2) ربَّما يكون المساء تأكيداً للمَثَل المُتوارث، نَمْ مُبكِّراً، وقُمْ مُبكِّراً.

(3) سيِّد أمير علي، مُختصر تاريخ العرب والتَّمدُّن الإسلامي، ص176 ـ 177.

(4) تاريخ الطّبري، 1/ 246، 6/ 164، 23/ 557، وما بعدها.

(5) الأغاني، 2/ 342 ـ 343، 6/ 52، 8/ 33/ 11، 186، 20/ 408.

(6) لسان العرب، 1/ 242، 5/ 419، 8/ 350، 11/ 368، وغيرها.

(7) المُخصَّص، 1/ 4/ 84، وما بعدها.

تمتَّعت بلاد الشَّام بشُهرة كبيرة في مجال النّسيج، فقد كانت منسوجاتها موضع تقدير، ومضرب الأمثال في الدِّقَّة والرّوعة والجمال، وقد دفع ذلك إلى العناية بالمعامل التي تُنتجها، والتي تُدعى بدُور الطّراز[1]، فأخضعوها إلى رقابة الدّولة[2].

تطوَّرت صناعة الأقمشة ذات الزّخارف المنسوجة، فظهرت مجموعة مُطرَّزة بألوان مُتعدِّدة، مصنوعة بدقَّة، عليها كتابات نسيجيَّة وكُوفيَّة[3]، وكان إنتاج المنسوجات الحريريَّة والأقمشة المُطرَّزة بالذّهب والفضَّة والحرير، أو القطنيَّة المنسوجة بالذّهب، قد خَطَتْ صناعتها خُطوات كبيرة في الشّرق، ممَّا دفع بالصّليبيِّين إلى نَهْب هذه المنسوجات بمقادير خطيرة[4] وإرسالها إلى أورُوبا.

وكانت المُدُن السُّوريَّة حافلة بالمعامل التي تنسج الأقمشة الحريريَّة على اختلاف أنواعها، بينما اشتهرت دمشق بديباجها المعروف بدمسكو[5]، ويُسمَّى الواشي القماش المُوشَّى بالرُّسُوم، واسمه مُشتقٌّ من اسم المدينة، وهُو على أنواع عديدة؛ منها الهرمزي والمُهلهل والمرج...إلخ[6]، وأهمُّ ما يُميِّز النّسيج الدِّمشقي أنَّ حُدُود الزّخرفة على سطح المنسوج واضحة التّدريج، وذلك نظراً لتحريك الخُيُوط على هيئة مجموعات مع استعمال أُسلُوب تطبيقي خاص[7].

---

(1) وهي كلمة فارسيَّة تعني الملابس، ولاسيما الدّار؛ حيثُ يُنتَج فيها القماش، وذلك عن طريق المنوال، وقد انتشر الطّراز الحكُومي في المُدُن والقُرى الإسلاميَّة، وذلك على حدٍّ سواء، عبد المُنعم ماجد، تاريخ الحضارة، ص111.

(2) أحمد رمضان، المُجتمع، ص178.

(3) ديماند، الفُنُون الإسلاميَّة، ص257، عاشور، مصر والشَّام في عهد الأيُّوبيِّين والمماليك، بَيْرُوت، 1972، ص149 - 150.

(4) ريسلتر، الحضارة الإسلاميَّة، ترجمة غُنيم عبدون، القاهرة، ب، ت، ص187.

(5) مُنير كيَّال، فُنُون وصناعات دمشقيَّة، ص109، ص، ب، الصِّناعات السُّوريَّة زمن الحُرُوب الصّليبيَّة، مجلَّة المُقتطف، 1908، ص203.

(6) ومنها القماش الأطلس بكُلِّ أجناسه وأنواعه، الأبيض والقُطني، لإحياء القُصُور، والقماش السّابوري بجميع ألوانه، البدري، نُزهة الأنام، ص362.

(7) سُعاد ماهر، مشهد الإمام علي في النّجف، ص239.

ولـم تكـن هـذه المنسـوجات ببعيـدة عـن مُراقبـة الدّولـة؛ إذْ كـانت مـن واجـهات المُحتسب[1]، وكان يُتـابع المنسـوجات وصناعتـها، ويمنـع الغشَّ فيـها، كمـا فرضـت الدَّولـة الضَّرائب والمُكُوس على المنسوجات والثّياب في بعض الأحيان[2].

تعدَّدت الملابس وتنوَّعت، بل اختصَّ بعضها بأجزاء الإنسان دُون بعضها الآخر، عـبر العُصُور وفي عُمُوم الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة، لذلك؛ فإنَّ الموارد التي وقعت بين أيدينا كانت تتكلَّم بنفس العُمُوميَّة، وكانت على الشّكل الآتي:

أ ـ لباس الرّأس:

لقد كانت العمامة لباساً عاماً لمُعظم فئات المُجتمـع، (وأنّـها اللّبـاس الـذي يُلاث على الرّأس تكويراً)[3]، وهُو لبـاس الـرّأس الرَّئيسيّ عنـد العـرب، والـذي استمرَّ حتَّى العُصُور المُتأخِّرة، فقد رُوي عن الرَّسول ﷺ، أنَّه قال: (العمائم تيجان العرب)[4]، فقد لبس العمامـة الخُلفاء والسّلاطين والقُضاة، لكنَّها لـم تكـن علـى شـاكلة واحـدة، وإنَّـما تختلـف بـاختلاف الطّبقـة الاجتماعيَّـة والدِّينيَّـة، فقـد كـان للبقَّـالين عمَّـة[5]، وللنَّصـارى عمَّـة[6]، وللمُغنِّـين عمَّة[7]...إلخ.

كما اختلفـت المُناسبات[8] والرَّغبـة الشّـخصيَّة، فلـم تـأخذ شـكلاً مُوحَّـداً فـي ذلـك، فبعضـهم يُرخيـها، وبعضـهم يُسـدلها علـى الظّهر، فـي حـين يعقدهـا آخـرون علـى أعلـى

---

(1) الشّيزري، نهاية الرُّتبة في طَلَب الحسبة، ص65، 69، 70، 71.

(2) ابن الجوزي، المُنتظم، 7/ 127.

(3) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 82.

(4) الجاحظ، البيان والتّبيين، 22/ 88.

(5) التّنوخي، الفرج بعد الشّدَّة، 2/ 223، أحمد رمضان، المُجتمع، ص261.

(6) الجاحظ، البيان والتّبيين، 1/ 114، وقد أخذ الإفرنج يُطلقون اللّحى، ويرتدون العمائم بلون خاصٍّ، ميخائيل زابوروف، الصّليبيُّون في الشّرق، ص334.

(7) الأصفهاني، الأغاني، 5/ 420.

(8) كانت بعض العمائم تُلبس في المُناسبات، منها خُطبة الجمعة؛ بحيث لا يُسمح للخطيب بالخُطبة بدُونها، الجاحظ، البيان والتّبيين، 2/ 92.

الرّأس[1]، فقد أشار القَلْقَشَنْدي إلى ذلك بقوله: (إنَّ القُضاة والعُلماء يلبسون العمائم والشّاشات الكبار للغاية، ثُمَّ منهم مَنْ يرسم بين كتفَيْه ذُؤابة...)[2]، في حين كان قُضاة الشّافعيَّة والحنفيَّة يلبسون الطّرحة، التي تستر العمامة، وتُسدَل على ظهره[3].

وأما فيما يتعلَّق بعمائم الطّبقة المُتوسِّطة أو الفقيرة؛ فمن البديهي أنْ يزيد عدد طيَّاتها - أيْ كسراتها - عن اثنَيْن، وربَّما طيَّه حتَّى يكتفي هؤلاء ببرمها قبل لفِّها على الرّأس، وفي الأكثر؛ يستعين هؤلاء بأيِّ مادَّة مُساعدة لتثبيت الطّيَّات، وهُناك مَنْ يلوث العمامة بطريقة مُختلفة، وذلك بلفِّها على ملابس طويلة، مع ترك طرفَيْها ينتهي ويتدلَّى - أحياناً - أسفل الرّقبة[4].

أمَّا نسيج العمائم؛ فكانت حسب مكانة الشَّخص في المُجتمع، فرجال الدَّولة وميسورو الحال استعانوا بالثّمين، منها الخزّ، والخالص، والكتَّان[5]...إلخ. وفضلاً عن العمامة كانت تُلبس القُلنسوة[6]، والطّرحة[7]، والشّاشة[8]، والرّصافيَّة[9]، والتّحفيفة[10]، والدّنّيَّة[11].

---

(1) السّدال أو الرّخاء، وهُو أنْ يُرسل طرفَيْها دُون أنْ يعقدها، النّعيمي، شكل (3)، ص316، النّعيمي، مقامات الحريري، شكل 2، 3، 50، ص216، 217، 143.

(2) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 41 - 42.

(3) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص112، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 41 - 42.

(4) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 41 - 42.

(5) عايدة حسن أحمد، الوحدات التّصميميَّة للمنسوجات، رسالة دُكتُوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، بغداد، 1995، ص52 - 53.

(6) وهُو لباس مُشترك بين الرِّجال والنِّساء، وهُو ما يُلاث به الرّأس تكويراً مثل العمامة، ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 82، انظر النّعيمي، مقامات، لوحة رَقْم (2)، ص1.

(7) وهُو لباس القاضي، ويُلاث على العمامة، أو يُطرح على الكتفَيْن ويتدلَّى على الظّهر، رينهارت دُوزي، المُعجم المُفصل بأسماء الملابس، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، 1971، ص212 - 213.

(8) وهُو نوع من غطاء الرّأس، وقد لبسه الخاصُّ والعامُّ، دُوزي، المُعجم، ص201 - 203.

(9) وهُو نوع من غطاء الرّأس، لبسه الخاصُّ والعامُّ على حدٍّ سواء، ويختلف القماش المُستعمل بحسب مكانة الشّخص، العُبيدي، الملابس العربيَّة، ص67 - 100.

(10) وهي عمامة صغيرة، أصغر من العمامة الطّبيعيَّة، دُوزي، المُعجم، ص132.

(11) وهي نوع من لباس الرّأس، وهذا النّوع يلبسه عدد كبير من أفراد المُجتمع، والذي جاء وصفها بأنَّها قُلنسوة في الشّكل طُولها شبران، وقد ألزم المنصور النّاس لبسها سنة 157هـ، الحنبلي، شذرات الذّهب، أخبار من ذهب 1/ 234، كما وصفها دُوزي بأنَّها طاقيَّة القاضي، دُوزي، المُعجم، ص152.

ب ـ الملابس الدَّاخليَّة: ومنها:

1 ـ الأزرار أو المئزر: وهُو ما يُلتحَف به[1]، وله عدَّة استعمالات؛ منها استعماله في الحمَّامات لستر العورة[2].

2 ـ البتان: وهُو نوع من الملابس الدَّاخليَّة، وهُو سروال[3]، لستر العورة أيضاً.

3 ـ السّراويل: وهُناك أنواع من السّراويل؛ منها مُحزَّمة، وسراويل واسعة[4].

4 ـ القميص: لقد تعدَّد ذكْر القميص في القُرآن الكريم في أكثر من آية؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[5]، وكذلك ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾[6] وهُو يُعَدُّ من الثّياب، وهُو يعني الدّرع نحو قول أحدهم:

تدعو هوازنُ والقميصُ مفاضةٌ ... تحت النّطاقِ تُشدُّ بالأزرار[7]

وهُو ـ غالباً ـ ما كان يُرتدَى مع الملابس الأُخرى، كما وعُدَّ من الأردية المُهمَّة التي صارت فيما بعد من جُملة ألبسة الخلافة؛ حيثُ ارتداه الخُلفاء العبَّاسيُّون في مجالسهم المُختلفة الرَّسميَّة والخاصَّة[8]، وكذلك القُضاة والشُّعراء والنّاس عامَّة[9].

5 ـ الفُوطة[10]: وهي ضرب من الثّياب، وهي عبارة عن قطعة من النّسيج غير مخيط[11].

---

(1) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 68.

(2) ابن مُنقذ، الاعتبار، ص136.

(3) وهي كلمة دخيلة انتقلت إلى العرب من الفُرس، وهي مُشتقَّة من (زردارد)، وهي في الفارسيَّة الحديثة شلوار، ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 83، دُوزي، المُعجم، ص169.

(4) دُوزي، المُعجم، ص168 ـ 170.

(5) سُورة يُوسُف، آية (18).

(6) سُورة يُوسُف، آية (25)، وكذلك آية 26، 27.

(7) ابن منظور، لسان العرب، 8/ 351.

(8) العُبيدي، الملابس العربيَّة، ص201.

(9) الصّابي، رُسُوم دار الخلافة، ص91 ـ 92.

(10) وهي كلمة هنديَّة الأصل، وتعني في الهند بدل السّروال، دُوزي، المُعجم، ص235.

(11) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 72، دُوزي، المُعجم، ص275.

جـ ـ الملابس الخارجيَّة:

اختلفت ملابس الرِّجال وتباينت حسب مكانة الشَّخص ومركزه الاجتماعي، حتَّى أصبح من السّهل على أيِّ زائر يمرُّ بدمشق أنْ يحكم على مَنْ يراه أنْ يُحدِّد ـ بسُهُولة ـ طبقته الاجتماعيَّة، وحرفته أو عمله وديانته، وما إذا كان مُسلماً أو ذمِّيّاً، وذلك بمُجرَّد النَّظر إلى هيئته العامَّة وهندامه[1]، وهي استمرار للألبسة في الفترات السَّابقة، وهي:

1 ـ البت: وهُو ضرب من الطّيالس مُرَقَّع بأخضر يُتَّخذ من الصُّوف أو غيره، وهُو لباس مُشترك بين الرَّجل والمرأة[2].

2 ـ البرد: وهُو كساء يتلحَّف به، وهُو لباس ضروري للرِّجال وقت الشّتاء.

3 ـ البُرنس: وهُو ثوب رأسه مُتَّصل به، سواء أكان ذراعه أوجبَّة[3]، وكان من ألبسة أهل الذِّمَّة.

4 ـ الجبَّة: وهي من مقطعات الثّياب[4]، والتي تُعَدُّ لباساً هامَّاً للرِّجال؛ إذْ يُوضع فوق الرّداء الأوَّل، وهي لباس عامٌّ لكُلِّ أفراد المُجتمع، ولهذا؛ اختلفت في أشكالها وألوانها من فئة إلى أُخرى، وذلك حسب طُولها ونوع قماشها، فمثلاً جيب البقَّالين كانت قصيرة، بينما كانت جيب الفُقراء مُرقَّعة[5]، كما وكانت تُلبَس في المُناسبات؛ ومنها الصّلاة[6]، وقد استُخدمت أنواع أُخرى من المنسوجات في صناعاتها؛ منها الفاخر كالحرير، ومنها الأرخص ثمناً؛ مثل القُطن التي استعانت به الطّبقات الفقيرة، والصُّوف عند المُتصوِّفة[7]، كما احتوت الجبَّة على أردان (الحمام)، والتي تقوم مقام الجُيُوب لحفظ

(1) حدَّد السّلاطين، في هذه المُدَّة، لباساً خاصّاً لأهل الذِّمَّة، ابن إياس، بدائع الزُّهُور 1/ 141، السّيوطي، حُسن المُحاضرة، 2/ 179.

(2) أحمد رمضان، المُجتمع، ص267.

(3) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 81.

(4) ابن منظور، لسان العرب، 1/ 242.

(5) التّنوخي، الفرج بعد الشِّدَّة، 2/ 257، أحمد رمضان، المُجتمع، ص270.

(6) الجاحظ، البيان والتّبيين، 3/ 92.

(7) العُبيدي، الملابس العربيَّة، ص243.

الجبَّة على أردان (الحمام)، والتي تقوم مقام الجُيُـوب لحفظ الدّنـانير[1]، ثُمَّ أخذ في العصر العباسي بالاتِّساع، فقد وصل مُتوسِّط عرضه إلى 70سم، بينما الآخر إلى 20سم، ولكنْ؛ استقرَّ - فيما بعد - في حُدُود الثّلاثين سنتمتراً، وهُو حسب الرّغبة[2]، ويُذكر ابن فضل الله العمري، عن لبسها لدى الوُزراء والكُتّاب بقوله:

(وأمَّا الوُزراء والكُتَّاب؛ فزيُّهم الفرجيَّات المُفرجة من الصُّوف... وربَّما لبسوا الجباب المُفرجة من ورائها...)[3].

5 - **البقيار**: وهُو لباس خاصٌّ بالقُضاة، وهُو من الثّياب المصنوعة من وبر البعير، وهُو يُرتدَى تحت الفوقانيَّة، فقد أورد دُوزي نقلاً عن النُّويري أنَّه (بلغ الملك المُعظَّم عن القاضي جمال الدِّين المصري قاضي قُضاة دمشق أنَّه يتعاطى الشّراب، فأراد تحقيق ذلك عياناً، فاستدعاه وهُو في مجلس الشّراب، فحضر، فلمَّا رآه، قام إليه وناوله هناباً مملوءاً خمراً، فولّى القاضي جمال الدِّين المصري، فرجع هُنيهة، وعاد وقد خلع ثياب القضاء، الصَّراحة والقبار والقوقيَّة، ولبس قباء، وتعمَّم بتحفيته، وحمل منديلاً، ودخل على الملك في زيِّ النُّدماء[4]، وقبَّل الأرض بين يدَيْه، وتناول الهناب من يده، وشرب ما فيه، ونادم المُعظَّم، فأحسن مُنادمته، فأعجبه، واعتذر عن قراره أنَّه ما كان يُمكنه تعاطي ذلك وهُو في زيِّ القضاء[5].

6 - **الشّملة**: وهُو كساء من الصُّوف يشتمل فيه[6].

7 - **الفرجيَّة**: وهُو لباس واسع، وله كُمَّان، وله شقَّة حلقة، ويُصنع من الصُّوف والوبر[7]، وكان لباس أرباب الوظائف الدّيوانيَّة وأرباب الأقلام، ومنهم القُضاة والعُلماء، فقد

---

(1) التّنوخي، الفرج بعد الشّدَّة، 2/ 224، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزّاهرة، 2/ 79، يُشبه أردان الجبَّة أردان الدُّرُوع، وهي من الألبسة الدَّاخليَّة للرِّجال.

(2) عايدة، الوحدات، ص60، الأبصار، ص113.

(3) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص113.

(4) كان زيُّ الشّراب زيّاً خاصّاً نظراً لرقَّة الشّراب ونُعُومته، وهُو نوع لباس خاصٌّ عند الشّراب، وكان غالباً من الإسكندراني والمخمل والكمخا... حبيب زيَّات، فنُّ الطّبخ والطّعام، مجلَّة المُشرف، مُجلَّد (3) لسنة 1947، ص140.

(5) دُوزي، المُعجم، ص74.

(6) ابن منظور، لسان العرب، 11/ 368، أحمد رمضان، المُجتمع، ص368، وانظر النّعيمي، مقامات الحريري، لوحة رَقْم (2)، ص216.

(7) ابن سيده المُخصَّص، 4/ 286، ابن الأثير، التّاريخ الباهر، ص54، أحمد رمضان، المُجتمع، ص271.

أورد ابن فضل الله العُمري ذلك بقوله (أمَّا الوُزراء والكُتَّاب؛ فزيُّهم الفرجيَّات المُفرجة من الصُّوف)[1].

8 ـ القباء: وهُو من الألبسة الخارجيَّة الرَّئيسة؛ إذْ كان يُرتدَى ـ عادة ـ فوق القميص[2]، وهُو مفتوح من جبهته ومُقوَّر عند الرّقبة، يصل في الطُّول إلى مُنتصف السّاق، أو دُون ذلك، وله كُمَّان ضيِّقان بعض الشّيء[3]، وقد زاد الاهتمام بالقباء في هذه المُدَّة، وعُدَّ زيّاً رسمياً لرجال الدّولة[4]، أمَّا عن نوعيَّة قماشه؛ فهُو يختلف بحسب مكانة الشَّخص الاجتماعيَّة، فمنه ما هُو غالي الثّمن كالدّيباج المُطرَّز بالذّهب واللُّؤلُؤ في بعض الأحيان[5]، وكذلك الأطلس[6]، والبريسم[7]، وبعضه من نسيج الكتَّان[8]، أمَّا ألوانه؛ فهي مُتنوِّعة؛ فمنها الأسود[9]، والأخضر[10]، والأحمر المُوشَّى بالأسود، أو الأسود المُوشَّى بالأحمر[11] ومثل القباء، المُبطَّنة[12] والمطرف[13] والمتقة[14] والخفتان[15].

---

(1) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص112، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 40.

(2) الدُوزي، المُعجم، ص285، عايدة، الوحدات، ص66.

(3) العلي، الألبسة العربيَّة، مجلَّة المُجتمع العلمي العراقي، 1966، ص285، عايدة الوحدات، ص66.

(4) الحضارة العربيَّة، 2/ 220، عايدة، الوحدات، ص66.

(5) الأصفهاني، الأغاني، 16/ 79، عايدة، الوحدات، ص66.

(6) دُوزي، المُعجم، ص286.

(7) ويكفي أنْ نُشير هُنا إلى أنَّه في عهد الخليفة العبَّاسي المُستعين (566 ـ 575) (1170 ـ 1180)، ذكر ضابط المخازن الخاص ّبدار الخلافة أنَّ القباء وصل إلى ثلاثمائة قباء بريسم، ابن الجوزي، المُنتظم، 10/ 321، عايدة، الوحدات، ص67.

(8) الأصفهاني، الأغاني، 20/ 24، عايدة، الوحدات، ص68.

(9) الأصفهاني، الأغاني، 18/ 53، عايدة، الوحدات، ص68.

(10) الأصفهاني، الأغاني، 8/ 184، عايدة، الوحدات، ص68.

(11) الطّبري، تاريخ الطّبري، 4/ 159.

(12) وهُو ضَرْب من الأردية، يُلبس فوق الثّياب له بطانة قويَّة، وعدَّها الحموي لباساً مُلازماً للكُتَّاب، ولا يظهرون بدُونه، أحمد رمضان، المُجتمع، ص271.

(13) وهُو ثوب مُربَّع اتَّخذه الظُّرفاء لباساً لهُم، ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 86.

(14) وهي جبَّة طويلة الكُمَّين، وهي من ملابس الشّتاء، ويلبسها أهل الجبال وسواحل الشَّام، أحمد، المُجتمع، ص272.

(15) وهي رداء مفتوح في الجهة الأماميَّة، ومُزوَّر من ناحية الصّدر، دُوزي، المُعجم، ص134.

9 ـ الطّيلسان[1]: وهُو ضرب من الأكيسة يُلقى على الكتف[2]، ويُحيط بالجُزء العُلوي من البدن، يلبسه الرِّجال والنِّساء على حدٍّ سواء، وشاع بين النَّاس، وقد لبسه القُضاة وتميَّزوا فيه لدرجة سمُّوا الطّيالسة[3] وإنْ ارتداه الفُقهاء والخواصُّ والشُّيوخ والعُلماء[4]، أمَّا ألوانه؛ فهي مُختلفة؛ فمنها الأسود الذي كان زيَّ القُضاة في العصر العبَّاسي، والأبيض زيُّ العُلماء والخواص[5]، وقد اختلفت أشكاله أيضاً؛ فمنه مُدوَّر الجانبَيْن، أو مُثلَّث الشّكل، أو مُستطيل، أو مُربَّع الشّكل[6]، وهُناك الطّيلسان المغور[7]، الذي يختلف عن الأوَّل بكونه يُوضع على الرّأس، ويُرسل طرفه على الصَّدر، ودُون أنْ يُدار تحت الحنك، ويبدو من التّسمية أنَّ طرفَيْه يتميَّزان بانحناء واحد بدل الاستقامة[8]، وشاع استعماله؛ حتَّى لبسه ـ أيضاً ـ أرباب الأقلام من قُضاة وعُلماء وغيرهم[9]، فضلاً على أبناء المُجتمع.

د ـ أشرطة التّثبيت:

وهُناك أشرطة التّثبيت، وهي الأحزمة التي تُشدُّ في الوسط، وربَّما كانت من الذَّهب أو الفضَّة، أو تكون مُرصَّعة بالأحجار، فقد استخدم المُسلمون اللّباس الخارجي للجسم حين يشدُّون المناطق[10]، أمَّا الزّنَّار الذي يُؤدِّي نفس العمل؛ فقد كان يُستعمَل لتثبيت اللّباس الخارجي، وهُو ما يلبسه الذِّمِّيُّ في وسطه، وهُو عبارة عن خُيُوط تُعقد وسط الجسم[11]، كما أنَّ كلمة حزام التي كانت تستعمل في مصر والشَّام، تُشير إلى الزّنَّار الذي يشدُّه الرِّجال

(1) ربَّما يكون نسبة إلى إقليم طيلسان، وهُو إقليم واسع كثير الأقاليم والسُّكَّان، في نواحي الدّيلم، افتتحه الوليد بن عُقبة، سنة 235، البلاذري، فُتُوح البُلدان، ص245، الحموي، مُعجم البُلدان، 4/ 56.

(2) ابن منظور، لسان العرب، 13/ 231.

(3) الأصفهاني، الأغاني، 13/ 231.

(4) الصّابي، رُسُوم دار الخلافة، ص91.

(5) العُبيدي، الملابس العربيَّة، ص274ـ 275.

(6) العُبيدي، الملابس العربيَّة، 274ـ 275.

(7) ومن طريف ما يُعمَل من ثياب في كرمان وطيلسان المغور في المناسج التي كانت تُنسَج بزخارف، ابن حوقل، صُورة الأرض، ص271، النّعيمي، مقامات الحريري، لوحة (1).

(8) عايدة، الوحدات، 134، ص14.

(9) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص112، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 42.

(10) دُوزي، المُعجم، ص134.

(11) ابن منظور، لسان العرب، 5/ 419.

فوق القفطان[1]، كما وتُوجد كذلك أنواع أُخرى من الأحزمة تُدعى بـالخوائص، فقـد سُـمِّي سُوق الخوائصـين باسـمها، وقـد بيَّـن المقريـزي ثمنـها بقولـه: (كـانت خوائص الأجنـاد أوَّلاً أربعمائة درهم فضَّة ونحوها، ثُمَّ عمل المنصور قلاوون[2] خواصَّ الكبار)[3].

على ضوء ما تقدَّم، يُمكـن أنْ نقـول: إنَّ أربـاب الوظـائف الدّيوانيَّـة، ومنـهم الـوُزراء والكُتَّاب، (زيُّهم الفرضيَّات المُفرجة من الصُّوف ومن المحبرات، وربَّما لبسوا الجباب المفرجـة من ورائها...[4]، مع الاختلاف في نوعيَّة القماش وصناعته.

ومن الأزياء التي يرتديها أرباب الأقلام ـ ومنهم القُضاة العُلماء ـ هي لبس العمـائم مـن الشّاشات الكبار للغاية، ثُمَّ منهم مَنْ يُرسل بين كتفَيْـه ذُؤابـة[5] طويلـة، ثُـمَّ الفرجيَّـة الطّويلـة الكُمِّ، ومنهم مَنْ يجعل عوض الذُّؤابة الطّيلسان، ويلبس فوق ثيابه نـوع مـن الأرديـة يُدعـى دلقا مُتَّسع الأكمام طويلاً يصل إلى القدمَيْن[6]، ويتميَّز قـاضي قُضـاة الشّـافعيَّة بعمامتـه التـي تكون ألطف، ويرتدي الفرجيَّة بدل الدّلق، والتـي تكـون مُـزوَّدة بـإزار[7]، ولـيس منـهم مَـنْ يلبس الحرير، وإنْ كان الشّتاء، كان الفَوْقاني من ملبوسهم من الصُّوف الأبيض المطلـي، ولا يلبسون المُلوَّن إلاَّ فـي بُيُوتـهم، وربَّمـا لبسـه بعضـهم مـن الصُّـوف فـي الطُّرُقـات، ويلبسـون الخفاف من الأديم الطّائفي بغير مَهاميز)[8].

ويكون مشايخ المُتصوِّفة مُضاهون لطائفة العُلماء، ولكنَّ لبس الدّلق عندهم غير سـابل ولا طويل، ويُرخون ذُؤابة لطيفة على الأُذن الأيسر لا تكاد تلحق الكتف[9].

---

(1) دُوزي، المُعجم، ص115، أحمد رمضان، المُجتمع، ص273.

(2) المنصور، قلاوون بن عبد الله التُّركي الصّالحي اشتراه لصالح أيُّوب، وكان شُجاعاً تدرَّج بالمناصب، حتَّى صار سُلطاناً، تُوفِّي سنة 688هـ، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 136.

(3) الخُطط، 2/ 99، أحمد رمضان، المُجتمع، ص273، وهي في بيان سعرها.

(4) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص112 ـ 114.

(5) وهي طرف العمامة، ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص112.

(6) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، ص41 ـ 42.

(7) ابن فضل العُمري، مسالك الأبصار، ص112، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 42.

(8) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 42.

(9) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 43.

وأمَّا (التُّجَّار وأخلاط النَّاس؛ فتختلف أحوالهم في الملابس والزّيّ، حتّى إنَّ الفُقراء، وإنْ جمعهم زيُّ الفَقْر وزيفه، وضمَّهم لباس التَّصوُّف، فإنَّهم تتباين حالاتهم في الملابس وأطوارهم في التّشكيلات)[1].

وانفرد أرباب السُّيوف، فكانوا يلبسون في الدَّولة الأيُّوبيَّة (كلوتات صغيرة بغير[2] عمائم، وكانت لهُم ذوائب شعر يُرسلونها خلفهم)[3]، كما يلبسوا الأقبية التّريَّة والتّكلاوات[4] فوقها، ثُمَّ القباء الإسلامي فوق ذلك، يُشدُّ عليه السّيف من جهة اليسار، والمُقدَّمون وأعيان الجُنْد يلبسون فوق أقبية قصيرة الأكمام أقصر من القباء التّحتاني[5].

ويبدو أنَّ للمناخ أحكامه في لون القماش المُستعمل عند أرباب السُّيُوف، فقد ذكر القَلْقَشَنْدي ذلك بقوله: (زمن الصّيف كان جميع القماش من الفوقاني وغيره أبيض من النّصاني ونحوه، وتُشدُّ فوق القباء الإسلامي المنطقة وهي الحياصة، ومُعظم مناطقهم من الفضَّة المطليَّة بالذّهب)[6]، أمَّا في زمن الشّتاء؛ فتكون (فوقياتهم من الصُّوف النّفيس والحرير الفائق تحت فراء السّنجاب)[7]، ومُعظمهم يلبس المُطرَّز والمُزركش على الكُمَّين[8].

ويتميَّز أهل دمشق كذلك بارتداء الملابس الفخمة، ويتعمَّمون رجالاً ونساءً بالعمائم الكبيرة وملابس واسعة، وهي تُشبه ملابس الأكراد في وقتنا الحاضر[9].

---

(1) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص114.
(2) لقد تغيَّر هذا اللّون إلى اللّون الأحمر فيما بعد، وذلك في عهد خليل بن قلاوون، مع لبس العمائم، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 40.
(3) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 40.
(4) التّكلاوات نوع من الأردية، ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص 99، حاشية (3).
(5) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 40.
(6) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 40.
(7) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 40.
(8) ابن فضل العُمري، مسالك الأبصار، ص99 - 100، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 40.
(9) نُعمان قساطلي، الرّوضة الغنَّاء في دمشق، ص126.

هـ ـ ملابس أهل القُرى:

تتشابه ملابس الرِّجال فيما بينهم عند أهل القـرى، مـع إضافة الكُوفيَّة والعقـال على رُؤُوسهم، والتي وصفها دُوزي[1]، بأنَّها منديل مُربَّع يُلبس فوق الرَّأس، ولـه مـن الطُّول ذراع، ومُمثَّله من العـرض، وهُـو مـن ألـوان مُختلفـة؛ لـون الأحمـر الغـامق أو ضـارب إلـى الدّكنة، أو من اللّون الأخضر الزّاهي، ومن الأصفر المُرقَّط أحياناً ترقّطـات واسـعة، وأحيانـاً ضيِّقة على طُول النّهايَتَيْن المُتقابلتَيْن، لها أهداب كثيرة مُؤلَّفة مـن شـرائط، وتُلبس الكُوفيَّة والعقال لطيِّ المنديـل بصُورة مُنحرفة، وتُوضع علـى الطّاقيَّة بهيئـة تتدلَّـى منهـا إلـى الظّهر الزّاويتان المُثبَّتتان والزّاويتان الأُخريان من الجبهة، وقد تكون الكُوفيَّـة مُثقَّلـة[2]، وهُنـاك قُبَّعـة من الصُّوف من حول الكُوفيَّة أو التّحفيَّـة[3]، وتكـون مبرومـة[4] برمـاً شـديداً أشـبه مـا يكـون بالحبل، أمَّا عن الملابس الأُخرى التي يرتديها الرِّجال؛ فهي مُتشابهة؛ وأهمَّـها: القُمصـان[5] التّبان[6] والجبَّة[7] والقبار[8] والقباء[9].

ـ ملابس البدو:

لا تختلف ملابس البدو عمَّـا ذكرنـاه سـابقاً مـن ملابـس أهـل القُـرى والأريـاف، فقـد اشتهرت العباءة لديهم، وهي ضَرْب من الأكسية قصيرة مفتوحة من الجهة الأماميَّة، لا أكمام لها، ولكنْ؛ تُستحدث فيها تقويرات لإمرار الذّراعَيْن، وتُصنـع العبـاءة مـن الصُّـوف المبروم المُخطَّط المُوزَّع على سُطُور بيضاء وسوداء[10]، والخُطُـوط البيضـاء أعـرض مـن السّـوداء[11]،

---

(1) المُعجم، ص315.

(2) الصّابي، رسول دار الخلافة، ص96ـ 97، الثّقل هُو ما كان منسوجاً بالذّهب، أحمد رمضان، المُجتمع، ص212.

(3) المقريزي، الخُطط، 2/ 1، أحمد، المُجتمع، ص212.

(4) دُوزي، المُعجم، ص315.

(5) ابن منظور، لسان العرب، 8/ 350، العُبيدي، الملابس العربيَّة، ص1 ـ 2.

(6) دُوزي، المُعجم، ص80 ـ 81، أحمد رمضان، المُجتمع، ص267.

(7) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 81، دُوزي، المُعجم، ص91، وما بعدها.

(8) دُوزي، المُعجم، ص263 ـ 264، ويُعرف بالقبار، وهُو لباس خارجي لرجال الرّيف في بلاد الشّام.

(9) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 86، دُوزي، المُعجم، ص285.

(10) دُوزي، المُعجم، ص238.

(11) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 81.

كذلك تُعَدُّ الفرجيَّة[1]، من ملابس البدو الخارجيَّة الهامَّة، فضلاً عن البت[2] والملابس الأُخرى المارَّة الذِّكْر.

- ملابس النِّساء:

تنوَّعت ملابس النّساء، هي الأُخرى، خاصَّة وأنَّها تمتَّعت بقسط وافر من الاحترام، فقد أثبتت الشّواهد احترام عامَّة الشّعب الشَّاميّ لها في هذه المُدَّة، وذلك من خلال الألقاب[3] التي أطلقوها عليهنَّ من باب التّزكية والفخر والثّناء والتّعظيم[4] وعلى العُمُوم، فإنَّ لباس المرأة منه ما هُو مُشترك بينها وبين الرَّجل، ومنه ما هُو خاصٌّ بها وهُو على الشّكل الآتي:

أ - لباس الرّأس: وهُو من اللّباس الخاصّ بالنّساء.

1 - البخنق: وهُو عبارة عن بُرقع صغير تلبسه المرأة ليُغطي رأسها، فقد وصفه ابن سيده بقوله: (وقبل البخنق طرفة تتمتَّع بها المرأة، وتُحيط طرفَيْها من تحت حنكها[5]، وفيها يقول الشّاعر:

تقبل العاجز الجبات وقد يعجز عن قطع بخنق المولود

وهي تعني أنَّها تُوضع على رُؤُوس الأطفال لتقيهم من البرد[6].

2 - البُرقع: وهُو من أغطية الرّأس الخاصَّة بالنّساء، وقد وصفه ابن سيده بقوله: (إنَّ البُرقع خَيْطان تشدُّهُما المرأة من قفا الرّأس، يُسمَّيان الشّبامان)[7].

---

(1) وتختلف الفرجيَّة عن القناء؛ حيثُ يكون الأخير مُنتخبة إلى الأمام، وقد أورد ابن الأثير من حوادث سنة 520/ 123، أنَّ سنقر قام من فراشه في إحدى ليالي الشّتاء، وعليه فرجيَّة وبر صغيرة، التَّاريخ الباهر، ص31.

(2) وهُو ثوب من صُوف غليظ يُشبه الطّليسان، دُوزي، المُعجم، ص52.

(3) لقد أُطلقت على النِّساء عدَّة ألقاب؛ منها ستُّ الشَّام، وستُّ الكُلِّ، وستُّ المُلك، وغيرها. أحمد رمضان، المُجتمع، ص276.

(4) أحمد رمضان، المُجتمع، ص276.

(5) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 48، ابن منظور، لسان العرب، 11/ 264، دُوزي، المُعجم، ص53.

(6) دُوزي، المُعجم، ص53.

(7) المُخصَّص، 4/ 39، دُوزي، المُعجم، ص59 - 62.

3 ـ **الخمار:** لقد شاع استعمال الخمار في العُصُور الوسطى، وهُو من أغطيـة الـرّأس، وله أهمّيَّة عند المرأة لستر الرّأس والعُنق وجُزء من الصّدر[1].

4 ـ **العصائب:** وهـي مـن الألبسـة التـي وصفـها ابـن منظـور (بأنّها كُلُّ مـا يتعصّـب بـه الرّأس)[2]، كانت شائعة الاستعمال في هذه الفترة، حتّى إنَّ الكثير منها كانت تُنقش بأبيات من الشّعر الرّقيق، أو تُرصّع بالجواهر والأحجار الكريمة[3].

5 ـ **النّقاب:** وهُو نوع مـن أنـواع البُرقع، ولكنّـه صغيـر[4]، والـذي تضعـه المرأة على وجهها ابتداءً من أسفل العين[5]، والذي يتميَّز بشيء مـن الشّـفافيَّة والتّخريـج؛ حيـثُ تُمكّـن رُؤية بعض تفاصيل الوجه من خلاله، وعلى ذلـك؛ فإنَّ غطـاء الوجـه هـذا ـ غالبـاً ـ مـا كـان يُصنَع من الحرير أو القطن الرّقيق، ومن الطّبيعي أنَّ المرأة تضعه عند خُرُوجها مـن المنزل إلى السُّوق، أو عند حُضُـور بعـض المُناسبات العامّـة، مثـل حُضُـور مجلس الوعـظ أو مـا شـابه ذلك[6]، وأخيـراً؛ فـإنَّ النّقـاب كلمـة عامّـة تختلـف بـاختلاف الأوضـاع التـي يتّخذهـا على الوجه، فمثلاً إذا أدنت المرأة النّقاب إلى عينَيْهَا أطلق عليها الوصوصة[7].

6 ـ **القناع:** ويُسمّى كذلك المقنعة، وهُو من أغطية الرّأس التي اتّخذتها المرأة للـرّأس أو الوجه معاً، وهُو ما تُقنّع به المرأة رأسها ومحاسنها[8].

7 ـ **الوقاية:** وهي من ألبسة الـرّأس والتـي تُشبه الطّاقيَّـة، وهـي السّـدارة تحت المقنعـة والعصابة[9].

---

(1) ذكر ابن سيده: أنَّ الخمار يعني السّتر باللُّغة العربيَّة، فيُقال خَمَرَت المـرأة رأسـها إذا غطّته، فكُلُّ مـا غطّـه سَتَرَته، المُخصَّص، 4/ 39، كما ذكر دُوزي أنَّ نسيج الخمار كتّاني أبيض رقيق، يستر الوجه من جذر الأنف، المُعجم، ص59.

(2) لسان العرب، 2/ 93.

(3) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 6/ 424، طبعة، 1948.

(4) أحمد رمضان، المُجتمع، ص281.

(5) العُبيدي، الملابس العربيَّة، ص175.

(6) العُبيدي، الملابس العربية، ص175.

(7) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 39.

(8) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 38، ابن منظور، لسان العرب، 7/ 175.

(9) دُوزي، المُعجم، ص347.

8 ـ العمامة: شاركت المرأة الرَّجل في لبس العمامة في بعض الأحيان، ولكنْ؛ لم تكن على نطاق واسع[1]، ويبدو أنَّها تختلف من حيثُ المظهر والنّسيج.

ب ـ الملابس الداخليَّة: تعدَّدت الألبسة الدَّاخليَّة للمرأة، وهي على الشّكل الآتي:

1 ـ الأتب: وهُو ثوب تشقُّه المرأة، وتُلقيه في عُنقها من غير كُمَّين أو جيب[2]، وقيل هُو من الثّياب ما قصر إلى نصف السّاق، وهُو غير الإزار لا رباط له، وليس على خياطة السّراويل، ولكنَّه قميص غير مخيط الجانبَيْن[3]، ومن أنواعه الأصدة وهي مُخصَّصة للفتيات[4]، بالإضافة إلى البقير أو البقيرة، والذي اعتبر الأتب نفسه[5].

2 ـ القلالة: ويقع تحت الثّوب، يلي الجسد، وهُو لباس اختُصَّت به النِّساء وبعض الرِّجال، وهُو يُلائم مجالات اللّهو والطّرب، فهُو ثوب مُفرط في الشّفافيَّة والخفَّة[6].

3 ـ القميص: وهُو لباس داخلي تلبسه جميع الفئات مع كُثرتها واختلاف أجناسها[7].

4 ـ الصّدار: وهُو من ألبسة النِّساء، وهُو ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يُغشى الصَّدر والمنكبَيْن[8]، وعرفة ابن منظور: بأنَّه لباس داخلي للنِّساء فقط، وهُو قميص صغير يلي الجسد[9].

5 ـ المُجسد: وهُو ثوب يلي جسد المرأة[10]، وهُو من الملابس الدَّاخليَّة التي لا يُمكن للمرأة الظُّهُور فيه، وهُو يُغطَّى بالملابس الأُخرى.

---

(1) العُبيدي، الملابس العربيَّة، ص168.
(2) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 35.
(3) ابن منظور، لسان العرب، 1/ 200.
(4) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 35.
(5) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 35.
(6) دُوزي، المُعجم، ص26.
(7) ابن منظور، لسان العرب، 8/ 350، العُبيدي، الملابس العربيَّة، ص201، مُحَمَّد عيسى صالحيَّة، من وثائق الحرم القُدسي الشَّريف المملوكي، حوليَّات كُلّيَّة الآداب السّادسة، جامعة الكُويت، 1985، ص21.
(8) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 39.
(9) لسان العرب، 6/ 117.
(10) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 37.

6 ـ الدُّرُوع: ومفردها درع قميص اتَّخذته المرأة لباساً لها[1]، (وهُو ثوب تجوب المرأة وسطه، وتجعل له يدَيْن، وتخيطه فرجيه)[2]، وهُو أيضاً القميص الصَّغير، تلبسه الجارية في بيتها[3]، والدُّرُوع ـ غالباً ـ مصنوعة من نسيج ذي لون واحد، ويكون ـ عادة ـ أزرقاً فاتحاً مائلاً إلى الاخضرار، وخالٍ من الزّخارف، وهُو منسوج بطريقة الأيكات[4]، وهُناك نوع من الدُّرُوع تحتوي على أكمام قصيرة يُخاط جانبها، تلبسه ربَّات البُيُوت، ويُسمُّونه السّبخة أو السّبيخة[5].

7 ـ الشّوذر: وهُو الملحفة، وهُو مُعرَّب عن كلمة جاذر[6] الفارسيَّة، كما يُوصف بأنَّه الأتب[7]، ويتبيَّن لنا من خلال الوصفَيْن أنَّه ثوب ليس له أردان.

8 ـ الإزار: شاركت المرأة الرَّجل في لبس الإزار، وهُو ثوب يُلتحف به[8].

جـ ـ الملابس الخارجيَّة:

لقد شاركت المرأة الرَّجل في ملابسه الخارجيَّة؛ من حيثُ أسمائها، وإنْ اختلفت من حيثُ تفاصيلها وشكلها وأنواع المنسوجات المُستعملة فيها؛ ومنها:

1 ـ البرنس: وهُو ثوب تلتحف به المرأة، وهُو شبه الدّرعة والجبَّة[9]، وقد تفنَّنت المرأة به، وزيَّنته بخلاف الرِّجال؛ حيثُ تعدَّدت ألوانه.

2 ـ القباء: وهُو الرّداء المفتوح من الأمام[10]، ويمتدُّ إلى القدمَيْن، وهُو فضفاض، وله كُمَّان طويلان واسعان، وقد ثُبِّت جانباه عند الوسط بواسطة نطاق.

---

(1) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 35.

(2) ابن منظور، لسان العرب، 9/ 436.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 9/ 435.

(4) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 16.

(5) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 16.

(6) دُوزي، المُعجم، ص180.

(7) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 36.

(8) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 68.

(9) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 84.

(10) أحمد رمضان، المُجتمع، ص285 ـ 86.

3 ـ الجلباب: وهُو ما يُغطي صدر المرأة وظهرها[1].

4 ـ الرّبطة: وهُو شيء رفيع يُشبه الملحفة، خاصٌ بالمرأة[2]، كما تُحيط خصرها بـأُمُور أُخرى؛ مثل الحبل المفتول، فيه لونان، وربَّما شدَّته على وسطها، وكذلك الزنّار[3].

ـ ملابس المرأة الريفيَّة:

كانت المرأة الرّيفيَّة تضع الخمار، والذي وصفه ابن سيده بقوله: (يعني السّتر باللُّغة العربيَّة، فيُقال خمَّرت المرأة رأسها إذا غطَّته، فكُلُّ ما غطَّته سترتْهُ)[4].

كما تُوجد العُصابة[5] والتي تلبسها المرأة الرّيفيَّة في الشَّام، كما تلبس المرأة نوعاً آخر في الأفراح والمُناسبات السّافرة يُعرف بـ (شنبر)؛ حيثُ تُعلَّق به السّلاسل المعدنيَّة، كذلك كانت المُتزوِّجات من النِّساء يتلفَّفن به، ويربطنه من الوراء، بينما الأرامل يضعن عليه المنديل[6].

ولبست المرأة القرويَّة الأتب[7] والأصدة[8]، وإنْ كانت خاصَّة بالفتيات؛ حيثُ تلبسه في المُناسبات والأفراح والأعراس[9]، وكذلك الجلباب[10]، كما اشتركت مع الرِّجال في لبس الأحزمة التي تُعرف بالزنَّار[11]، وأخيراً؛ كانت المرأة الرّيفيَّة تتحلَّى بالأساور الفِّضيَّة

---

(1) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 39، الشّريشي، شرح مقامات الحريري، تحقيق مُحَمَّد عبد الحكيم، ط3، مصر، 1953، ص149.

(2) الشّريشي، مقامات الحريري، ص30.

(3) أحمد رمضان، المُجتمع، ص286.

(4) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 39.

(5) ابن منظور، لسان العرب، 2/ 92، ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 6/ 424، طبعة 1946.

(6) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، 65/ 107، أحمد رمضان، المُجتمع ص215.

(7) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 35.

(8) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 35 ـ 36.

(9) أحمد رمضان، المُجتمع، ص215.

(10) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 39.

(11) وهُو لباس خارجي، وكان ـ رسمياً ـ لا يُسمح لأحد في مُناسبة رسميَّة إلاَّ به، وبعكسه يُمنع من الدُّخُول، أحمد رمضان، المُجتمع، ص271.

الضّخمة في معصمَيْها، وفي أرجلها الخلاخيل، وفي آذانها التّراكي الذّهبيّة (حلق مُستدير)، وفي أصابعها خواتم الفضّة بالإضافة إلى الوشم[1].

ـ ملابس أهل الذّمّة:

كانت ملابس أهل الذّمّة، تتكوّن من الجبّة، وهي زيٌّ من أزياء المسيحيّين، وقد تَمَثَّلت جبّة القدّيس أنطوان التي كانت تختلف عن الجبّة العاديّة من حيثُ إنّها لم تكن مفتوحة من الجهة الأماميّة[2].

كما عُرفت الجمازة؛ وهي لباس البدن التي وصفها ابن سيده بأنّها: (جبّة مشقوقة المقدم، قصيرة تُصنع من الصُّوف، على أنَّ الجمازة ثوب شعبي استعمله الفلاّحون بكثرة، يرتدونه في أوقات خاصّة مُعيَّنة كأوقات العمل، ويتكوَّن ـ عادة ـ من رداء قصير يُغطّي أعلى الجسم، وله فتحة من الأمام، كما أنَّ له ردنَيْن قصيرتَيْن[3]، وإلى جانبها يُوجد البرنس.

والبُرنس ثوب يُلتحف به يُشبه الدّرعة أو الجبّة[4]، وقد لبسه اليهُود، وأطلقوا عليه براطيل[5]، كما لبسه النّصارى في المُدّة التي نحنُ بصددها.

وتَحدَّد لون العمائم التي كانوا يلبسونها، بعمائم النّصارى باللّون الأزرق، وعمائم اليهُود باللّون الأصفر، وعمائم السّامريّين باللّون الأحمر، وقد أنشد أحد الشّعراء واصفاً اختلاف العمائم بقوله:

تعجَّبوا للنَّصارى واليهُود معاً	**والسَّامِريّيْن لَمَّا عمَّموا الخرقا**
كأنَّما بان بالأصباغ مُستشهداً	**نسر السّماء فأضحى فوقهم درقا[6]**

(1) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشّام، 6/ 307، أحمد رمضان، المُجتمع، ص216.

(2) دُوزي، المُعجم، ص94.

(3) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 36، أحمد رمضان، المُجتمع، ص214.

(4) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 81.

(5) أحمد رمضان، المُجتمع، ص268.

(6) السّيوطي، حُسن المُحاضرة، 2/ 178، ابن إياس، بدائع الزُّهُور، 1/ 143.

ومع هذا؛ فقد وصف لنا ابن جُبير أهل دمشق، بقوله: (المُحتشم منهم يسحب ذيله على الأرض شبراً)[1].

وتأثَّرت النِّساء الفرنجيَّات بتقليد النِّساء المُسلمات في التَّحلِّي والتَّزيين والتَّخضُّب والتَّعطُّر[2]، فقد لبسْنَ الملابس المُطرَّزة بالسَّكَّة، ولبسْنَ الحجاب في المُجتمعات العامَّة[3]، ويظهر أنَّ هذا المنحى لمُجرَّد التَّقليد، وليس لأسباب دينيَّة، ممَّا يبدو أنَّهنَّ تفاعلْنَ مع المُجتمع العربي الإسلامي في هذه المظاهر، يُقلِّدْنَ المرأة العربيَّة التي تفوَّقت عليهنَّ بجمال ملابسها ودقَّة صناعتها، فقد تركت المرأة الإفرنجيَّة الملابس الضَّيِّقة، والتي يظهرنَ بها نحيلات القوام، وكثيراً ما كُنَّ يضعن الأزهار في شُعُورهنَّ، ويربطنها بخُيُوط من الحرير ذات الجواهر[4]..

كما تأثَّر الرِّجال من الإفرنج بمظاهر أقرانهم من المُسلمين، فأطلقوا لحاهم، وارتدوا الجبب الفضفاضة، وستروا رُؤُوسهم بالكُوفيَّة[5]، ويبدو أنَّ الكُوفيَّة صارت لباس الإفرنج، فقد كان زيُّ أحد أطبائهم كُوفيَّة، وتخفيفة صغيرة وجوخة زرقاء، ولهذا؛ نجد صلاح الدِّين يُغيِّر من ملابس هذا الطَّبيب، وأمره بلبس العرب، وهي الجبَّة والبقيار[6]، ولم يُغيِّر الكُوفيَّة، كما لبسوا العمائم، ويظهر - ممَّا تقدَّم - أنَّ تأثُّر الإفرنج بملابس المُسلمين يعود إلى تطوُّرها من جهة، وقلَّتهم مُقارنة بسُكَّان المنطقة من جهة أُخرى.

ولهذا؛ وصف أحدهم حياتهم بقوله: (نحنُ الذين كُنَّا غربيِّيْن أصبحنا شرقيِّيْن بمعنى الكلمة، لقد أصبح الرُّومي أو الفرنسي الذي استوطن في البلاد جليليَّاً أو فلسطينيَّاً، فالمرء الذي كان ريمز أو شارتز أصبح - الآن - مُواطناً سُوريَّاً أو أنطاكيَّاً، فلقد نسينا مساقط رُؤُوسنا، وأصبحت غير معروفة بالنِّسبة لكثير منَّا...)[7].

---

(1) رحلة ابن جُبير، ص9، سلام، الأدب في العصر الأيُّوبي، ص62.

(2) حبيب زيَّات، النِّساء الإفرنجيات، عصر الصَّليبيِّيْن، مجلَّة المشرق، مُجلَّد 43 لسنة 1949، ص5.

(3) حتِّي، تاريخ سُوريا، 2/ 255.

(4) ول ديورانت، قصَّة الحضارة، ترجمة مُحَمَّد بدران، ط2، القاهرة، 1965، 16/ 204.

(5) حتِّي، تاريخ سُوريا، 2/ 255.

(6) ميخائيل زايوروف، الصَّليبيُّون في الشَّرق، ص334.

(7) Krey, A. C. The First Crusades, Princeton, 1958, P.280-281.

3 - ألبسة القَدَم:

اهتمَّت المصادر التَّاريخيَّة بالأحداث السِّياسيَّة وتراجم الأشخاص وعمليَّات التّحرير والفُتُوح، في حين نالت الجوانب الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، أقلَّ مساحة من الموارد التّاريخيَّة، وإنْ أسعفتْنا في هذا المعنى كُتُب الأدب ومعاجم اللُّغة، وكُتُب الحديث في سدِّ هذا النّقص، وكان القُرآن الكريم من مواردنا المُهمَّة، وبشكل محدود.

لقد وَرَدَ ذكْر النّعال[1] في قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾[2]، وفي الحديث الشّريف ما نُسب إلى الرَّسول ﷺ أنّه رأى رجلاً يمشي بين القُبُور بنعلَيْه، فقال: (يا صاحب السّبتَيْن[3]، اخلع سبتَيْكَ)، وإنَّ عُبيد بن جُريح قال لابن عُمر: رأيتكَ تلبس النّعال السّبتيَّة، فقال: رأيتُ النّبي ﷺ يلبس النّعال التي ليس عليها شعر، ويتوضّأ به[4]، وكانت الفُرْسُ تلهج بذكْر الخفِّ، وتلهج العرب بذكْر النّعال[5].

ويُوجد إلى جانب النّعال الخفّ[6]، وهُو ما يُلبَس بالقَدَم، وكان على أنواع يُسمَّى بعضها باسم النّسَّاخين، وأطلقوا على الخفِّ الصّغير جرمق، وعُرف - أيضاً - باسم الموزج[7]، وقد اتُّخذ الخفُّ في بلاد الشَّام من قبَل أكثر الطّبقات، ابتداءً من السُّلطان حتَّى العامَّة، وكانت التّقاليد تنصُّ على مُوظَّفي الدَّولة ألاَّ ينزعوا خفافهم أثناء الواجب.

---

(1) وهُو ما يُوقي به الرِّجل من الأرض، ولم تصل إلى السّاق، وجمعه نعال، ولبسه خاصٌّ بالعرب، ابن قُتيبة، عُيُون الأخبار، 1/ 301.

(2) سُورة طه، آية (12).

(3) وهي من الفعل سَبَتَ، وهي جُلُود البقر المدبوغة بالقرظ، ومنه النّعال السّبتيَّة، ناصر بن عبد السَّيِّد الخوارزمي، المغرب في ترتيب المعرب، بَيْرُوت، ب، ت، ص215.

(4) ابن منظور، لسان العرب، 2/ 36، ابتسام مرهون الصفّار، وبدري مُحَمَّد فهد، صُور من الحياة الاجتماعيَّة، الأحذية والنّعل، النّجف، 1973، ص18، وما بعدها.

(5) الجاحظ، البُخلاء، ص104، كما ذُكر على قول أحدهم (استجيدوا النّعال؛ فإنَّها خلاخل العرب)، الجاحظ، البيان والتّبيين، 2/ 88.

(6) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 114 وخفّ الإنسان، ما أصاب الأرض في باطن قَدَمه.

(7) ابن سيده، المُخصَّص، 4/ 114.

وكان المُخالف يتعرَّض للعقاب الصّارم[1]، بينما لبس الظُّرفاء الخفاف؛ منها الهاشميَّة المكسورة الكتَّانيَّة، ومن الأدم الثّخين الأسود المُزيَّن[2].

ويختلف النَّاس في لبسهم للخفِّ، ففي فصل الشّتاء[3]، يلبس الميسورون أكثر من خفٍّ، وهذا ما علَّق عليه دوزي، أنَّ هُناك مَنْ يلبس ثلاثة خفاف من صُوف، وفوقه خفٌّ من كتَّان، وفوقه خفٌّ من البر الخالي، وهُو جلد الفَرَس المُبطَّن بجلد ذئب[4].

كما عُرفت الجوارب[5]، وكانت في بلاد الشَّام تُصنع من مواد أوَّليَّة كالحرير[6]، والصُّوف، وغيرها، وكان الأغنياء يتَّخذون الجواريب المصنوعة من المرعزي[7]، وكانوا يضعون فوق الجواريب النّعال[8].

أمَّا الجرموق؛ فهُو غطاء لبَّاد للسَّاق، يُلبس فوق الخفّ[9]، كما يُسمَّى اللّباس عند البدو[10]، وقد ذكر ذلك أبو شامة بقوله: (بلغني أنَّ بعض فُقراء العسكر باع أسيراً بزربول، فقيل له في ذلك، فقال: أردتُ أنْ يُقال بلغ من كثرتهم وهوانهم أنْ يُباع واحد منهم بزربول)[11].

وفي رواية للقَلْقَشَنْدي، تعود إلى المُدَّة المملوكيَّة أنَّ أرباب السُّيُوف في هذه المُدَّة يلبسون الخفاف البيض العلويَّة، بينما يلبسون الخفاف الصّفر من الأديم الطَّائفي، وذلك في

(1) الصّابي، رُسُوم دار الخلافة، ص92.

(2) الوشاء، المُوشَّى، ص180.

(3) قد يُلبس في الصّيف إذا دخلوا على الخُلفاء أو الأُمراء، صبحة رشيد رُشدي، الملابس العربيَّة وتطوُّرها في العُصُور الإسلاميَّة، بغداد، 1981، ص71.

(4) دُوزي، المُعجم، ص131.

(5) وهي كلمة فارسيَّة مُعرَّبة، وهي لفاف القَدَم، وفي الفارسيَّة كورب، العُبيدي، الملابس، ص313، انظر الرُّسُوم المُوضَّحة لألبسة القَدَم، ص309.

(6) الأصفهاني، الأغاني، 6/ 85، العُبيدي، الملابس العربيَّة، ص313.

(7) ابن قُتيبة، عُيُون الأخبار، 12/ 299، أحمد رمضان، المُجتمع، ص274، والمرعزي هُو الزّغب تحت العنز، وقيل اللّبن، أحمد رمضان، المُجتمع، ص274.

(8) أحمد رمضان، المُجتمع، ص274.

(9) دُوزي، المُعجم، ص167.

(10) وهُو ما يُلبس في القَدَم بين البدو، وهي لا تزال تُطلق في القُطر السُّوري، أحمد البسيوني، عُيُون الرَّوضتَيْن، 2/ 139، حاشية رقم(2).

(11) أبو شامة، عُيُون الرَّوضتَيْن، 2/ 139.

فصل الشّتاء، ويشدُّون المهاميز المُسقطة بالفضَّة في القَدَم على الخف[1]، أمَّا القُضاة والعُلماء؛ فقد لبسوا الخفاف من الأديم بغير مهاميز[2].

4 ـ الحمَّامات[3]:

من الأُمُور المُهمَّة التي رافقت التَّطوُّر الاجتماعي والاقتصادي التي شهدته المُدُن، والذي يرتبط بالنّظافة والصِّحَّة العامَّة، هُو بناء الحمَّامات التي أصبحت تحتلُّ مركزاً مُهماً في تخطيط وبناء المُدُن، وبهذا فُسِّرت نشأة الحمَّامات قديماً[4].

ولا شكَّ أنَّ كثرة بناء الحمَّامات دليل على اهتمام النَّاس بالنّظافة، فضلاً عن أنَّه دليل على رفاهيَّة المُجتمع، وارتفاع مُستواه المعاشي[5]، وهُو أمر يستجيب من ناحية أُخرى إلى قاعدة مُهمَّة من قواعد الإسلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[6].

اشتهرت دمشق بوفرة مياهها؛ إذْ لعب نهر بردى وفُرُوعه دوراً في سقي قُراها ومزارعها[7]، وذلك من خلال إحاطته بالمدينة، ولهذا؛ نجد ياقوت الحموي يصفها بقوله: (ومن خصائص دمشق، التي لم أرَ في بلد آخر مثلها، كثرة الأنهار بها، وجريان الماء في قنواتها، فَقَلَّ أنْ تَمُرَّ بحائط إلاَّ والماء يخرج منه في أُنبُوب إلى حوضٍ يُشرَب منه، ويُستقي الوارد والصّادر، وما رأيتُ بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاهاً، إلاَّ والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان)[8]، وفي الوقت نفسه، كان هُناك تصريفاً لهذه المياه وُصفَتْ بأنَّها كانت

---

(1) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 41.

(2) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 42.

(3) R. W. Hamiltan Hammam, Encyclopeadia of Islam, 1927, III/139-H16

(4) ترجع فكرة بناء الحمَّامات إلى العراقيِّين القُدماء، وعلى الرَّغم من بساطة تصميمها بداية الأمر، طلعت الباور، الحمَّامات في المدينة العربيَّة الإسلاميَّة، دراسة في عمارة الحمَّامات وتطوُّرها، ندوة مركز إحياء التُّراث العلمي العربي، جامعة بغداد، 1990، ص83، وما بعدها.

(5) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 153، وما بعدها.

(6) سُورة الأنفال آية (11)، كما وردت أحاديث نبويَّة كثيرة في هذا المجال.

(7) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص183، صلاح الدِّين المُنجِّد، حمَّامات دمشق، مجلَّة المشرق، مُجلَّد (1) لسنة 1942، ص401.

(8) مُعجم البُلدان، 2/ 465.

حتَّى مدينة تحت الأرض على حدِّ تعبير شمس الدِّين الدِّمشقي التي وصفها : (وتحت الأرض مدينة أُخرى من تصريفات المياه والقنى والجداول ومسارب ومخازن وقنوات تحت الأرض كُلِّها)[1] ، زادت هذه الموارد دمشق ، جمالاً ونظارة ، فقد ذكر القَلْقَشَنْدي ذلك بقوله : (ودمشق أزين وأكثر رونقاً لتحكُّم المياه على مدينتها وتسليطه على جميع نواحيها)[2] ، ولاشكَّ أنَّ النِّظام الباطني لتصريف المياه في دمشق يُشير إلى الاهتمام بالصِّحَّة العامَّة من جهة ، ومقدار رُقيِّ الدِّمشقيِّين العلمي في هذا الجانب من جهة أُخرى ، وتوفير المياه في دمشق شجَّع أهلها على زيادة حماماتها ، بل أحدث نوعاً من التَّنافس بين أصحابها ، فقد حرص كُلُّ حمَّامي على إبراز محاسن حمَّامه في تقديم أحسن الخدمات لزبائنه[3] ، وقد وصف لنا البدري حمَّام الرَّبوة بقوله : (وبها حمَّام ليس على وجه الأرض نظير لكثرة مائه ونظافته ، وله شبابيك تُطلُّ على النَّهر)[4] .

أمَّا عن عدد الحمَّامات في المدينة ، فقد اختلفت المصادر في عددها ؛ إذْ أحصاها ابن عساكر في أيَّامه بسبعة وخمسين حمَّاماً داخل المدينة ، وسبعة عشر حمَّاماً خارج السُّور والرَّبض[5] ، وذكر ابن جُبير حمَّاماتها بحوالي مئة حمَّام مع أرباضها[6] ، في حين ذكر ابن شدَّاد حمَّاماتها بخمسة وثمانين حمَّاماً داخل المدينة وحدها[7] ، وبرغم هذا التَّفاوت في عدد الحمَّامات ، فقد أُشير إلى كثرتها وتجانسها ؛ من حيثُ العدد مع حمَّامات القاهرة في سنة 685هـ/ 1287م[8] ، وقد استدعى توفُّر الحمَّامات بهذا الكمِّ أنْ ازدهرت صناعة الصَّابون والعُطُور ، فضلاً عن جودة الخدمة في تلك الحمَّامات[9] .

---

(1) المُنجِّد ، حمَّامات دمشق ، ص401 .

(2) صُبح الأعشى ، 4/ 93 ، المُنجِّد ، حمَّامات دمشق ، ص401 .

(3) عاشور وآخرون ، دراسات في تاريخ الحضارة ، ص295 .

(4) نُزهة الأنام في محاسن الشَّام ، ص84 .

(5) تاريخ دمشق ، 2/ 154 .

(6) الرِّحلة ، ص261 ، انظر المُلحق الخاصّ بالحمَّامات ، رَقْم (13) ، ص276 .

(7) الأعلاق الخطيرة ، ص291 .

(8) المقريزي ، الخُطط ، 2/ 80 ، المُنجِّد ، حمَّامات دمشق ، ص403 .

(9) عاشور وآخرون ، دراسات في تاريخ الحضارة ، ص594 .

وقد زيّن أهل دمشق من هندستهم لحمّاماتهم من حيثُ موقعها بالنِّسبة للأنهار، وأعطوا ذلك أهميَّة خاصَّة؛ إذ عُمل للحمَّام فُتحة خاصَّة تنفتح إلى النّهر، كما وضعوا لمياه الحمَّامات أقنية خاصَّة مصنوعة من الرّصاص، تُنقل من خزَّان إلى آخر بالخزَّان البارد والدَّافئ والحارّ، كما اهتمُّوا بدفء القاعة وحرارة الماء[1]، أمَّا من جهة العمارة والبناء في الحمَّام؛ فقد حازت اهتماماً كبيراً عندهم، فبلَّطوا أرضه بالرّخام، وأقاموا البُحيرات التي تتشامخ بها نوافير المياه على أشكال بديعة، حتَّى أصبحت أماكن نُزهة يقضي النَّاس بها وقتاً هنيئاً؛ إذ أصبحت نوادٍ رياضيَّة، ومُجمَّعات يتبادل فيها المُواطنون الأحاديث[2].

أمَّا من حيثُ مُكوِّنات الحمَّامات العامَّة ومُشتملاتها، فقد كان يتكوَّن بصفة عامَّة من عدد من الغُرف، لكُلٍّ منها وظيفة خاصَّة، ففي البداية؛ غُرف لخلع الملابس والرّاحة، تُعرف بـ «المشلح»، وهي تتَّصل بالقسم الأوسط من الحمَّام بممرَّات مُتعرِّجة، يتفاوت طُولها، ثُمَّ غُرفة انتقاليَّة خالية من أيِّ وسيلة للتَّسخين، ولكنَّ جوَّها يعتمد بتدفئته على القسم السّاخن المُجاور، وتُستخدم هذه الغُرفة في الشّتاء لخلع الملابس، وهي تُعرف (بالوسطاني البرَّاني)، وأخيراً؛ غُرفة ساخنة أُخرى، وهي الغُرفة السّاخنة الرَّئيسة، أو حمَّام البُخار، وهي تُعرف بالجُوَّاني، مُزوَّدة بعدد من الفجوات تُعرف بالمقصورات؛ حيثُ تُوجد مصاطب من الحجر أو غيره يُستعمل لأوجه الرّعاية التي يقوم بها طاقم العاملين للمُستحمِّين، كما تُوجد التّدفئة المركزيَّة بأُسلُوب بسيط يتمثَّل في إمرار مدخنة الموقد تحت الأرضيات المُمتدَّة والمُقرَّر تسخينها، وهكذا تُخطَّط غُرف القسم الأوسط من الحمَّام[3].

امتازت الحمَّامات في هذه المُدَّة بأرضيَّتها المكسوَّة بالرّخام الجميل والأحواض الواسعة التي يجري فيها الماء السّاخن والبارد[4]، وازدادت بالزّخرفة والنُّقُوش، وفيها يقول أحدهم:

وحظ فيها كُلُّ شخص إذا لاحظته تحسبه ينطلقُ

---

(1) مُنير كيَّال، الحمَّامات الدِّمشقيَّة وتقاليدها، دمشق، 1964، ص203.

(2) مُنير كيَّال، الحمَّامات الدِّمشقيَّة وتقاليدها، ص150 ـ 151.

(3) سوار نومين، مادَّة حمَّام، دائرة المعارف الإسلاميَّة، 162/ 56.

(4) أسمت غُنيم، الدَّولة الأيُوبيَّة والأيُوبيُّون، الإسكندريَّة، 1985، ص140.

ومثـــل الأشـــجار فـــي لونـــها ولينـــــها لـــــو أنَّـــــها تُـــــورقُ
أطيارهـــا مـــن فـــوق أغصانـــها يودُّهـــــا تنطـــــق أو تزعـــــقُ
هـــذا السَّـــيف لـــه عبســـه وإنْ يقـــوس وبـــه يعلـــقُ[1]

وقال شاعر آخر في المُفاضلة ما بين حمَّامات مصر وحمَّامات الشَّام، فقال:

أحـــواض حمَّامـــات شـــآم اســـمعي لـــي كلمتَيْـــن
لا تذكـــري أحـــواض مصـــر فـــأنت دُون القلتَـــين[2]

ومن الأمثلة على فنِّ البناء الخاصِّ بحمَّامات دمشق حمَّام نُور الدِّين، والذي يُدخَل إليه من الباب الشَّرقي في شارع البزُوريَّة، وهُو الباب الذي يُؤدِّي إلى مجار يتَّجه شرقاً حتَّى يصل إلى درجات خمس تنتهي إلى البرَّاني، وهي أرض مُربَّعة يُحيط بها إيوان من الشّرق فوقه قوس، وإيوان صغير من الجنوب فوقه قوس أيضاً، وآخر من الشّمال مثله، أمَّا في الغرب؛ فهُناك قوس تحته مدخل الحمَّام، وعلى جانبَيْه كانت مصطبتان في الوسط[3].

تعدَّدت المنافع الاجتماعيَّة للحمَّامات؛ وبالأخصّ منها ما يتعلَّق بتقاليد الزّواج؛ حيثُ كان حمَّام النِّساء ميداناً مُؤهَّلاً لمُشاهدة العروس والتَّأكُّد من جمالها وصحَّتها[4]، كما يقصد المُحتفلون من الرِّجال والنِّساء حمَّاماتهم الخاصَّة، مُحتفلين بالعروس والعريس بمُناسبة زواجهم، قبل أنْ يقع الزَّواج[5]، وكذلك بعد الزَّواج بأسبوعَيْن بدعوة من أُمِّ العروس، ويُسمَّى حمَّام الغمرة، وهُناك ما يُعرف بحمَّام النّفاس والأربعين[6]، وكُلُّها مُناسبات تتَّصل

(1) حسن باشا، مدخل إلى الآثار الإسلاميَّة، ص211.
(2) الغزولي، مطالع البُدُور في منازل السُّرُور، ط1، 1299، 2/ 120.
(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 162ـ 163، المُنجِّد، حمَّامات دمشق، ص406، مُنير كيَّال، الحمَّامات الدِّمشقيَّة وتقاليدها، ص131.
(4) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 162ـ 163، المُنجِّد، حمَّامات دمشق، ص406، مُنير كيَّال، الحمَّامات الدِّمشقيَّة وتقاليدها، ص131.
(5) عاشور، المُجتمع الإسلامي، ص221، أحمد رمضان، المُجتمع، ص249.
(6) مُحَمَّد شيخاشيرو، العادات والتّقاليد، 6/ 291، أحمد رمضان، المُجتمع، ص252.

بقِيَم اجتماعيَّة مُتوارثة تُعبِّر عـن البهجـة والفرحـة والاحتفـال، ومـن هـذه الاحتفـالات التـي يشهدها الحمَّام، أنْ يقصده المريـض فيكـون إعلانـاً بشـفائه[1]؛ إذْ يُعلـن بـهذه المُناسـبة ويقبـل المُهنُّون عليـه، بـل إنَّ حمَّامـات النِّسـاء ـ فـي الغـالب ـ تُتَّخـذ مكانـاً للتَّعـارف بينـهنَّ، وتبـادل الأحاديث والأخبار، بل والتّباهي ـ أحياناً ـ بالجمال وامتلاك الحلي[2].

وُضعت لهذه الحمَّامات ضوابط وقواعد تضمن سلامة وراحة المُرتادين إليـها، وتُوجـد هذه القواعد والضّوابط في كُتُب الحسبة التـي كَتَبَهَا عُلمـاء العصـر، ومنـهم الشّـيرزي الـذي يُعتبر من المُعـاصرين لـهذه المُدَّة، فقـد نظـر بعـين الاعتبـار إلـى الوظيفـة الدِّينيَّـة والاجتماعيَّـة للحمَّامات، ومن تلك الضّوابط التي اشترطت على المُزيِّن في الحمَّام (أنْ يسـتعمل الأمـواس الجديدة المصنوعة من الفُولاذ في الحلاقة، وإزالة الشّعر من الجسد، وأنْ يكـون المُزيِّـن خفيفـاً ورشيقاً... ولا يأكل ما يُغيِّر نكهتـه، كـالبصل والثُّـوم والكُرَّاث فـي يـوم نوبتـه؛ لئـلا يتضـرَّر النَّاس برائحة فيه عند الحلاقة...)[3].

أمَّا العاملون في الحمَّام؛ فهُم ـ علـى العُمُـوم ـ صـاحب الحمَّـام (الحمَّـامي)، وهُـو مَـنْ يُدير شُؤُون الحمَّام، يُساعده مجموعة من العاملين، منـهم مَـنْ يتولَّـى غُرفـة ارتـداء الثّيـاب، يُعاونـه عـدد مـن المُسـاعدين، يُقيمـون فـي غُرفـة الاسـتراحة، ويُسـمَّى كُـلٌّ منـهم (حـارس المقصـورة)، فـي حـين يُسـمَّى مَـنْ يتولَّـى شُـؤُون الثّيـاب (حـارس البـدل)، يُعاونـه عـدد مـن المُضيفـين والخـدم الذيـن يغسـلون المـازر والمُدلِّكـين، يقدمـون عنـد الطّلـب، وعـامل يتولَّـى التّسخين (فرانقي)، ومعه مُساعد أو مُساعدان.

وتتولَّى إدارة الحمَّام تزويد الزُّبُون بالمئزر والمنشـفة والقبـاقيب، ليـأخذ طريقـه الزُّبُـون إلـى البيت البارد، ثُمَّ إلى البيت السّاخن، ثُمَّ إلى غُرفة التّدليك، إذا رغب في ذلك، بعدهـا يتوجَّـه الزُّبُون المُستحمُّ إلى اللّيوان، لإتمام عمليَّة التّطهير وضُرُوب العناية الخاصَّة بالصِّحَّة العامَّـة، ثُـمَّ يقصد غرفة الاستراحة الصّغيرة، ليتناول القهوة، أو بعضاً من المُنبِّهات الأُخرى[4].

---

(1) ويكون للحمَّام غذاء يُعرَف بغذاء الأربعين، وهُو يختلف ـ عادة ـ باختلاف المكانة الاجتماعيَّة للأُسرة ومكانتـها الماديَّة، مُنير كيَّال، الحمَّامات الدِّمشقيَّة وتقاليدها، ص203 ـ 211.

(2) عاشور، المُجتمع الإسلامي، ص222.

(3) الشّيرزي، نهاية الرُّتبة في طَلَب الحسبة، ص89.

(4) لويس، مادَّة حمَّام، دائرة المعارف الإسلاميَّة، 16/ 59 ـ 60.

وقد أشار ول ديورانت إلى تأثُّر أورُوبا بعمارة الحمَّامات العربيَّة وهندستها، برغم مُعارضة الكنيسة لذلك، بحُجج واهية تتَّصل بالسُّلُوك والأخلاق[1]، فليس من المعقول أنْ تحرص أورُوبا على السُّلُوك والأخلاق أكثر من بلاد المُسلمين، الذين ورثوا ذلك في موارد الشّريعة ومُؤلَّفات الفُقهاء، فضلاً عن قيَمهم الخُلُقيَّة قبل الإسلام.

5 ـ الخانات والفنادق[2]:

تُعَدُّ الخانات[3] من المُؤسَّسات الخاصَّة بالتُّجَّار الأجانب القادمين إلى دمشق لما تُوفِّره لهُم من الطّمأنينة والسّلامة والرّاحة، ولاسيَّما وأنَّ بعض الخانات كانت تحتوي على قاعات للاجتماعات مُجهَّزة بالطّعام[4] والماء والحمَّام، ومكانٍ لحفظ الأمانات من المبالغ والوثائق وغيرها.

وكانت بعض الخانات تُخصَّص بأهل مهنة مُعيَّنة أو تجارة مُعيَّنة، في حين كان بعضها يختصُّ بالتّجارة الخارجيَّة وقوافلها، ولاشكَّ أنَّ هذه التَّخصُّصيَّة في الخانات كانت تُقدِّم الخدمة المطلوبة للتُّجَّار الوافدين إلى دمشق، فتُسهم ـ بذلك ـ في نشاط الحركة التِّجاريَّة، بينما عُرف عن خانات أُخرى حالات من اللّهو[5] والعبث كخان الزّنجاري[6]، الذي هُدِّم وبُني مكانه مسجد، عُرف بمسجد التّوبة[7]، وهذا الأمر يُشير إلى اهتمام النَّاس بسُمعة الخان وأخلاقيَّته.

---

(1) لم تكن النّظافة في العُصُور الوُسطى من الإيمان، وكانت المسيحيَّة الأُولى قد ندَّدت بالحمَّامات، وقالت بأنَّها بُؤر الفساد والفُسق، وكان تحقيرها للجسم بوجه عامٍّ، ممَّا جعلها تُهمل العناية بقواعد الصِّحَّة، ول ديورانت، قصَّة الحضارة، 16/ 208.

(2) مُفردها خان، وهي الكلمة التي تُطلقها العرب والأتراك على محلٍّ تبيت فيه القوافل وأبناء السَّبيل، وهذه البنايات كثيرة، وهي ـ غالباً ـ على مساحة مُربَّعة فيها غُرف صغيرة وغير مُؤثَّثة، ينزل فيها المُسافرون دُون دفع أجر، وقد يُبنى بعضها بنفقة السَّلاطين، بينما يُطلق على المنازل التي يسكنها التُّجَّار خانبخان أو فاغان وخافات، بُطرس البُستاني، دائرة المعارف، بَيْرُوت، 1876، 7/ 334، الإعليمي، دائرة المعارف، ط1، بَيْرُوت، 1967، 17/ 141.

(3) عاشور، مُحاضرات في تاريخ الإسلام، ص381.

(4) الرّيحاوي، مدينة دمشق، ص149.

(5) الحموي، مُعجم البُلدان، 5/ 6.

(6) وهُو الخان الذي يقع بضاحية العقيبة، والذي اشتهر بالفُسق والفُجُور، فهُدِّم سنة 632هـ، وأُقيم مكانه جامع التّوبة، البُستاني، مادَّة خان، دائرة المعارف، 16/ 439.

(7) ابن إياس، بدائع الزُّهُور، 1/ 71.

وقد أُنشئت الخانات خارج سُور دمشق[1] على قارعة الطُّرُق التِّجاريَّة، لتكون مُهيَّأة لاستقبال القوافل، وتُغني المدينة عن المشاكل المُتَّصلة باستيعاب تلك القوافل وركبانها، أمَّا طرازها في البناء والعمارة[2] في المُدَّة الأيُّوبيَّة؛ فيتكوَّن من خُطَّة مُربَّعة أو قائمة الزّوايا، وله صحن أوسط ورُواق مُحيط مفتوح على هيئة البراميل، ويقطعه على محوره الرّئيس دهليز يتّجه إلى الدّاخل، وعلى كُلِّ جانب في الرّدهة غُرفة تسبق الزّاوية البارزة، وفي بعض الأحيان تُفتح على الجانب المُقابل لمحور الدّخل فرجة واسعة للإيوان، وتكاد تكون خُطَّة الخانات[3] واحدة، وينحصر الخلاف بينها في نسبة الأقسام المُختلفة[4]، ولهذا؛ نجد ابن جُبير يصف خانات دمشق بقوله: (كأنَّها القلاع امتناعاً وحصانة، وأبوابها حديد)[5]، كما أشار بارتولد إلى نوعَيْن من الخانات، أحدها خان النّجدة، في حين سُمِّي الآخر بالخان المدني[6]، والرّاجح أنَّ خان النّجدة كانت تستقرُّ فيه قُوَّات من الحراسة بُغية حمايتها، بسبب موقع الخانات على طريق التِّجارة، وبُعدها من مواقع المدينة، بينما اختصَّ الخان المدني بإنجاز المُعاملات التِّجاريَّة، وقد أشار أبو شامة في توضيح مهامِّ هذا الخان، فقال وهُو يروي جُهُود نُور الدِّين في بناء الخانات في الطّرف، فقال: فأمَّن النَّاس، وحفظ أموالهم، وباتوا فيه في الشّتاء آمنين من البرد[7].

أمَّا الفنادق[8]؛ فهي فيما يرى البعض كلمة ترجع إلى الأصل الإغريقي (**Pontokaeran**)، وهُو مكان تكدُّس البضائع، عند وُصُول القوافل التِّجاريَّة، وموقعه داخل

---

(1) البُستاني، مادَّة خان، دائرة المعارف، 16/ 439.

(2) وهُو ـ عُمُوماً ـ يتكوَّن من طابقَيْن، يتوسَّطها بركة ماء واسعة تُحيط بالأروقة، الرّيحاوي، مدينة دمشق، ص149.

(3) انظر المُلحق الخاصّ بالخانات رَقْم (5)، ص 258.

(4) وخان العروس، وخان قطيفة، وخان باخرة شمال دمشق هي مثال ما نقول. البُستاني، مادَّة خان، دائرة المعارف، 16/ 430.

(5) الرّحلة، ص228.

(6) بارتولد، مادَّة خان، دائرة المعارف، التَّرجمة العربيَّة.

N, Elisseef, Khon, Ency of Islam, II/1012-1017.

(7) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 10/ 22.

(8) الفُندق بلُغة أهل الشَّام (خان السَّبيل)، من هذه الخانات ينزلها النَّاس، ممَّا يكون في الطَّرف والمدائن، والجمع الفنادق... وهُو لقب مُحدث، مُحَمَّد مُرتضى الزَّبيدي، تاج العروس، بَيْرُوت، 1966، 7/ 51، كما أورد ابن عساكر أسماء عدد من الفنادق، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 62، 83، 155.

سُور المدينة[1]، وهذه الفنادق هي مكاتب للتُّجَّار، وتتكوَّن من غُرف مُختلفة، وصحن مكشوف ومخازن[2]، وتسود ـ أحياناً ـ لفظة[3] الدّار على الفُندق، إذا ما لحقت بنوع البضاعة التي تُباع في ذلك الفُندق، ويعود هذا المعنى إلى القرن السّابع الهجري/ الثّالث عشر الميلادي[4].

ويبدو أنَّها كانت مكاناً للبيع وتجمُّع البضائع في الغُرف المُخصَّصة لها لحين شرائها من قبَل الآخرين، لتُطرح في الأسواق، وكثرتها في دمشق تُشير إلى الازدهار الاقتصادي والنّشاط التِّجاريّ بصُورة خاصَّة.

والفُندق ـ بصُورة عامَّة ـ يتكوَّن من طابقَيْن، فالأرضي هُو مخزن للبضاعة، في حين يكون العُلوي مكاناً للسَّكَن، ومبيت التُّجَّار في غُرف خاصَّة بهم[5].

6 ـ الصِّحَّة العامَّة:

اهتمَّ الإنسان بالصِّحَّة اهتماماً بالغاً، فقد قيل: العقل السّليم في الجسم السّليم، فيما رُوي عن النّبي ﷺ أنَّه رأى صُهَيْباً الرُّومي[6] يأكل تمراً وهُو أرمد، فقال (أتأكل التّمر وأنت أرمد؟!)[7]، وهذه قاعدة صحيَّة نصح بها الرَّسول ﷺ الصّحابي الجليل صُهيباً الرُّومي.

وللعرب قبل الإسلام معارف صحيَّة مُختلفة، تُعالج حالات مرضيَّة اعتمدت ـ في الكثير من قواعدها وأساليبها ـ على الموروث في هذه المعارف، منها ما يتعلَّق بالحجامة التي يراها العرب تُساعد على تنشيط الدّورة الدّمويَّة، وتخفيف ضغط الدّم في العُيُون، وفي هذا الصّدد وَرَدَ عن الرَّسول ﷺ قوله: (إنَّ أمثل ما تداويتُم به الحجامة...)[8].

---

(1) فيكيا أليست، الحياة الاقتصاديَّة في دمشق، بحث منشور ضمن أعمال ندوة ابن عساكر، دمشق، ص305.
R. Letouraeu, Funduh, Ency of Islam, II/945.

(2) ماجد، تاريخ الحضارة الإسلاميَّة، ص99.

(3) انظر المُلحق الخاصّ تحت رَقْم(5)، ص258.

(4) N. Elisseeff, Khan, Ency, of Islam, II.

(5) شاكر مُصطفى، المُدُن في الإسلام، 2/ 500.

(6) هُو صُهيب بن سنان بن مالك بن بني نمر، صحابيٌّ جليل من أشراف العرب في الجاهليَّة، وهُو من أهل الموصل، سَبَاه الرُّوم، واشتراه رجل من بني كلب، وباعه إلى عبد الله بن جدعان، ثُمَّ أعتقه، أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 1، 151.

(7) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 1/ 34.

(8) البُخاري، صحيح البُخاري، 7/ 233.

واهتمَّ العرب بنظافة الأسنان باستخدامهم السِّواك من شجر الأراك[1]، لتطييب رائحة الفم، وإزالة بقايا الطّعام من الأسنان، وفيها يقول ذُو الرِّمَّة[2]:

وتجلـو بفـرع مـن أرك كأنَّـه	من العنبر الهندي والمسك يُصبح
ذُرى أقحوان واجه اللّيل وارتقى	إليه النّدى من رامة المتروح

وتوالى اهتمام العرب بالمعارف الطِّبِّيَّة عبر عُصُور الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة التَّالية من الموروث من هذه المعارف، ثُمَّ ما أُضيف إليها من معارف أُخرى اقتضتها الحاجة، والحالة الجديدة التي عاشها العرب والمُسلمون، حتَّى تبيَّن ذلك من خلال المُؤسَّسات الصِّحِّيَّة التي اصطُلح عليها اسم المُستشفيات[3]، وهذا يُشير إلى اهتمامهم بمظاهر الصِّحَّة العامَّة من خلال التّوعية والوقاية والعلاج، وممَّا تميَّزت فيه الدَّولة العربيَّة أنَّ هذه المُستشفيات أُوقفت عليها الأوقاف، سواء كانت أوقافاً من عامَّة النَّاس، ممَّن وُصف بأهل البرِّ والتّقوى، والقُدرة الماليَّة، أم أوقافاً تعود للدَّولة، وذلك من أجل تأمين حاجة المرضى من الدّواء والعلاج.

عُرفت بلاد الشَّام - ودمشق منها بصُورة خاصَّة - بماء المُستشفيات[4]، مُنذُ زمن يعود إلى خلافة الوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ/ 705 - 713)، وما اتَّصل بهذا من مُؤسَّسات صحِّيَّة أُعدَّت لخدمة المرضى الزَّمني، وذوي العلل المُختلفة[5]، غير أنَّ الظُّرُوف السِّياسيَّة التَّالية وما تبعها من مشاكل وحالات عدم استقرار قلَّلت من الاهتمام بهذا الجانب.

---

(1) وهُو شجر معروف بالسّواك، ابن منظور، لسان العرب، 12/ 268.

(2) وهُو عيلان بن عصبة بهنسي، ويُكنّى أبا الحارث بن بني مُصعب، تُوفِّي سنة 117هـ، ابن قُتيبة، الشِّعر والشُّعراء، تحقيق أحمد مُحَمَّد المرزبان، ط2، دار التُّراث، 1977، 1/ 531.

(3) وتُعرف بالبيمارستان، وهي لفظ فارسي يتكوَّن من: بيمار؛ وتعني المرضى، وستان؛ وتعني الموضع، ومعناه موضع المرضى، وأوَّل مَنْ أوجده أبقراط؛ حيثُ خُصِّص بُستاناً له موضعاً للمرضى، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص27. مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، 6/ 192، حكمت نجيب عبد الرّحمن، دراسات في تاريخ العُلُوم، ص72.

(4) انظر المُلحق الخاصّ بالمُستشفيات برَقْم(6)، ص259.

(5) أوَّل من اتَّخذ المُستشفيات في الشَّام الوليد بن عبد الملك، وأجرى لها الصّدقات على المجذومين والعميان والمساكين، واستخدم لهُم الخدم، وصرف الرّواتب على الأطبَّاء، ولم يصل إلينا أيُّ إشارة على مكان هذا المُستشفى أو المُستشفيات الأُخرى، المقريزي، الخُطط 2/ 405، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بَيْرُوت، 1981، ص203.

والرّاجح أنَّ الخلافة العبَّاسيَّة لم تهتمّ بهذا الجانب في بـلاد الشّام كجُزء مـن سياستها العامَّة، وتُشير الرّوايات إلى أنَّ عُمر بن الفضل الأفادي كان قد عمَّر المُستشفى الصّغير[1] فـي دمشق، والظّاهر أنَّه كان مُستشفىً خاصّاً، انتقلت ملكيَّته إلى أخيه البُرهان الأفادي، وموقعه تحت المئذنة الغربيَّة للجامع الأُموي من جهة الغرب، ولم يتيسَّر لنا معرفة تاريخه، ولا مقـدار خدماته الصِّحِّيَّة، أو تفاصيل أُخرى.

ولكنَّ أهمَّ المُؤسَّسات الصِّحِّيَّة التي تناولتها المصادر، كان هُـو المُستشـفى المنسوب إلى نُور الدِّين الذي عُرف باسمه[2]، ومهما يكن من أسباب نشأة هـذا المُستشـفى[3]، فـإنَّ العنايـة التي أولاها نُور الدِّين لهذا المُستشفى كانت تُشير إلى أهمِّيَّتها في خدمـة الصِّحَّة العامَّة، فقـد تولَّى الإشراف على بنائها كمـال الدِّيـن الشّهرزوري[4]، ممَّا أشـار إليها ابـن جُبير فـي زياتـه لدمشق، بقوله: (مفخر من مفاخر الإسلام له قومه بأيديـهم الأزمـة[5] المُحتويـة علـى أسماء المرضى، وعلى النّفقات التي يحتاجون إليها، من الأدويـة والأغذيـة وغـير ذلـك، والأطبَّـاء يمرُّون كُلَّ يوم يتفقَّدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدويـة والأغذيـة حسبما يليق بشأن كُلٍّ منهم...)[6].

ولتحقيق الهدف الاجتماعي من نشـأته، فقـد جعـل نُـور الدِّيـن العـلاج فـي المُستشـفى للفُقراء والأغنياء على السّواء[7]، وقد ذكر ابن الأثير ذلك بقوله: (فإنَّه عظيـم كثـير الخرج،

(1) لم نعرف عن هذا المُستشفى غير ما ذكرناه، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بَيْرُوت، 1939، ص55.

(2) أنشأ نُور الدِّين هذا المُستشفى وسط المدينة، وكان بنـاؤه جميلاً، تميَّزت أبوابه بالمُقرنصـات مـن الدّاخـل والخـارج، وجدرانه مُغلَّفة بالرُّخام المُجزع، وفيه شمسيَّات ذات زخارف هندسيَّة، ابـن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 298، أحمـد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص206، سنة 1939، أبو الفرج العش، آثارنا، ط1، 1960، ص45-50.

(3) بعد استشارة زنكي أصحابه في أخذ مال فداء أحد مُلُوك الإفرنج، أطلق سراحه، ولَمَّـا وصـل إلى وطنـه مـات ذلك الأسير، ولهذا؛ قرَّر نُور الدِّين بناء مُستشفى بذلك المال، ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 298، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص206، طبعة 1939، مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشّام، 6/ 162.

(4) وهُو كمال الدِّين الشّهرزوري، الذي أُسندت له أُمُور كثيرة، فقد كان من المُقرَّبين لدى نُور الدِّين، فقد أُسند لـه بناء الأسوار، فضلاً عن أعمال عُمرانيَّة أُخرى، مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشّام، 6/ 162.

(5) الواحد منها زمام، وهُو السّجلّ، ابن جُبير، الرّحلة، ص255.

(6) الرّحلة، ص255، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص208.

(7) ذكر ابن كثير أنَّ نُور الدِّين وقف هذا المُستشفى على الفُقـراء والأيتـام، وأمـر لـهُم بنفقـة وكسـوة، وربَّمـا جعـل العلاج والدّواء مجَّاناً في بعض الأحيان، البداية والنّهاية، 12/ 298، عاشور، المُجتمع الإسلامي، ص225.

بلغني أنَّه لم يجعله وقفاً على الفُقراء حسب، بـل علـى كافَّـة المُسـلمين مـن غنـيٍّ وفقـير)[1]، وليس هذا فقط، بل كان يُعالج فيها كُلُّ شخص بغضِّ النَّظر عن دينه أو لونه أو طبقته، ذَكَـراً كان أم أُنثى[2].

ولإدامة العمل ومُواصلته في هذه المُستشفى؛ عزَّزه نُور الدِّين بأوقاف تُؤمِّن لـه نفقـات الاستمرار والنُّهُوض بمهمَّته الصِّحيَّة والعلاجيَّة، فذكر ابن عساكر بقوله: (وفيما عُلم من وقفه طاحونة الشّقراء، وكانت على نهر بانياس الرّحا النُّوريَّة عند الرّباط الذي وقفه نُـور الدِّيـن)[3]، فيما أشار ابن جُبير، أنَّ دَخْل هذه الطّاحونة خمسـة عشـر دينـاراً فـي اليـوم الواحـد[4]، وهُـو مبلغ ليس بالكثير، فيما ترى لتأمين تكاليف الأُمُور الصِّحيَّة بهذه المُستشفى إذا ما اقتصر عليـها، ومن أجل تأمين حاجات المُستشفى الماليَّـة، كـانت تُؤخـذ بعـض الأُجُور العلاجيَّـة مـن الأغنيـاء والميسورين، وإنْ كان البعض منهم يُعالَج مجَّاناً، فيما أشار إلى ذلـك ابـن كثير بقولـه: (جعـل المُعالجة والدّواء للأغنياء مجَّاناً في بعض الأحيان)[5]، حتَّـى تتمكَّـن إدارة المُستشـفى مـن تـأمين الإنفاق على المرضى، أو سدِّ حاجات المُستشفى الأُخـرى، وكـان هـذا إلـى جـانب الأوقـاف المُخصَّصة لـها، وحتَّـى تُحقِّق هـذه المُستشـفى خدماتـها الصِّحيَّة بالوجـه الأمثـل، فقـد كـان الإشراف عليها من الوُجهة العلميَّة الطِّبيَّة، قد تولاَّه الطَّبيب أبو المجد بن الحَكَم، الـذي يُعتـبر من أفضل أطبَّاء دمشق علماً ورعاية، وصفه ابن أبي أُصيبعة بأنَّه كـان (يـدور علـى المرضـى، ويتفقَّد أحوالهم وتغيُّر أُمُورهم، وبين يدَيْـه المُشـرفون والقـوم لخدمـة المرضـى، فكـان جميـع ما يكتبه لكُلِّ مريض من المُداواة أو التّدبير لا يُؤخَّر عنه، ولا يتوانى عن ذلك)[6]، وممَّا يُنسب لهذا الطَّبيـب - فـي هـذا المعنـى - أنَّـه عندمـا ينتـهي مـن عملـه مـن تفقُّـد المرضـى يقصـد مكتبـة المُستشفى ليزداد معرفة، ومن حوله بقيَّة الأطبَّاء الذين يلحقون به لينتفعوا من خبراته.

---

(1) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص170.

(2) جرجيش فتح الله، تُراث الإسلام، مُلحق المُترجم، ص150.

(3) تاريخ مدينة دمشق، 2/ 298.

(4) الرّحلة، ص255.

(5) البداية والنّهاية، 12/ 298.

(6) عيُون الأنباء، ص628.

والرّاجح أنَّ هذه المُستشفى مثّلت دور المعهد أو الكُلِّيَّة لدراسة الطِّبّ[1]، يظهر ذلك من خلال دور الطَّبيب مع طُلاَّبه الذين يلتحقون بالحلقة الطِّبِّيَّة اليوميَّة لُمدَّة ثلاث ساعات، يستعرضون الدُّروس الطِّبِّيَّة النّظريَّة والعمليَّة، ويتولَّى الطَّبيب الأستاذ مُلاحظة إتقان الطَّلبة، ويُصحِّح أخطاءهم إنْ وُجدت[2]، وممَّا يُعزِّز مكانة هذه المُستشفى الأكاديميَّة ما يُجريه من امتحان خاصٍّ لأصحاب المهن الطِّبِّيَّة، والمُلتحقين بهم من الصّيدلي والكحال، لينالوا إجازة عمل قبل أنْ يُسمح لهُم بمُمارسة حرْفتهم[3].

وطغت مكانة المُستشفى النُّوري الطِّبِّيَّة والعلميَّة على الإفرنجيَّة، حتَّى استعانوا بخدمات أطبَّائه في مُعالجة مرضاهم[4].

ومن مُشتملات المُستشفى، تلك التي كانت تختصُّ برعاية المجانين الذين لهُم (ضرب خاصٌّ من العلاج)[5]، فضلاً عن تقييدهم بالسّلاسل حماية لهُم، ووقاية لأبناء مُجتمعهم احتياطاً وتحفُّظاً[6].

ولم تتوقَّف واجبات الدَّولة في الاهتمام في هذه المُستشفى من خلال الاهتمام بالمرضى والنُّزلاء وأُسلُوب العلاج، وتوفير الأدوية والعقاقير، واتِّخاذ المُستشفى معهداً ومكاناً لتدريس الطِّبِّ وعُلُومه، بل كانت رُوح المُراقبة والمُلاحظة لمُحتويات المُستشفى وهيكله الإداري من الأطبَّاء والمُوظَّفين تقع تحت رعاية المُحتسب الذي نُسبت إليه هذه الواجبات[7].

---

(1) وكان المُستشفى بمثابة معهد لدراسة الطِّبِّ، فهُو يحتوي على مكتبة زاخرة بأنواع الكُتُب، فيتلقَّى طالب العلم المُعالجة النّظريَّة والعمليَّة في آن واحد، فيليب حتِّي، تاريخ سُوريا، 2/ 282.

(2) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص210.

(3) ابن الأُخوة، معالم القُربي في أحكام الحسبة، نشر روبن لفي، كامبردج، 1938، فيليب حتِّي، تاريخ سُوريا، 2/ 282.

(4) لقد كان دور هذا المُستشفى واضحاً في طلب الإفرنج المُساعدة الطِّبِّيَّة من الأطبَّاء العرب؛ إذْ كانت مُعالجة أطبَّائهم من النّوع الذي ذكره ابن مُنقذ عن فارس بقوله: (فارس كبير القدر، مرض وأشرف على الموت، فجئنا إلى قسٍّ كبير، ومشى معنا ونحنُ نتحقَّق أنَّه إذا حطَّ يده عُوفي، فلمَّا رآه قال: أعطوني شمعاً، فأُحضر له قليل من الشّمع، فليَّنه، وعمله مثل عقد الإصبع، وعمل كُلُّ واحد في جانب أنفه، فمات الفارس، فقُلنا قد مات، قال: نعم، كان يتعذَّب، سَدَدْتُ أنفه حتَّى يموت ويستريح)، الاعتبار 137 - 138، نقولا زيادة، سُوريا في عهد الصّليبيِّين، ص200.

(5) الرّحلة، ص255.

(6) عاشور، المُجتمع الإسلامي، ص245.

(7) ابن الأخوة، معالم القُربى، ص159 - 170، فيليب حتِّي، تاريخ سُورية، 3/ 282.

وإلى جانب المُستشفى النُّوري، عرفت دمشق المُستشفى القيمري، في الصَّالحيَّة، والذي نُسب تأسيسه إلى ابن الحسن بن أبي الفوارس القيمري[1]، وذلك سنة 646 ـ 657هـ/ 1238 ـ 1249م، وقد أنفق عليه أموالاً طائلة، وأوقف له الأوقاف الكثيرة من قُرى وبساتين ومطاحن[2]، لتأمين التزاماته الماليَّة، وكان يحتوي على أربعة قاعات مُخصَّصة لاستقبال المرضى على اختلاف أمراضهم[3]، فضلاً عن المرافق الأُخرى التي تحتاجها المُستشفى من المآكل والملبس، وكانت فيه عيادة خارجيَّة تُفتح للجُمهور يومي الاثنَيْن والخميس من كُلِّ أُسبُوع، لتزويد المرضى بالأدوية مجَّاناً، وكان ملاك هذه المُستشفى من طبيب وكحَّال وصيدلي ومُمرِّضات...إلخ، إلى جانب النّاظر الذي يُشرف على الأوقاف والمُدير، الذي يُشرف على الهيكل الإداري، وفيما يلي جدول برواتب مُنتسبي المُستشفى وحصصهم من المُشاهرات الغذائيَّة:

المُوظَّف	الرّاتب الشّهري بالدّرهم	حصَّة القمح بالمكيال الواحد
الأطبَّاء (3)	300	من نصف إلى الواحد
ناظر	40	نصف
كحَّال	45	نصف
خدم (3)	13	سُدس
مُساعدات	10	سُدس
صيدلي	26	ثُلث
ناظر الوقف	60	واحد (وواحد من الشّعير)
إمام	40	ثُلث
بناء	13	سُدس
نقَّالون	8	سُدس[4]

(1) وهُو من أكابر أُمراء القيامرة، كانوا يقفون بين يدَيْه، كما تُعامَل المُلُوك، ومن أكبر حسناته وقفه المُستشفى التي تقع سفح جبل قاسيون، وكانت وفاته ودفنه بالسّفح، وكان ذا مال وجاه، ابن طُولون، القلائد الجوهريَّة، 1/ 243، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص35. Necda, A. Ziaadeh, Urben Left in Syria, P.60.

(2) أحمد رمضان، المُجتمع، ص160.

(3) ابن طُولون، القلائد الجوهريَّة، 1/ 243.

(4) Nicola A. Ziaadeh, Urban life in Syria, P. 160.

وإلى جانب المُستشفى القيمري هُناك مُستشفى الجبل، والتي تقع على مسافة نصف فرسخ عن المدينة، ولا نعرف عن هذه المُستشفى إلاَّ ما قيل من أنَّها احترقت مع ما حُرق سنة 669هـ/ 1270م، عند دُخُول التّتار إلى دمشق[1].

ونتيجة لاهتمام المُسلمين بالطِّبِّ والصِّحَّة العامَّة؛ فقد نال العاملون فيه مكانة وَجَاهاً في المُجتمع من جهة، والأُمراء من جهة أُخرى، فضلاً على رواتبهم الماليَّة قياساً مع المُوظَّفين والعاملين.

ويرى بعض الدّارسين أنَّ الاهتمام بالطِّبِّ والمعرفة الطِّبِّيَّة، لم يكن مقصوراً على الأطبَّاء أو تلاميذهم، بل كان النَّاس يحضرون المُناظرات الطِّبِّيَّة، التي يُقيمها الأطبَّاء أو تلاميذهم، وكان الحاضرون من الوُزراء وغيرهم يحضرون هذه المُناقشات طَلَباً للمنفعة[2].
وممَّا عزَّز موقف الطِّبِّ وتطوُّره في دمشق، هجرة الكثير من أطبَّاء بغداد إليها، نتيجة الغزو المغولي[3]، في الوقت نفسه الذي كثرت المُستشفيات في المنطقة، ولاسيَّما في عهد الأيُّوبيِّين والمماليك، بسبب الحاجة التي أوجدها استمرار الحُرُوب الصَّليبيَّة، وأثر ذلك في الحاجة للأطبَّاء والعاملين في هذا المجال.

وقد انتفعت دمشق كثيراً من هجرة الأطبَّاء من بعد الغزو المغولي، الأمر الذي زاد من بناء المُستشفيات في دمشق إلى جانب الحاجة في الإكثار منها، استجابة للظُّرُوف المُحيطة ببلاد الشَّام عُمُوماً، ودمشق منها بصُورة خاصَّة، في ظلِّ الأيُّوبيِّين والمماليك من خلال استمرار العُدوان الصّليبي على المنطقة العربيَّة، وما تقتضيه الحال من المُعالجة والرّعاية الصِّحِّيَّة، من جانب آخر، كان الميسورون من النَّاس - والذين توجَّهوا بطلب البرِّ والتّقوى - اتَّخذوا من توزيع الأدوية على المرضى والفُقراء والمُحتاجين سبيلاً في طلب الثّواب منه، ومن هؤلاء الذين ذكرهم ابن كثير ستّ الشَّام بنت أيُّوب[4]، التي كانت (تعمل في كُلِّ سنة بألُوف من الذّهب

(1) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص266.
(2) سامي خلف حمارنة، الطِّبُّ العربيُّ في فلسطين زمن الفاطميِّين والأيُّوبيِّين، بحث مُقدَّم ضمن مُؤتمر تاريخ بلاد الشّام، 2/ 28.
(3) كمال السّامرَّائي، الطِّبُّ والأطبَّاء في القرن السّابع الهجري، مجلَّة المورد، م24، العدد الأوَّل، بغداد، 1996، ص1.
(4) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 92، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 246.

أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك، وتُفرِّقه على النَّاس)[1]، وهـذه الحالـة تُشير إلى صُورة من التّكافل الاجتماعي، الذي كان يُميِّز المُجتمع الإسلامي من غيره آنذاك[2].

7 ـ الأسواق:

امتازت دمشق بموقعها التِّجاريّ الذي يربط بين الشّرق والغرب، ممَّا جعلها موطناً لكثير من التُّجَّار من أهل المنطقة أو من البلاد البعيدة، وقد حافظت دمشق على هذه الأهمِّيَّة، وربَّما تضاعفت هذه الأهمِّيَّة التِّجاريَّة في المُدَّة الصَّليبيَّة، بعد أنْ اتَّخذها التُّجَّار الإيطاليُّون موطناً لتجارتهم ونشاطاتهم الاقتصاديَّة، ومنهم تُجَّار البُندقيَّة والبيرة وجنوى، وكذلك تُجَّار المُدُن الفرنسيَّة الجنوبيَّة، فقد أفادت دمشق فائدة كبيرة من هذا الحَدَث التِّجاريّ الجديد، وعُدَّت حاصلات دمشق الزّراعيَّة[3] ومنتوجاتها الصّناعيَّة[4] مثار إعجاب للزَّائرين، فهذا سيمون سيمكولي الإيطالي ـ حينما زار دمشق ـ أعجبه ما رآه معروضاً في أسواقها من مُختلف السّلع والبضائع، حتَّى رُوي أنَّه قال: (لو كنتَ خبَّأتَ دراهمكَ في عظم ساقكَ، لما توقَّفتَ عن كَسْره؛ لتشتري بها)[5]، وهذا ممَّا يُشير إلى خُصُوصيَّة بضائع دمشق وسلعها التِّجاريَّة المعروضة.

اتَّسعت الأسواق التِّجاريَّة في المدينة، حتَّى تجاوزت خلالها الشّارع القديم، مُتَّجهة إلى الجامع الكبير؛ إذْ يزدحم السُّكَّان[6]، وقد أكَّد ابن جُبير هذا الاتِّساع بقوله: (وأسواق هذه المدينة من أحفل أسواق البلاد، وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وضعاً، ولاسيَّما قيساريَّاتها، وهي مُرتفعة كأنَّها الفنادق، مُثقَّفة كُلُّها بأبواب حديديَّة، كأنَّها أبواب القُصُور،

(1) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 92، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 246.

(2) سيِّد قُطب، العدالة الاجتماعيَّة في الإسلام، القاهرة، 1974، ص76.

(3) شملت حاصلات دمشق المُشمش والبطِّيخ... إلخ، وكذلك البُقُول الذي يُنقل إلى بلاد المغرب، صفوح خيِّر، مدينة دمشق، ص165.

(4) كالأقمشة القُطنيَّة والحرير، ومنها النُّحاس المُنزَّل بالفضَّة وآنية الزُّجاج الدِّمشقيَّة الفائقة الزّخارف بالمينا، وتلك لوائح أثاث مُلُوك فرنسا، سُوفاجيه، دمشق الشَّام، ص30، صفوح خيِّر، مدينة دمشق، ص165.

(5) صفوح، مدينة دمشق، ص165.

(6) سُوفاجيه، دمشق الشَّام، ص40، صفوح خيِّر، مدينة دمشق، ص163.

كُلُّ قيساريَّة مُنفردة بضبَّتها[1]، وأغلاقها الجديدة)[2]، وقد ماثلت أسواق دمشق شبيهاتها في المُدُن الإسلاميَّة؛ من حيثُ التَّخصُّص في سلعها، فإنَّكَ ترى بكُلِّ سلعة وبضاعة سوقاً خاصّاً لها، كما هُو الحال في أسواق بغداد، فهُناك سُوق باعة الفاكهة، والصّاغة، والحدَّادين، والنّحّاسين، وغيرها، وقد استحوذت خُصُوصيَّة الأسواق على أصحاب المهن ذات العلاقة، فهذا سُوق الخيل الذي يقع تحت القلعة خارج سُور دمشق، كان أهمَّ مراكز استقطاب الفئات ذات الصِّلة بحياة الخُيُول وأهمِّيَّتها، كالعسكريِّين من الجُند ومَنْ يلتحق بهم، بمهن الخُيُول والفُروسيَّة كتُجَّار الأقمشة، والخيَّاطين، وصُنَّاع الأسلحة، وأصحاب المطاعم، وباعة السّلع القديمة، وممَّن يعملون في سبيل الخيل، كَبَاعة الشّعير والتّبن، وصُنَّاع المذاري والقرابيل والسُّرُوج، ممَّا تسبَّب في تخلِّي هؤلاء - أصحاب المهن - عن حوانيتهم وأماكنهم السَّابقة في الأسواق، وقصدوا سُوق الخيل مُتجمِّعين حول الميدان، أو الطُّرُق المُوصلة إليه، وهذه الحالة دفعت بالآخرين من باعة الخضر والفواكه ليقصدوا ذلك المكان؛ كونه منطقة جذب جديدة تشكَّلت منهم سُوقاً خاصّاً كانت تُقام كُلَّ جمعة[3].

أشار المُؤرِّخون إلى قائمة طويلة[4] لأسماء هذه الأسواق في هذه المُدَّة، والتي يظهر فيها التَّخصُّص في غاية الدِّقَّة؛ إذْ يُوجد سُوق للإسكافي العتيق، وآخر للحذَّائين[5]، كما يُحرَّم على بائع الأحذية أنْ يُصلح حذاءً قديماً[6]، كما انفرد سُوق العُطُور عن سُوق الرّياحين، وهذا الأمر أشار إلى تخصُّصه بنوع من الورد والزُّهُور عند الدِّمشقيِّين، حتَّى غدت كثرتها عندهم من وسائلهم المُهمَّة في الزّينة والعُطُور، وهُو أمر يُشير إلى أناقتهم في الملبس واعتنائهم بالمظهر والهندام[7]، وربَّما هذا من دواعي التَّخصُّص وعدم مُشاركة الآخرين في مهنهم الأُخرى، وأثَّر ذلك في توزيع الأسواق؛ إذْ استُبعدت الأسواق التي تضرُّ

(1) وهي حديدة عريضة يُقفَل بها الباب، حُسين نصَّار، رحلة ابن جُبير، ص278، طبعة 1955.

(2) الرّحلة، ص261، طبعة 1955، ص278.

(3) سُوفاجيه، دمشق الشَّام، ص40، صفوح خيِّر، مدينة دمشق، ص175.

(4) انظر مُلحق رَقْم(12)، ص272.

(5) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 227 - 230.

(6) عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام، ص382.

(7) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 228.

في الصِّحَّة العامَّة، أو يُتوخَّى من أصحابها الضّرر، كتلك الأسواق التي تنبعث منها روائح كريهة، والفضائل الضَّارَّة، حفاظاً على نقاء البيئة وعدم تلوُّثها، وإنْ خلق هذا الأمر للمُرتادين لتلك الأسواق مُعاناة، فكان عليه أنْ يقطع المسافات لتأمين حاجاته من تلك الأسواق، من جانب آخر؛ يطغى ـ أحياناً ـ اسم المنطقة على اسم السّلع التي تُباع في السُّوق المُخصَّص، وهذا فيما نرى من باب الشُّهرة، كسُوق الفاكهة في الصَّالحيَّة، كان يُدعى بالسُّوق الفُوقاني، وأحياناً؛ يغلب اسم المنطقة على اسم صاحب السُّوق المنسوب إليه، كما هُو حال سُوق زكريَّا، غلب عليه سُوق المارستان، والرّاجح قصد مُستشفى نُور الدِّين[1]، مع احتفاظ قسم من الأسواق بأسمائها الخاصَّة، ويظهر أنَّ الأسماء جاءت إمَّا باسم مُعيَّن يُطلق على المنطقة سابقاً، أو منسوباً إلى اسم السّلعة التي تُباع في ذلك السُّوق، ومنها سُوق الصّفَّارين، سُوق الفاكهة، سُوق السرَّاجين[2]...إلخ.

أمَّا بناء الأسواق؛ فالغالب أنَّها كانت مُنشأة مبنيَّة من الحجارة والخشب، وهُو أمرٌ لا يجعلها حصينة من الحرائق والكوارث الأُخرى، فقد أشارت الرّوايات إلى احتراق بعض الأسواق في سنة 681هـ/ 1282م، عندما تعرَّضت المدينة إلى حريق كبير وُصف بأنَّه: (حريق عظيم أحرق سُوق اللّبَّادين والكتبيِّين والزّجَّاجين... والمرجانِّين، وجميع ما فوق ذلك وتحته، وهلكتْ أموال لا تُحصى)[3]، وبالرّغم من ذلك؛ كانت هذه الأسواق تُغطِّيها سُقُوف تحميها من قيظ الصّيف وأمطار الشّتاء[4]، كما وتحتوي هذه الأسواق على مكان لأداء الصّلاة، ولعلَّه مسجد صغير يُغني أهل السُّوق عن ترك سُوقهم لأداء صلاتهم في أماكن بعيدة، فقد وصف لنا ابن جُبير ما كان في باب الجابية نحو قوله: (وفيه بيت صغير جداً... اتَّخذوه مُصلَّى، وفي قُبلته حصرة يُقال إنَّ إبراهيم ـ ﷺ ـ كان يكسر عليها الآلهة التي كان يسوقها إلى البيع)[5]، وإلى جانب المسجد كانت تحتوي الأسواق بعض المظاهر العُمرانيَّة،

---

(1) ابن كنان، المُرُوج السُّنْدُسيَّة، ص32، ابن طُولون، القلائد الجوهريَّة، 1/ 283، 151.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 227/ 230.

(3) البطريق أسطفانوس الديويه، تاريخ الأزمنة، مجلَّة المشرق، م44 لسنة 1951، ص145.

(4) خالد مُعاذ، دمشق، ص143.

(5) الرّحلة، ص262.

كالخان والحمَّام والسّبيل، ولا يغرب على الذّهن ما لهذه المظاهر من أهميَّة في الحياة العامَّة، وثمَّة مسألة أُخرى تُثير الانتباه، وهي احتواء بعض الأسواق على المدرسة، كما هُو حال سُوق الخيَّاطين في دمشق[1].

وعلى ما نرى؛ لم تكن المدرسة من مُستلزمات نُشُوء السُّوق، وربَّما كانت مدرسة سُوق الخيَّاطين قد أحاطتها ظُرُوف خاصَّة بتلك السُّوق، لأنَّنا لم نعثر على ما يُناظر ذلك في سُوق أُخرى؛ وحيثُ إنَّ الأسواق تعجُّ بالمُتسوِّقين وبضائعهم، فلاشكَّ في أنَّ وُجُود الحمَّالين يُعَدُّ من المُستلزمات المُهمَّة[2]، في نُشُوء الأسواق وظُرُوفها التِّجاريَّة، وهُو ما أشارت إليه الرّوايات في أسواق دمشق[3].

8 ـ وسائل الرُّكُوب التي يستخدمها المُجتمع:

استخدم العرب الحيوانات المعروفة للتَّنقُّل والتّجارة، وكذلك استخدموها في الحُرُوب؛ بحيث ألف العرب حيواناتهم مُنذُ عهد بعيد، فكان البعير لنقل البضائع، ولاسيَّما عبر الصّحراء، وذلك لقابليَّته على التَّحمُّل والصّبر، بينما اختُصَّت الخُيُول في القتال لسُرعتها وخفَّة مُراوغتها، ولهذا؛ نجد العرب يهتمُّون بها وبأنسابها، فقد أكَّد الرَّسول ـ ﷺ ـ على ذلك بقوله: (عليكم بأناتي الخُيُول، فإنَّ بُطُونها كنز، وظُهُورها حرز)[4]، كما ألَّف بعض المُؤرِّخين كُتُباً خاصَّة بأنساب الخيل، كابن الكلبي وغيره، واستخدموا الحمير للرُّكُوب والتَّنقُّل، وكذلك البغال؛ فقد استُخدمت لنفس الأغراض[5]، وقد وُصفت هذه الحيوانات التي استخدمها العرب في شُؤُونهم بالقول: (الإبل للبُعْد، والبغال للتَّنقُّل، والبراذين والجمال والحمير للحوائج، والخيل للكرِّ والفرِّ)[6].

---

(1) الرّيحاني، مدينة دمشق، ص149.

(2) حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلاميَّة، ص199.

(3) انظر المُلحق الخاصّ بالأسواق رَقْم (12، ص272).

(4) ابن قُتيبة، عُيُون الأخبار، 1/ 153.

(5) رُوي عن الإمام علي (رض) أنَّه كان يركب بغلاً قبل نُشُوب المعركة، ويركب فرساً بعد نُشُوبها، ابن قُتيبة، عُيُون الأخبار، 1/ 242، ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 5/ 22.

(6) أبو حيَّان التّوحيدي، الإمتاع والمُؤانسة، 3/ 60.

ورث الخُلفاء والأُمراء المُسلمون في الولايات الإسلاميَّة في عُهُودها المُختلفة هذا الاهتمام، ومنهم الزّنكيُّون فيما نُسب إلى السُّلطان نُور الدِّين أنَّه جعل من الميدان الأخضر في دمشق مكاناً لترويض الخيل، وكذلك ميدان الحصى[1]، كما استخدم الكُرة في بعض الأحيان مع التّدريب، وذلك للزِّيادة في المُراوغة والسُّرعة، ولَمَّا لامَهُ أصحابه على كثرة استخدام الخيل أجابه: (إنَّما نحنُ في ثغر، والعدوُّ قريب منَّا، وبينما نحنُ جُلُوس؛ إذْ يقع الصّوت، فنركب في الطّلب... ومتى تركناها في مرابطها صارت جماماً، لا قُدرة لها على إدمان السَّير في الطّلب، ولا معرفة لها ـ أيضاً ـ بسُرعة الانعطاف في الكرِّ والفرِّ في المعركة، فنحنُ نركبها ونُروِّضها بهذا اللّعب، فيذهب جمامها، وتعود سُرعة الانعطاف والطّاعة لراكبها في الحرب)[2].

ومن باب الاهتمام بتربية الخُيُول والعناية بها، استعمل أرباب السُّيُوف الخُيُول النّفيسة الأثمان، ولاسيَّما الأُمراء ومَنْ يلحق بهم، وتركوا البغال لغلمانهم، وهي مكسوَّة بالقماش النّفيس، والهيئة الحسنة، والقوالب المُحلاَّة بالفضَّة، وربَّما أُضيف لها الذَّهب، ولاسيَّما للسُّلطان وأعوان السُّلطان، فضلاً عن الزّراكيش، وتُحلَّى لُجمهم بالفضَّة، بحسب اختيار صاحبها، ويُجعل الدّبُّوس في حلقة متَّصلة بالسّرج، تحت رُكبته اليُمنى[3].

كما استعمل أرباب الأقلام من القُضاة (البغال النّفيسة المُساوية في الأثمان لمسومات الخُيُول، بلجم ثقال وسُرُوج مدهونة غير مُحلاَّة بشيء من الفضَّة، ويجعلون حول السّرج ترقشيناً من الجُوخ)[4]، وهي (شبيهة بثوب السّرج مُختصر منه... وهُو من الجُوخ شبيه بالعباءة المُجوَّفة الصَّدر... ولا يعلوه ذنب ولا قوس...)[5]، أمَّا مشايخ الصُّوفيَّة؛ فقد ركبوا الكنابيش[6]... ومن المُلاحظ في النُّصُوص السَّابقة أنَّ أزياء الخُيُول والبغال وملابسها، كانت

---

(1) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 579، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 260 ـ 261.

(2) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، 164 ـ 165، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 265 ـ 267.

(3) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 42.

(4) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 42.

(5) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص112 ـ 113، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 42.

(6) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 43.

تختلف باختلاف الطّبقة التي تستخدمها، وهذا ـ فيما نعتقد ـ جُزء من حالات التّمايز بين هذه الطّبقات وخُصُوصيّتها.

ويسبب اهتمام السَّلاطين بتربية الخُيُول وأنواعها؛ اندفعت القبائل العربيَّـة، ومنـهم آل مهنا وآل فضـل، فـي الاهتمـام بـهذا الجـانب، فـامتلكوا مـن الجيـاد أحسـنها فـي منطقـة بـلاد الشّام[1]، واستثمروا رغبة السَّلاطين فيها، للحُصُول على عدد من الإقطاعـات فـي المنطقـة، وتُشير الرّوايات إلى أنَّ السُّلطان النّاصر مُحمَّد[2]، بسبب اهتمامـه بـالخُيُول، فقـد اسـتحدث ديواناً سمَّاه ديوان الإسـطبل[3]، كـانت مهمَّتـه تقديـم المبـالغ الفائقـة للحُصُول على الخُيُـول الجديدة من تلك القبائل، بينما منحهم الإقطاعات الواسعة مُقابل ذلك، ومنـها أراضٍ كـانت مُقطعة لأُمراء حلب ودمشق وحماة، وقـد سـاعدت هـذه القبـائل، مـن آل مـهنا وآل فضـل، على تكوين وامتلاك قُوَّة وسطوة تسبَّبت في طاعة القبائل العربيَّة والبدويَّة لهُم[4].

9 ـ مُستوى المعيشة والأسعار:

لقد كانت حياة النَّاس قبل الإسلام في البادية، تتمثَّل فيها البساطة، حتَّى تبدو مُتقاربة فـي مظاهرهـا، أمَّـا مُجتمـع المدينـة؛ فكـان نظـام الطّبقـات فيـه أكثر وُضُوحـاً بـين الأغنيـاء والفُقراء، كما هُو الحال في مكَّة.

وفي صدر الإسلام، وانطلاقاً من مبادئ الإسلام، وتأكيده على العدالة الاجتماعيَّـة، عملت الزّكاة والصّدقات الواجبة والطّوعيَّة على التّخفيف من الفُرُوق الاجتماعيَّة والطّبقيَّة، وإنْ لم تنجح في القضاء عليها، فيما وَرث بعض من المُسلمين ثراءهم من عوائلهم[5]، ومـن خلال مُمارستهم التّجارة، وكسب المال، الذي حدَّد الإسلام أساليبه المشروعة[6]، وزاد مـن

---

(1) طرخان، النُّظُم الإقطاعيَّة، ص76، أحمد رمضان، المُجتمع، ص185.

(2) وهُو الملك النّاصر مُحَمَّد بن قلاوون، من أُمراء دمشق، ابن كثير، البداية والنّهاية 14/ 53، ومـا بعدهـا، ابن إياس، بدائع الزُّهُور، 1/ 154.

(3) طرخان، النُّظُم الإقطاعيَّة، ص76.

(4) المقريزي، السُّلُوك، 2/ 526 ـ 529، أحمد رمضان، المُجتمع، ص185.

(5) ومنهم الخليفة عُثمان (رض)، وعبد الرّحمن بن عوف وغيرهما، أبونعيم الأصفهاني، حلية الأولياء 1/ 198.

(6) سيِّد قُطب، العدالة الاجتماعيَّة، ص70.

هذه الفوارق الاجتماعيَّة التّفاوت في العطاء والغنائم، خلال حركة الفُتُوح والتّحرير التَّالية، التي حقَّقت موارد ماليَّة كبيرة للدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة، ممَّا جعل بعض الخُلفاء الرّاشدين ينهج أُسلُوب العطاء المُتساوي، أملاً في التّخفيف من هذه الفوارق، غير أنَّ الفُرصة لم تكن كافية لتحقيق ذلك، وحينما أصبحت دمشق مركز الدَّولة بعدئذ، لم يُفكّر خُلفاء بني أُميَّة بالنّهج العربي الذي نهجه الخُلفاء الرّاشدون من هذا الاتّجاه، بسبب تبدُّل الظُّرُوف العامَّة ومُواجهة الدَّولة لحالات جديدة، لم تكن معهودة في المُدَّة الرّاشديَّة، فشُغلت بحركة الفُتُوح والتّحرير، ومُستلزمات الامتداد والتَّوسُّع السِّياسي، ومُقتضيات الدِّفاع عن الدَّولة إزاء الأعداء، ممَّا دفع بالخلافة الأُمويَّة أنْ تنتهج أُسلُوب منح الإقطاعات والامتيازات للقيادات العسكريَّة والوُلاة ورجال الدَّولة وعلية القوم، الذين كان لهُم باع فيما حقَّقته الدَّولة من انتصارات عسكريَّة ومجد سياسي، فضلاً عن ذلك الانتقال إلى دمشق، بصفتها عاصمة الدَّولة، أمر يقتضي الاهتمام بها، وعاش أهلها حياة الرّغد والرّاحة والمجد السِّياسي والعسكري، ممَّا جعلهم يميلون إلى أنَّ الاحتفاظ بهذه الخصائص، في المُدَّة السَّابقة، يُعَدُّ أمراً صعباً، وقد عُبِّر عن ذلك بحركات التَّمرُّد على السُّلطة العبَّاسيَّة، أو باتِّخاذها موطناً لبعض الحركات المُعارضة، انتهت - بعدئذ - بظُهُور بعض الإمارات والنُّظُم السِّياسيَّة، منها تلك التي مارست استقلالاً ذاتياً أو كاملاً بصُورة مُتوالية، وكانت - عَبْر عُهُودها السِّياسيَّة هذه - تُحقِّق ذاتيَّتها العامَّة، وخصائص حياتها الاجتماعيَّة، التي تميَّزت بنظام إقطاع الأراضي، التي عُرفت في عُصُورها المُختلفة، والتي ازدادت بُرُوزاً في الفترة السّلجوقيَّة والزّنكيَّة، وكانت ظاهرة الإقطاع هذه أبرز أسباب الفوارق الطّبقيَّة؛ إذْ تمتَّع بها نفر قليل، ممَّن تتَّصل مصالحهم بالسُّلطة، فهذا نُور الدِّين أقطع مُجير الدَّولة[1] أراضٍ في حمص، عوضاً عن دمشق التي دخلها سنة **541هـ/ 1146م**، كما منح نُور الدِّين أيضاً نجم الدِّين أيُّوب[2] أقطاع وحُكم بعلبك[3]، وسار الأيُّوبيُّون على المنوال نفسه، فقد أقطع العزيز دمشق - بعد الاستيلاء عليها -

---

(1) لم يرض مُجير الدَّولة بهذا الإقطاع، وأرسل أهل دمشق على الفتنة، ولهذا؛ نجد نُور الدِّين يُبعده إلى بالس بدلاً عن حمص، ومع ذلك لم يقنع كونه كان صاحب السُّلطة في دمشق، ولهذا؛ نجده يتركها؛ ويتوجَّه إلى بغداد في الفترة السّلجوقيَّة ليستقرَّ بها، أبو شامة، الرَّوضتَيْن، **1/ 236 - 237**.

(2) نجم الدِّين أيُّوب بن شادي والد صلاح وأخ أسد الدِّين شيركوه، أبو شامة الرَّوضتَيْن، **1/ 209**، الحنبلي، شذرات الذّهب، **4/ 226 - 227**.

(3) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، **1/ 29**.

لعمِّه العادل، وذلك سنة 592هـ/ 1196م، وعوَّض الملك الكامل للنَّاصر أراضي الكرك والبلقاء والصّلت والأغوث والشّويك، وذلك للاستيلاء على دمشق سنة 626هـ/ 1228م[1]، واستمرَّ نفس الحال في عهد المماليك[2].

ممَّا تقدَّم؛ نَخْلصُ إلى القول: إنَّ نظام الإقطاع - سواء أ كان للمَدَنِيِّين من رجال الدَّولة أم العسكريِّين، والتي مُنحت لهُم من باب المُكافأة أو للتَّعويض عن رواتبهم عَبْر العُصُور - كان سبباً مُهمّاً من أسباب التّفاوت في دخل الأفراد، وانعكس هذا في الظُّرُوف الطّبقيَّة، التي ظهرت في حياة النَّاس العامَّة، فكان الأغنياء منهم من أصحاب الإقطاع، وغيرهم قد تميَّزوا بطعامهم في تعدُّده وألوانه وفوائده من الطّبقات الأُخرى ضمن مُكوِّناته، فقد كان يحتوي على أنواع اللُّحُوم والحلويات والفاكهة والألبان وكُلَّ ما لذَّ وطاب[3]، فيما وصف لنا ابن طولون[4] ذلك.

ولم تقتصر حياة البذخ على الأغنياء من أهل دمشق، من الحُكَّام والتُّجَّار والميسورين، على التَّمتُّع بواردات الإقطاع الماليَّة وأُبَّهة موائد طعامهم، بل تمتَّعوا - كذلك - ببناء القُصُور الفخمة كجُزْء من حياة التّرف التي عاشوها، وقد برز ذلك واضحاً بشكل جلي في العهد المملوكي، فمثلاً كان قصر الأبلق[5] الذي شيَّده الظّاهر بيبرس سنة 668هـ/ 1268م، وفَرَشَهُ بأحسن الأفرشة، وزَيَّنَهُ بأجمل السّتائر والتّماثيل الرّائعة، حتَّى رُوي أنَّه زخرفه بمائة أسد لُوِّنت بالأسود والأبيض، وَسَتَرِدُ تفصيلات أُخرى عن طبيعة هذه القُصُور وهندستها ومفاخرها في الفصل الخامس.

وإذا كانت خصائص طبقة الأغنياء في دمشق قد تَمَثَّلت في وارداتهم الماليَّة وحياتهم المعاشية، فإنَّ الطّبقة الوُسطى كانت تختصُّ بلون من الطّعام، قد تَقَدَّم الكلام عنه في هذا الفصل بموضوع الطّعام، أمَّا طراز الدُّور والبُيُوت وأنماطها؛ فنتناوله في الفصل الخامس.

أمَّا الفُقراء من طبقات المُجتمع الدِّمشقي؛ فقد خفَّفت من مُعاناتهم الفرائض الإسلاميَّة التي تقع ضمن مفهوم التّكافل الاجتماعي، ونعني بها الزّكاة والصّدقات الواجبة

(1) أبو الفدا، المُختصر، 6/ 41، طبعة بَيْرُوت.
(2) الباشا، أدب الدُّوَل المُتابعة، ص77.
(3) الأصفهاني، الفتح القسي، ص220، 442، 450.
(4) وصف ابن طُولون أنواعاً من الولائم ذكرناها سابقاً، فصُّ الخواتم، ص41، وما بعدها.
(5) ابن شدَّاد، تاريخ الظّاهر، ص354 - 355.

والطّواعيَّة، الأمر الذي يسَّر لهُم طعامهم، حتَّى أوصلهم إلى الكفاية، فيما ذكر البنداري كتائب نائب صلاح الدِّين سنة 574هـ/ 1178م، إلى هذه الحالة من الكفاية بقوله: (... وإنَّ أرباب الصّدقات أغنياء لا يستحقُّونها)[1].

وإذا كان اختلاف النَّاس في مظاهر الحياة يُشير إلى الطّبقيَّة فيه، فإنَّ أسعار السّلع ورواتب المُوظَّفين هي الأُخرى تُشير - بدقَّة - إلى مُستوى المعيشة، ولاسيَّما تلك التي تتعلَّق بالموادِّ الغذائيَّة، يقول ابن فضل الله العمري: إنَّ سعر الأردب[2] من القمح بخمسة عشر درهماً، والشّعير بعشرة، وبقيَّة الحُبُوب على هذا النّموذج، أمَّا الأرز؛ فيبلغ أكثر من ذلك، وأما اللّحم فأقلّ، فسعر الرّطل[3] نصف درهم، والدّجاج يختلف سعره بحسب اختلاف أحواله؛ فجيِّده بدرهمَيْن، ومنها ما هُو بثلاثة، وقد يزيد، ومنها ما هُو بدرهم واحد[4]، ويرى الأُستاذ نقولا زيادة[5] أنَّ الحاجة الشّهريَّة لأُسرة دمشقيَّة مكوَّنة من أربعة أولاد، باستثناء ثمن الثّياب وأُجرة البيت من المُدَّة المملوكيَّة ما صُورته:

المادَّة	الكمِّيَّة بالكيلو	الثّمن بالدّرهم
القمح	75	16.00
الأرز	12	3.00
القطاني	12	2.57
اللُّحُوم	12	12.14
السُّكَّر	7	12.86
الزّيت	10	35.57
الخُضار	-	7.86[6]

---

(1) سنا البرق الشّامي، ص157.

(2) الأردب يُساوي 6/ 690 كغم، فالتر هيتس، المكاييل والأوزان الإسلاميَّة، ترجمة كامل العسلي، عمَّان، 1970، ص58.

(3) الرّطل يُساوي 1.85، هنتس، المكاييل، ص33.

(4) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص84، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 180 - 182.

(5) دمشق، ص146.

(6) نقولا زيادة، دمشق، ص146.

وعليه؛ فإنَّ مُتوسِّط نفقات الأُسرة في الشّهر تُكلِّف ما يزيد قليلاً على 65 درهماً، غير أنَّ الأُستاذ زيادة في تقديراته الواردة لم يأخذ ـ بنظر الاعتبار ـ الظُّرُوف الاستثنائيَّة التي تمرُّ فيها المدينة، كأوقات الجدب والمجاعة والأوبئة الزِّراعيَّة والكوارث الطَّبيعيَّة، أو تفشِّي الأمراض أو ظُرُوف الحرب، التي كثير ما تعرَّضت لها دمشق، الأمر الذي يتعذَّر معه قُبُول التّقديرات التي ذهب إليها الأُستاذ زيادة في كُلِّ الأحوال، ويُؤيِّد ما ذهبنا إليه ما ذكره ابن واصل، أنَّه في الحصار الذي تعرَّضت له دمشق سنة 595هـ/ 1198م، من عهد العادل؛ حيثُ قلَّت الأقوات (ونال أهل دمشق من الغلاء ما تمنّوا الموت)[1].

وفي الظُّرُوف الصّعبة تُسجِّل السّلع أسعاراً غير معقولة، حيثُ يسود الاحتكار، وتختفي الموادُّ الغذائيَّة، ويعمُّ الجُوع، ويتفشَّى القحط؛ إذْ تضاعفت أسعار الموادِّ الغذائيَّة مئات المرَّات، وعلى سبيل المثال يرتفع إلى:

المادَّة	ارتفاع الأسعار (بالنِّسبة المئويَّة)
القمح	1000 ـ 700
الشّعير	1000 ـ 600
الأرز	400 ـ 150
اللُّحُوم	1800 ـ 500
السُّكَّر	500[2]

غير أنَّ أوقات السّلم والاستقرار تتَّجه فيه أسعار السّلع إلى مُستويات واطئة تتَّسم بالرُّخص، حتَّى يصل سعر الكيلو من القمح 021 . 0 من الدّرهم، ويصل سعر كيلو اللّحم 01 . 0 من الدّرهم[3]، وبناء على هذا التّفاوت، وعدم الاستقرار في الأسعار، في الظُّرُوف المُختلفة التي تتعرَّض لها الأُسرة الدِّمشقيَّة والطّبقات الاجتماعيَّة على العُمُوم، تبدو حالات من الرّخاء في أيَّام الاستقرار وسيادة الأمن، حالات الفاقة والجُوع في أيَّام الفتَن، وعدم الاستقرار وانتشار الكوارث.

---

(1) مُفرِّج الكُرُوب، 10/ 300.

(2) نقولا زيادة، دمشق، ص149.

(3) نقولا زيادة، دمشق، ص146.

وحتَّى نُبيِّن مُستوى المعيشة الذي كان يسود فئات المُواطنين باختلاف مواقعهم ومناصبهم، يقتضي بنا الأمر التَّعرُّف على مقدار رواتبهم، وقد طالعنا ابن فضل الله العُمري في هذا الجانب، فقال: إنَّ راتب الوزير الشّهري يفوق الرّواتب جميعاً؛ حيثُ يتقاضى مائتَيْن وخمسين ديناراً، بينما يتقاضى القاضي خمسين ديناراً، إضافة إلى حصَّته من الأقوات. أمَّا العُلماء؛ فكانوا يعتمدون بعض الشّيء على الأوقاف المُسندة إلى مدارسهم، في حين كانت رواتب العسكريِّيْن تختلف باختلاف مسؤوليَّاتهم، فأبسط الفُرسان يتقاضى 250 درهماً، في حين كانت القيادات تتقاضى 750 درهماً[1]، وبالمُقارنة مع رواتب الفُرسان في العُهُود السَّابقة، يتبيَّن أنَّ راتب الفارس في العهد المملوكي يفوق ما كان عليه راتبه في العهد السّلجوقي[2].

أمَّا فيما يخصُّ أصحاب المهن الأُخرى ورواتبهم؛ فقد زوَّدنا الأُستاذ زيادة بقائمة في هذا المعنى كالآتي:

أصحاب العمل	الأجرة الشّهريَّة بالدّراهم
الطَّبيب	300
المُدرِّس	80
الإمام	40
المُؤذِّن	30
المُحدِّث	30
المُعيد	20
التِّلميذ	12.7
القارئ	14.28
الحمَّال	20[3]

(1) مسالك الأبصار، ص110، 52، 66.

(2) آشتور، التَّاريخ الاقتصادي، ص302.

(3) نقولا زيادة، دمشق، ص147.

وإلى جانب الرّواتب كانت الدَّولة تحرص على إعانة بعض المُوظَّفين العاملين في مرافقها العامَّة بكمِّيَّات من الأرزاق والمشاهرات من القمح، للدَّلالة على ذلك ما كانت تمنحه المُستشفى القيمري[1]، في دمشق لمُنتسبيها من الأرزاق والرّواتب، وهي على الوجه الآتي:

المُوظَّف	المُرتَّب الشّهري	حصَّة القمح بالمكيال الواحد
الأطبَّاء	300	من نصف إلى واحد
ناظر	40	نصف
كحَّال	45	نصف
خدم	13	سدس
مُساعدات	10	سدس
صيدلي	26	ثُلث
ناظر الوقف	60	واحد (وواحد من الشّعير)
إمام	40	ثُلث
بنَّاء	13	سُدس
نقَّالون	8	سُدس[2]

وختام القول فيما له صلة بحياة النَّاس، نخلص إلى: أنَّ مُستوى المعيشة للأفراد تسهم في تكوينه عوامل مُختلفة، فهي فضلاً عن مقدار الرّواتب والواردات الماليَّة ومقادير السّلع والأمن والاستقرار، فإنَّ التّكافل الاجتماعي والشُّعُور بمُساعدة الفُقراء والمُحتاجين وأعمال البرِّ والتّقوى من الميسورين والأغنياء تُسهم - هي الأُخرى - في تحسين مُستوى المعيشة للطَّبقات الفقيرة، أمَّا الظُّرُوف الاستثنائية - بمُختلف حالاتها وأسبابها كأوقات الحُرُوب والكوارث وتفشِّي الأمراض وغيرها -؛ فهي - لاشكَّ - تُؤثِّر إلى - حدٍّ بعيد - على حالة الاستقرار وازدهار المُستوى المعاشي.

---

(1) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 207، ابن طُولون، القلائد الجوهريَّة، 1/ 243.

(2) Nicola A. Ziadeh, Urbon Lift in Syria, P.160.

الفصل الرَّابع:

صُور من الحياة الاجتماعيَّة

1 ـ الأعياد والاحتفالات:

عيد الفطْر ، عيد الأضحى (النَّحْر) ، ليالي رجب وشعبان ، شهر رمضان ، ختان الطّفل ، حفلات الزّواج ، ولادة الطّفل ، المآتم والأحزان .

2 ـ وسائل التّسلية:

سباق الخيل ، اللّعب بالكُرة والصّولجان ، اللّعب بالقبع والبُنْدق ، الألعاب الأُخرى ، الخُرُوج إلى المُنتزهات ، الصّيد ، خيال الظّلّ ، الغناء والمُوسيقى ، مجالس القَصَص الخاصّة والعامّة ، صُور أُخرى .

صُور من الحياة الاجتماعيَّة

زخرت الحياة العامَّة الدِّمشقيَّة بأنواع شتَّى من مُناسبات الأفراح والأحزان واللّهو في هذه المُدَّة، كغيرها من المُدُن والأمصار الإسلاميَّة، وتأتي في مُقدِّمتها:

1 ـ الأعياد والاحتفالات:

كان للعرب المُسلمين في هذه المدينة أعيادهم الخاصَّة، كغيرهم من الأديان الأُخرى، وهي مُناسبات يحتفلون بها مُعبِّرين عن فرحتهم وابتهاجهم، بالشّكل الذي يليق بتلك المُناسبات والأعياد، ومن أهمِّها ما يأتي:

1 ـ عيد الفطر:

يرجع الاحتفال بهذا العيد إلى عهد الرَّسول ﷺ[1]، ويبدأ الاحتفال ـ عادةً ـ بزكاة الفطر، التي تسبق صلاة العيد، بعدها يجتمع المُسلمون في المسجد لأداء مراسيم الصّلاة[2]، ثُمَّ ينصرفون إلى منازلهم.

ومن مظاهر الاحتفال بعيد الفطر عند المُسلمين، لبْس الجديد، والتَّصدُّق على الفُقراء، والتّزاور، وكان المُسلمون ينتهزون فُرصة العيد للتَّرويج عن أنفسهم بالتّسلية واللّهو المُباح، والإقبال على تناول بعض الأطعمة[3]، والتي يتمُّ التَّهيُّؤ لها قبل مُدَّة، وقد يتخلّل ذلك الخُرُوج إلى المُنتزهات[4]، وعرفت دمشق هذه الصُّور الاحتفاليَّة بعيد الفطر عبر

---

(1) البُخاري، صحيح البُخاري، 2/ 236، ابن عيسى مُحَمَّد التّرمذي، الجامع الصَّحيح (سُنن التّرمذي)، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، المكتبة الإسلاميَّة، ب، ت، ص/ 410، وما بعدها.

(2) كان الرَّسول ﷺ، وأبو بكر وعُمر، يُصلُّون صلاة العيدَيْن قبل الخُطبة، ثُمَّ يخطبون، التّرمذي، سُنن التّرمذي، 2/ 411.

(3) حسن باشا، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة، القاهرة، 1975، ص130.

(4) ذكر ابن شدَّاد المُنتزهات والمزارات التي يرتادها أهل دمشق، الأعلاق الخطيرة، ص180 ـ 185.

عُصُورها المُختلفة؛ إذْ روت لنا الأخبار جانباً من احتفالات الفاطميِّين[1] في هذا الشّأن، وكذلك شأن السّلاجقة[2]، بينما روى لنا ابن واصل جانباً من احتفالات الزّنكيِّين، من ذلك؛ ذكْره الاحتفال بعيد الفِطر في عهد نُور الدِّين؛ إذْ قال: (ففي يوم العيد، وهُو يوم الأحد... ركب نُور الدِّين على الرّسم المُعتاد إلى الميدان الأخضر الشّمالي بدمشق، لطعن الحلق، ورمي القبع[3]، وأمر، فضُربت له في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوَضْع المنبر... ثُمَّ مدَّ السّماط العامّ)[4]، ويستمرُّ ابن واصل في وصف الاحتفال في اليوم الثَّاني من العيد، فيقول: (يوم الاثنَيْن، ثاني شوَّال، ركب نُور الدِّين مع خواصِّه وأصحابه، ودخل الميدان، والأمير هُمام الدِّين بن مودود - وهُو من أكبر أُمرائه يُسايره - وقال لنُور الدِّين: (وهل تكون هُنا مثل هذا اليوم في العام المُقبل؟!)، فقال نُور الدِّين: وقُل هل تكون هُنا بعد شهر؟ فإنَّ السَّنة بعيدة)[5]، وممَّا سبق من النُّصُوص التي أوردها ابن واصل تتكوَّن لنا الصُّورة التي يحتفل فيها الحُكَّام والأُمراء بهذه المُناسبة السّعيدة، فيما أُشير إلى أسمطتهم في الولائم العامَّة والخاصَّة، ومسرَّاتهم في المُنتزهات، وللأطفال وسائلهم للتَّعبير عن فرحهم في هذه المُناسبة، فيخرج ولدان، وقد صبغا جسدهما بالسّواد، فيُضحكون الأطفال، ويستدرُّون إحسان الكبار بالرّقص والقفز، ويُردِّدون كلمة بيضة بيضة[6].

كما يُعبِّر الصُّوفيَّة عن فرحتهم بهذه المُناسبة من خلال ما يلبسونه فيها؛ إذْ هُم يرتدون ثوباً أبيض فضفاضاً، ويضعون على رُؤُوسهم ما يُسمُّونه كلاها، وهُو اللّبَّاد مُستطيل الشّكل، أمَّا شيخ الخانقاه أو الرّباط؛ فيضع فوق الكلاها عمامة خضراء، وكانوا يقومون بحركات إيقاعيَّة، فيدورون على أنفسهم على نغمات مُوسيقيَّة مُطربة[7].

---

(1) المقريزي، الخُطط، 1/ 490، وما بعدها.

(2) المقريزي، الخُطط، 1/ 490، وما بعدها، عاشور، المُجتمع المصري، ص176، وما بعدها.

(3) وهي كلمة تُركيَّة؛ ومعناها الاصطلاحي الهدف الذي يُستعمل في اللُّعبة، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 218، أحمد رمضان، المُجتمع، ص293.

(4) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 260 - 261، البنداري، سنا البرق الشَّاميّ، ص31.

(5) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 261 - 262، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدُّرِّيَّة، ص228.

(6) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، 6/ 293.

(7) أحمد رمضان، المُجتمع، ص248، نقلاً عن مخطوط مُخدّرات العُصُور، ورقة (57).

ومن مظاهر مُتابعة الاحتفالات بهذه المُناسبة السّعيدة من قبَل العوامّ ومُعظم النَّاس، أنَّهم يتَّجهون إلى الميدان الأخضر[1]، للتَّمتُّع بمُشاهدة العسكر وتدريباته[2]، وفعاليَّاته بصُور الفُروسيَّة المُختلفة، كما يذهب بعض من النَّاس استكمالاً لمسارتهم إلى الرَّبوة التي تقع على جبل قاسيون[3]، والتي هي الأُخرى من المُنتزهات الجميلة التي يُمارَس فيها اللَّهو المُباح بأنواعه.

2 ـ عيد الأضحى (النّحر):

وهُو أهمُّ الأعياد التي يحتفل بها المُسلمون ـ عادةً ـ مُنذُ عهد الرَّسول ﷺ[4]؛ إذْ يُبدأ بصلاة العيد، ثُمَّ يتلوها نحر الأضاحي، تقرُّباً إلى الله تعالى[5]، ثُمَّ يُقيمون الولائم، ويتصدَّقون بأنواع الصّدقات على مُستحقِّيها، ومن صُور الاحتفال بهذه المُناسبة تحضير الملابس الجديدة، وصُنع الحلوى[6] بصُورها المُختلفة.

وكان من عادة أهل دمشق في أوَّل يوم من هذا العيد، وبعيد صلاة العصر أنْ (يقف بهم أئمَّتهم، كاشفين رُؤُوسهم، داعين إلى ربِّهم، التماساً لبركة السّاعة التي يقف فيها وفد الله عزَّ وجلَّ، وحجيج بيته الحرام بعرفات، فلا يزالون واقفين داعين مُتضرِّعين إلى الله عزَّ وجلَّ، وبحجيج بيته الحرام، مُتوسِّلين، إلى أنْ يسقط قُرص الشّمس، ويُقدّروا نفر الحاجّ، فينفصلوا باكين على ما حُرموا ذلك الموقف العظيم بعرفات، وداعين إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يُوصلهم إليها، ولا يُخليهم من بركة القُبُول في فعلهم ذلك)[7]، وكان يتوجَّه قسم من أهل الشَّام وأطرافها إلى القُدس في موسم الحجِّ، وهُم الذين لم يستطيعوا الذَّهاب إلى مكَّة، أنْ يُضحُّون ضحيَّة العيد[8].

---

(1) البدري، نُزهة الأنام، ص77 ـ 78.

(2) ويقع قُرب القلعة، وإلى جواره ميدان الحصا، وقد وصفه ابن جُبير أروع وصف، بقوله: (هُو أبدع المناظر)، الرّحلة، ص277، طبعة 1955م.

(3) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص181، وما بعدها.

(4) البُخاري، صحيح البُخاري، 2/ 436، التّرمذي، سُنن التّرمذي، 2/ 410.

(5) باشا، دراسات في تاريخ الحضارة، ص130 ـ 131.

(6) عاشور وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة، ص269.

(7) ابن جُبير، رحلة، ص264، ابن بطُّوطة، الرّحلة، ص106.

(8) ناصر خسرو، سفر نامة، ص55.

ومن جهة أُخرى؛ فهُناك أناس يجعلون من العيد مُناسبة للخُرُوج إلى المُتنزهات المُجاورة والبساتين، ومنها الرّبوة والميدان الأخضر وغيرها[1] للتَّمتُّع بأيَّام العيد السّعيد، بجوار المزارع والمناظر الجميلة، من أجل تحقيق النُّزهة والمُتعة.

3 ـ ليالي رجب وشعبان:

تناقلت الرّوايات احتفال أهل الشَّام ـ ومنهم أهل دمشق ـ في بعض الأيَّام من شهرَيْ رجب وشعبان، وهي جُزء من استقبالهم لبركات شهر رمضان، وقد توزَّعت هذه الاحتفالات بأربع ليالٍ، وهي: الأُولى من شهر رجب، ومُنتصفه، والأُولى من شهر شعبان، ومُنتصفه، وقد عرفها النَّاس باسم ليالي الوُقُود، لأنَّهم يُوقدون فيها النّار في الجوامع والمساجد، وحول صُحُونها مُتَمَثِّلة بالتّنانير والقناديل والشّمع، في أوانٍ من الذَّهب والفضَّة، وفي هذه المُناسبة يُقدَّم الطّعام والحلوى إلى الحاضرين في المسجد، ويُنشد المُنشدون حتَّى مُنتصف اللّيل[2]، واستمرَّ الاحتفال بهذه اللّيالي في المُدد اللاَّحقة، دُون أنْ تأخذ المظهر الرَّسميَّ الذي كان في أيَّام الفاطميِّين، بل اقتصرت على الجانب الشّعبي.

وتختصُّ ليلة النُّصف من شعبان بمزية أُخرى ذات طابع دينيٍّ خاصٍّ فيها؛ حيثُ يقرأ أهل الشَّام ـ ومنهم أهل دمشق ـ بعد العشاء سُورة ياسين ثلاث مرَّات، وبعدها؛ يُلقي الإمام دعاءً يتوجَّه به إلى الله[3] سُبحانه، ويذكر شيخ الرّبوة ما يُوقد في الجامع، فيقول: (تُوقَدُ النّار في ليلة النُّصف من شعبان اثنا عشر ألف قنديل، بخمسين قنطاراً دمشقيَّة، غير ما يُوقد بالمدارس والمساجد والتُّرَب والخوانق والرّبط)[4]، وإنَّنا ـ إذْ ننقل هذا النَّصَّ ـ نتحفَّظ على ما ذُكر فيه ممَّا يُوقد من المصابيح، لأنَّ واقع الحال لا يُؤيِّد ذلك لكثرته.

وهُناك ليالٍ أُخرى يحتفلون فيها باليوم السّابع والعشرين من رجب، بقراءة قصَّة الإسراء والمعراج[5]، ثُمَّ يتخلَّل ذلك قيام الأطفال بتوزيع الحلويات، فضلاً عن الأطعمة

---

(1) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص181، وما بعدها، البدري، نُزهة الأنام، ص77 ـ 78.

(2) المقريزي، الخُطط، 1/ 465.

(3) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، 3/ 292، أحمد رمضان، المُجتمع، ص241.

(4) شيخ الرّبوة، نُخبة الدّهر، ص193.

(5) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط، 2/ 292، عاشور، المُجتمع المصري، ص183.

الشّهيَّة[1]، وهذه الاحتفالات كانت موجودة في عُمُوم الشَّام ومصر، ويبدو أنَّ الفاطميِّين قد أكَّدوا عليها وعدُّوها من الأعياد الرّسميَّة، وقد اختفت هذه الحال بمجيء الزّنكيِّين، ومن بعدهم الأيُّوبيِّين والمماليك، فاقتصر الاحتفال بها على الجانب الشّعبي، ولم يكن له صفة رسميَّة، كما هُو الحال في العصر الفاطمي.

4 ـ شهر رمضان:

تمتَّع شهر رمضان بفضائل كثيرة؛ إذْ فيه نزل القُرآن، ولهذا؛ كانت له مكانة خاصَّة تتَّصل بكرامته الدِّينيَّة المُقدَّسة؛ إذْ يتمُّ الاستعداد لهذا الشّهر الكريم بتهيئة مُستلزمات الطّعام المُناسب، وأنواع الحلوى التي يتناولها أهل دمشق في كُلِّ يوم خلال شهر رمضان، لِمَا عُرف عنهم من حُسن التّدبير والمهارة في هذه الأُمُور، فقد ذكر ابن بطُّوطة هذا بقوله: (ومن فضائل دمشق أنَّه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتَّة، فإنْ كان من الأُمراء والقُضاة والكُبراء، فإنَّه يدعو أصحابه والفُقراء يفطرون عنده، ومَنْ كان من التُّجَّار وكبار السُّوق، صنع مثل ذلك، ومَنْ كان من الضُّعفاء والبادية، فإنَّهم يجتمعون كُلَّ ليلة في دار أحدهم، أو في المسجد، ويأتي كُلُّ أحد بما عنده، فيفطرون جميعاً)[2]، ومن مُتابعتنا للنَّصِّ الذي أورده ابن بطُّوطة، نستخلص فضائل شهر رمضان، وأثرها في إشاعة التَّعاون بين أفراد المُجتمع الواحد، مُتمثِّلين دعوة الإسلام للتَّكافل الاجتماعي، وقد بدا لنا ذلك من خلال الموائد المُختلفة لعُمُوم الطّبقات الاجتماعيَّة في دمشق.

وتُزوَّد الأسواق في هذا الشّهر بالبضائع اللأَزمة له لتلبية حاجات النَّاس منها، وتُعلَّق الدّلالات التي تُعبِّر عن احترام شهر رمضان وقُدسيَّته، فهذا سُوق الشَّمَّاعين في دمشق خلال هذا الشّهر المُبارك[3]، يُعلن عن احتفاله بتعليق الفوانيس على واجهات المحالِّ وجوانب الحوانيت[4]، تحيَّة لهذا الشّهر المُبارك.

---

(1) ابن كنان، المُرُوج السُّنْدُسيَّة، ص111.

(2) ابن بطُّوطة، الرّحلة، ص105.

(3) الغزولي، مطالع البُدُور، ص157، أحمد رمضان، المُجتمع، ص245.

(4) البدري، محاسن الشَّام، ص129، أحمد رمضان، المُجتمع، ص245.

وكانت من عادات أهل دمشق، أنَّه إذا ختم أحد أبنائهم القُرآن الكريم في هذا الشّهر، تُقام له حفلة يحضرها القاضي وجماعة من شُيُوخه، بعدها يقوم الصّبي خطيباً بين الحاضرين مُعبِّراً عن فرحته وشُكره لهُم، ومن مظاهر الاحتفال في هـذه المُناسبة تقديم الفاكهة الرّطبة واليابسة، وتُوقد الشُّمُوع الكثيرة التي تُوضع في وسط المسجد، وتُسرج القناديل المُحيطة بمحراب المسجد، والمُثبَّتة بمسامير عُلِّقت عليه الشُّمُوع[1]، وتستمرُّ حفلة ختم القُرآن الكريم على هذا النَّحو؛ إذْ يرتدي الصّبي كُسوة مُجزية مُختلفة الألوان، ويجلس إلى جوار محراب المسجد، ليحضر شيخه؛ ليُقيم صلاة التّراويح بالحاضرين، من الرِّجال والنِّساء والصّبي في المحراب، وحوله الشُّمُوع، فإذا أُخرج من المحراب يستقبله سَدَنَةُ المسجد، ويُوصلونه إلى المنبر، فيستوي مُبتسماً، ويُشير إلى الحاضرين مُسلِّماً، ويجلس بين يده القُرَّاء، حتَّى إذا أكملوا جُزءاً من القُرآن الكريم يقوم الصّبي، ويُلقي الخطبة بين يدَيْهم على درجات المنبر، وقسم من الحاضرين يُمسكون الشّمع بين أيديهم، ويرفعون أصواتهم: ياربُّ ياربُّ، عند كُلِّ فصل من فُصُول الخطبة حتَّى ينتهي من القراءة، فينزل الصّبي، ويخصُّ القاضي في مثل هذه الحفلات بطعام حافل وحلوى[2] تكريماً له، وإسهاماً من المُحتفلين بمُشاركته.

وفي شهر رمضان تنهض المُؤسَّسات الخيريَّة والأفراد بتوزيع الأطعمة والحلوى بين أفراد المُجتمع، والفُقراء منهم بصُورة خاصَّة، فقد رُوي عن المدرسة الحنبليَّة في الصَّالحيَّة، كانت تقوم بتوزيع الطّعام في هذا الشّهر[3].

وقبل العيد بيومَيْن؛ تُعلن الفرحة فيه بخُرُوج رجل بصُورة مُضحكة، يرتدي قُلنسوة طويلة في أعلاها ذنب، وفي يده دفٌّ يدقُّ عليه، وأمامه حمار مُزيَّن بالخرز المُلوَّن، ومُعصَّب الرّأس بالمناديل المُلوَّنة، فيدور على هـذه الهيئة بالأزقَّة والشّوارع، عارضاً ألعابه ورقصه، ويُسمُّونه (جحش العيد)[4]، وفي آخر يوم من شهر رمضان؛ تُقام في باب البريد - أحد أبواب الجامع الأُموي - مأدبة حافلة[5] بأنواع الأطعمة.

---

(1) أحمد رمضان، المُجتمع، ص244، نقلاً عن مخطوط مُخدّرات القُصُور، ورقة 43.

(2) أحمد رمضان، المُجتمع، ص344، نقلاً عن مخطوط مُخدّرات القُصُور، ورقة 34.

(3) ابن كنان، المُرُوج السُّنْدُسيَّة، ص111.

(4) أحمد رمضان، المُجتمع، ص248.

(5) البدري، محاسن الشَّام، ص136، أحمد رمضان، المُجتمع، ص248.

والجدير بالذِّكْر أنَّ دمشق تُصدِّر إلى تُجَّار مصر الذين يستقبلون هذه البضائع في شارع باب النّصر، ليعرضوها للمُستهلكين، وهي مُختلفة ومُتنوِّعة، تشتهر بها دمشق، مثل الزّيت والصّابون والجوز واللّوز والفستق...إلخ.

وفي شهر رمضان يستمع أهل دمشق إلى المواعظ والأدعية في المساجد، في اللّيل والنّهار، وهُو حال يُعلن عن توجُّههم إلى الله تعالى طلباً للغُفران والتّوبة، ومن مظاهر تكريم شهر رمضان والصّائمين فيه، أنَّ نُور الدِّين زنكي أمر بضرب طبلخانة في القلعة وقت السَّحَر، لإيقاظ الصّائمين، وقد خَصَّص لصاحبها أجراً كبيراً[1].

5 ـ حفلة الختان:

وهُو تقليد سُنَّة الإسلام بصفته من مظاهر النّظافة والطّهارة والوقاية الصِّحِّيَّة، فيما أشارت إليه الآثار والمَرْويَّات من الحديث والسُّنَّة، والعادة أنَّ المُسلم يُفَضِّل أنْ يختن ولده بمعيَّة الأطفال الآخرين، ونفقاتها تختلف من شخص إلى آخر[2].

ومن العادة ـ أيضاً ـ أنْ يتمَّ الختان في سنٍّ مُبكرة، وقد يكون بعد الولادة بأيَّام؛ إذْ تُقام حفلة بالمُناسبة يحضرها الأقارب والأصحاب، وتُقدَّم الأسمطة الزّاخرة بكُلِّ أنواع الطّعام، ثُمَّ يُزيَّن الغُلام بالحلي، ويركب على دابة ووراءه رديف يُقال له العريف[3]، يُطاف به في الشّوارع، يتقدَّمهم كبير مشايخ الطُّرُق، مُكلَّلاً بطيلسان أحمر في يده عقافه[4]، يسير بها على جماعته، وهُم سائرون أمامه يحملون الأعلام، ويضربون في الدُّفُوف والطُّبُول[5].

ويُرافق تلك المواكب طائفة من المُضحكين، يلبسون الخُوذ على رُؤُوسهم، ويحملون السُّيُوف والتُّرُوس، ويُبارزون بعضهم بالسُّيُوف والرّماح، ويسيرون ـ عادةً ـ وراء الجُمُوع، وفي آخر الموكب رجل يقود جملاً على ظهره، ويرتدي ملابس نساء عرب البادية، يُقال له

---

(1) ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 299.

(2) الطّبراني، مكارم الأخلاق، مُؤسَّسة النُّعمان، بَيْرُوت، ب، ت، ص238 ـ 239.

Ali Mozahery, Lavie Qutidienna des Musulmanna Moyen Age, 1951, Paris, P.55-56.

(3) الغزولي، مطالع البُدُور، ص107.

(4) وهي العصى المُعوجَّة، ويُعرِّفها ابن منظور هي الصّولجان، لسان العرب، 11/ 160.

(5) كامل الدِّين الغزِّي، نهر الذّهب في تاريخ حلب، 1962، 1/ 248.

(عبلة، وقد أمسك بيده صنوجاً)[1]، يرقص به حتّى يصل إلى المختون، ويُسمّى الموكب (عراضة)[2].

وبعد الانتهاء من الطّواف، يعودون إلى منزل الغُلام، وتُتلى قصّة المولد النّبوي الشّريف، وفي ختامها يُختَن الطّفل[3]، من المُتعارَف عليه أنْ يُهدى في مثل هذه الاحتفالات لصاحب الحفل من أهله وأصدقائه شيئاً كثيراً من السّمن والأرز والغلاّت، ويكون ذلك دَيْناً عليه يُعيده إليهم في الحفلات المُماثلة[4] عندهم.

وقد تتزامن حفلات الختان عند بعضهم بمُناسبات الأعياد والأفراح، يُؤيِّد ذلك ما رُوي عن نُور الدِّين أنَّه ختَن ولده إسماعيل في عيد الفطر سنة 569هـ/ 1173م، حيثُ أُقيم احتفال كبير (وأخرج كثيراً من الصّدقات، وكُسوة للأيتام، وختَن منهم جماعة، وزيَّن البلد...)[5]، ويُضيف أبو شامة بهذا الشّأن بقوله: (واحتفلنا لهذا الأمر، وغلّقتْ محالُّ دمشق أيّاماً)[6]، وقد تكون مُناسبات الختان مُناسبة للشُّعراء في نَظْم قصائدهم، وهذا ما تبيَّن لنا من إلقاء عماد الدِّين الأصفهاني قصيدته بهذه المُناسبة؛ حيثُ جاء فيها:

عيدان، فطرٌ وطُهر	فتحٌ قريبٌ ونصر
كلاهما لكَ فيه	حقّاً هناءٌ وأجر
وفيهما بالتّهاني	رسمٌ لنا مُستمرُّ
طهارة طُلْب منها	أصلٌ وفرعٌ وذكر
نجلٌ على طُهر نام	زكاله منك نحر
محمود الملك العادل	الكريم الأغرُّ

(1) الصّنج العربي وهُو الدّفّ والصّنج ذُو الأوتار، فهُو دخيل، ابن منظور، لسان العرب، 3/ 135.
(2) مُحَمَّد شخاشيرو، الأخلاق والعادات، 6/ 283، أحمد رمضان، المُجتمع، ص253.
(3) كامل الدِّين الغزِّي، نهر الذّهب، 1/ 248.
(4) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشّام، 6/ 287.
(5) أبو القاسم عُمر بن العديم، بُغية الطّلب في تاريخ حلب، تحقيق علي سُويلم (أنقرة، 1976)، ص276.
(6) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 577.

وبابنـــه الملـــك الصّـــالح   العيُـــــون تقـــــر[1]

6 ـ حفلات الزّواج:

وهي من المُناسبات الاجتماعيَّة السّعيدة التي يُحتفَل بها في دمشق كغيرها من المُدُن الإسلاميَّة، فعند الطّبقات الشّعبيَّة كانت للمرأة المعروفة بـ «الخطّابة» دور كبير في إنهاء مهمَّة الخُطُوبة؛ إذْ كانت تتظاهر ببيع العُطُور والبُخُور، وغيرها من اللّوازم التي تحتاجها المرأة، وبذلك يُتاح لها دُخُول البُيُوت، والاطلاع على أسرار الحريم[2] في الأوقات المُختلفة[3]، وهي ـ في ذلك ـ تُوحِّد جُهُودها مع عائلة الرَّجل الذي ينوي الزَّواج، والرّاجح أنَّ الفتاة تُؤهَّل للزَّواج في سنِّ الخامسة عشرة وإلى الخامسة والعشرين، وربَّما كان تكليف الفتاة بتقديم الشّراب والحلوى للزَّائرين طريقة معروفة للاطّلاع على مُواصفاتها الجماليَّة ومهاراتها البيتيَّة، وأحياناً؛ يتمُّ التَّعرُّف على حقيقة مُواصفات الفتاة الجسميَّة والجماليَّة بمُرافقتها إلى حمَّام النّساء[4].

وتلك خُطوات يقطعها الرَّجل بمُساعدة أهله ومعارفه، حين يُقدم على خطبة الفتاة، لكي تتحقَّق القناعة في اختيارها، ومن جهة أُخرى؛ يسعى أهل الفتاة المخطوبة لمعرفة أخلاقيَّة الخاطب، من خلال الاستفسار عن سُلُوكه وأصالته، وقُدرته الماليَّة، ومنزلته الاجتماعيَّة، من منطقته وبين معارفه[5].

وما إنْ حصلت القناعة عند الفتاة أيضاً، حتَّى تتمَّ عمليَّة الخُطُوبة بشكل رسمي، بوُصُول أهل الفتى إلى دار الفتاة المخطوبة للاتِّفاق على مُستلزمات الزَّواج وتكاليفه ونفقاته، من المهر وغيره، فإذا ما اتَّفق الطّرفان على هذه الأُمُور تُقرأ سُورة الفاتحة إيذاناً بمُوافقة الطَّرفَيْن على الموضوع[6].

---

(1) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 577.
(2) عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام، ص223.
(3) مُحَمَّد شخاشيرو، الأخلاق والعادات، 6/ 284، أحمد رمضان، المُجتمع، ص269.
(4) أحمد رمضان، المُجتمع، ص269.
(5) مُحَمَّد شخاشيرو، الأخلاق والعادات، 6/ 284.
(6) أحمد رمضان، المُجتمع، ص229.

وحتَّى يتعرَّف الآخرون على ما وصل إليه الطّرفان؛ أهل الزّوج وأهل الزّوجة، في المُوافقة بزواج ولدَيْهما، يتمُّ إعلان الأمر بالجامع الأُموي، من خلال المئذنة المعروفة بمئذنة العروس[1]، بعد أنْ يتمَّ تبادل خواتم الخُطُوبة، ويُقرَّر وقت حفلة العقد[2] الذي يتمُّ في الجامع الأُموي[3].

ثُمَّ يستعدُّ الطّرفان لاستقبال ليلة الزّفاف التي تتقدَّمها ليال يُسمُّونها (التّعاليل) مُناسبة لاجتماع المُوسيقيِّين والمُطربين، وتكون المرأة قد تزيَّنت بزينتها، ولوَّنت يدَيْها؛ حيثُ تُعرف بليلة النّقش[4].

وفي صبيحة ليلة الزّفاف[5] يقصد الزّوج أصدقاءه في موكب حافل بالمُوسيقيِّين، وهُو يتوسَّط اثنَيْن من أقرانه، يُقال لهُما (سخاديج)[6]، ويتقدَّمهم تشكيلات من المُنشدين الذين يحملون المصابيح المُسرجة، وهُم يغدون ويُنشدون الأهازيج ذات الصِّلة بالمُناسبة، حتَّى يصل الجمع إلى بيت الزّوجيَّة، لتستقبل الزّوجة زوجها[7].

ومن باب مُشاركة أصدقاء الزّوج صديقهم في هذه المُناسبة أنَّهم يُقيمون له الولائم لأيَّام مُتوالية، تُسمَّى (الطّبيخات)، وفي اليوم الخامس عشر من تاريخ الزَّواج، يُقيم الزّوج وليمة لأهل الزّوجة، تحتوي على أنواع مُختلفة من الأطعمة تُسمَّى عزيمة الخامس عشر[8].

وإذا كانت هذه الصُّور التي ذكرناها تتعلَّق بحفلات الزَّواج ومُقدِّماته، يتَّصل بالطّبقة العامَّة، فإنَّ لطبقة الحُكَّام والأُمراء مراسيمهم الخاصَّة، في هذا المعنى، تبدو فيها المُناسبة أكثر

---

(1) ترجع هذه المئذنة إلى القرن السّابع الهجري، عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام، ص223.

(2) وبعد أيَّام من العقد ينتقل الجهاز الذي أعدَّته الزّوجة إلى بيت الزّوج، في موكب حافل يتقدَّمه جماعة من الحمَّالين ولاعبي السُّيوف ومُنشدي الأزجال، أحمد رمضان، المُجتمع، ص251، نقلاً عن مخطوط مُخدّرات القُصُور، ورقة62.

(3) أحمد رمضان، المُجتمع، ص251، نقلاً عن مخطوط مُخدّرات القُصُور، ورقة 63.

(4) أحمد رمضان، المُجتمع، ص251 ـ 252 نقلاً عن مخطوط مُخدّرات القُصُور، ورقة 63.

(5) وهي تكون ـ عادةً ـ الاثنَيْن أو الخميس، مُحَمَّد شخاشيرو، الأخلاق والعادات، 6/ 291، أحمد رمضان، المُجتمع، ص251 ـ 252.

(6) وهُم الأصدقاء والرّفاق، أحمد رمضان، المُجتمع، ص52، نقلاً عن مخطوط مُخدّرات القُصُور، ورقة 62.

(7) أحمد رمضان، المُجتمع، ص251، نقلاً عن مخطوط مُخدّرات القُصُور، ورقة 62.

(8) مُحَمَّد شخاشيرو، الأخلاق والعادات، 6/ 291، أحمد رمضان، المُجتمع، ص251.

أُبَّهة ورونقاً وأُسلُوباً، بما يتناسب ومقامهم الاجتماعي، ففي سنة 590هـ/ 1193م، خطب الملك العزيز ابنة عمِّه الملك العادل، وحضر ذلك قاضي القُضاة مُحيي الدِّين بن زكي الدِّين[1] وجميع عُدُوله[2]، وكتب عماد الدِّين الكاتب خطبة العقد، والتي تُعَدُّ مثالاً طريفاً لخُطبة العقد في العهد الأيُّوبي؛ إذْ جاء فيها: (الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً، فَجَعَلَهُ نسباً وصهراً، وشرَّع النّكاح، ووصفه صلة للأرحام وبرّاً، وشدَّ به أوزاراً، ورفع به قدراً، وأطلع بسناء سُنَّته في العالم فجراً، وأجرى به أجراً. نحمده على أنعمه التي تجلَّت لعُيُون مُجتليها بيضاً غُرّاً، وأياديه التي ملأت الأيدي حوافل عزرا، ونشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله، وحده لا شريك له، شهادة نتَّخذها يوم القيامة ذُخراً، ونعدُّها يوم الفزع الأكبر جنَّة وستراً، ونشهد أنَّ مُحَمَّداً عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدراً، وأسماهم وأسناهم في الدُّنيا والآخرة، الذي بعثه إلى الخَلْق كافَّة عرباً وعجماً، وبدواً وحضراً، وبيَّن لهُم مناهج الهُدى إيجاباً وإباحة وندباً وحظراً، فقال ﷺ: (تناكحوا تكثروا، فإنِّي أُباهي بكم الأُمم يوم القيامة)، وكفى بالنّكاح في تحقيق مُباهاته فخراً، صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله صلاة تجمع لهُم شرف الدُّنيا والآخرة، وكان من قضاء الله وقدره النّكاح المسطور في هذا الكتاب، الذي فاح في مناشق الأولياء نشراً، ولاح في مشارق الآلاء يُسراً، وجمع في سماء المعالي للأيَّام واللّيالي شمساً وبدراً، وأمر بأحكام عُهدة الدِّين أمراً وسيراً بإبرام عقده للدَّولة سرّاً، قرنه الله بالميامين والبركات التي تتأيَّد دهراً، وتتخلَّد عصراً)[3].

ثُمَّ قرأ كتاب الصّداق وعقد العقد، بحُضُور الملك الظّاهر صاحب حلب، كما تكرَّر مثل هذا عند خُطُوبة الملك الظّاهر من ابنة عمِّه؛ إذْ جرت مراسيم فاخرة ابتداءً من دُخُول القاضي بهاء الدِّين بن شدَّاد، مبعوث الملك الظّاهر إلى عمِّه الملك العادل، ومعه ثياب

---

(1) قاضي القُضاة مُحيي الدِّين أبو المعالي، مُحَمَّد بن القاضي زكي الدِّين علي بن مُحَمَّد، وكان أمير صلاح الدِّين، وهُو الذي اختاره ليُلقي خُطبة الجُمعة في المسجد الأقصى بعد استعادته سنة 583 هـ، تُوفِّي سنة 589، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان 3/ 364 ـ 371، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 181.

(2) أرسل الملك العزيز القاضي المُرتضى بن القاضي الجليس عبد العزيز السّعدي وكيلاً عنه، في حين وكَّل الملك العادل القاضي أبا حامد بن الشَّيخ شرف الدِّين بن أبي عصرون في تزويج ابنته من ابن عمِّها الملك العزيز، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 34.

(3) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 34 ـ 35.

كثيرة، كخُلع لأرباب الدَّولة وغيرها، وكان الصّداق خمسين ألف دينار، فضلاً عمَّا نثره النّاثرون على الشُّهُود والقُرَّاء، وجهَّز الملك العادل ابنته بجهاز خاصٍّ، وصفه ابن واصل بقوله (وقدم معها من القُماش، والآلات، وأنواع المصاغ، ما يحمله خمسون بغلاً، وثلاثمائة جمل، ومن الجواري والوصائف[1] والإماء والحرائر... ما تحمله مائة جمل)[2].

وذهبت الخاتون إلى دارها، فاستقبلها الملك الظّاهر و(مشى لها عدَّة خُطوات، واحترمها احتراماً كبيراً، وقدَّم لها خمسة عُقُود جوهر، قيمتها خمسون ألف درهم، وعصابة مُجوهرة ليس لها نظير، وعشرة قلائد من العنبر المُذهَّب، وخمساً غير مُذهَّبة، ومائة وسبعين قطعة من الذَّهب والفضَّة، وعشرين تختاً من الثّياب المُختلفة الألوان، وعشرين جارية، وعشرة خدم)[3]، وفي ذلك أنشد شرف الدِّين راجح الحلّي[4] يُهنِّئ الملك العادل بقصيدة منها:

نعم هي نُعْمى بشرها أوضح البشرى ... فما عُذْرُ مَنْ لم يخترع مدْحة عُذْرا

سما قَدْرُ اليوم عن موقفٍ به ... نصوغ حلى النّظم أو تنظم النثرا[5]

7 ـ ولادة الطّفل:

يحتفل أهل دمشق بولادة الطّفل الجديد بأساليب مُختلفة، تتناسب ومقدرتهم الماليَّة ومنزلتهم الاجتماعيَّة، وتبدأ بعد ولادته مُباشرة، فإنْ كان غُلاماً صلَّت أُسرته على نبيِّنا مُحَمَّد

---

(1) كان في خدمة صيفة خاتون مائة جارية، كُلُّهنَّ مُطربات يلعبن بأنواع الملاهي بمائة جارية، كُلُّهنَّ يعملن أنواع الصّنائع البديعة، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب 3/ 214.

(2) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 214، وبالمعنى نفسه الدّواداري، كنز الدُّرر، 7/ 878.

(3) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 214.

(4) شرف الدِّين راجح ابن القاسم إسماعيل الأسدي الحلي شاعر الأيُوبيِّين، وُلد في الحلَّة سنة 570هـ، وتجوَّل في مناطق عدَّة؛ ومنها مُدُن الشَّام، تُوفِّي سنة 627هـ، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 242، 275، مُحسن الأمين العاملي، أعيان الشّيعة، ط1، دمشق، 1949، 31/ 75، جواد أحمد علُّوش، أُدباء حليون، ط1، بَيْرُوت، 1978، ص102.

(5) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 214، الدّواداري، كنز الدُّرر، 7/ 178 ـ 179.

ﷺ، وإنْ كانت بنتاً ترضَّت على السَّيِّدة فاطمة الزّهراء (عليها السّلام)، ثُمَّ يُدهن ظهر الطّفل بالزّيت، لإزالة الشُّحُوم، وقَطْع السُّرَّة، وتُزيِّنه بالملابس المُعدَّة له، حتَّى يُقدَّم بعد ذلك إلى أحد أقربائه من المشهود لهُم بالصّلاح، فيُؤذِّن في أذنَيْه الآذان الشّرعيّ، ثُمَّ يُسمَّى من قبَل ذويه.

بعدئذ؛ يبدأ الاهتمام بأُمِّ المولود؛ حيثُ يُقدَّم لها الحلوى المصنوعة بالجوز، ليكثر لبنها، كما يقتصر شرابها على ماء الحمَّام فيه أُصُول البنفسج لمُدَّة أُسبُوع، كما يُرسل لها الأقارب والأصدقاء موائد كبيرة تشمل على الحلويات، مثل الزّلابيَّة وأباريج السُّكَّر[1].

وفي اليوم السّابع، يُقيم أهل المولود وليمة كبيرة حافلة بأنواع الحلوى؛ قوامها الدّبس والشّمرة[2]، وقد يحضر تلك الوليمة فتيات يُغنِّيْنَ ويرقصن للنِّساء، ومُطربون من الرِّجال، ومن عادة تلك الولائم أنْ يصطحب كُلُّ مدعو هديَّة يُقدِّمها للأبوَيْن؛ بعضها مأكول وبعضها الآخر ملبوس، وثالثة عبارة عن مسكوكات ذهبيَّة تُعلَّق في قُلنسوة الطّفل تُسمَّى (تهناية)[3]، وتلبس أُمُّ المولود الملابس الجديدة، ويُطاف بها بأنحاء الدّار في موكب كبير تُحيط بها الشُّمُوع من كُلِّ جانب[4]، والقابلة تحمل المولود، أمامها امرأة تحمل طبقاً فيه شيء من مخلوط الملح، وشيء من الحُبُوب، تنثره يميناً ويساراً.

هذا كُلُّه عدا احتراق البُخُور؛ اتِّقاءً لحسد النّاس[5].

وبعد أربعين يوماً من الولادة؛ تُؤخذ النّفساء إلى حمَّام النِّساء؛ حيثُ ينفرد لها حمَّام في بعض الأحيان، وعند دُخُولها يُدهن جسمها بالمرنوش القرصي والخزامى المغربيَّة، وتجلس نحو ساعة، وبعدها تُغسَّل، وتخرج[6]، ويتخلَّل ذلك تناول وجبة الغداء، والذي يُعرف بغداء الأربعين، وهذا يختلف باختلاف مكانة الأُسرة ومكانتها الماديَّة، ولكنْ؛

(1) الغزِّي، نهر الذّهب، 1/ 244.

(2) وهُو المقلي من الطّعام، أحمد رمضان، المُجتمع، ص253.

(3) أحمد رمضان، المُجتمع، ص253، نقلاً عن مخطوط مُخدرات القُصُور، ورقة 65.

(4) مُحمَّد بن مُحَمَّد الحاج، المدخل، ط1، المطبعة المصريَّة بالأزهر، 1929، 3/ 291.

(5) عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام، ص ص 225.

(6) مُنير كيَّال، الحمَّامات الدّمشقيَّة، ص26، وقد يُسمّى بالشُّذُوذ.

ـ بصُورة عامَّة ـ تشمل على بعض أنواع الطّعام من زيتـون وجـزر وليمـون وبُرتقـال[1]، وعنـد بُلُوغ الطّفل الخامسة من العُمر، يُرسل إلى الشَّيخ أو المدرسة[2].

ويُشارك المُسلمون النّصارى في بعـض أعيـادهم توثيقـاً لصلاتـهم الاجتماعيَّـة، والتـي يحرص بها المُسلمون على المُؤاخاة مع أهل الذِّمَّة، ومن هذه الأعياد ما يُعرف بعيد الخميس، الذي يحتفل فيه النّصارى بإنجيلهم؛ حيثُ يسبق هذا الاحتفال عيد الفُصح بثلاثة أيَّام، وكان خميس العهد من الأعياد التي احتُفل بها في أيَّام الفاطميِّيْن، ولم يتبيَّن لنا استمرار الاحتفـال عبر العُـهُود التَّاليـة، وإنْ كـان المصريـون يُسـمُّونه بخميـس العـهد، فـإنَّ أهـل الشَّـام يُسـمُّونه خميس الأرز، وخميس البيض، وهذا يُشير إلى انتشاره في الولايات الإسلاميَّة، ولعلَّ ذلك بسبب امتداد سُلطة الفاطميِّيْن إلى بلاد الشَّام[3].

كما ويُوجد أعياد أُخرى أُلغيـت فيمـا بعـد، منـها عيـد النّـوروز[4]، عيـد المـهرجان[5]، وغيرها[6].

8 ـ المآتم والأحزان:

تتَّصل أحزان دمشق على حالات عدَّة، منها الوفاة ومُسبِّباتها مـن الظُّرُوف الصِّحِّيَّـة، والكوارث الطَّبيعيَّة، والمشاكل السِّياسيَّة، وغيرها، فإنْ حضرت أحدهـم الوفـاة، يُعلـن عـن ذلك في مئذنة المدينة، إنْ كان من الأُمراء أو العُلماء وأربـاب الوظـائف الكُبرى والتّجَّـار[7]، بينما تنتشر أخبار وفاة العامَّة بين النَّاس بالصّلة أو المعارف بينهم.

---

(1) الغزِّي، نهر الذّهب، 1/ 244.

(2) أحمد رمضان، المُجتمع، ص209.

(3) المقريزي، الخُطط، 1/ 495، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السِّياسي، ط2، القاهرة، 1982، 4/ 645.

(4) وهي بدايـة السَّنة الفارسيَّة Mazhery, Live Qutidiem, p.64، ويصـف المقريـزي أنَّ النّـوروز القُطبي في أيَّامهم، وتُغلق الأسواق، وتُوزَّع الكسوة مع رجال الدّولة، الخُطط، 1/ 393.

(5) وهُو نهاية السَّنة الفارسيَّة، الباشا، دراسات في تاريخ الحضارة، ص130 ـ 131.

(6) الباشا، دراسات في تاريخ الحضارة، ص130 ـ 131، عبَّاس محمود العقَّاد، العبقريَّـات الإسـلاميَّة، بَيْرُوت، ب، ت، 2/ 242 ـ 248.

(7) أحمد رمضان، المُجتمع، ص251.

وقد اتَّبع أهل دمشق في هذه المُناسبة مراسيم خاصَّة منها، أنَّ عمليَّة غسل المُتوفَّى[1] يحضرها أهله وأصدقاؤه[2]، وتُثبت طبيعة وفاته بشكل سليم أثناء عمليَّة الغسل أمام الحاضرين، ثُمَّ يُكفَّن بنسيج شرعي[3]، ليس فيه بهرج، ولا خُرُوج عن كفن السّلف الصّالح، تُشيَّع ـ بعدئذ ـ الجنازة إلى أحد الجوامع؛ حيثُ تُقام صلاة الجنازة[4] عليه، قال ابن جُبير: (يمشون أمام الجنائز بقُرَّاء، يقرؤون القُرآن بأصوات شجيَّة وتلاحين مُبكية، تكاد تنخلع لها النُّفُوس شجناً وحناناً، يرفعون أصواتهم بها، فتتلقَّاها الآذان بأدمع الأجفان)[5]، وفي تقاليدهم تنقطع المراسيم عند باب الجامع، إذا كان المُتوفَّى من عامَّة النَّاس، في حين يستمرُّون في قراءة القُرآن حتَّى موضع الصّلاة عليه، إذا كان المُتوفَّى من علية القوم، فيما رُوي أنَّ المُتوفَّى من هذه الفئة يُقصد به إلى الجامع الأُموي، قال ابن جُبير: (وربَّما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصّحن، بإزاء باب البريد، فيُصلُّون أفراداً أفراداً، ويجلسون وأمامهم رُبعات من القُرآن يقرؤونها، ونُقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنّداء لكُلِّ واصل للعزاء من مُحتشمي البلد وأعيانهم)[6].

ويُلقَّب الذين يحضرون عزاء المُتوفَّى من علية القوم بألقاب مُتعدِّدة تكريماً واحتراماً، وقد علَّق على ذلك ابن جُبير بقوله: (فتسمع ما شئت من صدر الدِّين، أو شمسه، أو بدره، أو نجمه، أو قرينه، أو بهائه، أو جماله، أو مجده، أو فخره، أو شرفه، أو مُعينه، أو مُحبِّيه، أو زكيه، أو نجيبه، إلى ما غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة، وتتبعها ولاسيَّما في الفُقهاء بما شئت أيضاً من سيِّد العُلماء، وجمال الأئمَّة، وحُجَّة الإسلام، وفخر الشّريعة،

---

(1) أُطلق على المُؤسَّسات الجنائزيَّة الخاصَّة بتغسيل الموتى وتجهيزهم للدَّفن، مغاسل الموتى، وهي مُؤسَّسة خيريَّة، تقوم بتغسيل الأموات من الفُقراء، وتجهيزهم للدفن، عاشور، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة، الكُويت، 1987، ص284 ـ 285.

(2) الغزِّي، نهر الذّهب، 1/ 256.

(3) يكون الكَفَنُ واحداً أو اثنَيْن، وهُو من الكتَّان، ويُمنع استخدام الحرير بالنِّسبة للرِّجال، ولكنَّ النِّساء تُكفَّن بأكفان أكثر من الرِّجال. Mazahery, Lavie Qnlidien, P.65.

(4) الغزِّي، نهر الذّهب، 1/ 254.

(5) الرّحلة، ص267، ابن بطُّوطة، الرّحلة، ص106.

(6) ابن جُبير، الرّحلة، ص267.

وشرف الملَّة، ومُغنِّي الفريقَيْن، إلى ما لا نهاية من هذه الألفاظ المُحاليَّة)[1]، ثُمَّ يتوجَّه كُلُّ واحد بحسب مكانته لتقديم التّعزية.

وبعدها؛ يُشيَّع إلى المقبرة؛ حيثُ تُقرأ أثناء ذلك قصيدة البُوصيري[2] المشهورة بالبردة، ومنها:

أَمِنَ تذكُّر جيران بذي سَلَمَ	مَزجْتَ دَمْعاً جَرَى من مُقلةٍ بَدَمِ
أَمْ هَبَّت الرِّيحُ من تلقاء كاظمةٍ	وَأَوْمَضَ البرقُ مِن الظُّلماءِ من أضمِ
فما لعَيْنَيْكَ إنْ قلتَ اكففا همَّتا	وما لِقَلْبِكَ إنْ قُلْتَ استفقْ يهم
أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ	ما بين مُنسجِم منه ومُضطرمِ[3]

وعند نُزُول المُتوفَّى إلى قبره يقوم جماعة بقراءة سُورة ياسين، ثُمَّ تبارك، ثُمَّ الإخلاص، ثُمَّ المُعوِّذتَيْن، ثُمَّ الفاتحة، وأوائل سُورة البقرة، طيلة مراسيم الدّفن، وبعدها؛ يُهال التُّراب على المُتوفَّى، وعندها؛ يصيح المُؤذِّن في النَّاس، غفر الله لعبد جلس، فيجلس الجميع وَضْع القُرفصاء، يُنصتون حتَّى ينتهي أحد الشُّيُوخ من تلقين الميِّت بالتَّوحيد والدّعاء والغُفران، وكان النَّاس تُفضِّل دفن موتاهم عند الأئمَّة الصَّالحين والشّهداء[4].

وفي المراسم المُتَّصلة بهذا المعنى بعد الانتهاء من مراسيم الدّفن، يجتمع الأهل والجيران والأصدقاء بعد صلاة العشاء في مجلس يستمعون فيه إلى قراءة القُرآن، ويتصدَّقون على الفُقراء والمُعوَّزين بالمال والطّعام والكساء، ويستمرُّ هذا التَّجمُّع لمُدَّة ثلاث ليال تُعرَف بالصّباحيَّة[5]، والرّاجح أنَّ الميسورين من الأغنياء، ومَنْ يتمتَّع بالقُدرة الماليَّة والمنزلة الاجتماعيَّة، كان يُبالغ في هذه المراسيم، ويزيد من الأُبَّهة والفخامة فيها، في حين يتعذَّر

(1) ابن جُبير، الرّحلة، ص267.

(2) هُو الشّاعر المعروف البُوصيري (694هـ/ 1294م)، صاحب القصيدة المشهورة بالبُردة تكريماً لرسول الله ﷺ، وكانت تُنشَد في أيَّام الجنائز، ويستز، الحضارة العربيَّة، ص260.

(3) البُوصيري، ديوان البُوصيري، تحقيق مُحَمَّد رشيد الكيلاني، ب، ت، ص190.

(4) يُفضِّل الأثرياء الدّفن في الأماكن المُقدَّسة، Mazqhery, Lavie Qntidien, P. 70

(5) الغزِّي، نهر الذّهب، 2/ 257-258، Mazqhery, Lavie Qntidien, P. 80

ذلك على الطّبقات الفقيرة وعامَّة النّاس، فلا شكَّ أنَّ مراسيم الدَّفن عندهم أكثر بساطة، وأقلُّ تكليفاً لما يترتَّب على ذلك من نفقات.

ولم تكن التّقاليد والعادات تسمح باصطحاب النِّساء في مراسيم الدّفن، بل عليهنَّ البقاء بالدّار والتّأسِّي بما يُقرأ بالمُناسبة من قبَل القارئة (الملاَّية)، ورُوي أنَّه - في المُدد اللاَّحقة - مُنعت النّسوة من البُكاء والعويل على الميِّت، لما رُوي عن السّلف الصّالح أنَّه غير مُستحبٍّ[1].

2 - وسائل التّسلية:

عرفت دمشق أنواعاً مُختلفة من وسائل التّسلية واللّهو، عبر عُهُودها السِّياسيَّة، وهي موروثة من التُّراث العربي الذي عرفه العرب قبل الإسلام، والعُصُور اللاَّحقة، وكان بعض تلك الألعاب والوسائل ما تختصُّ بالحُكَّام والأُمراء وذوي النُّفُوذ، في حين اختصَّت بعض الألعاب ووسائل التّسلية بالعامَّة من النَّاس، ولكنَّ الصُّورة العامَّة التي تميَّز بها المُجتمع الدِّمشقي في وسائل لَهْوه وتَسْليته، تلك الألعاب التي اختصَّت بعلية القوم؛ بسبب سعة مساحتها، والقُدرة على توفير مُستلزماتها، والمهارة فيها، ومنها:

1 - سباق الخيل:

اهتمَّ العرب قبل الإسلام بالخيل وتربيتها ومُعالجة أمراضها وأنسابها، حتَّى إنَّ بعضاً منهم ألَّف بأنسابها وصفاتها الكُتُب والمُصنَّفات، ومنهم ابن الكلبي وأمثاله[2]، وارتبط بالخيل وتربيتها نظام الفُروسيَّة الذي عرفه العرب قبل الإسلام[3] بصفته نوعاً من أنواع الرّياضة، فضلاً عن خُصُوصيَّته في المهارة والتّسلية.

وفي ظلِّ الإسلام تبوَّأ الفارس مكانة مُتقدِّمة ضمن أسلحة الجهاد والدّفاع التي شرَّعها الإسلام، فكان للفارس ثلاث حُصص في الغنائم، بينما كان للرَّاجل واحدة،

---

(1) ابن الحاجّ، المدخل، 2/ 221.

(2) كان عيَّاش بن الزّبرقان نسَّاباً، في الخيل عارفاً، حتَّى قال عنه عبد الملك: (أعجبني في معرفته بأنساب الخيل)، الجاحظ، البيان والتّبيين، 1/ 305.

(3) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 6/ 14 - 15، جُرجي زيدان، تاريخ التَّمدُّن الإسلامي، 5/ 179.

وهذه مسألة تُبيِّن لنا أهميَّة سلاح الخيل والفُروسيَّة في الإسلام، ورُوي عن الرَّسول ﷺ، أنَّه كان يسمح بمُمارسة رياضة سباق الخيل[1]، وهُو حال يُعبِّر عن الرَّغبة في التّمرين على رُكُوب الخيل وتنشيط الخُيُول، وبيان الفُرُوق الفرديَّة بينها من جهة، وبين القائمين على تربيتها من جهة أُخرى.

استمرَّ الخُلفاء والسّلاطين على هذا النّهج، في الأمصار الإسلاميَّة، ومنها دمشق، التي اشتهرت بالميدان الأخضر وميدان الحصى[2]، بصفتها من الأماكن المعهودة بترويض الخُيُول وتدريباتها عبر العُهُود السِّياسيَّة، ومنها ما اشتُهر عن نُور الدِّين زنكي بكونه حالة من صُور الفُروسيَّة، ولكنَّه كان يختصُّ بأنواع خاصَّة من الخُيُول يستخدمها في السّباق، ممَّا دفع به هذا الأمر أنْ يستعير الفرس الفرنجي الذي يملكه ابن مُنقذ لعدَّة مرَّات لخُصُوصيَّته في العَدْو والجري، وطُول نَفَسه في السَّباق، ولشدَّة وَلَعه بهذا الفَرَس، فقد أهداها إليه ابن مُنقذ، وجاء في بيان ذلك أنَّه قال: (ثُمَّ أصبح سبق فيها وُرُوده إلى إصطبلي، وعاد، استدعاه من البلد، فسبق به، فحملتُهُ إلى إصطبله)[3]، وربَّما أثَّرت هذه الصِّلة بخُصُوص حُبِّه للخيل، أنَّها زادت من تقرُّبه من آل مُنقذ، وانعكست زيادة علاقته الوُديَّة معهم.

وكانت الخيل وسيلة للحُصُول على الإقطاعات والأُمراء، كما فعل آل مهنَّا وآل فضل، الذين استثمروا حُبَّ السَّلاطين والحُكَّام لخُيُولهم ليمتلكوا عوضاً عنها المُقاطعات والأراضي والضّياع في بلاد الشّام[4]، ممَّا أسهم في الارتقاء بمنزلتهم الاجتماعيَّة، وقُوَّتهم القبليَّة العشائريَّة[5].

---

(1) ذُكر أنَّ أحد الأنصار طلب من الرَّسول ﷺ السّباق، فأجابه الرَّسول ﷺ، ووجَّه أُسامة بن زيد ليتسابق معه. انظر ابن حجر العسقلاني، الإصابة في معرفة الصّحابة، وتحقيق طه مُحَمَّد الزّيني، ط1، 1969/ 1/ 415، وأبو حيَّان التّوحيدي، الإمتاع والمُؤانسة، 2/ 30.

(2) ويقع جنوب البلد على أرض حصباء، ومن هُنا جاء اسمه، وهُو مُخصَّص لتدريبات العسكر، سُوفاجيه، دمشق الشَّام، ص40.

(3) ابن مُنقذ، الاعتبار، ص46.

(4) إبراهيم طرخان، النُّظُم الإقطاعيَّة، القاهرة، 1968، ص26، أحمد رمضان، المُجتمع، ص185.

(5) المقريزي، السُّلُوك، 2/ 526 ـ 257، أحمد رمضان، المُجتمع، ص185.

وكنتيجة لحُبِّ السَّلاطين والنّاس للخُيُول والاهتمام بها، أُنشئ سُوق تحت القلعة سُمِّي سُوق الخيل، قُرب الميدان الذي تتزوَّد منه خيَّالة الجيش بخُيُولها، وهذا السُّوق يقع إلى جوار الميدان الأخضر، وهُو الميدان الذي يحضره كبير قادة العسكر مرَّتَيْن في الأُسبُوع من أجل استعراض الخيل والسِّلاح والعتاد، وإعلان ما يتَّصل بالعسكر من التّرقيات والقرارات[1].

وكان لحُضُور كبير قادة الجيش في دمشق، وما يُرافقه من حُضُور بعض مُوظَّفي المدينة، كالقاضي وغيره، أثره في ازدهار سُوق الخيل الذي يقع تحت القلعة من خلال كثرة المُرتادين إليه من مُختلف المهن والحرَف، ذات الصِّلة بتربية الخيل كتُجَّار الأقمشة والثّياب، والخيَّاطين، وصُنَّاع الأسلحة، وباعة الأسلحة العتيقة، وأصحاب المطاعم، وغيرهم[2].

وإذا كانت تربية الخُيُول والاهتمام بها عند أهل دمشق عُمُوماً، تُشير إلى حاجتهم ومنافعهم فيها، وإلى تمثُّلهم بنظام الفُروسيَّة وغرس قيَمه التي توارثها العرب عبر العُصُور، فإنَّ هذا الجانب يستدعي - أيضاً - التَّخصُّصيَّة في ملابس الفُرسان والخيَّالة، التي نوَّهت عنها المصادر بأنَّها كانت تُمثِّل بالسّراويل والسّترة، عوضاً عن الملابس الفضفاضة العاديَّة[3]، والرّاجح أنَّ هذه الملابس عُرفت عبر العُهُود السِّياسيَّة المُتوالية التي تعاقبت على دمشق.

2 - اللّعب بالكُرة والصّولجان:

عرف العرب هذه الرّياضة بأسماء مُتعدِّدة[4] منها الطّواجة والصّولجان والطّشخان والجوكان[5]، وهي ضرب الكُرة من على ظَهْر الخيل، وتُصنع الكُرة من مادَّة مرنة كالفلِّين ونحوه، وتُلقى في أرض الميدان، فيتسابق الفُرسان في التقافها بعصى يُسمُّونها

(1) سُوفاجيه، دمشق الشَّام، ص35 - 40.

(2) سُوفاجيه، دمشق الشَّام، ص40.

(3) سيِّد أمير علي، تاريخ العرب والتَّمدُّن الإسلامي، 171 - 172.

(4) كما أُطلق عليه اسم البُولُو (POLO)، مُحَمَّد أسعد طلس، الحياة الاجتماعيَّة، مجلَّة المجمع العلمي العراقي لسنة 1951، ص218.

(5) الجوكان: كلمة فارسيَّة معناها العصا، أو الجوكان التي تُضرب به الكُرة في اللُّعبة، وهي عصا مدهونة طُولها نحو أربعة أذرع، برأسها خشبة محزومة معقوفة، تزيد على نصف ذراع، القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 5/ 458، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 435، أحمد تيمور، اللّعب عند العرب، ص55.

الصّوجان[1]. وقد ولع الأُمراء والسّلاطين بهذه اللّعبة، فأنشؤوا لها الميادين، ووصفوا لها نظاماً خاصَّاً، وحدَّدوا الأوقات التي يلعب فيها، كما أعدُّوا ما يلزمها من الخُيُول، وخصَّصوا لها مُشرفاً يُشرف على ميدان اللّعب، يُعرف بالجوكندار[2]، والرّاجح أنَّ هذه اللُّعبة كانت تختصُّ - على الأغلب - بالأُمراء والحُكَّام لخُصُوصيَّة مُستلزماتها، ولكنَّها كانت مُناسبة لحُضُور النَّاس طلباً للمُتعة والنُّزهة.

ومن الأماكن التي تُقام بها هذه اللّعبة، هُو الميدان الأخضر، الذي يقع غربي دمشق، على مرج فسيح، يتَّصل بنهر بردى بشكل مُستطيل يصل طُوله (500م) وعرضه بحُدُود (150م)، ويحتوي على مُستلزمات اللُّعبة من الشّواهد المُختلفة، ويُؤطِّره سياج من الأشجار المُزهرة، في حين كان الميدان الآخر، وهُو ميدان الحصى ساحة أُخرى لهذه اللّعبة، وإنْ كان أصغر حجماً من الأوَّل، وموقعه في جنوب دمشق على أرض حصويَّة، ومن هُنا جاء اسمه ميدان الحصى، على أنَّ هذَيْن الميدانَيْن لم يكونا ساحة لعب فحسب، وأنَّما كانا يُمثِّلان مُعسكرَيْن للجيش وتدريباته، جعل منهما حُكَّام دمشق موطناً للعسكر الفائض عن حاجة القلعة[3].

وكان نُور الدِّين من المُولعين بلعب الكُرة، فقد وُصف بأنَّه (كان من أحسن النَّاس لعباً بالكُرة، وأقدرهم عليها، وربَّما ضرب الكُرة، وتجري الفُرس، ويتناولها بيده في الهواء، ويرميها إلى آخر الميدان)[4]، كما وصفه ابن واصل بقوله: (لم يُرَ على ظهر فرس أشدَّ منه، كان أكثر النَّاس لعباً بالكُرة، خُلق عليه، لا يتزلزل، وكان أحسن النَّاس لعباً)[5]، وكان يلعبها مع خواصِّه[6].

ويظهر أنَّ الأعياد والمُناسبات هي أكثر الأوقات فُرصة لمُزاولة هذه اللُّعبة، ففي يوم العيد كان نُور الدِّين يتوجَّه إلى الميدان الأخضر بعد صلاة العيد؛ حيثُ تُضرَب له خيمة

---

(1) طلس، الحياة الاجتماعيَّة، ص218.

(2) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 5/ 458.

(3) سُوفاجيه، دمشق الشَّام، ص35، صفوح خيِّر، مدينة دمشق، ص163.

(4) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدُّريَّة، ص229.

(5) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 10/ 279.

(6) أبو شامة، الرَّوضتَيْن، 1/ 580.

لُمباشرة لعبته المُفضَّلة، الكُرة والصّولجان[1]، ولكثرة ولعه بها؛ كَتَبَ له أحد أصحابه الصّالحين، يلومه على ذلك، حين بَلَغَهُ اهتمامه، بها بقوله: (إنَّك تلهو، وتلعب، وتُعذِّب الخيل بدُون فائدة دينيَّة، فَكَتَبَ له نُور الدِّين يقول له: والله ما حمَّلني على اللّعب بالكُرة اللّهو والسّيطرة، إنّما نحنُ في ثغر العدوِّ، وهُو قريب منّا، وبينما نحنُ جُلُوس؛ إذْ يقع الصّوت، فتركب في الطّلب... ومتى تركنا الخيل على مرابطها، صارت جماماً، لا قدرة لها على إدمان المسير في الطّلب، ولا معرفة لها بسُرعة الانعطاف في الكرِّ والفرِّ في المعركة، فنحنُ نركبها ونُروِّضها بهذا اللّعب، فيذهب جمامها، وتتعوَّد على سُرعة الانعطاف والطّاعة لراكبها في الحرب)[2]، ويظهر من النَّصِّ أنَّ منافع هذه اللُّعبة مُزدوجة، من جهة وسيلة للمُتعة والبهجة، ومن جهة أُخرى؛ فُرصة لمُزاولة التّدريب للفارس والفَرَس.

وانتقل الاهتمام بهذه اللُّعبة إلى السَّلاطين المماليك فيما رُوي عن بيبرس أنَّه كان يُخصِّص يوماً بمعيَّة شُؤُونه الأُخرى ذات الصِّلة، بتفقُّد المماليك والقلاع والجوانب المُختلفة لدولته، حتَّى وصفه أحد الشُّعراء بقوله:

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز ويوماً بالشّام ويوماً في قُرى حلب[3]

وفي الغالب؛ تكون مُناسبة إقامة اللُّعبة هذه فرحة لتوزيع الهدايا والهبات على بعض الأُمراء[4]، وقادة الجيش الذين يُحقِّقون بضربها من خلال مهارتهم في اللُّعبة، ومن أجل أنْ يستعدَّ المُتسابقون بمُؤهلاتهم لهذه اللُّعبة، وكان على المهزوم فيها أنْ يُقيم وليمة للفائزين والحاضرين، وقد تُكلِّف مبالغ طائلة[5].

---

(1) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدُّرِّيَّة، ص228.

(2) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص164 ـ 165، ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 265 ـ 267.

(3) العبَّادي، قيام دولة المماليك الأُولى في مصر والشام، ص239.

(4) المقريزي، السُّلُوك، 1/ 444.

(5) أحمد رمضان، المُجتمع، ص294.

3 ـ اللّعب بالقبع والبندق:

ومن الألعاب التي مارسها أهل دمشق في هذه المُدَّة رمي القبع[1]، الذي عُدَّ نوعاً من التّسلية، وتتمثَّل هذه اللُّعبة بوُجُود خشبة في الميدان المُعدّ لها، وتتَّصل بها دائرة من الخشب، يُحاول فيها الرُّماة والمُتسابقون أنْ يُقدِّموا بسهامهم عبر جوف تلك الدّائرة، لكي يمرَّ السّهم من خلالها؛ ليصل إلى الهدف المُعيَّن[2]، وأشارت بعض الموارد إلى طبيعة هذه اللّعبة بحال أُخرى[3]، وهي ـ في كلَيْهما ـ تحتاج إلى المهارة في الرّماية وفنِّ التّصويب.

وينال الفائزون من الحُكَّام الهدايا والخُلع، بصفتها جوائز مُجزية لمهاراتهم، فمن كان من الأُمراء خُلع عليه بفَرَس، وإنْ كان من غيره خُلع خُلعاً أُخرى[4]، وفي هذا إشارة إلى أنَّ اللُّعبة لم تكن مُقتصرة على الحُكَّام والأُمراء، بل كان يُمارسها بعض ممَّن يتَّصل بخدمتهم.

وأشارت الرّوايات إلى اهتمام نُور الدِّين بهذه اللُّعبة ومُمارسته لها في المُناسبات والأعياد في الميدان الأخضر كجُزء من اهتمامه بالألعاب العامَّة المُسلِّية[5].

أمَّا البُندق؛ فهي لُعبة أُخرى تتكوَّن من عدَّة كُرات تختلف في صناعتها، كأنْ تكون من الطّين أو الحجارة أو الرّصاص أو غيرها من الموادِّ، وتُرمى في الهواء، ويُحاول المُتسابقون اصطيادها، وهي معروفة عند العرب مُنذُ عُصُور سابقة[6].

وقد حظيت هذه اللُّعبة باهتمام الخُلفاء والأُمراء في المُدد اللاّحقة، حتَّى رُوي عن الخليفة النّاصر لدين الله (575 ـ 622هـ/ 1179 ـ 1225م)، اهتمامه بهذه اللُّعبة بمعيَّة اهتمامه

---

(1) كلمة تُركيَّة معناها الاصطلاحي الهدف الذي يُستعمل في اللُّعبة، المقريزي، السُّلُوك، 1/ 518، أحمد رمضان، المُجتمع، ص293.

(2) المقريزي، الخُطط، 2/ 180، أحمد رمضان، ص293.

(3) وقد ذكر ابن تغري بردي تفاصيله بصفة أُخرى، وهي أنْ يكون بدل الدّائرة الخشبيَّة، في بعض الأحيان، قُرعة عسليَّة من الذّهب أو الفضَّة، بداخلها حمام، ثُمَّ يأتي الرّامي بالنّشاب، وهُو سائق فَرَسه، ويرمي عليها، فمَنْ أصاب القُرعة وطيَّر الحمام، خُلع عليه، النُّجُوم الزّاهرة، 18/ 16.

(4) أحمد رمضان، المُجتمع، ص، 290، نقلاً عن العيني، عقد الجُمان، سنة 675.

(5) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 260، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدُّرِّيَّة، ص328.

(6) طلس، الحياة الاجتماعيَّة، ص، 278 ـ 279.

باللّعب الأُخرى[1]، التي تتَّصل بنظام الفُتُوَّة التي خوَّل صاحبها بتنظيم المُنتسبين إليها، من خلال اهتمامهم بشُؤُونها وألعابها المُختلفة، ولم يكتف بذلك، بل أرسل سنة (607هـ/ 1210م)، إلى مُلوك الأطراف[2]، الذين يعترفون بشرعيَّة الخلافة العبَّاسيَّة، ومنها دمشق[3]، بوُجُوب انتساب الذين يُمارسون لُعبة البُندق إلى الخليفة بصفتها إحدى اللّعب التي تُشكِّل نظام الفُتُوَّة؛ حيثُ يقف على رأسه الخليفة النّاصر، وإنَّ عمليَّة الانتساب لهذا النِّظام تستلزم أنْ يشرب المُنتسب كأس الفُتُوَّة[4]، ويلبس سراويلها، لكونها من خصائص النِّظام ومُستلزماته.

4 ـ الألعاب الأُخرى:

ومن الألعاب الأُخرى التي مارسها أهل دمشق الشّطرنج[5]، التي تعرَّف العرب عليها مُنذُ وقت طويل[6]، وازدادت سعة مساحتها في عُمُوم الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة، وولايتها فيما أشارت الرِّوايات إلى اهتمام صلاح الدِّين بهذه اللُّعبة الفكْريَّة، ولعلَّ ذلك يعود إلى اهتمامه بخُطط الحرب، وقد أشار الشّاعر حمَّاد الحرَّاني[7]، إلى ذلك بقوله:

تنقلُ المرءَ في الآفاقِ يكسبُهُ	محسناً لم تَكُنْ فيه ببلْدَتِه
أمَا تَرَى بَيْدَقَ الشّطرَنْجِ اكتَسَبَهُ	حُسْنُ التَّنقُّل فيها خَوْف بيئَتِه[8]

(1) ابن الفوطي، مُجمَّع الآداب، 4/ 1148، طلس، الحياة الاجتماعيَّة، ص279.

(2) أرسل الملك النّاصر إلى الملك العادل في دمشق، وكذلك الظّاهر صاحب حلب، وأبو الفتح غياث الدِّين صاحب الرُّوم، وكذلك صاحب حمص وشيزر وحمص، وغيرهم ممَّن كانوا يعترفون بخلافته، ابن الأثير، الكامل، 9/ 267، الصّفدي، نكت الهميان، ص91.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، 8/ 513.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، 8/ 513، ابن الفوطي، مُجمَّع الآداب، 4/ 1147.

(5) وهي اللُّعبة التي يعرفها المصريُّون القُدماء، ويظهر أنَّ الفُرْس هُم الذين جعلوها ذات طابع وأُصُول رياضيَّة، نسبوها إلى الملك أردشير، وقد زاد فيه الرُّوم الحصن. القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 2/ 141 ـ 142، ماجد، تاريخ الحضارة، ص138.

(6) ترجع معرفة المُسلمين بهذه اللُّعبة إلى عهد الرّشيد (170 ـ 193هـ)، ويُعَدُّ أوَّل مَنْ لعبها، أحمد رمضان، المُجتمع، ص350 ـ 160.

(7) حمَّاد بن هبة بن حمَّاد أبو الثّناء، التَّاجر الحرَّاني، تُوفِّي سنة 598، سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، 8/ 511.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، 8/ 511.

وفي العهد المملوكي ومن خلال سعة هذه اللُّعبة واتِّخاذها مهنة من قبَل بعضهم، حتَّى نُسب إليها، من ذلك ما ترجمه ابن حجر العسقلاني لأحمد بن مُحَمَّد الشّطرنجي[1] وغيره من الأعلام، ممَّن كان من وسط الفُقهاء والتُّجَّار[2]، ومعنى هذا أنَّ المُجتمع زاول هذه اللّعبة، بكُلِّ فئاته للتَّسلية والتّرويض العقلي، ويبدو أنَّ من شُرُوط مُمارستها عدم تعارضها مع الشّريعة الإسلاميَّة؛ إذْ يُشترط لَمنْ يلعبها عدم تأخيره للصَّلاة.

كما مُورست ألعاب أُخرى مثل المُصارعة والرّكض والسّباحة، حتَّى تفنَّنوا بها، وجعلوا لها شُرُوطاً وتقاليداً تدلُّ على عنايتهم بها، وبراعتهم في إتقانها، بينما كانت ألعاباً أُخرى تحمل إلى جانب التّسلية صُوراً من المُغامرة والنّفع المادِّي، منها المُناطحة بالكباش والمُناقرة بالدُّيُوك، ويدخل في هذا النّوع من الألعاب رَفْع الأثقال، والطّعن بالرُّمح، والمُلاكمة، والمُشابكة.

5 ـ الخُرُوج إلى المُتنزّهات:

ومن عادة أهل دمشق الخُرُوج إلى المُتنزّهات العامَّة، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾[3]، ولهذا؛ نجدهم لم ينسوا نصيبهم من الدُّنيا، وإنَّ حياة الجهاد والعبادة لم تَحُلْ بينهم وبين الاستمتاع بجمال بساتين ومُتنزّهات المدينة، وقد تناوبت المناطق التي يقصدها أهل دمشق للتَّنزُّه والرّاحة، والمُتعة، بخُصُوصيَّات مُختلفة، فمنها ما كان يختصُّ بالتّدريبات العسكريَّة وألعابها ومهاراتها، وبينها ما هُو مُفعم بالمُناظر الخلاَّبة، وجمال الطّبيعة، ومنها ما كان ميداناً لُمزاولة الألعاب المُختلفة لبيان المهارات الفرديَّة.

فالميدان الأخضر ـ بخُصُوصيّته ـ مكانهم المُفضَّل؛ إذْ يتوجَّه إليه الدِّمشقيُّون للتَّمتُّع ومُشاهدة العسكر وتدريباته ولعبه[4]، وإذا كان الميدان الأخضر مُقتصراً لأهل دمشق في الاطّلاع، ومُشاهدة المهارات الخاصَّة بالجيش، فإنَّ مُتنزَّه الجبهة كان مقصدهم في التَّمتُّع

---

(1) ابن حجر العسقلاني، الدُّرر الكامنة في أعيان المئة الثّامنة، تحقيق مُحَمَّد سعيد جاد الحقّ، ب، ت، 1/ 268.

(2) مُحَمَّد بن عبد الرّحمن السّخاوي، التّبر المسبوك في ذيل المُلُوك، القاهرة، ب، ت، ص235.

(3) القَصَص، آية (77).

(4) عزّ الدِّين خليل الظّاهري، زُبدة كشف الممالك، باريس، 1894، ص45.

بالمناظر الخلاَّبة، التي وُصفت بأنَّها (أرض مُربَّعة على مساحة فدَّانَيْن، عليها سقائف بين شجر الصّفصاف والجوز، وهي مفروشة بحصير تُحيط به جداول الماء من أربع جهات من البرك والبُحيرات والنّوافر، وهي على جنب نهر بردى، وبها النّواعير والحوانيت للطّبّاخين والحواضرة)[1].

في حين؛ تخصَّص مُتنزَّه الرّبوة[2]، الواقع على سفح جبل قاسيون[3]، بمُمارسة اللّهو المُباح كالحلق والشّعوذة وخيال الظّلّ[4] وغيرها[5].

وكان يوم السّبت من أكثر أيّام الأُسبُوع تنزُّهاً وبهجة عند الدِّمشقيِّيْن، بل هُو يوم الاستراحة لديهم بمُعظم فئاتهم، إنْ لم نقلْ بأجمعها، تلك ظاهرة تظهر بما كان سائداً بخُصُوص يوم السّبت بالولايات الإسلاميَّة المُختلفة، وهُو موروث المُجتمعات عبر العُصُور لاتِّصاله بالعقائد الدِّينيَّة، فيما أشار إلى ذلك أصحاب الرّوايات[6]، غير أنَّ شأن السّبت عند الدِّمشقيِّيْن، لم يكن شأنه عند الآخرين؛ من حيثُ خُصُوصيتّه في الاحتفالات بين فئات المُجتمع، فيما أشار إلى ذلك القزويني[7]، الذي خصَّ الميدان الأخضر بجماليّته الطَّبيعيَّة، وعدَّه مكاناً للنُّزهة لأهل دمشق، غير أنَّنا نجد تفصيلاً عند ابن بطُّوطة بهذا الشّأن، وهُو

---

(1) البدري، نُزهة الأنام، ص77 - 78.

(2) وهي على سطح جبل دمشق، ويقول المُفسِّرون أنَّها هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، وتتوسَّط البساتين والجبال التي تُحيطها جهاتها الأربعة، وقد أثَّر ذلك على مناخها الجميل، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (بَيْرُوت، 1960)، ص191.

(3) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص181.

(4) وهُو جُزء من التّمثيل الشّعبي يتزامن فيه الضّوء والصُّورة، وفيه مواعظ وحكَم، عن ذلك انظر ابن دانيال، خيال الظّلّ وتمثيليَّات ابن دانيال، تحقيق إبراهيم حمادة، مصر، 1963، ص19، وما بعدها.

(5) وكذلك تُوجد المنيع، وهي منطقة جميلة اشتُهرت بجمالها وبهجتها، البدري، نُزهة الأنام، ص76 - 77.

(6) اتَّفق أهل العلم على أنَّ الله سُبحانه وتعالى ابتدأ الخلق يوم الأحد إلى يوم الجُمعة، ولم يكن في السّبت شيء من الخلق، فأصبح يوم السّبت منستة؛ أيْ قد تمَّت، وانقطع العمل معها، وأغلب الأقوام اعتبروه يوم راحة واستراحة، يُمارس خلاله الخُرُوج إلى البساتين ومُمارسة الصّيد وغيره، ابن منظور، لسان العرب، 2/ 342. ، الرّازي، مُختار الصّحاح، ص283، حبيب زيَّات، أيَّام السُّبوت، ص45.

(7) القزويني، آثار البلاد، ص191.

يصف أهل دمشق (لا يعملون[1] يوم السّبت[2] عملاً، إنَّما يخرجون إلى المُتنزّهات وشُطُوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين والمياه الجارية، فيكونون بها يومهم إلى اللّيل)[3]، ويصحُّ هذا الأمر على مُعظم فئات المُجتمع الدِّمشقي الرَّسميّ منها والشّعبي؛ حيثُ تُغلق الأسواق، وتُعطَّل الدّواوين والمكاتب، ويهجر أهل الدَّرْس حلقات تدريسهم في المساجد والأماكن الأُخرى، وهُم يرتدون أجمل حلَلهم وملابسهم، ممَّا يزيدهم بهاءً وجمالاً، حتَّى وصفهم أحد الشُّعراء في هذا المعنى:

كم سبت في دمشق أتى ... بالحُسن من يُوسُف الصّديق يحكيه

وقال آخر:

أمَّا دمشق فجنَّة ... يُنسى بها الوطن القريبُ

لله أيَّام السُّبُوت ... بها منظرها العجيبُ

انظر بعينكَ هل ترى ... إلاَّ مُحبَّاً أو حبيب[4]

ومن شواهد عُمُوم الرَّاحة أيَّام السّبت أنَّ القُضاة والشُّيُوخ[5]، يتَّخذون من البساتين موطناً للرَّاحة ومكاناً لاجتماعهم ومُسامراتهم، كما كان شأن الأطبَّاء في هذا، فقد أشار ابن أبي أُصيبعة، وهُو يُترجم رضي الدِّين الرّحبي[6] (ت 610هـ/ 1237م).

---

(1) كان يوم السّبت يوماً حُرّاً، لا يوم أمر، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص191، حبيب زيَّات، أيَّام السُّبوت، ص45.

(2) قال رسول الله ﷺ، (خير يوم طُلبت فيه الحوائج يوم السّبت، وخير يوم احتُجم فيه يوم الأحد، وخير يوم صُمتُم يوم الاثنَيْن...) نجم الدِّين عُمر النّسفي، القند في ذكر عُلماء سمرقند، تحقيق مُحَمَّد العامراني، مكتبة الكوثر، المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة، 1991، ص5، ومن هُنا؛ نجد اليهُود يُبطلون العمل يوم السّبت، حتَّى الختان فإنَّهم يُغيِّرون موعده إلى اليوم التَّالي، البَيْرُوتي، الآثار الباقية، ص285.

(3) ابن بطُّوطة، الرّحلة، ص87.

(4) حبيب زيَّات، أيَّام السُّبوت، ص45.

(5) كان القُضاة والشُّيُوخ يجتمعون أيَّام السّبت عند أحد الوُجهاء، ومنهم قُطب الدِّين بن الشَّيخ السّلاميَّة ناظر الجُيُوش الإسلاميَّة بالشّام (ت732) ويجتمعون على طعامه في أيَّام السّبت، وكان رجلاً فاضلاً، حبيب زيَّات، أيَّام السُّبوت، ص45.

(6) جعل الأطبَّاء يوم السّبت عُطلة رسميَّة لهُم، فهذا رضيُّ الدِّين الرّحبي جعل يوم السّبت يوم الخُرُوج إلى بُستانه للترويح عن نفسه والتَّمتُّع بالمناظر، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص674، حبيب زيَّات، أيَّام السُّبُوت، ص46.

غير أنَّ سبط ابن الجُوزي كان يستثمر يوم السّبت موعداً لمجلسه في الوعظ والفقه في الدِّين، وهُو - فيما نرى - سعيٌ منه بحُضُور أكبر عدد من أهل دمشق، باعتبار أنَّ هذا اليوم يوم عُطلتهم[1]، وقد روى أبو شامة، وهُو يصف مجلس السّبط (كان يجلس كُلَّ سبت، وتبسط السّجَّادات والحُصُر والبُسُطُ في كُلِّ المواضع القريبة من المنبر، ما بينه وبين القُبَّة في يوم الجُمعة، ويبيت النَّاس ليلة كُلَّ سبت يقرؤون القُرآن على الشُّمُوع، وكُلٌّ ذلك فرحاً بالمجلس، ومُسابقة إلى الأماكن، وعادة الدِّمشقيِّين التَّفرُّغ في أيَّام السّبت، ويُبطِّلون عن أشغالهم بالمدينة، وينقطعون في بساتينهم، وكانوا لا يفوتون حُضُور المسجد، ثُمَّ ينصرفون منه إلى فرحهم، فلا ينقضي يومهم إلاَّ بالتّذاكر لما وقع منه من المحاسن، وإنشاد الأشعار، والتَّحدُّث بمَنْ أسلم فيه، أوتاب، وإيراد ما كان فيه من سُؤال وجواب، ولم يزل على ذلك مُدَّة سنتَيْن، ثُمَّ اقتصر المجلس في الأشهر الثَّلاثة، رجب وشعبان ورمضان، كُلَّ سبت)[2].

6 - الصّيد:

كان الصّيد شائعاً لدى أهل البادية خاصَّة، فهُو ليس للنُّزهة والرّاحة فحسب، وإنَّما وسيلة من وسائل الارتزاق من جهة، ومن جهة أُخرى، فهُو أُسلوب من أساليب التّمرين والمهارة، ولعلَّ أهل البادية كانوا بحاجة إلى ذلك، بسبب طبيعة حياتهم الصّعبة، ثُمَّ أصبح الأمر في ظلِّ الدَّولة العربيَّة، وحضارتها نوعاً من الرّياضة المُمتعة[3]، بل كان الخُرُوج إلى الصّيد عند الأُمراء والحُكَّام وذوي الشّأن، يتخصَّص بالتّسلية والتّدريب والمهارة، وكان يمرُّ بمرحلتَيْن تُنظِّمهما عادات وتقاليد خاصَّة بهما؛ المرحلة الأُولى تتعلَّق بصيد الطّير، وتبدأ بإطلاق الطُّيُور التي يصطحبونها في الهواء، يُرمى لها الحَبُّ لتهبط عليه، في حين يُشكِّل الصَّيَّادون من الأُمراء حلقة تُحيط بتلك الطُّيُور، وهي تلقط الحَبَّ، فيُذعرونها بضرب

---

(1) أَوْرَدَ القزويني: في هذا اليوم لا يبقى للسَّيِّد على المملوك حرج، ولا للوالد على الولد حرج، ولا للزَّوج على الزّوجة حرج، ولا للأُستاذ على التِّلميذ حرج، فكان أوَّل النّهار يطلب كُلٌّ واحد من هؤلاء نفقة يومه، فيجتمع المملوك بأخوانه المماليك، والصّبي بأقرانه، والرِّجال بأقرانهم، والنِّساء بأخوانها، وهُم في البساتين الغنَّاء، القزويني، آثار العباد، ص191.

(2) أبو شامة، الذّيل على الرَّوضتَيْن، ص49.

(3) ماجد، تاريخ الحضارة الإسلاميَّة، ص141.

الطُّبول، وما أنْ تُحلِّق بطيرانها، حتَّى يترصَّدها الأُمراء لاصطيادها، وإذا ما انتهت هذه المرحلة من المران والتّدريب، يتوجَّهون إلى المرحلة الثَّانية المُتّصلة بصيد واقتناص الوُحُوش، عندها يُشكِّل السُّلطان وأعوانه من العساكر حلقة تُحيط بالسّاحة التي تنتشر بها الوُحُوش، ويُحاولون إغلاقها لتكون أنواع الوُحُوش المُختلفة ضمن هذه الحلقة مذعورة، وفي هذه الأثناء يُطلق السُّلطان وأعوانه الجوارح لإشاعة الذُّعر بين الوُحُوش، وهي في حال من الرُّعب والخوف، فيستأنس الصيَّادون بمنظرها المُثير، ممَّا يُسهِّل الصّيد للسُّلطان، فإنَّ أتمَّ ذلك يسمح لمُرافقيه الأُمراء لإتمام صيدهم[1].

وَصَفَ لنا ابن مُنقذ ما شاهده مع الأتابك زنكي بقوله: (وتدقُّ الطُّبول كجري العادة، فتصيد منها ما تصيد، وتُخطئ ما تُخطئ من ورائهم الشّواهين الكواهية)[2]، ويُضيف ابن مُنقذ عن حلقات الأتابك زنكي بقوله: (إذا اجتمعت الحلقة، واجتمع فيها الوحش، لا يقدر أحد أنْ يدخل الحلقة، وإذا خرج من الوحش شيء رموه، وكان من أرمى النَّاس، فكان إذا دنا منه الغزال رماه، فنراه كأنَّه قد عثر، فيقع، ويُذبح)[3].

ويُرافق الأُمراء في صيدهم الكثير من حيوانات الصّيد من جوارح وكلاب وغيرها، فقد كان يتقدَّم مواكب الأتابك زنكي مُروِّضو حيوانات الصّيد، التي ما أنْ ترى فريستها، حتَّى تنقضّ عليها[4]، كما ذكر ابن مُنقذ عن مُشاهدته لهذه الحالة، وهُو يصف مُطاردة أحد كلاب زنكي لثعلب، (فلحقتْ الكلبةُ الثّعلبَ، وأخذت ذَنَبَ الثّعلب، فرجع إليها، فعضَّ خُشُومها، فصارت الكلبة تعوي، ونُور الدِّين - رحمه الله - يضحك)[5]، وهكذا نجد نُور الدِّين يقضي وقته باللّعب للتَّرفيه عن النّفس من جهة، والتّدريب والحركة والرّكض من جهة أُخرى.

استهوى الصّيدُ - أيضاً - صلاحَ الدِّين في عهده؛ حيثُ عُرف عنه أنَّه كثير التَّنزُّه والتَّمتُّع بمناظر الطّبيعة وبساتينها الجميلة مع أهله وأخوانه، ومُرافقته لهُم في نُزهة الصّيد؛ حيثُ

---

(1) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 11/ 176، 169، 171، عاشور، الظّاهر بيبرس، ص189.
(2) الاعتبار، ص192.
(3) الاعتبار، ص193.
(4) الاعتبار، ص193.
(5) الاعتبار، ص193.

(يتفرَّج في أرض دمشق)[1]، ليتمتَّع بما فيها من حيوانات وبساتين، وإذا كان الصّيد لدى الأُمراء وسيلة من وسائل اللّهو والمُتعة، فهي - لاشكَّ - تقتضي الاستعداد وإتمام عمليّتها - وهُو الاستعداد - يتَّصل بالاعتناء بحيوانات الصّيد من حيثُ تربيتها وتجهيزها بالطّعام اللأّزم، ويُعَيَّن المُوظَّفين للاعتناء بشُؤُونها، فكان المعنيُّون بالطُّيور يُلقَّبون بالبازادار، في حين لُقِّب المعنيُّون بحيوانات الصّيد بـ (الجَونَدار)، ويتَّصل هذا الحال بعناية المُسلمين عُمُوماً بحياة الحيوان مُنذُ العُصُور الإسلاميَّة الأولى، فالجاحظ ألَّف كتاباً سمَّاه الحيوان، والدّميري ألَّف كتاباً سمَّاه حياة الحيوان الكُبرى، كما يتَّصل هذا الأمر باهتمام العرب المُسلمين بالكُتُب التي تتناول مُعالجة الحيوانات، وهُو ما عُرف بعلم البيطرة.

أمَّا فُرصة عامَّة النَّاس من الصّيد؛ فالرّاجح أنَّها كانت قليلة لَما تحتاج هذه العمليَّة من مُستلزمات ليس من اليسير توفيرها، على أنَّ الصّيد عند الخاصَّة من وسائل المُتعة، وهُو عند العامَّة من أسباب العيش.

7 - خيال الظّل[2]:

وهُو وسيلة من وسائل التّمثيل الشّعبي التي كانت لها مساحة واسعة بين الفُنُون العامَّة[3]، وقد تناولها المُؤرّخون والشُّعراء والأُدباء، وهذه الوسيلة تقتضي الصُّورة والضّوء، والمكان المُحكم لتُركِّز الضّوء على المُمثِّلين، ويتمثَّل في فناء دار أو فسطاط مُعيَّن.

وخيال الظّلّ هذا تُقيمه فرَق خاصَّة تجوب المُدُن والقُرى[4]، وتُوظّف إمكانيَّتها للآخرين في المواسم والأعياد وحفلات العُرس والختان ومواسم الحجّ والمولد النّبوي الشّريف، وغيرها من المُناسبات بكونها من وسائل التّسلية والسُّرُور الشّعبيَّة[5].

---

(1) عاشور، النّاصر صلاح الدِّين، ص272.

(2) أقدم الإشارات العربيَّة التي وردت عن خيال الظّلّ ترجع إلى أواخر العهد الفاطمي، حين أخذت تتطوَّر وتنتشر لإقبال النَّاس عليه، إبراهيم حمادة، خيال الظّلّ وتمثيليَّات ابن دانيال، ص39، وما بعدها.

(3) عبد الحميد يُونس، خيال الظّلّ، مصر، 1965، ص11.

(4) كانت التّمثيليَّات تُعرض عن طريق عرائس من الجلد أو الورق المُقوّى، وتُوضع خلف ستارة بيضاء من خلفها مصباح؛ بحيثُ تعكس ظلالها على السّتارة، ليراها النّاظر في الوجه الآخر، بتلك العرائس ثُقُوب ومُفصَّلات تجعلها سهلة الحركة، ويُحرِّك تلك العرائس مُقدِّم التّمثيليَّات، حسب الحوار الدّائر في القصَّة، عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام، ص27.

(5) أحمد رمضان، المُجتمع، ص302، منزل، مادَّة خيال الظّلّ، دائرة المعارف الإسلاميَّة، 9/ 51 - 52.

وابن دانيال (646 ـ 710هـ)[1]، من أشهر المُتعاملين بهذا الفنِّ الشّعبي، بل يُنسب إليه أنَّه طوَّره بأُسلوب اللّهجات التي كان يمزجها بين العاميَّة والأعجميَّة، حتَّى أصبحت هذه الطَّريقة منهجاً لغيره، ممَّن اهتمَّ بهذا الفنِّ الشّعبي[2].

واستطاع خيال الظِّلِّ ـ بما يُورده من مواعظ وحكَم ـ أنْ يتجاوز حُدُوده بكونه مُجرَّد وسيلة تسلية، وفي هذا يقول وجيه الدِّين بن عبد الكريم[3]، من القرن السّابع الهجري:

رأيتُ خيالَ الظِّلِّ أعظمَ عبرةٍ لِمَنْ كان في علمِ الحقائقِ راقي

شُخُوصٌ وأصواتٌ يُخالفُ بعضُها بعضاً وأشكالاً بغيرِ واقِ

وتُشير الرّوايات إلى اهتمام صلاح الدِّين بهذا الفنِّ الشّعبي؛ حيثُ عرض له مع وزيره القاضي الفاضل سنة 567هـ/ 1171م، ونال العرض إعجابه[4]، ويُعَدُّ حُضُور صلاح الدِّين في بداية دولته لهذا الفنِّ الشّعبي دليلاً على سعة ومساحة هذا الفنِّ، ومن الجدير ذكْره أنَّ شُيُوع خيال الظِّلِّ انعكس في شُيُوع بعض المُصطلحات غير العربيَّة، وهذا ما أُصطلح عليه بالدّخيل، بل كان هذا الفنُّ سبباً من أسباب ازدهار الشّعر الشّعبي.

ولعلَّ ظُهُور خيال الظِّلِّ ممَّا يُمكن عدُّه من الوسائل المُهمَّة في النَّقْد السِّياسي والاجتماعي، ووسيلة من وسائل انتشار الثّقافة والقيَم المحلِّيَّة بين المُجتمعات؛ من خلال انتقاله بين تلك المُجتمعات، وإذا كان ابن دانيال أحد مُطوِّري هذا الفنِّ، فقد انتفع كثيراً بمنهج مقامات الحريري وموضوعاته في صياغة عُنوانات عُرُوضه في خيال الظِّلِّ، التي امتزجت فيها العاميَّة بالفُصحى لمُحاكاة الشّكل المقامي[5].

---

(1) شمس الدِّين بن عبد الله دانيال، وُلد بالموصل سنة 646، وحفظ القُرآن، وتدرَّب، وهاجر إلى القاهرة بعد دُخُول المغول الموصل سنة 665هـ، كما أنَّه ولع بالأدب، ونبغ كشاعر ومُؤلِّف للكتابات الهزليَّة، تُوفِّي سنة 710هـ، الحنبلي، شذرات الذّهب، 6/ 27، منزل، مادَّة خيال الظِّلِّ، 9/ 51.

(2) إبراهيم حمادة، مُقدِّمة كتاب خيال الظِّلِّ لابن دانيال، ص39.

(3) الكتبي، فوات الوفيَّات، 1/ 125.

(4) إبراهيم حمادة، خيال الظِّلِّ، ص40.

Poul Kahle, The Arabic Shadow Playing, Egypt P.31-34.

(5) إبراهيم حمادة، خيال الظِّلِّ، ص40.

ومن الأمثلة بهذا الصّدد، ممّا يتّصل بالنَّقْد السّياسي[1] المُوجَّه للخليفة العبّاسي، هُو عرضة المُعنون من باباته (حاكم الرّيح)، وهُو يُشير بذلك إلى حال الخليفة السّياسيَّة، والتي سُلبت منه سُلطته السّياسيَّة والإداريَّة في ظلّ الاحتلال الأجنبي، ومنها أيضاً باباته (عجيب غريب)[2]، وهُو حال من حالات النَّقد المُوجَّه لقيَم المُجتمع السّائدة وباباته (المُتيَّم والضّائع واليتيم)[3]، التي انتقد فيها أساليب الغزل، والحُبّ، والمُخنَّثين، في حين كان باب حسن ظنّي، قد تناول حياة الرّيف، بينما تناول (حرب العجم أو لُعبة النّار)[4]، التي عرض فيها حياة التّتار والحُرُوب الصَّليبيَّة، وما خلَّفته من خراب ودمار في بلاد الإسلام.

أمّا عن طريقة عرض التّمثيليّات؛ فتُلخَّص في عمل عرائس وصُور من الجلد والورق، وتُوضع خلف ستارة بيضاء، ومن خلفها؛ بحيثُ ينعكس خلالها على السّتارة ليراها النَّظّارة من الوُجهة الأُخرى، وتحتوي العرائس والشُّخُوص على ثُقُوب ومُفصَّلات تجعلها سهلة الحركة، ويُحرِّك الخارق[5]، بعضاً منها بيده حسب الحوار الذي ينطق به المُقدِّم[6]، والذي يُشترط فيه أنْ يكون حادَّ الصّوت، حتَّى يستطيع أنْ يُركّز الانتباه عليه[7]، كما يُوجد رئيس الخيَّالين، والذي يقوم على الإخراج؛ ويُعرَف بالرّئيس، ويُوجد - هُناك - مَنْ يقوم بوظيفة المُهرِّج، فيأتي ببعض الحركات المُضحكة، سواء ذلك في صوته الذي يظهر في الشّاشة ومن حركاته وانتقاله، أو في عدم اتِّساق أفكاره، ويُمثِّل ظُهُوره على الشّاشة بمثابة الفاصل بين المشاهد[8].

---

(1) كان ينتقد ابن دانيال المُجتمع بكُلّ طبقاته، وذلك عندما كان يعمل بالكَحَّالة، السّخاوي، التِّبر المسبوك، ص153، أحمد رمضان، المُجتمع، ص304.

(2) ابن دانيال، خيال الظّلّ، ص187، أحمد رمضان، المُجتمع، ص304.

(3) ابن دانيال، خيال الظّلّ، ص232.

(4) عبد الحميد يُونس، خيال الظّلّ، ص85.

(5) وهُو الشَّخص الذي يقوم بتحريك الشُّخُوص (المخايل)، والذي يُشترط فيه الصّوت الحادّ، السّخاوي، التِّبر المسبوك، ص353، أحمد رمضان، المُجتمع، ص304، عبد الحميد يُونس، خيال الظّلّ، ص46.

(6) أحمد رمضان، المُجتمع، ص304. Paul Kaohe, The Arabic Shadow Playing, P. 42.

(7) عبد الحميد يُونس، خيال الظّلّ، ص36.

(8) عبد الحميد يُونس، خيال الظّلّ، ص38.

ويبدو أنَّ المُتنزَّهات هي أماكن هذا التّمثيل الشّعبي، وخاصّةً في يوم السّبت الـذي هُو يوم المرح واللّهو البريء؛ إذْ أصبح لخيال الظّلّ دور في الوعي السِّياسي والشّعبي، لما يطرحه من موضوعات عن تلك المرحلة، حتَّى غدا وسيلة مُهمَّة من وسائل النَّقد، أشاعت حال الوعي السِّياسي والاجتماعي نحو تحقيق وحدة العرب والمُسلمين.

8 ـ الغناء والمُوسيقى:

للغناء دور مُهمٌّ في بناء الوجدان الإنساني، والتّخفيف عن النَّفْس البشريَّة؛ كونه غذاءً رُوحيّاً تميل إليه الرُّوح، ومن هُنا؛ جاء تشجيع الخُلفاء والمُلُوك والسّلاطين والحُكّام لهذا الفنِّ، فيما أشارت الرّوايات إلى بذخهم بهذا الشّأن، حتَّى إنَّ ابن خلدون وصفه بالصّناعة بقوله: (آخر ما يحصل من العُمران من الصّنائع لأنَّها كماليَّة من غير وظيفة من الوظائف)[1].

وقد أشارت الكُتُب ذات الصِّلة بالغناء إلى أنواعه المُتعدِّدة[2]، وقد تَمكَّن فنُّ الغناء من بعض الأُمراء والحُكَّام من خلال رغبتهم، حتَّى انتهى بهم الأمر إلى تعلُّم المُوسيقى والعزف والمُرافقة للغناء، فيما رُوي عن نُور الدِّين أنَّه تعلَّم عزف النُّوتة الخُماسيَّة[3].

ولم يكن الغناء والمُوسيقى فنّاً معروفاً في أوقات المُتعة واللّهو، بل كان مظهراً من مظاهر الاستعداد للحرب وإشاعة الحماس في نُفُوس المُقاتلين، وتلك مسألة عرفها العرب قبل الإسلام، وعبر عُهُودهم التّالية، فقد رُوي أنَّ الأُمراء السّلاجقة، كانت لهُم جوقات على نظام المُوسيقى العسكريَّة، استخدموها في حُرُوبهم[4]، وتُشير الرّوايات ـ أيضاً ـ إلى خُصُوصيَّة تجمُّعات الجُيُوش الإسلاميَّة أثناء الحُرُوب الصَّليبيَّة بتوفير الآلات المُوسيقيَّة المُختلفة في المُعسكر لإشاعة الحماس القتالي، في حين تفتقر تجمُّعات الجيش الصّليبي لهذه الأُمُور، حتَّى إنَّ ريتشارد ملك إنكلترا أراد أنْ يرى حفلة من هذه الحفلات التي تعجُّ بها خيام الجيش

(1) المُقدِّمة، 428.

(2) عُرف للغناء أنواع، منها النّصب والإسناد؛ وهُو الثّقيل، والهزج؛ وهُو الخفيف، كذلك عُرف الغناء العادي أو المصحوب بالرّقص، الأصفهاني، الأغاني، 5/ 541، ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، 6/ 27، ماجد، تاريخ الحضارة، ص269.

(3) فارمر، تاريخ المُوسيقى العربيَّة، ترجمة حُسين نصَّار، مصر، ب، ت، ص241.

(4) يُوسُف مُزهر، تاريخ لُبنان العامّ، بَيرُوت، 1958، 1/ 236.

الإسلامي، وقد استجاب لرغبته الملك العـادل، حين دعـاه إلى واحـدة، فحضرهـا، وعـاد مسـروراً مـن مُشـاهدته[1]، والظّـاهر أنَّ فـنَّ الغنـاء والُموسيقى العربيَّـة الإسـلاميَّة، قـد أثَّـر بالصّليبيِّين الغُزاة، حتَّى نقل هؤلاء بعـض الآلات الُموسيقيَّة إلى بلادهـم، واستعملوها في مراكز الجيش[2]، وتجمُّعاته وحُرُوبه، فنقلوا بذلك هذه الصُّورة العربيَّة إليهم.

لقد زخر القرن السّادس الهجري/ الثَّاني عشر الميلادي بنوابغ الُموسيقى الذين أبدعوا في هذا المجال[3]، منهم أبو زكريًّا يحيى[4]، وهُو مـن أطبَّـاء صـلاح الدِّيـن، والـذي تُنسب إليـه آلـة مُوسيقيَّة تُعرَف بالأُورغن[5]، وصفي الدِّين عبد الُمؤمن[6]، ونجم الدِّين بن المنفاخ المعروف بـابن العالمة[7]، وفخر الدِّين السّاعاتي[8]، وأبو المجد مُحَمَّد بن الحَكَم[9]، وأبو النّصر أسعد بن إلياس بن المطران[10]، وابن النَّقَّاش البغدادي[11] وغيرهم[12].

---

(1) عبد العزيز سيِّد الأهل، أيَّام صلاح الدِّين، ط1، بَيْرُوت، 1961، ص149.

(2) ميخائيل زايوف، الصّليبيُّون في الشّرق، ص313.

(3) مُحَمَّد كُرد علي، دمشق مدينة السِّحر والشّعر، مصر، ب، ت، ص113.

(4) أبو زكريا البياسي، أندلسي هاجر إلى الشّرق، وقضى مُعظم حياته في مصر والشَّام، وكان طبيباً ومُوسيقياً، وكان تلميذ ابن النَّقَّاش في علم الُموسيقى، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص637، فارمر، تاريخ الُموسيقى، ص264.

(5) وهي آلة وَتَرِيَّة، تحتوي على عشرة أوتار، فارمر، تاريخ الُموسيقى، ص264.

(6) وهُو صفيُّ الدِّين عبد الُمؤمن، أشهر مَنْ كَتَبَ في الُموسيقى، فـارمر، صفـيُّ الدِّيـن، دائـرة المعـارف الإسـلاميَّة، 14/ 242.

(7) البُوَيْهي، ذيل مرآة الزّمان، 1/ 95.

(8) ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص661، مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، 4/ 207.

(9) وكان يلعب العُود، ويُجيد الغناء وسائر الآلات، صَنَعَ أُورغن، وبالغ في إتقانه، وكان من الُمقرَّبين لنُور الدِّين، ولهذا؛ نجده يُسند له أمر الطِّبِّ من مُستشفاه، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنبـاء، ص651، ابـن فضـل اللـه العُمـري، مسالك الأبصار، ج9، سنة 270، فارمر، تاريخ الُموسيقى، ص264.

(10) وُلد بدمشق من أُسرة مسيحيَّة، وعمل مع صلاح الدِّين، وتتلمذ على يد ابن النَّقَّاش، ابن أبي أُصيبعة، عُيُون الأنباء، ص651، ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ج9، ورقة 270.

(11) كان رياضياً عالماً بالُموسيقى بمدينة دمشق، وطبيب نُور الدِّين، ابن أبي أُصيبعة، عُيُـون الأنبـاء، ص636، ابـن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ج9، ورقة 271، فارمر، تاريخ الُموسيقى، ص264.

(12) لقد ألَّف الكتجي كتاباً عن الُمغنِّين في دمشق؛ حيثُ أورد سيرتهم والفترة التي عاشـوها، واسـتمراراً بـالقُرُون اللاَّحقة، ويدلُّ هذا على مساحة الغناء والُمغنِّين في دمشق، مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشَّام، 4/ 206.

وشهدت بلاد الشَّام في هذه المُدَّة ازدهاراً كبيراً في نُظُم المُوشَّحات، باعتباره لوناً من ألوان الغناء[1]، كما أسهم التَّصوُّف[2]، من جانبه في هذا المضمار، حتَّى نهج الشُّعراء في نَظْمهم منهج المُوشَّحات؛ بسبب شُيُوع هذا اللّون بين العامَّة والخاصَّة[3].

ولم يقتصر الغناء على أهل المدينة فحسب، بل كان لأهل البادية فنُّهم في هذا الشّأن من خلال تنوُّع ألوانه[4].

ولم تكن مساحة الغناء تَخُصُّ الرِّجال فقط، بل كان للنِّساء حظّهنَّ في ذلك، فقد اشتهرت في دمشق الكثير من المُغنِّيات؛ منها فرحة بيت المخايلة[5]، والمُغنِّية الحضرميَّة[6]، التي رافقت الجيش المُتوجِّه لحرب التّتار، وغيرهنَّ كثيرات[7].

وما يتعلَّق بالآلات، فهي الأُخرى مُتنوِّعة في أغراضها وأشكالها، فمنها الوَتَريَّة وتشمل العُود والزّيج[8] واللّوزة[9] والقيثارة[10]، وآلات الضَّرب والخشخشة كالطَّبل والدّفّ، فضلاً عن آلات النَّفْخ بالفم كالمزمار، وغيره[11].

---

(1) استخدم أصحاب المُوشَّحات المعاني والصُّور التّقليديَّة، لتكون ذات طابع غنائيٍّ، وهي المسيرة التي بقيت سالمة، وممَّن حمل لهذا شمس الدِّين الدّهَّان، فقد كان يُنشد الشّعر والعزف على القانون، باشا، أدب الدُّوَل المُتابعة، ص603.

(2) اتَّجه النَّاس إلى سماع الأناشيد الدِّينيَّة، فقد اجتمع فيها الغزل والغناء، وهي ما تسعى إليه الفئات الشّعبيَّة المُختلفة وغيرها بمجالسهم، باشا، أدب الدُّوَل المُتابعة، ص595.

(3) أحمد رمضان، المُجتمع، ص301.

(4) ومنه الغناء الحداء؛ وهُو في البوادي الشَّاميَّة الغربيَّة، وكذلك النّصب؛ وهُو للرُّكبان، والسّداد؛ وهُو الثّقيل، والهزج؛ وهُو الخفيف، ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، 6/ 207 طبعة 1956، ابن سيده، المُخصَّص، 6/ 123، 123، أحمد، المُجتمع، ص301.

(5) أحمد رمضان، المُجتمع، ص299.

(6) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 209.

(7) كما اشتهرت المُغنِّية دينا الأقباني بصوتها الجميل، والتي استُدعيت إلى القاهرة؛ حيثُ أكرمها حاكمها، وطلبتْ منه إسقاط ضريبة المكُوس، فأجابها، والتي من ضمنها ضريبة خاصَّة بالمُغنِّين، إبراهيم طرخان، النُّظُم الإقطاعيَّة، ص78.

(8) وهي آلة وَتَريَّة ذات سبعة أوتار، أحمد رمضان، المُجتمع، ص299.

(9) وهي كالرّبابة ذات سبعة أوتار، أحمد رمضان، المُجتمع، ص300.

(10) وهي آلة وَتَريَّة لها عشرة أوتار، أحمد رمضان، المُجتمع، ص300.

(11) أحمد رمضان، المُجتمع، ص300.

ومن خلال إبداع المُوسيقيِّين والمُغنِّين، فقد استُخدمت آلات جديدة منها آلة النُّزهة، التي نُسبت إلى صفيِّ الدِّين بن عبد المُؤمن، وهي من أنواع الرَّباب، كذلك آلة أُخرى أسماها (المُغنِّي) وهُو عُود مُنحنٍ، كما وَصَنَعَ أبو زكريَّا البياسي وأبو الحَكَم الباجي الأرغن الجديد، وأدخلوا عليه بعض التّحسينات[1].

ومن الجدير بالذِّكْر؛ أنَّ مُعظم الذين برزوا في فنِّ الغناء والمُوسيقى، لم يكونوا ممَّن امتهن هذا الفنَّ فحسب، بل إنَّ مُعظمهم كان ينتسب، ويُمارس مهنة أُخرى كالطِّبِّ وغيره، الأمر الذي يُشير إلى أهمِّيَّة فنِّ الغناء والمُوسيقى وضروراته الحياتيَّة، حتَّى تستهوي أصحاب المهَن الأُخرى، ليُبدعوا فيه؛ وهي مزية عرفتها مظاهر الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، وربَّما كان اهتمام الأطبَّاء بفنِّ الغناء يتَّصل بوصفه طريقة من طُرُق العلاج والشّفاء.

9 ـ مجالس القَصص الخاصَّة والعامَّة:

تُعَدُّ هذه المجالس من المدارس الشّعبيَّة العامَّة، فيها يطَّلع الفرد على قُصص الأوَّلين، وكذلك يتعلَّم ـ من خلالها ـ أُمُور دينه ودُنياه، ويحضرها مُعظم الفئات على اختلاف طبقاتهم وفئاتهم، وهي على نوعَيْن: مجالس الأُمراء، والتي تُؤطِّرها مجموعة من القيَم والقواعد؛ إذْ يحضرها الأمير والسُّلطان، وتسود فيها آداب المُحادثة بعيداً عن الهزل واللّغو، ويُقنِّن فيها الأُستاذ توجيه السُّؤال أو الاستفسار، وقد كانت هذه المجالس على درجة عالية من المعرفة، وأسباب الثّقافة، وهي تُعقَد في دار الإمارة، ويحضرها علية القوم من أصحاب الشّأن في المُجتمع، ولكنَّها لم تكن مُحرَّمة على عامَّة النّاس؛ إذْ يتمكَّن هؤلاء من حُضُورها، على أنْ يتقيَّدوا بأعرافها وتقاليدها السّائدة[2]، فقد ذكرت الرّوايات أنَّ مجلس نُور الدِّين زنكي (كان على درجة كبيرة من الحشمة والوقار، ولا يُذكر فيه إلاَّ العلم وأحوال الصّالحين، والمشورة في أُمُور الجهاد، وقصد بلاد العدوِّ، ولا يتعدَّى هذا)[3]، وكان يحضر فيه الفُقهاء، وغيرهم، وكان (يستفتيهم فيما يحلُّ تناوله من الأُمُور المُرصدة لمصالح

---

(1) فارمر، تاريخ المُوسيقى، ص528.

(2) ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، 2/ 218، 273، طبعة 1986، الأصفهاني، الأغاني، 8، 317، وما بعدها، 9/ 141.

(3) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص173.

المُسلمين، فيأخذ ما يفتونه... ولا يتعدّى)[1]، وكان يجري في مجلسه من الاستشارة وتبادل الرّأي في الأُمُور كافّة، ولهذا؛ (إذا تحدَّث بشيء، يقف عليه، ولا يخلف قوله، ولا يجري في مجلسه الفُسق والفُجُور والشّتم والغيبة والقدح في النَّاس، والكلام عن أعراضهم كما يجري في مجلس المُلوك)[2]، كما وصف لنا ابن عساكر مجلس نُور الدِّين قائلاً: (كُنّا في الأمس نحضر مجلس نُور الدِّين، فكُنّا ـ كما قيل ـ على رُؤُوسنا الطّير، تعلو الهيبة والوقار، وإذا تكلَّمنا استمعَ إلينا...)[3].

وممّا يُنسب إلى صلاح الدِّين في هذا الشّأن أنَّ مجلسه الذي كان يُعقد يومَيْ الاثنَيْن والخميس، من كُلِّ أُسبُوع، وهُو مُناسبة للنَّظر في شُؤُون النَّاس، ويُزيِّنه حُضُور الفُقهاء والعُلماء والقُضاة[4]، ويغلب على مجلسه حُضُور العامَّة للنَّظَر في شُؤُونها[5]، لذلك كان مجلسه يُمثِّل الحياة الاجتماعيَّة على اختلاف طبقاتها، ولعلَّ هذا الامتزاج في الاجتماع يُسبِّب الفوضى وعدم الانضباط في هذا المجلس، وربَّما كان هذا سبباً في امتناع حُضُور بعض أهل العلم، ومنهم ابن عساكر، الذي كثر تخلُّفه عن حُضُور مجلس صلاح الدِّين، وهُو يصف مجلسه: (فيه من اللّفظ وسُوء أدب الجُلُوس ما لا لأحد عليه... واختلاف المُتحدِّثين وقلَّة استماعهم)[6]، ولَمَّا تفقَّد صلاح الدِّين ابن عساكر، وأرسل في طلبه، لم يحضر، ولَمَّا تكرَّر طلبه في ذلك عدَّة مرَّات استجاب بحُضُوره مُخاطباً صلاح الدِّين (نزَّهتُ نفسي عن مجلسكَ، فإنَّني رأيتُهُ كبعض مجالس السُّوقة، لا يُستمَع فيه إلى قائل، ولا يُردُّ جواب مُتكلِّم)[7]، وثَمَّة مسألة جديرة بالانتباه وهُو أنَّ هذا الحوار بين العالم والمُؤرِّخ ابن عساكر، والحاكم والسُّلطان صلاح الدِّين، إنَّما يعكس جُملة أُمُور؛ هي ـ لاشكَّ ـ تُشير إلى

---

(1) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدُّرِّيَّة، ص53.

(2) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدُّرِّيَّة، ص17 ـ 18، سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، 8/ 308.

(3) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص173، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدُّرِّيَّة، ص32.

(4) مُحَمَّد كُرد علي، دمشق، مدينة السِّحر والشّعر، ص108، عبد الجليل عبد المهدي، العُلُوم الدِّينيَّة واللّسانيَّة في ظلِّ المسجد الأقصى، مُؤتمر فلسطين، 1/ 145.

(5) ابن شدَّاد، سيرة صلاح الدِّين، ص13، دُريد عبد القادر نُوري، سياسة صلاح الدِّين، ص415 ـ 416.

(6) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص173.

(7) ابن الأثير، التَّاريخ الباهر، ص173.

ظاهرة صحيَّة في الحضارة العربيَّة، وهي أنَّ أهل العلم كان بإمكانهم التَّعبير ومُواجهة الحُكَّام نحو بيان الأصلح، كما تبيَّن ذلك من توصية ابن عساكر لصلاح الدِّين، كما تعكس - بالوقت نفسه - استجابة الحاكم لنصائح العُلماء في ميادين العلم، وهُو أمر يُشير - أيضاً - إلى حُبٍّ الحاكم مُجالسة العُلماء، وهُو أمر إنْ دلَّ على شيء، فإنَّما يدلُّ على الوعي السِّياسي والعلمي.

وقد امتدَّ تأثير المساحة الدِّينيَّة وقيمتها إلى ساحة الشّعر؛ إذْ تأثَّر الشُّعراء[1] بالثّقافة الدِّينيَّة، ممَّا أشاع بينهم نوعاً من البديع الشّعري، يُسمَّى (التّوجيه)، استوعب كثيراً من المعاني والمُصطلحات الدِّينيَّة في تقويم الخَلْق وحُسن السِّير[2].

وإلى جانب مجالس الأُمراء المُفعمة بالعلم والسِّيَر والعبَر السَّابقة، كانت هُناك مجالس العُلماء التي تنشَّطت هي الأُخرى في ميادينها العامَّة وموضوعات بحثها، ومن هذه المجالس مجلس الشَّيخ سبط ابن الجوزي[3]، الذي أشرنا إلى انعقاده يوم السّبت في الجامع الأُموي؛ إذ يتَّجه النَّاس لحُضُور هذا المجلس في اللّيلة السَّابقة، فيما قال أبو شامة (يقرؤون القُرآن بالشُّمُوع؛ كُلُّ ذلك فرحاً بالمجلس، ومُسابقة إلى الأماكن)[4]، ولم يقتصر حُضُور مجلس سبط الجوزي على العامَّة فقط، بل كان هُناك مَنْ يحضره من الحُكَّام، فيما أُشير إلى حُضُور الملك المُعظَّم عيسى أحد جلسات هذا المجلس، ووُصف بأنَّه من المُبكِّرين للحُضُور[5].

وإذا كانت هذه المجالس قد وُصفت بالعلميَّة والمعرفة والمنافع العامَّة، فإنَّ بعضاً منها لم يكن يخلو من المشاكل الطّائفيَّة، فيما رُوي عن مجلس ابن تيميَّة أنَّه قد شاهد هذا النّوع من المشاكل، ومردُّ ذلك فيما نرى إلى إيمان النَّاس بطريقة ابن تيميَّة[6] الفقهيَّة، وتأثيره عليهم؛

---

(1) كان يحضر مجلس صلاح الدِّين العديد من الشُّعراء، لما عُرف عنه تذوُّقه للشِّعر، حتَّى كان يُردِّد الكثير منه، عاشور، النّاصر صلاح الدِّين، ص294. وربَّما يرجع ذلك إلى تعلُّمه عُلُوم عصره على خير ما يُرام، شلبي، حياة صلاح الدِّين، ص38.

(2) عبد اللّطيف حمزة، أدب الحُرُوب الصّليبيَّة، ص264.

(3) أبو المُظفَّر شمس الدِّين بن الجُوزي، البغدادي الدِّمشقي، تُوفِّي سنة 654هـ، أبو شامة، الذّيل، ص195، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 3/ 142.

(4) أبو شامة، الذّيل على الرَّوضتَيْن، ص49.

(5) سبط ابن الجُوزي، مرآة الزّمان، 8/ 649.

(6) شيخ الإسلام تقيُّ الدِّين بن أحمد، تُوفِّي سنة 728هـ، ابن كثير البداية والنّهاية، 14/ 141، الذّهبي، دُول الإسلام، 2/ 180 - 181.

لما تمتَّع به هذا الفقيه الكبير من مكانة دينيَّة وتأثير سياسي، غير أنَّ هـذه المكانة لـم تدفـع عنه فيما لحقه من المحن[1].

لقد تآزرت هذه المجالس مع المظاهر الثَّقافيَّة الأُخرى السّائدة في دمشق في تلـك المُدَّة، ومنها الرّحلة في طلب العلم؛ إذ وفد إلى دمشق الكثـير مـن أهـل العلـم والمعرفـة مـن النِّسـاء والرِّجال؛ ومنهم زين الدِّين التّكريتي[2]، وأحمـد بـن مُحَمَّـد التّكريتي[3]، وشـمس الدِّيـن المعروف بالمسَّاح[4]، وزينب بنت علي التّكريتيَّة[5]، وغيرهم؛ فضلاً علـى مُؤسَّسـات الثّقافـة المُتخصِّصة، ونعني بها المدارس التي بلغ عددها الكثير، منها سبع مدارس للقُرآن[6]، وثلاث للحديث، وخمسون مدرسة للمذهب الحنبلـي، وستُّون للمذهـب الشّـافعي[7]، وكـان هـذا الازدهار الثّقافي والمعرفي يُسهم في بناء دمشق علمياً وثقافياً.

10 ـ صُور أُخرى:

ومن العادات الاجتماعيَّة التي كانت سائدة في المُجتمع الدِّمشقي، وتميَّز بها من غيرهـا من المُجتمعات هي:

1 ـ عاداتهم في المشي:

تمسَّك أهل دمشق بعادات خاصَّـة عنـد المشي فـي الطُّرُقـات والأزقَّة؛ إذْ كـانوا يمشـون وأيديهم إلـى الخلـف، ويتبـادلون السّـلام بطريقـة خاصَّـة، وصفـهم ابـن جُبير بقولـه: (مـن عجيب حال الصّغير عندهـم والكبير، تجمُّـع هـذه الجِـهات كُلّـها أنّـهم يمشـون وأيديـهم إلـى

---

(1) شاكر مُصطفى، المُدُن في الإسلام، 2/ 224.

(2) صالح مهدي عبَّاس، النّشاط الثّقافي والحضاري، 3/ 254.

(3) فضل الله الصّقاعي، تالي كتاب وفيَّات الأعيان، تحقيق جاكلين سويلة، بَيْرُوت، المطبعة الكاثُوليكيَّة، 1974، ص77 ـ 48، صالح مهدي، النّشاط الثّقافي، 3/ 258.

(4) ابن رافع، الوفيَّات، تحقيق صالح مهدي، بَيْرُوت، ط1، 1972، 2/ 45 ـ 46، صالح مهدي، النّشاط الثّقافي، 1/ 259.

(5) ابن رافع، الوفيَّات، 2/ 134 ـ 144، صالح مهدي، النّشاط الثّقافي والحضاري، 3/ 255.

(6) النّعيمي، دُور القُرآن في دمشق، تحقيق صلاح الدِّين المُنجِّد، بَيْرُوت، 1978، ص1، وما بعدها.

(7) المُنجِّد، دُور القرآن، دمشق، ص13 ـ 14.

خلف، قابضين بالوحدة على الأُخرى، ويركعون للسَّلام علـى تلـك الحـال المُشبَّهة بـأحوال القناة مهانة واستكانة، كأنَّهم قد سيموا تصنيفاً، وأُوثقوا تكتيفاً، وهُـم يعتقـدون تلـك الهيئـة لـهُم تميُّزاً لـهُم عـن ذوي الخُصُوصيَّة وتشـريعاً...)[1]، وهُـم يَعـدُّون ذلـك عـادةً لا يُمكـن تغييرها، فضلاً عن كونها نوعـاً مـن الرّياضـة لأعضـاء الجسـم، وغـير ذلـك، قـال ابـن جُبير (ويزعمون أنَّهم يجدون بها نشاطاً في الأعضاء، وراحـة مـن الأعبـاء، والمُحتشـم منهـم مَـنْ يسحب ذيله على الأرض شبراً، أو يضع خلفه اليـد الواحـدة علـى الأُخـرى، وقـد يتَّخـذون هذه المشيَّة بينهم سُنَّة)[2]، وربَّما أرادوا بذلك الانفراد عن الآخرين.

2 ـ عاداتهم في استقبال الحُجَّاج:

يتمتَّع حجيج بيت الله الحرام بتقدير واحترام أهل دمشق، وذلك من خـلال اسـتقبالهم لهُم عند عودتهم بمجاميع مُتابعـة، مُعبِّرين عـن ذلـك بتقديـم أنـواع الطّعـام وأرغفـة الخُبـز، لُمشاركتهم بها طَلَباً للبركة والخير، وتيمُّناً بزيـارة بيـت اللـه الحـرام، وصـف ذلـك ابـن جُبير فقال: (... عند صُدُورهم إلى دمشق، في هذا العام، هُو عام ثمانين، خـرج النَّـاس لتلقِّـيهم الجمّ الغفير، نساءً ورجالاً، يُصافحونـهم، ويتمسَّـحون بـهم، وأخرجـوا الدّراهـم لفُقرائـهم يتلقّونهم بها، وأخرجوا إليهم الأطعمة، فأخبرني مَنْ أبصر كثيراً مـن النِّسـاء يتلقَّيـن الحـاجَّ، ويُناولنه الخُبز، فإذا عـضَّ الحـاجُّ منـه اختطفنَـهُ منـه، وتُبـادرنَ لأكْلـه تبرُّكـاً بـأكل الحـاجِّ لـه، ودفعْنَ له عوضاً عنه دراهم، إلى غير ذلك من الأُمُور العجيبة)[3].

3 ـ عاداتهم في السّلام:

اختار أهل دمشق طريقة خاصَّة للسَّلام تُميِّزهم مـن غـيرهم، والتـي يصفـها ابـن جُبير بقوله: (...وسلامهم إيماء للرُّكُوع والسُّجُود، فترى الأعناق تتلاعـب بـين الرَّفـع والخَفْـض، وربَّما طال بهم الحال على ذلك، فواحد ينحطُّ، وآخر يقـوم، وعمائمـهم تـهوى هويـاً)[4]،

---

(1) رحلة ابن جُبير، ص269، مُحَمَّد زغلول سلام، الأدب في العهد الأيُّوبي، ص6.

(2) الرّحلة، ص269.

(3) الرّحلة، ص256.

(4) الرّحلة، ص268، عاشور، المُجتمع الإسلامي، ص225.

وهذه الطَّريقة - في نَظَرهم - ضَرْبٌ مـن الأدب والتّواضـع ، فـي حـين يراهـا ابـن جُـبير مدعـاة للسُّخرية ؛ فيقـول : (فيـا عجبـاً لـهؤلاء الرِّجـال ! كيـف تحلّـوا بسيمات ربَّـات الحجـال ، لقـد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النُّفُوس الأبيَّة منه)[1] .

كما بالغ أهل دمشـق بألقـاب المُخاطبـة المُهذَّبـة ، سـواء كـان الأمـر فيمـا بينـهم ، أو فـي مُخاطبة الآخرين ، وقـد وصـف لنـا هـذا الحـال ابـن جُـبير ، فقـال : (ومُخاطبـة هـذه الجـهات قاطبة ، بعضهم لبعـض ، بـالتّمويل والتّسـويد[2] ، وبامتثـال الخدمـة ، وتعظيـم الحضـرة ، وإذا ألقى أحد منهم أمر مُسلّماً ، يقول جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كفاية عن السّلام)[3] .

ويتَّصـل برقَّـة الحديـث وتهذيبـه مـا يتمتَّـع بـه أهـل دمشـق عـن صُـوَر المرح والدّعابـة ، ووصف ابن جُبير ذلك ، فقال : (الجدُّ عندهم عنقاء[4] مغرب[5]) ، ولكنَّنا لم نتبيَّن هل كـانت مقولة ابن جُبير تَخُصُّ فئة من فئات المُجتمع الدِّمشقي الذين عاشرهم ابن جُبير؟ أم هي صفـة عامَّة لأبناء أهل دمشق؟ ، أم هي طريقة في استقبال الغُرباء؟ .

4 ـ عاداتهم بعد انتهاء الصّلاة:

ومن عادة أهل دمشق مُصافحة بعضهم لبعض ، والدّعـوة لبعضـهم بـالخير والسّـعادة ، قال ابـن جُـبير : (ويدعـو بعضـهم لبعـض ، يتعـرَّف بركـة ذلـك الشّـهر ويُمنـه ، واسـتصحاب السّعادة والخير فيه ، وفيما يعود عليه وعلى أمثاله)[6] .

ومن عاداتهم ـ أيضاً ـ قراءة القُرآن بعد صلاة العشاء ، زيادة في الثّواب ، والتّقـرُّب إليـه تعالى ، حتَّى نُسب إلى أهل البرِّ والتّقوى أنَّهم خصَّصوا الوُقُوف لقُرَّاء القُرآن ، بـل إنَّ الجـامع الأُموي في دمشق أفرد غُرفة لهؤلاء ، يُعرَف بحُجرة طباق الزّمام ، حتَّى إنَّ الرّوايـات ذكـرت

---

(1) الرّحلة ، ص268 ، سلام ، الأدب في العهد الأيُّوبي ، ص62 .

(2) التّمويل والتّسويد ، أيْ يقول يا سيِّدي ؛ يا مولاي ، الرّحلة ، ص268 .

(3) الرّحلة ، ص268 .

(4) طير خُرافي ؛ أيْ أنَّ الجدَّ عندهم غير موجود ، الرّحلة ، ص268 .

(5) ابن جُبير ، الرّحلة ، ص268 .

(6) الرّحلة ، ص269 .

أنَّ وقفيَّة يعود تاريخها إلى 20 ربيع الآخر 669هـ/ 1270م، خصَّص الواقف ما يُصرف على هؤلاء القُرَّاء كُلَّ ليلة بعد صلاة العشاء، والرّاجح أنَّ حُجرة طباق الزّمام[1] هذه تتعهَّد بتوفير سماط طعام هؤلاء القُرَّاء بإشراف ديوان الزّمام المعهود إليه النَّظر في الوُقُوف.

5 ـ عاداتهم عند استقبال رسول الخليفة:

نَهَجَ أهل دمشق عادةً خاصَّة عند استقبالهم رسول الخليفة العبَّاسي، تقديراً منهم واحتراماً، وذلك من خلال امتثالهم لإرشاداته وتوجيهاته، التي تَخُصُّ مصلحة المُسلمين، أو في تسليمهم لما يمنحه لهُم، أو يخلعه عليهم من الخُلع، وفي هذا دليل على ولاء دمشق لشرعيَّة الخلافة العبَّاسيَّة، وصلاتها الوُدِّيَّة ببغداد، ومن مظاهر هذا الاحترام أنْ يستقبل حاكم دمشق رسول الخليفة بهيبته الرَّسميَّة، وتمام زينته، فيما أشار لهذه الصُّورة ابن واصل حين استقبل نُور الدِّين سنة 567هـ/ 1171م، رسول الخليفة عماد الدِّين صندل[2]، فقال: (وكان يوماً مشهوداً، قرأ مُوفق الدِّين خالد بن مُحَمَّد بن خضر القيسراني[3]، كتاب الدّيوان، وبعد قراءة الكتاب، لبس نُور الدِّين الفرجيَّة، وتقلَّد بالسّيفَيْن في عُنق الطُّرُق[4]، وخرج راكباً في داخل القلعة واللّواء الأسود منشور على رأسه... وجمع بين تقليد السّيفَيْن الأسفار بتقليده الإقليمي الشَّام والدِّيار المصريَّة، فظهر إلى ظاهر دمشق، ونثر عليه الذَّهب، وأنهى بسيره إلى الميدان الأخضر، ثُمَّ عاد إلى القلعة)[5]، وتكرَّر ذلك عند استقبال الملك العادل، رسول الخليفة شهاب الدِّين الشّهرزوري[6] سنة 607هـ/ 1210م، وعند وُصُوله إلى دمشق تلقَّاه والداه الأشرف والمُعظَّم وكبار رجال الدَّولة والعسكر والنّاس جميعاً، بعد أنْ

(1) حسن الباشا، الفُنُون الإسلاميَّة، 3/ 1136.

(2) هُو عماد الدِّين صندل، من أكابر الخدم، تولَّى استناد دار القرير بعد عزل كمال الدِّين بن عضد الدِّين، وهُو أكبر الرُّسُل، البنداري، سنا البرق الشَّاميّ، ص261، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 64.

(3) وهُو من قرية قيسارة، بلدة بالشّام على ساحل البحر، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 2/ 82.

(4) وكان وزن الطّوق مع أُكرته ألف دينار من الذَّهب الأحمر، البنداري، سنا البرق الشّامي، ص61.

(5) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 1/ 218 ـ 219، وبنفس المعنى ابن قاضي شهبة، الكواكب الدُّرِّيَّة، ص204.

(6) شهاب الدِّين أبو حفص الشّهرزوري، من كبار الصّالحين، تُوفِّي سنة 630هـ، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 149.

غُلقت الأسواق، وساروا به في موكب حافل؛ حيثُ استقبله في قصره، وبعدها سُلِّم خلعة الخليفة، وهي: (فرجيَّة أطلس أسود بطراز مُذهَّب، وعمامة سوداء بطراز مُذهَّب، وطُوِّق بطوق ذهب مُجوهر ثقيل، وقُلِّد بسيف مُحلًّى جميع قرابه بذهب، وركب حصاناً أشهب بمركب ذهب، ونَشَرَ على رأسه علماً أسوداً مكتوباً عليه بالبياض ألقاب الخليفة...)[1]، ويبدو أنَّ وُصُول رسول الخليفة للملك العادل كانت مُناسبة للاحتفال لدمشق، بل كان لولايات الشَّام نصيبها في هذا الاحتفال، فما أنْ لبس الملك العادل خُلع الخليفة، حتَّى (نَثَرَ القاضي بهاء الدِّين، رسول صاحبَيْ حماة وحمص، عليه الذَّهب، وقدَّم له القاضي بهاء الدِّين خمسين قطعة من أفخر القماش، ونَثَرَ عليه رسلُ باقي المُلُوك الذَّهب)[2]، من جهة، لم تكن الحفلة تَخُصُّ الملك العادل وحده، بل كانت هُناك خُلع أُخرى شملت أبناء الملك لعادل، وهي: (عمامة سوداء، وثوب أسود واسع الكُمّ)[3].

ومن أجل أنْ تُستكمل مراسيم الاحتفال بهذه المُناسبة، فقد استعرض الملك العادل بأولاده ووزيره الظّاهر البلد، وعاد إلى القلعة[4].

وممَّا تقدَّم نَخْلُصُ إلى القول بأنَّ مظاهر الاحتفاء برسول الخليفة واستقباله، مسألة تدلُّ على احترام حُكَّام الولايات والأقاليم لسُلطة الخليفة، وولائهم له، ومن جانب آخر حرص الخليفة على استبقاء هذه المودَّة والصّلة والاعتراف بشرعيَّته الدِّينيَّة والسّياسيَّة، من خلال تواصله مع هؤلاء الحُكَّام، ومنهم حُكَّام دمشق، فيما يبعث لهُم من الخُلع والهدايا، وكان تسلُّمها مُناسبة للاحتفال.

---

(1) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 181.

(2) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 181.

(3) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 181.

(4) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 181، 182.

الفصل الخامس:

العلاقات الاجتماعيَّة

العائلة.
مكانة المرأة.
الأطفال.
التّكافل الاجتماعي بين المُجتمع.
إحصاء السُّكَّان.
الدُّور والقُصُور.

تُعَدُّ العلاقات الاجتماعيَّة السّليمة مظهراً من مظاهر الحضارة العامَّة، وهي - بلا شكٍّ - تتناسب تناسباً طرديَّاً مع رُقيِّ المُجتمع ووعيه، ولَمَّا كان المُجتمع الدِّمشقي هُو أحد المُجتمعات الإسلاميَّة التي أسهمت في بنائه قِيَمُهُ الموروثة قبل الإسلام، والقيَم المُضافة بعد الإسلام، فكان مزيجاً من هُنا وهُناك، وقد شكَّل صُورته المُزدهرة، فكُلُّ المُجتمعات عبارة عن مجموعة من الأُسَر التي وحَّدت بينها المصالح العامَّة، والانتماء إلى القبائل العربيَّة التي سكنت المنطقة؛ إذ إنَّ المُجتمع العربي قبل الإسلام هُو مُجتمع رسم فيه الرَّجل مساحة واسعة بسبب طبيعته ومُقتضيات الحياة فيه والصِّلات الأُسَريَّة.

من هُنا؛ ورث المُجتمع الدِّمشقي هذه الصِّفة، فتميَّز الرَّجل بمكانته في الأُسرة والمُجتمع، وتعمَّقت سُبُل الاحترام بين أفراد الأُسرة وبين أفراد المُجتمع، من خلال هذه العادات الموروثة، وهي - في عُمُومها - أسهمت في بناء تلك العلاقات الاجتماعيَّة، سواء كانت بين أفراد العائلة أم بين أفراد المُجتمع عُمُوماً، وعليه؛ فسنتناول البناء الأُسري للعائلة وعلاقة أفرادها ببعضهم، مُنتقلين - بعدئذٍ - إلى علاقة أفراد تلك العوائل ببعضها، أو ما نُسمِّيه بعلاقة أفراد المُجتمع بعضهم ببعض، حتَّى نتعرَّف على طبيعة وديمُوغرافيَّة سُكَّان دمشق، وننتهي بتشكيل صُورة للمدينة، من خلال خُططها في الدُّور والقُصُور.

- العائلة:

هي اللّبنة الأولى في المُجتمع، والمُجتمع - أساساً - عبارة عن مجموعة العوائل، ولَمَّا كانت العائلة هي الفقرة الأُولى لتكوين المُجتمع، بل هي المدرسة للتَّربية والتّوجيه ورَسْم السُّلُوك، وتربية الأبناء بالخُلق والعادات والقيَم الاجتماعيَّة، وهذا النّهج عرفته العائلة بالمُجتمع الدِّمشقي عبر العُصُور والعُهُود، وفي العُمُوم؛ تميَّزت العائلة بالمنطقة العربيَّة والمُجتمع العربي بالتّماسك، وتلك المسألة شهدها المُجتمع العربي قبل الإسلام، وذلك أنَّ تماسك العائلة ووحدتها يعني قُوَّتها وصُمُودها وتواصلها، حتَّى إذا ما بلغت مرحلة عَدَديَّة تعذَّر بقاؤها في مكان واحد، ووصلت إلى مرحلة الانقسام، وهذه الظّاهرة شهدتها القبائل

العربيَّة قبل الإسلام، كنتيجة لازدياد أعداد الأُسَر، ممَّا أسهم في انقسام القبائل إلى قبائل أُخرى، لكنَّها حافظت على صلاتها وتواصلها، من خلال مُحافظة الأُسَر على صلات الرّحم بينها، وهذه الظّاهرة عرفها المُجتمع الدِّمشقي - بوُضُوح - في حاراته ومحلاَّته، وربَّما كان سُور دمشق من مظاهر هذه الوحدة بين الأُسَر، وسبباً من أسباب تواصل الرّحم بين هذه الأُسَر وتماسكها[1]، وإذا ما توخَّينا الدِّقَّة، نقول: إنَّ هذه الصّلات بين الأُسَر الدِّمشقيَّة تزداد وثاقة وتماسكاً بين أُسَر الحارة الواحدة أكثر من صلاتها بالحارات الأُخرى، ولعلَّ توفُّر الأبواب والحواجز في أزقَّة تلك الحارات الدِّمشقيَّة، كان - أيضاً - من عوامل بُرُوز هذه الظّاهرة.[2]

والعائلة - عُمُوماً - تتكوَّن من الرَّجل الذي يُوصف بربِّ الأُسرة، وهُو الزّوج، والمرأة التي تُمثِّل الزّوجة، والأبناء، ويتوزَّعون في المهامِّ والأعمال التي ينهضون بها، كُلٌّ حسب دائرته، وهي حال عرفها المُجتمع العربي قبل الإسلام، وتواصلت في ظلِّ الإسلام الذي عمَّق صلات المودَّة، والتّعاون، والحُبُّ، والتّواصل، بين أفراد الأُسرة، إدراكاً منه بقيمة الأُسرة البالغة في بناء مُجتمع الإسلام، والأدلَّة على صلات الرّحم، التي أرادها الإسلام، يُؤيِّدها ما جاءت به الآيات الكريمة في الحثِّ على ذلك، والتَّمسُّك به. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[4].

إذنْ؛ فصفة المُجتمع الدِّمشقي صُورة مُتألِّقة من صُور المُجتمع العربي، برزت هذه الصّفات الخيِّرة بين أفراد العائلة ذاتها، وبينها وبين العوائل الأُخرى المُكوِّنة للمُجتمع

---

(1) تميَّزت هذه الحارات بخُصُوصيَّتها؛ بحيثُ صارت لها مساجدها، وحمَّاماتها، ومراكز التّعليم، وغيرها، بالإضافة إلى تجمُّع السُّكَّان ذوي النَّسب الواحد والدِّين الواحد، وهذا ما لاحظناه في تجمُّع النّصارى في الشّرق، واليهُود في الجنوب، والمُسلمون في القسم الغربي، سُوفاجيه، دمشق، ص36.

(2) كانت لحارات دمشق أبواب تُفتح بمواقيت معُيَّنة، كما كان لها حُرَّاسها الذين يقومون بالمُحافظة على الأمن في الحارة، شاكر مُصطفى، المُدن في الإسلام، 2/ 303 - 304.

(3) سُورة الأنفال/ الآية 75.

(4) سُورة النِّساء/ الآية 8.

الدّمشقي، من خلال تآزر وتكافل هذه العوائل في أوقات المحَن والحُرُوب والكوارث الطّبيعيَّة، وانتشار الأوبئة والمشاكل والفتَن السِّياسيَّة من جهة[1]، ومن جهة أُخرى؛ في النّقيض من ذلك في أوقات الأفراح[2] والمسرَّات والاحتفالات والأعياد[3]، وما شابه ذلك؛ حيثُ تسود ذات الحال في التّكافل والمودَّة والتّواصل والتّعاون فيما أشرنا إلى ذلك، في مُناسبات مُختلفة من خلال الفُصُول السَّابقة.

والرّجل بين عائلته وأُسرته في المُجتمع الدِّمشقي، تُمثِّل صُورته السَّابقة قبل الإسلام؛ من حيثُ تحمُّل مسؤوليَّة كبيرة، باعتبار المُجتمع العربي يُوصف بأنَّه مُجتمع الرُّجُولة، بسبب البيئة والظُّرُوف العامَّة، ثُمَّ عزَّز الإسلام مسؤوليَّة الرَّجل في البيت والعائلة، من خلال تكليفه بواجباته إزاء أُسرته، فعليه توفير الرّزق، ومُستلزمات سُبُل المعيشة، والسَّكَن، وأساليب التّربية والتّعليم، فيما رُوي أنَّ الرَّجل ينهض بتعليم أُسرته إسهاماً منه بتثقيفهم وتربيتهم، قبل أنْ يتزوَّدوا بهذه الأُمُور من مُؤسَّسات الثّقافة المُختلفة السّائدة في المُجتمع، فقد روى ابن عساكر أنَّه أسمعَ زوجته الحديث في دارها وإلى جانبها أولادها[4]، بالإضافة إلى مسؤوليَّاته إزاء أبنائه وزوجته وشريكته في حياته، تلك المسؤوليَّات التي حدَّدتها الشّريعة الإسلاميَّة، ورسمتها الطّبيعة البشريَّة والإنسانيَّة، وإذا كانت للرَّجل هذه المسؤوليَّة، فهي لا تعني بالضّرورة أنْ يتمتَّع بالتَّسلُّط والاستبداد، فالإسلام - ومن قبله قيَم المُجتمع العربي - لم يُشر إلى ذلك، بل أشارت إلى استئناسه بآراء أفراد أُسرته، وتشاوره معهم، فيما يتَّخذ من قرارات تَخُصُّ مصلحة العائلة، وفي ظلِّ هذه الدّائرة من التَّشاور، فقد يتخلَّى ربُّ الأُسرة عن رأيه مُقتنعاً فيما أشار عليه أفراد الأُسرة، أو حتَّى مُستنيراً بآراء الأُسر الأُخرى.

وهذه المُرونة في المُعاملة والتّفكير، اقتضت من الرَّجل أنْ يَنهج مع أُسرته منهج النّاصح والدّليل والقائد، ليس في حياته فحسب، بل حتَّى يرسم لهُم سيرتهم بعد وفاته، فيما طالعَتْنَا

---

(1) أصابت مدينة دمشق الكثير من المحَن؛ منها ما هُو طبيعي كالزّلازل، والمجاعات، وغيرها، ومنها ما ولَّدَتْهُ المُنافسات السِّياسيَّة بين الحُكَّام، في السّنين 468، 552، 643هـ، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص111، ابن كثير، البداية والنّهاية 13/ 178.

(2) سَبَقَ أنْ تحدَّثنا عن أفراح مدينة دمشق في الفصل الرَّابع.

(3) سبق أنْ تحدثنا بشكل مُفصَّل عن الأعياد والاحتفالات في الفصل الرَّابع.

(4) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 164.

كُتُبُ السِّيَر والتّاريخ في النّصائح التي يُقدِّمها الخُلفاء والمُلوك والحُكّام لأبنائهم وعوائلهم، فهذا السُّلطان صلاح الدِّين ينصح الملك الظّاهر، قائلاً: «أُوصيكَ بتقوى الله تعالى، فإنّها رأس كُلِّ خير، وآمرك بما أَمَرَكَ الله به، فإنّه سبب نجاتكَ... وأُوصيكَ بحفظ قُلُوب الرّعيّة، والنَّظَر في أحوالهم، فأنتَ أميني وأمين الله عليهم، وأُوصيكَ بحفظ قُلُوب الأُمراء، وأرباب الدَّولة، وأكابرها، فما بلغتُ ما بلغتُ إلاّ بمُداراة النّاس، ولا تحقدْ على أحد، فإنّ الموت لا يُبقي أحداً، واحذرْ ممّا بينكَ وبين النَّاس، فإنّه لا يُغفَر إلاّ برضاهم...»[1].

ومن هُنا؛ يتبيّن أنّ الأُسرة الدّمشقيّة بمُكوّناتها، إنّما هي تُمثّل صُورة مُصغَّرة لما كان سائداً في المُجتمع الدِّمشقي عُمُوماً؛ من حيثُ صفات التّعاون والمسؤوليّة والتّكافل، وهي صفات لا شكّ أنّها تبني الأُسرة بناءً متيناً، يُسهم - إلى حدٍّ كبير - في متانة البناء الاجتماعي عُمُوماً، فالرّجل يسهر على مصلحة أُسرته المعاشيّة والأمنيّة والتّربويّة، تقف إلى جانبه المرأة التي تسهر هي الأُخرى بمسؤوليّاتها المنزليّة، فيما رُوي أنّها تتكفّل بشراء ما يحتاجه زوجها من لوازم من لباس وغيره[2]، ويتمثّل اهتمامها في إدارة المنزل، وتربية الأطفال، وتوجيههم، واستثمار كُلّ الطّاقات سويّة مع أخيها الرَّجل، لتكوين الأُسرة الصّالحة، ولعلّ العبء على المرأة في الأُسرة الرّيفيّة أكثر مساحة؛ من حيثُ مُشاركتها الفاعلة مع زوجها في توفير أساليب الرّزق، ومُمارسة العمل ذات الصّلة بشُؤُون الحياة المعاشيّة، أو المُتّصل بإدارة المنزل، ممّا قد ينعكس هذا في ضآلة دورها في شُؤُون الحياة الأُخرى، كطلب العلم أو الإسهام في اكتساب المعارف التي قد تتوفّر لأُسرة المدينة دُون أُسرة الرّيف، ولا شكّ أنّ هذه الظّاهرة، إنّما سبّبتها الظُّرُوف البيئيّة المُختلفة[3].

- مكانة المرأة:

كانت للمرأة العربيّة قبل الإسلام مكانة كبيرة؛ إذْ تمتّعت باحترام وتقدير كبيرَيْن، فقد مارست حُقُوقها الطّبيعيّة كجُزء من مكانتها في المُجتمع[4]، وظهر لها دور بارز في ميادين

---

(1) ابن شدّاد، سيرة صلاح الدِّين، ص238.

(2) المقريزي، السُّلُوك، 4/ 246.

(3) الغزولي، مطالع البُدُور، ص187، أحمد رمضان، المُجتمع، ص218.

(4) كان من حقّ المرأة الاحتفاظ بأملاكها الخاصّة، حتّى بعد زواجها، وغالباً ما كان يُؤخذ رأيها في الزّواج، كما أنّ بعضهنّ كُنّ يخترنَ أزواجهنّ، ويتركنهم إذا أساؤوا مُعاملتهنّ، الأصفهاني، الأغاني 10/ 13، ابن كثير، البداية والنّهاية، 8/ 319.

السّياسة والعمل، ومن بينهنّ زنُّوبيا ملكة تدمر[1]، والسّيِّدة خديجة أمُّ المُؤمنين[2]، عليها السّلام، والخنساء بنت عَمرو[3]، وسجاح التّميميَّة[4]، وهند بنت عُتبة[5]... وغيرهنّ كثير، ولم يكن ذلك فحسب، بل نُسب بعض العرب إلى أُمّه[6]، وتعدَّى ذلك إلى أنّ تسمية بعض القبائل بأسماء أُنثويَّة[7]، بل كانت بعض آلهة العرب قبل الإسلام من الميدان ذاته.

ولَمَّا ظهر الإسلام ظهر دور المرأة، وبشكل أوسع، أبطل الكثير من العادات القديمة[8]، والتي تنال من مكانتها، وأزال العديد من القُيُود التي تحدُّ من حُرِّيّتها، ورَفَعَ من شأنها، فقد أدَّت دوراً في العديد من جوانب الحياة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والثَّقافيَّة والاقتصاديَّة، وكان الرِّجال يُولُونها كُلَّ احترام وتقدير، ويحرصون، كُلَّ الحرص، على صيانة شرفها، والدّفاع عنها، ومُعاملتها مُعاملة حسنة، والفضل في ذلك يعود إلى الإسلام وتعاليمه، التي منحت المرأة هذه المكانة الجديدة، لتُضاف إلى ما كانت تتمتَّع به من مكانة قبل

---

(1) هي الزَّبَّاء بنت عَمْرو بن حسَّان بن أُذينة بن السّميدع، الملكة المشهورة، الزّركلي، الأعلام، ط3، بَيْرُوت، 1960، 3/ 71.

(2) هي السَّيِّدة خديجة بنت خُوَيْلد زوج الرّسول الكريم، وكانت سيدة فاضلة، آزرت الرَّسول ﷺ قبل وبعد البعثة، تُوفِّيت في السَّنة الثّالثة من البعثة في مكَّة، عُمر رضا كَحَّالة، أعلام النّساء، 1/ 426، 431.

(3) هي تماضر بنت عَمْرو بن الحارث، من بني سليم بن قيس، شاعرة مشهورة لها قصائدها المُؤثّرة، تُوفِّيت سنة 24هـ، ابن قُتيبة، الشّعر والشُّعراء 1/ 350، كَحَّالة، أعلام النّساء، 1/ 360.

(4) بنت الحارث بن يربوع، ادَّعت النُّبوَّة في عهد أبي بكر رضي الله عنه، أسلمتْ بعدها، وَسَكَنَتْ البصرة، تُوفِّيت نحو 55هـ/ 674م، الطّبري، تاريخه، 3/ 267.

(5) هند بنت عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، زوجة أبي سُفيان، بعد مُفارقتها للفاكهة بن المُغيرة المخزومي، في خبر طويل، تُوفِّيت سنة 14هـ/ 634م، النُّويري، نهاية الأرب، 17/ 100.

(6) نُسب الكثير من الرِّجال إلى أُمّه، ومنهم الملك المُنذر بن ماء السّماء، ملك الحيرة، (512 ـ 554م)، وأُمُّه ماء السّماء، وهُو لقب لماريَّة عوف، قُتل سنة 562م، وكذلك عَمْرو بن هند، وهُو ملك الحيرة، (554 ـ 574م)، أبو عُبيدة، نقائض جرير والفرزدق، ليدن، 1907، طبعة بغداد بالأُوفسيت، 2/ 885، وكذلك مُحَمَّد بن حبيب السُّكَّري؛ صاحب كتاب المحبر، سُمِّي باسم أُمِّه.

(7) مثل ربيعة بن رياح، والد الشّاعر زُهير الذي يُكنَّى بأبي سُلْمى، وهُو من الشُّعراء المشهورين، ابن قُتيبة، الشّعر والشُّعراء، 1/ 143، وكذلك النّابغة الذُّبياني، تُوفِّي سنة 81هـ، ابن قُتيبة، الشّعر والشُّعراء، 1/ 163.

(8) كان الوأد عادةً مُستهجنة لدى بعض بُطُون تميم وقيس وهذيل وكندة وبكر وطي، وسببه خوفهم من الفقر، وقد أشار القُرآن الكريم إلى ذلك: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ سُورة الإسراء/ الآية 31، جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، ن 1954، 205، 298، علي إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام العامّ، القاهرة، 1959، ص501.

الإسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1].

وكان الرَّجل يختار المرأة ذات المكانة الاجتماعيَّة، ويفخر بها، ويحرص على الاقتران بها، إلى جانب افتخاره بجمالها، ويفخر بذلك بمُناسبات عدَّة[2].

وفي بلاد الشَّام، كجُزء من مساحة الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة، تمتَّعت المرأة بمكانتها في الاحترام[3] في هذه المُدَّة، فقد أثبتت الرّوايات التَّاريخيَّة أنَّها تلقَّبت بألقاب عديدة، وهي - بطبيعة الحال - تعكس تلك المكانة، ومنها ستُّ الشَّام، وستُّ الكُلّ، وستُّ الخَلْق...إلخ، وهي من باب الفخر والتّزكية[4].

مارست المرأة الدِّمشقيَّة دورها في جوانب الحياة كافَّة، ومنها الجانب العلمي الذي برز بظُهُور عدد كبير من النِّساء في ميدان التَّصوُّف، بتأثير العُدوان الصّليبي الذي أشاع في الوسط النّسائي هذا التَّوجُّه من العبادة والزّهد، فيما اتَّخذت هؤلاء المُتصوِّفات بُيُوتهنَّ في الرّبط والخانقاهات، وتلقَّبْنَ باسم الفقيرات، اعتكافاً منهنَّ على العبادة، فقد حظيت هؤلاء النّسوة المُتصوِّفات باهتمام المُؤرِّخين في ترجمتهنَّ، وتتبُّع أخبارهنَّ، فهذا ابن عساكر يُترجم لملكة بنت داود[5]، الصُّوفيَّة أنَّها (سكنت مُدَّة في دويرة[6] السّميساطي)[7]، فيما أصبحت

---

(1) سُورة النِّساء / الآية رقم (1).

(2) كان مُصعب بن الزُّبير يتفاخر بزوجته بين النَّاس، كما يتَّضح ذلك في إدخال الشّعبي ليراها، كي يتحدَّث عن جمالها، الأصفهاني، الأغاني، 2/ 373.

(3) تزوَّج صلاح الدِّين من عصمت خاتون زوجة نُور الدِّين، وذلك لأنَّه أراد حفظ كرامتها، البنداري، سنا البرق الشّامي، ص113.

(4) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 111، وما بعدها، أحمد رمضان، المُجتمع، ص276، شاكر مصطفى، المُدُن في الإسلام، 2/ 95.

(5) هي ملكة بنت داود بن مُحَمَّد بن سعيد القرصلي، عالمة مُتصوِّفة أجازت لابن عساكر حديثها، تُوفِّيت سنة 507هـ، بعد أنْ عاشت مائة سنة وأربع سنين، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 60، كَحَّالة، أعلام النّساء، 5/ 103.

(6) الدّويرة، هي الخانقاه السّميساطيَّة التي أسَّسها علي بن مُحَمَّد، المُتوفَّى سنة 453هـ، وتقع على باب الجامع الأُموي، وكانت تُدعى بدوير الفُقراء، عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام، ص372.

(7) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 60.

هذه الدّويرة موطن الكثير من النِّساء المُتصوِّفات اللائي شاركْنَ في آن واحد، فيما رُوي عن ملكة هذه، أنَّها كانت شيخة للحديث، وتتلمذ على يدها الكثير من الرُّواة المُحدِّثين وأهل العلم، وربَّما كانت هذه الدّويرة قد مثَّلت في هذا المعنى مدرسة وموطناً لحلقات الدّرس.

وإذا كانت المرأة قد سلكت سبيل التَّصوُّف والزّهد والعبادة، من خلال اختيارها لهذه الحياة، فإنَّها كانت من جانب آخر شجَّعت على توسيع دائرة التَّصوُّف والزّهد، بقيامها بأعمال البرِّ والتّقوى التي تخدم هذا الجانب، فهذه الخاتون عصمت قد بَنَتْ في دمشق مدرسة ورباطاً للصُّوفيَّة، ووقفتْهُمَا على ساكنيها[1]، وفي سنة 650 م، بَنَتْ فاطمة الأيُّوبيَّة رباطاً في دمشق للفقيرات، وكَتَبَتْ فوقه (وقفتْ هذا الخانقاه - الرّباط - فاطمةُ بنت الملك العادل مُحَمَّد بن العادل بكر بن أيُّوب إلى الفقيرات المُقيمات بها، وأظهر للصَّلَوات الخمس والمبيت فيها)[2]، وفي العصر المملوكي استمرَّ انصراف بعض النِّساء إلى التَّصوُّف ولبس الخرقة[3]، حتَّى تلقَّبْنَ بالشّيخات، واتَّخذْنَ من الزّوايا الرّبط والخانقاهات أماكن للسَّكن ضمن توجُّه أولئك الشّيخات[4]، وما من شكٍّ أنَّ اتِّساع واستمرار دائرة التَّصوُّف في العُنصُر النّسائي، إنَّما يُشير إلى حُبِّهن للعبادة وحياة الزُّهد، فضلاً عن انصرافهنَّ عن مُتَع الحياة ومباهجها.

لكنَّ هذا الانصراف لبعض النِّساء المُتصوِّفات نحو حياة الزّهد، لا يعني أنَّها الصُّورة الوحيدة التي شكَّلتها المرأة بالمُجتمع الدِّمشقي، في المُدَّة التي تناولتُهَا في البحث، ذلك أنَّ بعض النِّساء كُنَّ قد مارسْنَ حلقات التَّدريس في المساجد والمدارس، وأثبتْنَ جدارة وكفاءة كبيرة في هذا المجال، بل تتلمذ الكثير من أهل العلم من المُحدِّثين والمُؤرِّخين والرُّواة على أيديهنَّ، فقد أشار ابن عساكر أنَّه تلقَّى العلم من ثمانين امرأة[5]، وتناولت موسوعته (تاريخ مدينة دمشق) ترجمة الكثير ممَّن بَرَعْنَ في فُنُون العلم المُختلفة، وعلى سبيل المثال لا الحصر،

---

(1) البنداري، سنا البرق الشّامي، ص272.

(2) سعيد الدّيوه جي، دُور العلاج والرّعاية في الإسلام، الموصل 1966، ص44.

(3) المقريزي، السُّلُوك، 2/ 269.

(4) أحمد رمضان، المُجتمع، ص277.

(5) لقد خصَّص ابن عساكر الأجزاء (65 - 66)، من كتابه لترجمة النِّساء (المخطوطة).

قال في ترجمتـه لملكـة بنـت داود: «أخبرتْنا العالمة ملكـة بنـت داود... وأجـازتْ لـي جميـع حديثها... وحضرتُ دَفْنَهَا، وكان الجمع مُتوافراً (رحمها الله)»[1].

وفي نصٍّ ابن عساكر إشارة واضحة لمكانة هذه المُتصوِّفة والعالمة الفاضلة، فيمـا أخبرنـا عن إجازتها له في الحديث، وحُضُور مراسيم دَفْنها بمعيَّة أقرانه من أهل العلـم أمـر آخـر يـدلُّ على مكانتها العلميَّة، وبُرُوزها في ميدان الدّرس.

وفي مكان آخر يُلقِّب فاطمة بنت سهل[2] - وهُو يُترجم لها - بالعالمة الصّغيرة إلى جانب شُهرتها ببنت الشّام، وفي ترجمته لستِّ العشيرة بنت عبـد اللـه[3]، (سـمعتُ جدَّهـا أبـا عبـد الله، ووجدت سماعها على جُزء، فعزمت على قراءته عليها...)[4]، وفي هذا النّصِّ إشـارة واضحة، وقيمة علميَّة يُومئ إليها ابن عساكر، وهي حرص المُحدِّثين على سماع الحديث من راويه، الذي نُسبت إليه الرِّواية، وهذا أمر يعكس لنا جانب الدِّقَّة والتّثبُّت من رواية الحديـث الشَّريف، في ظلِّ نضج علـم الجـرح والتّعديـل، الـذي كـان وسيلة مُهمَّـة مـن وسـائل تنقيـة الأحاديث الشّريفة.

وتُشير الرّوايات إلى الميادين التي كانت تُمارس فيها المرأة نشاطها العلمي، فكـان بيتـها الميدان الأوّل في هذا الشّأن، فيما أشار إلى ذلك ابن عساكر وهُـو يُـترجم لفاطمـة بنـت علـي السّلميَّة[5]، قـائلاً: (أسـمعتُها الحديـث، فاطمـة بنـت علـي العكبريَّـة، فـي دارهـا وسـمعها أولادها في دارها)[6].

وإذا كان ابن عساكر في هذا النَّصِّ قد أشـار إلـى مشيخته فـي هـذا الحديـث، فهُو فـي ترجمته لفاطمة بنت الملك المحسن[7]، أنَّه سمع منها الحديث في منزلها بجوار المدرسة العادليَّة

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 60.

(2) فاطمة بنت سهل بن بشر بن أحمد الأسفراييني، مُحدِّثة فاضلة، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 11.

(3) ستُّ العشيرة بنت عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الواحد السّلميَّة، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 130.

(4) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 130، عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام، ص370.

(5) فاطمة بنت علي بن الخُضر بن عبد الله السّلميَّة، وهي زوجة ابن عساكر وابنة خالته، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 164، وهُو مثال حيٌّ لتعليم الزّوج لزوجته.

(6) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 164.

(7) فاطمة بنت المُحسن أحمد بن السُّلطان صلاح الدِّين، سـمعتْ عـن ابـن حنبـل، وتُوفِّيـت سنة 661هـ/ 1263م، الحنبلي، شذرات الذّهب 5/ 362، كَحَّالة، أعلام النّساء، 4/ 32.

بدمشق[1]، فهُو هُنا طـالب حديـث، وهـذه الصِّفـة مـن التّواضـع التـي يتحلّـى بـها المُحدِّثون والفُقهاء والمُؤرِّخون وأهل العلم، في تلك المُدَّة، إنَّما هي تُبرز تواضعـهم العملـي بعيـداً عـن الغُرُور، في حين كان بيت آسية بنت أحمد بن عبد الدّائم، معموراً بـالتّلاوة والـدّرس، وقـد سمع منها جماعة[2]، وتُناظرها في هذا الأمر العالمة الفاضلة خديجة بنـت يُوسُف التـي كـان منزلها في دمشق، سنة 669هـ/ 1271م، ميداناً لقـراءة الكُتُـب، بـل أشـارت الأخبـار أنّـها قـد انفردت بروايات مقامات الحريري[3].

أمَّا الميدان الآخر الذي كانت تمارس فيه المرأة نشـاطها التّعليمـي؛ فـهُو المسـجد، تعلُّمـاً وتعليماً، وهذه الحال لا شكَّ تُشير إلى حُرِّيَّة المرأة في مُمارسـة المعرفـة، للدَّلالـة علـى هـاتَيْن الحـالتَيْن، ننقـل مـا ذكـره ابـن عسـاكر فـي ترجمتـه لزُمُـرُّد خـاتون[4]، بقولـه: (إنَّـها سـمعت الحديث من الفقيهَيْن أبـي الحسـن بـن قيـس وأبـي الفتـح نصـر بـن أبـي طـالـب بـن أبـي عقيـل الصُّوري[5]، والرّاجح أنَّ هذا السّماع كان فـي المسـجد، لكـون المسـجد هُـو السّـاحة الأُولـى للمعرفة الإسلاميَّة، بـل هُـو المُؤسَّسـة الأقـدم فـي هـذا المعنـى، أمَّـا نشـاط المـرأة فـي المسـاجد بصفتها فقيهة، أو شيخة للحديث، أو واعظة؛ فالأمثلة كثيرة، فقد رُوي أنَّ الشّيخة الفاضلة زينب بنت حُسين[6]، حضرت مشيخة ابن البُخاري المشهورة، واستمع إليها المئات من الطّلبة والمُحدِّثين في دمشق من الوافدين إليها[7]، والمُستقرِّين فيـها، وكذلـك كـان حـال زينـب بنـت الكمال[8]، التي سكنت الجامع الأُموي، وسمع إليها الكثير من أهل العلم[9].

---

(1) كَحّالة، أعلام النّساء، 4/ 32، وسمع منها أجزاء من الحديث.

(2) كَحّالة، أعلام النّساء، 4/ 32.

(3) شمس الدِّين مُحَمَّد الذّهبي، العبَر في خبر مَنْ غَبَر، تحقيق صلاح الدِّين المُنجِّد، الكُويت، 1966، 3/ 398.

(4) زُمرُّد بنت جاولي بن عبد الله، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج65، ورقة 119.

(5) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج65، ورقة 119.

(6) كما أقامت فاطمة بنت سهل حلقة في المساجد، وكانت (تعظ النِّساء في بعض المساجد)، ابـن عسـاكر، تـاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 11.

(7) ابن رافع، الوفيَّات، تحقيق صالح مهدي عبَّاس، الموصل، 1989، 2/ 45-46.

(8) صالح مهدي صالح، النّشاط الثّقافي والحضاري لأعيان أهل تكريت، موسوعة مدينـة تكريـت، ط1، بغـداد، 1997، 3/ 255.

(9) زينب بنت الكمال بن أحمد بن عبد الرّحيم المقدسي، الحنبلي، شذرات الذّهب 6/ 126، ابن بطُّوطة، الرّحلة، ص110.

وأُشير إلى أسماء بنت إبراهيم بـن عرضـة أنّها تُلقّن النّسوة قـراءة القُرآن، وتُعلّمـهُنّ العلم[1]، ولم تفتقر النّسوة إلى مجالس الوعظ الخاصّة بهنّ، فيما أشار ابن عسـاكر لترجمتـه فاطمة بنت سهل أنّها تعظ النّسوة في بعض المساجد)[2].

وإذا كانت الرّوايات قد تكلّمت عن حُرّيّة المرأة في اكتسابها العلم في بيتها، أو ذهابـها إلى المساجد، أو في سُكناها في الجوامع والرّبط والزّوايا والمدارس، التي أشرنا إلـى أعدادهـا الكثيرة بطوائفها المُختلفة، وغيرها من مراكز المعرفة، فـإنّ بعـض الرّوايـات تُشير إلـى بعـض النّسوة، ومنهنّ ربيعة بنت نجم[3]، أنّها قصدت إحدى المدارس الحنبليّة سنـة 628هـ/ 1230م، لحُضُور حلقة الدّرس العائد للنّاصح الحنبلـي[4]، ولكنّـها جلسـت مـن وراء السّـتر[5]، ولعـلّ هذه الرّواية إشارة إلـى أنّ بعـض النّسـوة يُفضّلـنَ اكتسـاب التّعلّـم والمعرفـة بمعـزل عـن أخيـها الرّجل، لأسباب تتّصل بتربيتها وبيئتها.

ولم تقتصر ساحة المرأة التّعليميّة على نشـاطها فـي الـدّار والمسـجد أو المراكـز التّعليميّـة الأُخرى المُتوفّرة بموطنها وبلدها، بل كانت تقصد البُلدان البعيدة، وهي ترتحـل لطلـب العلـم واكتساب المعرفة، فهذه فاطمة بنت سعد[6]، التي ترجم لها ابن عساكر، واصفاً رحلتـها في طلب العلم، وهي تُرافق مرّة والدها، وأُخرى زوجها، فقـال: (وقـد وُلـدَتْ فـي البحرَيْـن، ورحل أبوها إلى أصبهان، ثُمّ إلى قَدمَ، وقَدمَتْ إلى بغداد، فسـمعتُهَا، وقَدمَـتْ دمشـق مـع زوجها... وسمع منها بعض طلبة الحديث[7]، فيما أُشير إلى بعض النّسـوة المُحدّثـات تـردّدت

(1) أسماء بنت الفخر إبراهيم بن عرضة، وُلدتْ سنة 646، واشتهرت بالعلم والصّلاح والعبـادة، تُوفّيت 708هـ، كَحّالة، أعلام النّساء، 1/ 403.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 11.

(3) هي ربيعة خاتون بنت نجم الدّين، أخت السُّلطان صلاح الدّيـن، تُوفّيت سـنة 643هـ، النّعيمي، الـدّارس في تاريخ المدارس، 2/ 79 ـ 82.

(4) ناصح الدّين عبد الرّحمن بن نجم بن عبد الوهاب ابن الشّـيخ أبي الفـرج الشّـيرازي، تُوفّي 634هـ، ابـن كثـير، البداية والنّهاية 13/ 157، ابن تغري بردي، النُّجُوم الزّاهرة، 6/ 298.

(5) ابن طُولون، القلائد الجوهريّة، 12/ 158.

(6) فاطمة بنت سعد الخير بن عبد الكريم الأنصاريّة، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 10.

(7) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ورقة 10 ـ 11.

كثيراً بين بغداد ودمشق، وهي تتبع الدِّقَّة في الحديث، اشتهرت منها كريمة بنت عبد الوهاب بن علي مسندة الشّام[1]، وفاطمة بنت أحمد المُحدِّثة، وستُّ العرب بنت يحيى بن قايماز الخير الدِّمشقيَّة الكنديَّة الفقيهة المُحدِّثة، وزينب بنت علي بن فضل الصَّالحيَّة المُحدِّثة[2]، وقد استمع الكثير من الفُقهاء إلى تلك العالمات المُحدِّثات والمُسندات[3].

ولم يقتصر نشاط المرأة الدِّمشقيَّة على التَّصوُّف والحديث، بل برز بعضهنَّ في مجال الفقه، منهنَّ أُمُّ الحسن فاطمة بنت مُحَمَّد العاملي المُلقَّبة بستِّ المشايخ، وكانت فاضلة عالمة تقيَّة، سمعتْ من المشايخ، ورَوَتْ عن أبيها، وحصلت على الإجازة، ويُذكر أنَّ والدها كان (يأمر النِّساء بالاقتداء بها، والرُّجُوع إليها في أحكام الحيض والصّلاة ونحوها)[4]، وكان والدها عالماً ماهراً فقيهاً مُحدِّثاً مُدقِّقاً[5]، وإلى جانبها في هذا المجال ستُّ الوُزراء بنت مُحَمَّد، التي اشتهرت بكونها مُتفقِّهة على مذهب الإمام أبي حنيفة، فضلاً على قراءتها للقُرآن وروايتها عن العديد من العُلماء.

ولم يخلُ ميدان الشّعر من إسهامات المرأة الدِّمشقيَّة، فيما رُوي عن عائشة بنت إبراهيم[6] أنَّها كانت شاعرة بارزة، كما رُوي عن زينب بنت الكمال[7]، عنايتها بالشِّعر ونظمه.

أمَّا في مجال العُلُوم الصّرفة، فقد برزت المرأة الدِّمشقيَّة بمساحة معقولة، وفي الغالب أنَّها وَرِثَتْ هذا الاهتمام عن أبيها، فيما رُوي أنَّ ابنة زكريَّا البياسي[8]، الطَّبيب المشهور، كانت هي الأُخرى مِمَّن اشتهر في الطِّبِّ والهندسة والكتابة الأدبيَّة، وكذلك حال الطّبيبة والفَلَكيَّة والفيلسوفة ستُّ العرب الحلبيَّة، التي وَرِثَتْ الاهتمام بالطِّبِّ من أبيها ابن النَّقَّاش،

---

(1) كريمة بنت عبد الوهاب بن علي، مُحدِّثة فاضلة روتْ وأجازت كثيراً، كَحَّالة، أعلام النّساء، 4/ 424.

(2) أحمد رمضان، المُجتمع، ص277.

(3) السّخاوي، الضّوء اللاّمع، 2/ 119، أحمد رمضان، المُجتمع، 277.

(4) الحرّ العاملي، أمل الأمل، تحقيق السَّيِّد أحمد الحُسيني، بغداد، 1385هـ/ 1/ 189 ـ 190، كَحَّالة، أعلام النّساء، 4/ 119.

(5) الحرّ العاملي، أمل الأمل، 181 ـ 192.

(6) عائشة بنت إبراهيم بن حمد بن عُثمان الدِّمشقيَّة (645 ـ 718هـ)، حصلت على الإجازة من عدد من الشُّعراء، منهم البهاء زُهير ابن حجر، الدُّرر الكامنة، 2/ 338 ـ 339، كَحَّالة، أعلام النّساء، 3/ 3.

(7) السّبكي، طبقات الشّافعيَّة الكُبرى، 6/ 40 ـ 41 وكانت تكتب أبياتاً من الشّعر السّلَفي.

(8) أحمد رمضان، المُجتمع، ص276.

الذي كان أوحد زمانه في صناعة الطِّبِّ، وله مجلس عامٌّ بهذه الصّناعة، كانت تتصدَّره ابنته ستُّ العرب[1]، وعلى نفس المُنوال من الاهتمام في العُلُوم برزتْ كثيرات.

وفي مجال السّياسة ومُمارسة السُّلطة والحُكم، رُبَّما كان للمرأة دور أكثر وُضُوحاً وفاعليَّة، في بعض المُدد، غير أنَّ هذا الدّور كان يقتصر على نساء الخُلفاء والسّلاطين والحُكَّام، والشّواهد - في هذا المعنى - كثيرة، نختار من بينها بعض الأحداث سنة 493هـ/ 1099م، فقد قُتل تتش، أمير دمشق، مسموماً بتدبير أُمِّه، والتي ندمتْ عليه بعد فوات الأوان[2]، وقُتل الأمير إسماعيل بن تاج المُلُوك يُوري بن طغتكين بتدبير أُمِّه المُسمَّاة الخاتون زُمرُّد جاولي عبد الله[3]، أيضاً سنة (529هـ/ 1135م)، ولَمَّا فرض الزّنكيُّون سيطرتهم على دمشق، تزوَّجَتْ هذه المرأة من نُور الدِّين زنكي، أملاً في استعادة مجدها السِّياسي[4]، ولكنَّ هذه المُحاولة لم تنجح[5]، وبسبب دورها السِّياسي المعروف في مُدَّة حُكم آل بوري، لقَّبها بعضهم بستِّ الشَّام[6].

وإلى جانب هذا التّنابذ في السِّياسة التي مارستها المرأة الدِّمشقيَّة، نجحتْ بعضهنَّ في مُمارسة الحُكم؛ منهنَّ صفيَّة خاتون بنت الملك العادل، والتي تصرَّفت بالحُكم لُمدَّة تسع سنوات[7]، وقد عاصرتْها أميرة أُخرى من بني أيُّوب، وهي غازيَّة[8] بنت الملك الكامل، التي مارست وصاية الحُكْم على ابنها، حتَّى بُلُوغه سنَّ الرُّشد، واستلامه مقاليد الحُكْم[9].

---

(1) ستُّ العرب بنت يحيى أُمُّ الخير الدّمشقيَّة، كَحَّالة، أعلام النّساء، 2/ 159.

(2) عاشور، بُحُوث في تاريخ الإسلام، ص373، سُهيل زكَّار، مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصّليبيَّة، ط1، بيْرُوت، 1972، ص346.

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج65، ورقة 119.

(4) أرادت التّكفير عن ذنبها تجاه ابنها، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص369.

(5) توجَّهت من دمشق إلى بغداد والحجاز، وبالعكس، وأخيراً؛ تُوفِّيت في مكَّة سنة 557هـ/ 1161م، (وكان قد نَفَدَ ما بيدها)، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج65، ورقة 119.

(6) جميل بيهم، المرأة في حضارة العرب، دار العلم للجامعيِّين، ط1، 1962، ص286.

(7) جميل بيهم، المرأة في حضارة العرب، ص286.

(8) غازية بنت الملك المنصور، من أرباب العقل والتّفكير والزُّهد والعبادة، تُوفِّيت سنة 656هـ/ 1258م، اليونيني، ذيل مرآة الزّمان، كَحَّالة، أعلام النّساء، 4/ 3.

(9) جميل بيهم، المرأة في حضارة العرب، ص286.

وفي مجال السِّياسة؛ كان للمرأة دور في تهدئة الظُّرُوف السِّياسيَّة والعلاقات المُتوتِّرة بين الحُكَّام، فقد رُوي أنَّ كريمة السُّلطان نُور الدِّين، وأُخت الملك الصَّالح، جاءت إلى الملك النَّاصر لتشفع لأخيها عنده، وتطلب الصَّفح عن أهالي حلب، فأكرم صلاح الدِّين وفادتها، ولبَّى مطلبها، وأطلق سراح الأسرى من أهالي حلب، وداوى جرحاهم، حتَّى يطيب خاطرها، وترك عمَّه الملك الصَّالح حاكماً على حلب، بعد أنْ أقرَّ الصّلح معه، نُزُولاً على رغبة الأهالي التي حملتها إليه[1].

وفي مجال الجهاد والدّفاع عن المُقدَّسات الدِّينيَّة والوطنيَّة، وفي ظلِّ العُدوان الصّليبي، كان للمرأة نصيبها المُتميِّز في هذا الشّأن، فيما رُوي أنَّ الملك العادل طلب من الواعظ سبط ابن الجوزي، أنْ يحثَّ النَّاس على الجهاد، لما شاهد من فُتُور في العزائم والفُتُور عن الحرب، فاستجاب سبط ابن الجوزي لهذا الطّلب، وبمعيَّة مجموعة من الوُعَّاظ (فأشار الوُعَّاظ أنْ تقصَّ النِّساء شُعُورهنَّ ليُستعمل في الأدوات اللاَّزمة للحرب، ويُعمل منها شكال وكرفسات، وصعد منبر جامع دمشق الأعظم، وأمر بإحضار الشُّعُور، فحُملتْ على الأعناق، وكانت ثلاثمائة شكال، فلمَّا رآها النَّاس ضجُّوا بالبُكاء، وتعاهدوا على أنْ يقصُّوا من شُعُور نسائهم مثلها، ثُمَّ سافروا للقاء العدوِّ...)[2]، ومن هذا النَّصِّ أثبتتْ نساء دمشق رُوحيَّتهنَّ الجهاديَّة، وأنَّهنَّ يقفْنَ إلى جانب الرِّجال، بل كُنَّ السَّبب في إذكاء حماسهم الجهادي، ويقع في هذا المعنى مُشاركة مُغنِّية آل مُرَّة، المعروفة بالحضرميَّة، حماس قومها عندما قدموا إلى دمشق لحرب التّتار، وهي تقول:

وكُنَّا حسبنا كُلُّ بيضاءَ شحمةً ... ليالي لاقينا حدا ما وحميراً

ولَمَّا لقينا عُصبة تغلبيَّة ... يقودون جرواً للمنيَّة ضمرا

فلمَّا فرغنا النَّبع بالنَّبع بعضه ... ببعض أَبَتْ عيدانه أنْ تُكسَّرا

سقيناهم كأساً، سقونا بمثلِه ... ولكنَّهم كانوا على الموتِ أَخْيَرا[3]

---

(1) أبو شامة، 2/ 969.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، 8/ 544 - 545، مُحَمَّد كُرد علي، دمشق مدينة السِّحر والشّعر، ص30، وبعد أنْ انفضَّ المجلس، تلقَّاه والي دمشق المُعتمد بن إبراهيم، وكان من خيار النَّاس، فمشى معه حتَّى باب الفرج، حتَّى ركب فرسه، والنّاس خلفه، وعلى يمينه وشماله، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 64.

(3) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى، 4/ 209.

ولم تقتصر مُشاركة المرأة في المُجتمع الدِّمشقي على الأحرار منهنَّ، بل كان للجواري نصيبهنَّ في ذلك، من خلال وُجُودهنَّ في قُصُور الحُكَّام والسّلاطين والمُلُوك، الذين تزوَّج بعضهم من الجواري، فارتفعْنَ إلى منزلة الأحرار وسيِّدات[1] القصر، إلى جانب امتهانهنَّ الغناء والطَّرب عبر العُهُود المُتتالية، حتَّى تخصَّص العصر المملوكي بأنْ يكون لكُلِّ أمير جوقة من المُغنِّيات الجواري، وبسبب امتزاج الجواري بقُصُور الحُكَّام وحريمهم، سَرَتْ عليهنَّ نفس العادات والتّقاليد، التي تُمارسها نساء الحُكَّام وحريمهم من الأحرار[2]، منها العُزلة والحجاب، وعدم السَّماح لغير الخصيان[3] والطّواشي بالاختلاط بهنَّ، وسواء ارتقت الجارية من خلال زواجها بالحاكم، أو من خلال مهارتها بفنِّ الرّقص والغناء، فالأمر الذي نُشير إليه هُنا أنَّ تأثيرهنَّ بالحياة العامَّة الدِّمشقيَّة لم يكن بالمساحة الضيِّقة أو المُهمَلة، فيما ذكرت لنا الرّوايات أنَّ البعض منهنَّ مارسن الحُكْم لمُدَّة محدودة، ونُشير هُنا إلى شجرة الدُّرِّ، التي تزوَّجها الملك الصّالح أيُّوب لكفاءتها وقُدرتها السِّياسيَّة؛ حيثُ استطاعت قيادة دولة المماليك[4].

هذا هُو الحال بالنِّسبة للمرأة العربيَّة، وهي تُخالف ما كانت عليه المرأة في أُورُوبا، التي تُوِّج تاريخها بسلسلة من المصائب والإهانات، فرضت بعضها الأفكار السّائدة[5] في أُورُوبا، وفرضت بعضها الآخر الأوضاع الجديدة الرّاهنة، تلك الأوضاع التي عاشها الإفرنج في الشّرق[6]، ولهذا؛ نجدها تبحث عن نفسها بتقليد النِّساء المُسلمات، في التّزيُّن والتَّحلِّي

(1) المقريزي، الخُطط، 2/ 292، أحمد رمضان، المُجتمع، ص277.

(2) أحمد رمضان، المُجتمع، ص278.

(3) إنَّ نظرة الخصيان إلى النِّساء، كنظرة الفحل إلى المحارم، كما قال: وإنَّ الخصي يُنقضون الوُضُوء باللّمس، شأنهم في ذلك شأن النّساء، عاشور، المُجتمع المصري، ص35، نقلاً عن كتاب أحكام العقيان في أحكام الخصيان، ص1-3.

(4) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 165، السَّيِّد الباز العريني، 1/ 36-37.

(5) لقد وصف أحد الإفرنج عادة النِّساء فقال: رُحن يجرنَ أذيال الفُجُور؛ إذْ كُنَّ يفدن بالمراكب والزّوارق، وهُنا يتألَّم ويقول: رُحماكَ اللّهم! أبمثل هذا السِّلاح يُستردُّ ميراث الرَّبِّ، زكي النَّقَّاش، العلاقات الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة والاقتصاديَّة، بَيْرُوت، 1957، ص152.

(6) طه الطّراونة، المرأة الصّليبيَّة، مجلَّة مُؤتة، العدد 1، المُجلَّد 8، 1993، ص87.

والتَّخضُّب والتّعطُّر[1] ، إلى جانب حُصُولها على الهدايا الكثيرة التي كانت تنقصها ، مُقابل تزويد المُسلمين بالمعلومات المطلوبة بشتَّى السُّبُل[2] ، فيما رُوي عن الملك المُعظَّم أنَّه برع في استمالة الفرنجيَّات بالمال والهدايا ، من أجل الحُصُول على الأخبار الضّروريَّة ، التي تُساعد في صدِّ الهُجُوم الصّليبي المُتوقَّع على الشَّام[3] .

ـ الأطفال:

الطّفل هُو الحصيلة الطّبيعيَّة لزواج الرَّجل بالمرأة ، وما من شكٍّ أنَّ تربية الطّفل تأتي في مُقدِّمة واجبات الوالدَيْن والأُسرة عُمُوماً[4] ، وُفقاً لمسؤوليَّات الوالدَيْن الأُسَريَّة والاعتباريَّة والدِّينيَّة ، فينشأ الأطفال على حُبِّ والدَيْهم ، وتُعزِّز هذه المودَّة بينهم بالوراثة ، وصلة الرّحم والتّربية ، والأُسرة الدِّمشقيَّة عُرف عنها أنَّها تسهر على تربية أطفالها[5] ، فهي تُرسل طفلها في سنِّ الخامسة لينال تعليمه على يد المشايخ ، أو في المدرسة ، لينهل من عُلُوم القُرآن والحديث والعُلُوم الأُخرى ، وإذا ما تحقَّق له خَتْمُ القُرآن احتُفل بهذه المُناسبة احتفالاً بحُضُور جماعة من المُنشدين إلى بيت الغُلام ، حتَّى يُطاف به بأزقَّة المدينة[6] .

وتتآزر جُهُود الوالدَيْن مع جُهُود المُؤدِّبين والمُربِّين للطّفل ، فيما يسهر الوالدان على تعليم ابنهم القُرآن والخطَّ والحساب والأدب والفُنُون الأُخرى ، وفي هذا المجال يلقى مُؤدِّب الطّفل[7] الاحترام الكبير ، ويرقى به هذا الأمر إلى مُستوى الوالدَيْن في المسؤوليَّة بالأدب والتّعليم .

---

(1) حبيب زيَّات ، النِّساء الفرنجيَّات عصر الصّليبيِّين ، ص5 .

(2) حبيب زيَّات ، احتيال المُلُوك الأيُّوبيِّين في رشوة الفرنجيَّات للتَّجسُّس الصّليبي ، ص55 .

(3) جمال الدِّين الشَّيَّال ، الجاسوسيَّة في الحُرُوب الصّليبيَّة ، ص249 .

(4) كانت العادة المُتَّبعة إنْ كان المولود ذكراً صلُّوا على سيِّدنا مُحَمَّد ﷺ ، وإنْ كانت أنثى ترضّوا على السَّيِّدة فاطمة (عليها السّلام) ، الغزِّي ، نهر الذّهب ، 1/ 244 .

(5) البيت هُو المرحلة الأُولى لتربية الطّفل الخُلقيَّة والاجتماعيَّة ، فضلاً على كونه ـ في بعض الأحيان ـ مكان الدّرس والتّعلُّم ، فهذه فاطمة بنت علي (سمع منها أولادها في دارها) ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج66 ، ورقة 164 ، وغيرهنَّ كثيرات ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً .

(6) الغزِّي ، نهر الذّهب ، 1/ 246 ـ 247 وقد يُسمَّى الاحتفال بـ (نشيدة) .

(7) تمتَّع مُؤدِّب الطّفل باهتمام ونُفُوذ في نُفُوس الأطفال وذويهم ، لدرجة أنَّ النِّساء يلجأنَ إليه في بعض الأحيان لشكوى أبنائهنَّ ، إذا أخلّوا بالأدب في المنزل ، في الوقت نفسه ، كانت العلاقة مُتبادلة بين الطَّرفَيْن ، فقد يقوم الأب أو الأمُّ بمُهمَّة التّعليم ، فيُعلِّموا الطّفل القُرآن والأدب والخطَّ والفُنُون ، عاشور ، المُجتمع ، ص115 ـ 116 .

ـ التّكافل الاجتماعي بين أفراد المُجتمع:

نظَّمت العلاقات الاجتماعيَّة في المُجتمع العربـي قبـل الإسـلام قيَـم وعـادات فرضتـها طبيعة الحياة وأنماط السُّلُوك في تلك المُدَّة.

ولَمَّا جـاء الإسـلام أبقـى بعضـها، ورفـض بعضـها الآخـر، الـذي لا ينسـجم وحُـدُود الشّريعة، وتوالت هذه القيَم والعادات والمُثُل التي رسمها الإسلام عبر العُصُـور في المُجتمع العربي الإسلامي من خلال النُّظُم المُتوالية.

والمُجتمع الدِّمشقي في هذه المُدَّة ورث هذه الحالة، كجُزء مِمَّا ورثه من الـتُّراث، مُضافاً إليه ما استُحدث من القيَم والعادات، التي أَمْلتها الظُّرُوف التي نحـنُ بصددهـا، سـواء كـانت تلـك الظُّرُوف تتَّصـل بأسـباب طبيعيَّـة، أو بتطـوُّر المُجتمـع الدِّمشـقي، وتلبيـة لحاجاتـه، أو بدُخُول عوامل جديدة عليه، كالعُدوان الصّليبي، مِمَّا أبرز ظاهرة إسلاميَّة وإنسانيَّة، تلك هي التّكافل الاجتماعي الذي نتلمَّسه من خلال جُملة أحداث؛ منـها مـا رُوي عـن نـائب صـلاح الدِّين في دمشق[1]، أنَّه أرسل سنة 574هـ/ 1178م، كتاباً إليه جاء فيه: (إنَّ الأمـوال ضايعـة، وإنَّ الأطماع فيها زائفة، وقد أفنى الجُود مجموع الموجود، وإنَّا عند الاحتياج إلى كفٍّ مُلمٍّ، ودفع مُهمٍّ، لا نجد مـا نُنفقـه، وإنَّ في أربـاب الصّدقـات أغنيـاء لا يستحقُّونها...)[2]، وفـي النَّصِّ إشارة إلى حُسن استثمار وتوزيع الصّدقات على مُستحقِّيها، مِمَّا يسَّر لهؤلاء المُستحقِّين حياة كريمة، وتحسَّـنت مُستوياتهم المعاشيَّة، حتَّـى لـم يَعُـدْ هـؤلاء مِمَّـن يستحقُّ الصّدقـات، وظهرت وحدة الشّعب الدِّمشقي ورغبته، بمُختلف فئاته، في ترحيبه واستقباله لمَقْدَم صـلاح الدِّين الذي روى ابن الأثير بقوله: (وخرج بكُلِّ مَنْ بـها... إليـه، فلقـوه، وخدمـوه، ودخـل البلد، ونزل في دار والده المعروف بدار العقبي)[3]، وفي ذلك يقول أحد الشُّعراء:

قد جـاء السّعد والتّوفيق واصطحبـا   فكنْ لأضعـاف هـذا النّصـر مُرتقبـا

---

(1) شمس الدِّين بن المُقدَّم أحد وُلاة دمشق، وهُو من قُوَّاد صلاح الدِّين، تُوفِّي 583هـ، ابن الكثير، البداية والنّهاية، 13/ 350، ابن تغرى بردي، النُّجُوم الزَّاهرة، 6/ 105.

(2) البنداري، سنا البرق الشّامي، ص157.

(3) ابن الأثير، الكامل، 9/ 131.

رأيـت جلَّـق ثغـراً لا نظـير لـه　　فجئتـها عـامراً منـها الـذي خُرِّبـا
نـادتك بـالذُّلِّ لَمَّـا قَـلَّ ناصرهـا　　وازقـع الخلـق أوطانـها هربـا[1]

وهي مسألة تُشير إلى توحيد الشّعب في رغباته، وامتدَّ حال التّكافل الاجتماعي إلى أفراد الشّعب والحُكُومة، فيما رُوي عن الملك العادل، فقد اقترض أموالاً من تُجَّار دمشق للإنفاق على أُمُور الجيش والمصالح العامَّة، وذلك سنة 595هـ/ 1198م[2].

وما من شكٍّ أنَّ من أبرز حالات التّكافل الاجتماعي، وُقُوف الشّعب بعضهم مع بعض في أوقات المحَن والكوارث الطَّبيعيَّة[3]، والمجاعات[4]، وشُيُوع الفتن والمشاكل السِّياسيَّة، وللدّلالة على ذلك توحَّد الشّعب الدِّمشقي في مُواجهة جيش الخوارزميَّة، الذي حاصر دمشق سنة 643هـ/ 1245م، ونجاحهم في صدِّ المُعتدين، بالرَّغم ممَّا لحقهم من انتشار الأوبئة والمجاعة[5].

ولعلَّ من أكثر وُجُوه التّكافل الاجتماعي إشراقاً، التي شهدها المُجتمع الدِّمشقي هي شُيُوع الأوقاف الرَّسميَّة والشّعبيَّة، والتي توزَّعت على المُؤسَّسات الخيريَّة والدِّينيَّة والثَّقافيَّة، وتنوَّعت أغراضها وارداتها، فمن هذه الأوقاف ما خُصِّص لمُساعدة العاجزين عن أداء فريضة الحجِّ، ومنها ما أسهم في تجهيز زواج بنات الفُقراء، ومنها ما اعتُمد في فكِّ الأسير والمُعاني، ومنها ما تخصَّص بأبناء السَّبيل، للإنفاق على طعامهم ولباسهم، في حين اختصَّت بعضها بتحسين الطُّرُق والأزقَّة ورصفها في دمشق، فقد روى ابن بطُّوطة عن إسهام تلك الأوقاف في مُساعدة المماليك والعبيد، وإعانتهم على مشاكلهم ومحنهم، فقال: (مررتُ يوماً ببعض أزقَّة دمشق، فرأيتُ به مملوكاً صغيراً قد سقطتْ من يده صفيحة من

---

(1) ابن العديم، الوصل إلى الحبيب، 1/ 314، من المُقدِّمة.

(2) ابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 100، ابن الفُرات، تاريخ ابن الفُرات، 4/ 2/ 163.

(3) كانت دمشق تنفر من خطر الزّلازل الكثيرة، ومنها ما حصل سنة 598هـ، حين ضرب الكثير من المنازل وشُرف الجامع، المُنجِّد، نُصُوص عن دمشق، ص43.

(4) أشرنا سابقاً عن المجاعات والمحن التي حدثتْ سنة 468، وما بعدها؛ بحيثُ أكل النَّاس ما لا يُؤكل، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص108، سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، بحاشية ذيل تاريخ دمشق، ص111.

(5) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 178.

الفخَّار الصّيني، وهُم يُسمُّونها الصّحن، فتكسَّرتْ، واجتمع عليه النَّاس، فقال له بعضهم: اجمعْ شقفها، واحملها معكَ لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها، وذهب معه إليها، فأراه إيَّاها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصّحن)[1]، ولم ينسَ أصحاب البرِّ والتّقوى المرضى في حاجتهم للدَّواء، فقد رُوي أنَّ ستَّ الشَّام كانت (تعمل في كُلِّ سنة في دارها بـأُلُوف من الذَّهب أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك، وتُفرِّقه على النَّاس)[2].

أمَّا الجانب الرَّسميّ من الأوقاف؛ فقد تنوَّعت أشكاله وأغراضه؛ فمنها ما نُسب إلى نُور الدِّين من بنائه قصراً للفُقراء[3] في الرّبوة، ووقف عليه قرية داريا، وكان القصر إلى جانب قُصُور الأغنياء، فقد أحبَّ سيِّد الشَّام ألاَّ يحرم الفُقراء من قصر يصطافون فيه، ويتمتَّعون، كما يصطاف أرباب اليسار[4]، وترى أنَّ هذه الميِّزة المنسوبة لنُور الدِّين، إنَّما كانت بدافع التّخفيف من مُعاناة الفُقراء، والدّعوة إلى مُساواتهم مع أهل اليسار والثّروة، وهي - بلا شكٍّ - تُشير إلى رُوح العدالة والمُساواة الاجتماعيَّة والتّكافل الاجتماعي الذي ينهض به نُور الدِّين، وقد ترجم ذلك أحد الشُّعراء بقوله:

إنَّ نُـور الديـن لَمَّـا أنْ رأى	فـي البسـتان قُصُور الأغنيـاء
عمَّـر الرّبـوة قصـراً شـاهقاً	نُزهـة مُطلقـة للفُقـراء[5]

وكذلك ما نُسب إلى صلاح الدِّين في بناء دار للأيتام، وقد وقف عليها وقفاً كثيراً، كان مورداً للقائمين عليها، فضلاً عمَّا يُنفق على الصّبيان الأيتام في مُختلف حاجاتهم، كما نُسب إلى صلاح الدِّين أنَّه أمر بعمارة محاضر (مكاتب)، وألزمها مُعلِّمين لكتاب الله عزَّ وجلَّ، يُعلِّمون أبناء الفُقراء والأيتام خاصَّة، ويُجري عليهم الرّواتب الخاصَّة بهم[6].

---

(1) ابن بطُّوطة، الرّحلة، 104.

(2) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 92.

(3) خرج السُّلطان نُور الدِّين زنكي إلى جهة الرّبوة، فقيل له: هذا بُستان فُلان، وهذا قصر فُلان، قال: وما للفُقراء شيء؟ قالوا: لا، فبنى لهُم هذا المكان، وجعله مشهداً للنَّاس، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص257 - 258.

(4) مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص257.

(5) مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص257.

(6) الرّحلة، ص273، عاشور وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة، ص283.

كما وقف السُّلطان بيبرس وقفاً لشراء الخُبز، وتوزيعه على المُعدمين، فضلاً على صدقاته التي بلغت كُلَّ سنة عشرة آلاف أردب من القمح على المساكين[1]، حتَّى بلغ الأمر بأهل البرِّ والتّقوى من السّلاطين أنَّهم كانوا يُكثرون من توزيع الأموال على المساكين والمُعدمين والفُقراء وذوي الحاجات، بكفالة الأغنياء لهُم والاهتمام بحاجاتهم.

ولم يغفل الحُكَّام والسّلاطين عن حاجات وتكاليف الموتى، فممَّا يُشار بهذا الشّأن ما نُسب إلى السُّلطان بيبرس، أنْ عمل وقف الطّرخاء ليكون رَسْماً بتغسيل موتى المُسلمين من الفُقراء وتكفينهم ودَفْنهم[2].

وممَّا تقدَّم من هذه الصُّور التي برز فيها التَّعاون والتّكافل الاجتماعي، نَخْلُص إلى القول: إنَّ المُجتمع الدِّمشقي كانت تُؤطِّره قيَم ومُثُل ومسؤوليَّات تقع في دائرة الشّريعة الإسلاميَّة وحُدُودها، فضلاً على كونها صفات إنسانيَّة تشدُّ من أزر المُجتمع وتماسكه، وتُشير إلى حالة وصفحة مُشرقة من مظاهر الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة التي عرفتها دمشق في تلك الفترة.

- إحصاء السُّكَّان:

مَنْ يستقرئ تاريخ مدينة دمشق عبر عُهُودها المُتوالية يخلُصُ إلى مآثر هذه المدينة بالظُّرُوف المُختلفة، حتَّى انعكس هذا الأمر على سُكَّانها الذين تفاوتت أعدادهم بين الزّيادة والنّقصان، تبعاً لتلك الظُّرُوف المُتغيِّرة، ففي رواية سبط ابن الجوزي الذي أحصى فيها سُكَّان المدينة، فقدَّرها بحُدُود خمسمائة ألف نسمة في داخل السُّور وخارجه، ولم يُشر سبط ابن الجوزي إلى السَّنة التي اعتمد فيها هذا الرَّقْم، والرّاجح أنَّه يُشير إلى المُدد السَّابقة، ولكنْ؛ أشار إلى هُبُوطه إلى عدد غير معقول حينما قال: إنَّ سُكَّان دمشق في سنة 469هـ/ 1076م، لم يبلغوا (سوى ثُلاثة ألف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء)[3].

---

(1) عاشور وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة، ص284.

(2) المقريزي، السُّلُوك، 1/ 638، عاشور وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة، ص284.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، أحداث سنة 468، بحاشية كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، بَيْرُوت، 1908، ص111.

وقد اعتمد سبط ابن الجوزي هذه الحال بجُملة مظاهر منها ما يتّصل بعدد الخبّازين في المدينة، فقد أشار إلى انخفاضهم من مائتَيْن وأربعين خبّازاً إلى خبّازَيْن[1]، وأشار إلى الأسواق أنَّها خالية، وهذه الإشارة إنَّما تعني عدم توفُّر الطّعام في السُّوق والخُبز بصُورة خاصّة، ومن جهة أُخرى أشار إلى انخفاض القُوَّة الشّرائيَّة لدى الشّعب الدِّمشقي، فقال: إنَّ الدّار التي تُباع بثلاثة آلاف دينار، صارت تُباع بعشرة دنانير، ولم يتوفَّر راغب بشرائها، فيما رُوي أنَّه: (كان لامرأة داران، قد أُعطيت قديماً في كُلِّ دار ثلاثمائة ديناراً أو أربعمائة، ولَمَّا ارتفعت الشِّدَّة على النَّاس ظهر الفأر، فاحتاجت إلى سُتُور، فباعت إحدى الدّارَيْن بأربعة عشر قيراطاً، واشترت سُتُوراً)[2]، وكذلك حال الدّكاكين، فالدُّكّان الذي يُساوي ألف دينار انخفض سعره إلى الدّينار الواحد، بل أشار إلى تَمكُّن الجُوع من النَّاس، حتَّى أكلوا ما لا يُؤكل[3] والظّاهر أنَّ هذه الحالة المُتردِّية من المُستوى المعاشي التي شهدتها دمشق استمرَّت سنوات عدَّة، حتَّى تولَّى الأتابك ظهير الدِّين ولاية دمشق سنة 498هـ/ 1104م، الذي أشارت الرّوايات في عهده إلى تحسُّن الحال، قال ابن القلانسي يصف هذا الأمر: (وحُسِّنت أحوال دمشق وأعمالها بإيالته، وعُمِّرت بجميل سياسته، واتَّفق أنَّ الأسعار رخصتْ، والغلاَّت ظهرتْ، وانبسطتْ الرّعيَّة في عمارة الأملاك من باطن دمشق وظاهرها، لإحسان سيرته، ن وإجمال مُعاملته، وبثِّ العدل فيهم، وكفِّ أسباب الظُّلم عنهم)[4].

والظّاهر أنَّ تحسُّن الوضع الاقتصادي الذي شهدته دمشق، قد انعكس على الحال العامَّة فيها، فزاد عدد سُكَّانها، وتضاعف مرَّات، فيما ذكره ابن جُبير[5]، حتَّى بلغ تعداده ما يُعادل ثلاث مُدُن، ومع ذلك؛ لم يصل عدد سُكَّان دمشق في هذه المُدَّة اللاَّحقة إلى المُستوى

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، ص111.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، ص111.

(3) لخَّص ابن القلانسي أحوال سنة 468، بقوله: (اشتدَّ غلاء الأسعار في دمشق، وعُدمتْ الأقوات، ونفدتْ الغلاَّت فيها، ممَّا اضطرَّ إلى أكل المِيّتات، وأكل بعضهم بعضاً)، ذيل تاريخ دمشق، ص108، وتكرَّرت الحال في سنة 643، عندما حاصر الخوارزميَّة دمشق، ونهبوا ما حولها، وذكر ابن كثير بشائع عن ذلك، البداية والنّهاية 13/ 178، خريسات، التّوسُّع العُمراني، ص415.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص145.

(5) الرّحلة، ص255.

الذي أشار إليه سبط ابن الجوزي في روايته الأُولى، فيما قيل: إنَّها بلغت في هذه الفترة (200) ألف نسمة[1]، على أنَّ السّاكنين في داخل السُّور يُشكِّلون رُبع السُّكَّان.

ويبدو أنَّ سُور المدينة الذي كان مظهراً مُهمّاً من مظاهر خُططها، أصبح من عوامل عدم توسُّع المدينة، وازدياد عدد سُكَّانها في داخله، الذي كانت تنتظمه حارات وأزقَّة مُزوَّدة بأبواب خاصَّة، كانت هي من مظاهر الأمن والسّلام فيها، إلى جانب كونها من عوامل تعويق توسُّع المدينة وازدهارها، ممَّا أشاع في المدينة أُسلوب الأحياء المُغلقة، التي تُوصف بتداخل مساكنها واكتظاظها، بينما كانت دُرُوب وأزقَّة المدينة ضيِّقة، وتنتهي بالأبواب الضّخمة[2]، والتي كانت مظهراً من مظاهر هذه الأحياء، فضلاً عن توفُّر الحُرَّاس لها، ويُميِّزها بانفتاحها من جانب، وانغلاقها من نهاياتها الأُخرى زيادة في الحيطة والأمن، وممَّا زاد من ضيق شوارع المدينة، وتحوُّلها إلى دُرُوب ضيِّقة، هُو ما نهج عليه الأُمراء والمُتنفِّذون من توسيع دُورهم على حساب الشّوارع العامَّة، حتَّى وصلت في سعتها أنْ لا تتجاوز ستَّة أو سبعة أمتار، بعد أنْ كانت ستَّة وعشرين متراً[3]، ممَّا دفع بالسّاكنين الجُدُد إلى اختيار الضّواحي خارج سُور المدينة[4].

وقد أكَّد ياقوت الحموي ذلك، وهُو يتكلَّم عن سُكَّان مدينة دمشق وازدحام بُيُوتها، وندرة اختيارها السَّكَن في داخلها، فقال: (والمساكن بها عزيزة لكثرة أهلها، والسّاكنين بها، وضيق بُقعتها...)[5]، فازداد تطوُّر المدينة وتوسُّعها، الأمر الذي ساعد على ظُهُور ضواحي جديدة سَكَنَهَا النَّاس، ومنها ضاحية العقيبة[6]، في الشّمال وضاحية الشّاغور[7] في

---

(1) خالد مُعاذ، دمشق، ص149.

(2) وتُفتح هذه الأبواب بتواقيت مُعيَّنة، شاكر مُصطفى، المُدُن في الإسلام، 2/ 303 ـ 304، قُتيبة الشّهابي، أبواب دمشق، ص307، ومن هذه الأبواب باب الآغا، الخوَّاصين، السّريجة، الشّويكة...إلخ.

(3) خالد مُعاذ، دمشق، 139.

(4) يرى بعض الدَّارسين أنَّ سُور دمشق وعمارته ووسائل أمنه قد تأثَّر بسُوق بغداد، حتَّى تأثيراتها المعماريَّة كانت واضحة، وتُشير إلى تأثُّرها بعمارة بغداد، ناجي معروف، مُقدِّمة كتاب بغداد مدينة المنصور المُدوَّرة، د. ظاهر مُظفَّر العميد، ص7.

(5) مُعجم البُلدان، 2/ 465.

(6) صفوح خيِّر، دمشق، ص163.

(7) صفوح خيِّر، دمشق، ص163.

الجنوب، وقد أُنشئت هذه الضّواحي على الطُّرُقات الواصلة إلى أبواب المدينة، وهي ضواحي باعة الخضراوات، وغيرها، أمَّا ضاحية الصّالحيَّة[1]؛ فقد لحقها الازدهار في أوائل العصر الأيُّوبي، بعد أنْ كانت ضئيلة بموقعها وعدد سُكَّانها، ومن مظاهر ازدهارها أنَّها ازدحمت بالمدارس والرّبط والأضرحة...إلخ.

كما برزت في عهد المماليك ضاحيتان جديدتان، عُرفت الأُولى بالسّويقة، وتقع جنوب غربي المدينة، في حين سُمِّيت الثَّانية سُوقيَّة صاروجا[2]، وتقع شمالي المدينة[3].

وقد تميَّزت هذه الضّواحي بالخُصُوصيَّة، فاستقلَّت بمساجدها وحمَّاماتها ومعاهد التّعليم فيها، وشؤُون إدارتها المُختلفة، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، فكان سُكَّانها يتغلَّب على انتمائهم الأصل الواحد والعقيدة الواحدة، ممَّا أظهر تجمُّع النّصارى في الزّاوية الشَّرقيَّة في المدينة، واليهُود في الجنوب الشَّرقي، بينما تجمَّع المُسلمون في القسم الغربي، بجوار الجامع الكبير والقلعة والأسواق؛ وحيثُ إنَّ التَّجمُّعات السُّكَّانيَّة تَمَثَّلت في هذا التَّوسُّع، فقد عمل ذلك على اختيار مواقع البنايات والمُؤسَّسات العامَّة[4]، بجوار تلك التَّجمُّعات، ومنها وُجُود المُستشفى النُّوري بجوار الجامع، فضلاً عن توفُّر الرّبط والمدارس والمُؤسَّسات الأُخرى التي تُؤمِّن المصالح العامَّة[5].

- الدُّور والقُصُور:

من مظاهر الحياة الاجتماعيَّة الدِّمشقيَّة، والتي تُشير إلى تقدُّم المُجتمع ورفاهيَّته، هُو العُمران الذي يتمثَّل في بناء الدُّور والقُصُور ومظاهره الأُخرى، وهي - بلا شكٍّ - تنتمي إلى فنِّ العمارة، الذي عرفته العرب قبل الإسلام، مُضافاً إلى فنِّ العمارة الإسلامي، الذي يتمثَّل فيه ضرورات المرحلة التَّاريخيَّة وحالاتها، برُوحيَّة الإسلام وطابعه، فضلاً عن مظاهر

---

(1) ابن طُولون، القلائد الجوهريَّة، 1/ 24، وما بعدها.

(2) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص183، 210، 211.

(3) صفوح خيِّر، دمشق، ص176.

(4) انظر المُلحق الخاصّ بالبنايات العامَّة رَقْم (14)، ص 280.

(5) سُوفاجيه، دمشق الشَّام، ص36.

الإبداع والتّأثير المُتبادل بين المُجتمع العربي الإسلامي والمُجتمعات والأُمم الأُخرى، التي طالتها الدَّولة، ومن خلال هذه الحصيلة نرى من المُمكن أنْ نُشير إلى خُصُوصيَّة البيت الدِّمشقي بصُورة عامَّة، وخصائص العمارة فيه على الوجه الآتي:

1 ـ عدم الاهتمام بالمظهر الخارجي.

2 ـ احتواء المنزل على صحن داخلي.

3 ـ وُجُود الإيوان.

4 ـ تقسيم المنزل إلى قسم داخلي، وقسم للضُّيُوف، وآخر للخدمات.

وكان للبيت الدِّمشقي ـ فضلاً عن ذلك ـ اهتمام خاصٌّ بالزّخرفة الدَّاخليَّة، عوضاً عن اهتمامه بالمظهر.

والرّاجح أنَّ ما أشارت إليه الموارد من تفاصيل العمارة في البيت الدِّمشقي، إنَّما تُشير إلى بُيُوت الميسورين دُون الطّبقة العامَّة، فيما وقعت أيدينا على تفاصيل فنِّ العمارة والرّيازة والزّخرفة والفنِّ في البناء، لا يُمكن تحقيقها[1]، إلاَّ بتوفُّر القُدرة الماليَّة، فالموارد تصف البيت الدِّمشقي أنَّه يتكوَّن ـ على العُمُوم ـ من طابقَيْن، الطّابق السُّفلي يتكوَّن من فناء فسيح (صحن الدّار) تُزيِّنه نوافذ تُطلُّ على الأجنحة المُتفرِّعة منه، تجنُّباً لفتحها على الشّوارع الدَّاخليَّة، ولكنَّها تُؤمِّن التّهوية، والإضافة الدَّاخليَّة في الفناء، ذلك أنَّ البُيُوت لم تكن لتنتفع كثيراً من الشّوارع الضَّيِّقة التي تحتضن تلك القُصُور، وكان الفناء في المنزل هُو عصب الاتِّصال بين أجزاء المنزل الأُخرى، فضلاً عن استخدامه في شُؤُون الحياة اليوميَّة المُختلفة، وفضلاً عن ذلك، مكاناً لاجتماع سكنة المنزل، حتَّى وإنْ اشتمل المنزل على أكثر من أُسرة[2]، وفي العادة؛ يُفرش هذا الفناء بالرُّخام بأشكال هندسيَّة جميلة[3]، تزيد من رونقه وبهائه، فضلاً عن سقفه المُرتفع بضِعْفَيْ سُقُوف الغُرف الأُخرى لأسباب صحِّيَّة تختصُّ بتوفير الهواء

---

(1) عفيف بهنسي، الشَّام، ص166.

(2) مُحَمَّد عبد السّتار عُثمان، المدينة الإسلاميَّة، الكُويت، 1988، ص241.

(3) خالد مُعاذ، دمشق، ص137.

النّقي، كما كان الأمر بالنِّسبة للمساجد والحمَّامات وغيرها من المُنشآت العامَّة[1]، وهذا الأمر يتَّصل باهتمام الدِّمشقيِّين بالزّخرفة الدَّاخليَّة المُلوَّنة، حجريَّة[2] كانت أم خشبيَّة[3]، والتي كانت تُزيِّن القاعات الدَّاخليَّة للمنزل بجُدرانه وسُقُوفه، والتي تتمثَّل بغُرف كبيرة بالزّخارف والنُّقُوش المُلوَّنة، والأصباغ التي عُرفت قديماً بالنّقش الشَّاميّ، تتوسَّطها بركة صغيرة أو فسقيَّة، تتَّصل بسلسبيل ماء (المصبّ)[4].

وكانت هذه الزّينة تنسحب على الأبواب التي تميَّزت بالزّخرفة والتّلوُّن، وفي الغالب؛ يتوسَّط فناء الدّار، أو الصّحن، بركة ماء تتَّصل بأُنبوب يُزوِّدها بماء مُستمرٍّ لا ينقطع جريانه، والبركة هذه وسيلة من وسائل تلطيف الجوِّ، وكان يُحيط بهذا الفناء مساحة مزروعة بالأشجار والزُّهُور، تُزيد من جماله، وهُو أمر يُشير إلى ذوق الدِّمشقيِّين في تزيين مساكنهم بالحدائق الدّاخليَّة[5]، ولعلَّ وُجُود سُوق الرّياحين[6] في دمشق هُو تلبية لهذا الذّوق الفنِّيِّ في السَّكَن.

أمَّا الطّابق العلوي؛ فالظّاهر أنَّه كان يختصُّ بسكن النّساء؛ إذْ تُوجد ظلاَّت لها ستائر خشبيَّة، يُمكن للنِّساء أنْ تطلَّ منها على القاعة، دُون أنْ يراهنَّ مَنْ كان في القاعة، وهُناك خُصُوصيَّة أُخرى للطَّابق العلوي، كونه يختصُّ في سُكناه بموسم الشّتاء في الغالب، بسبب زيادة الرُّطُوبة في الجوِّ، ولعلَّها بسبب ارتفاع مناسيب المياه[7].

أمَّا موادُّ البناء التي تُستعمل في تلك الدُّور، والتي ساعدت باستعمالها الظُّرُوف المناخيَّة؛ فكان الطّين الأحمر (الصّلصالي) بعد خَلْطه بالتّبن، مُضافاً إليه الحجر والآجر،

---

(1) عفيف بهنسي، الشَّام، ص137.

(2) يُطلق على الزّخارف الحجريَّة المُلوَّنة الأبلق، عفيف بهنسي، الشَّام، ص166.

(3) تُطلق على الزّخارف الخشبيَّة المُلوَّنة - أحياناً - العجمي، عفيف بهنسي، الشَّام، ص166.

(4) تحفل المساكن الدِّمشقيَّة بالبرَك (بَحْرَة)، والفسقيَّات (فسقيَّة)، وبالسّلسبيل (المصبّ)، وتقوم البركة في مُنتصف الصّحن، واسعة يبلغ قُطرها 3 - 6 م، أمَّا الفسقيَّة؛ فهي صغيرة قُطرها متر، وتُصنع من الرُّخام المُشقَّق أو الفُسيفُساء، والسّلسبيل لوح مرمري أو مُزيَّن بشُقُوق رُخاميَّة، عفيف بهنسي، الشَّام، ص57.

(5) خالد مُعاذ، دمشق، ص137.

(6) مُحَمَّد كُرد علي، دمشق مدينة السِّحر والشِّعر، ص66.

(7) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 1/ 228.

كمادَّة إنشائيَّة ضروريَّة، فضلاً عن الخشب، لإقامة المداميك للجُدران، ولتغطية بعض الواجهات، ولإقامة إطارات الأبواب، والنّوافذ الدَّاخليَّة والخارجيَّة، وقد أظهرت الدِّراسات حُسن استعمال الطّين في البناء مع البيئة القاريَّة، بسبب ضآلة المدى الحراري في بنائه في الصّيف والشّتاء واللّيل والنّهار[1].

وإذا كانت هذه المواد تُميِّز الطّابق السّفلي من الدّار، فإنَّ الطّابق العُلوي يُبنى من أعمدة خشبيَّة، ومواد أُخرى، ليست بالثّقيلة، تجنُّباً لما تتعرَّض له البلاد من خطر الزّلازل، فيما رُوي أنَّها تعرَّضت إلى زلزال سنة 552هـ/ 1157م، وغيره[2].

وفي نَظَر ابن جُبير؛ كانت بُيُوت دمشق كما وصفها بقوله: (والبلد ليس بمُفرط الكبَر، وهُو مائل للطُّول، وسككُه ضيِّقة مُظلمة، وبناؤه طين وقصب، طبقات بعضها فوق بعض، ولذلك يُسارع الحريق له، وهُو كُلُّه ثلاث طبقات، فيحتويه من الخَلْق على ما تحتوي ثلاث مُدُن؛ لأنَّه أكثر بلاد الدُّنيا خَلْقاً...)[3]، ويبدو أنَّ وصف ابن جُبير لبُيُوت دمشق بالبساطة، إنَّما كانت تُشير إلى المظهر الخارجي لهذه البُيُوت، والتي أشرنا إلى عدم اهتمام الدِّمشقيِّين به، مدفوعين بأسباب حماية أنفسهم من حوادث السَّلب والنَّهب[4]، التي قد تتعرَّض لها الدُّور والقُصُور الجميلة المظهر، والمُزدانة بفنِّ العمارة الخلاب، ممَّا يُشير إلى قُدرة أصحابه الماليَّة.

أمَّا قُصُور الخاصَّة المنسوبة إلى الأُمراء وعلية القوم؛ فهي كثيرة، والظّاهر أنَّها تمتَّعت بالأُبَّهة والفخامة والبناء وجمال العمارة، نذكر منها قصر[5] القاضي ابن الفراش[6]، في

---

(1) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص179، مُحَمَّد كُرد علي، دمشق مدينة السِّحر والشّعر، ص66، عفيف بهنسي، الشَّام، ص58.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص347.

(3) الرّحلة، ص255.

(4) عن ذلك انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص108، سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، ص111، وذكر ابن كثير بشائع عن ذلك، البداية والنّهاية، 13/ 178.

(5) وتطلق كلمة جوسق على القصر، ويقع في الغُوطة في البُستان العائدة لابن الفرَّاش، الرّازي، مُختار الصّحاح، ص106، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص358.

(6) القاضي شمس الدِّين مُحَمَّد بن مُوسى، المعروف بابن الفرَّاش؛ وهُو قاضي العسكر، أبو شامة، الرَّوضتَيْن 1/ 696، البنداري، سنا البرق الشّامي، ص128، 254، 262.

الغُوطة، وقصر[1] الصّفي بن قابض[2]، مُتولّي خزانة دمشق في عهد صلاح الدِّين، وقصر الدّهشة[3]، المنسوب للملك الأشرف بالنّيرب، الذي كان مقصداً للتّنزُّه عند النَّاس لجمال عمارته[4]، بالإضافة إلى قصر ابن شكر[5]، من وُزراء الملك العادل، الذي أنفق عليه مائة وعشرين ألف دينار، ولكنَّ المثل الواضح في عمارة القُصُور الخاصَّة هُو قصر الأبلق[6]، الذي شيَّده الظّاهر بيبرس في دمشق، وقد وُصف بأنَّه من عجائب الدُّنيا، يُشرف على الميدان الأخضر، والذي أنشأه بعد عودته من الحجِّ في المُحرَّم سنة 668هـ/ 1260م، وقد أشرف على بنائه المُهندس إبراهيم بن المغانم[7]، وقد أنفق بيبرس على قصره مبالغ طائلة، فقد بالغ في عمارته؛ إذْ كانت واجهته تتكوَّن من ثلاثين شُبَّاكاً، إضافة إلى القمارى، وفي وسطه قاعة بأربعين إيواناً، وفيه نافُورتان ومُلحقاتهما، أمَّا موقعه؛ فهُو يقع على أكثر من شارع، فيُطلُّ جُزؤه الغربي على الطَّريق المُؤدِّي إلى الحمَّام وتُربة الصُّوفيَّة، بينما يُطلُّ جُزؤه الشَّرقي على الميدان[8]، وقد احتوى القصر على زخارف كثيرة وصُور وتماثيل؛ إذْ قُدِّر ما فيه حوالي مائة أسد، صُوِّرت زخارفه أبيض في أسود في أدقِّ صُورة[9].

---

(1) بنى الصّفيُّ بن قابض قصره في دمشق، وأنفق عليه أموالاً كثيرة، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص358.

(2) صفيُّ الدِّين مُتولّي الخزانة والدّيوان، البنداري، سنا البرق الشّامي، ص173.

(3) وهُو القصر الذي بناه بناءً حسناً، وهُو المُسمَّى بالدّهشة، وقد مدحه بقصيدة جاء فيها:

هنئتَ بالجوسق العالي الذي عجزتْ	عن وصفه فُصحاء العَجَم والعرب
كالقصر في الجنَّة الفيحاء يحسده	إيوان كسرى على ما فيه من نُخب
يشقُّهُ نهر ناهيكَ من نهر	كأنَّه الكوثر المُعطاة خير نبي

ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 68، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص254.

(4) قد أباح لأهل دمشق الفرجة تطيُّباً لقُلُوب الرّعيَّة، الحنبلي، شذرات الذّهب، 5/ 176.

(5) مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص253.

(6) سُمِّي بذلك لأنَّه بُني بالحجارة البيض والحجارة السُّود، من الأسفل إلى الأعلى، شيخ الرّبوة، نُخبة الدّهر، ص36. مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص250.

(7) هُو المُهندس ابن المغانم بن سعيد، وهُو من المُهتمِّين بالبناء والعمارة، وذلك في عهد الظّاهر بيبرس، أحمد تيمور، أعلام المُهندسين، ص51، أحمد رمضان، المُجتمع، ص105.

(8) أحمد تيمور، خيال الظِّلِّ، ص66.

(9) مُحَمَّد كُرد علي، خُطط الشّام، 15/ 569، طبعة 1970، النّعيمي، مقامات الحريري المُصوَّرة، ص89.

كما احتوى القصر على دهاليز فسيحة، تشمل على قاعات مملوكيَّة، تسرُّ العيُون، وهي مُزركشة بالرُّخام المُلوَّن قائماً ونائماً، وهي مُرصَّعة، فضلاً عن الشُّرُفات العالية، التي تُشرف على واجهات المدينة والغُوطة، بالإضافة إلى الاصطبلات السُّلطانيَّة والحمَّامات والمنافع المُحكمة الكثيرة الأغراض، كما احتوى على باب يصل الميدان الشّمالي[1]، ومازال عامراً تنزله المُلوك؛ حيثُ لم يُعمَل قبله قصر مثله[2].

والرّاجح أنَّ القُصُور الخاصَّة فضلاً عن فخامتها في العمارة والبناء ـ كانت تُزوَّد بأجمل أنواع الأثاث والفَرْش والبُسُط[3] والسّتائر[4] المُختلفة، انسجاماً مع فخامتها في البناء والعمارة، وما تزدان به من وسائل الإبداع والرّفاهية والتّرف، فيما روى ابن العربي[5]، فقال: (إنَّه دخل بيُوت الأكابر في دمشق، فرأى به نهراً جارياً إلى موضع جُلُوسهم، حتَّى جاءت موائد الطّعام في النّهر المُقبل إلينا، فأخذها الخدم، ووضعها في أيدينا، فلمَّا فرغنا، ألقى الخَدَمُ الأوانيَ وما معها في النّهر الرّاجع، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم، من غير أنْ يضرب الخدم في تلك النَّاحية، فعلمتُ السِّرَّ من هذا العجب[6].

---

(1) ابن فضل الله العُمري، مسالك الأبصار، ص182، المُنجِّد، دمشق، ص227.

(2) المقريزي، السُّلُوك، 1/ 561.

(3) وهي ما تُفرَش على الأرض، نحو قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، سُورة نُوح، الآية (20)، وهي تُفرَش لأجل القوم أو الجُلُوس، والبُسَاط ما يُبسط، والبُسُط ما يَبسطه عزَّ وجلَّ في الرّزق للعباد، ويُوسِّع عليهم بجُوده، ابن منظور، لسان العرب، 9/ 127.

(4) وهُو ما يُستَر به، وهي مظهر من مظاهر الأُبَّهة والبذخ عند النَّاس، وهي استُخدمت لكُلِّ الطّبقات سواء في دُور الأُمراء أو دُور العامَّة، وهي على أنواع، وتحتوي على الرُّسُوم الآدميَّة ومناظر الصّيد والفُرُوسيَّة، وهي ـ بصُورة عامَّة ـ تُستخدم لأغراض مُختلفة، جميل عطيَّة، مفهوم الفنِّ والجمال عند مُفكِّري الإسلام، وفلسفة التّاريخ، مجلَّة آفاق عربيَّة، 1976، 4/ 5، عبد العزيز حميد، السُّتُور وأنواعها وطُرُق استخدامها، بغداد، 1995، ص4.

(5) مُحَمَّد بن عبد الله أبو بكر، رحَّالة أندلسي رحل إلى الشّرق سنة 491هـ، وسمع من مدرسة الحديث، تُوفِّي سنة 543هـ/ 1148م، ابن خلكان، وفيَّات الأعيان، 3/ 423، صلاح الدِّين المُنجِّد، مدينة دمشق عند الجغرافيِّين المُسلمين، بيْرُوت، ب،ت، ص93.

(6) المُنجِّد، مدينة دمشق، ص53.

خُلاصة البحث

عنيتْ هذه الدِّراسة بالحياة الاجتماعيَّة في دمشق للمُدَّة (490 ـ 690 هـ/ 1097 ـ 1290م)، فَكَشَفَتْ عن العديد من الحقائق المُهمَّة، وفي مُقدِّمتها أنَّ دمشق مدينة عربيَّة، سَكَنَتْهَا القبائل العربيَّة مُنذُ أزمان مُوغلة في القدَم، وكان لسُكَّانها مواقف بُطُوليَّة في صَدِّ الغُزاة الطَّامعين عبر العُصُور.

كما تناولت الدِّراسة فئات المُجتمع الدِّمشقي في المُدَّة التي نحنُ بصددها، فأوضحتْ أنَّها كانت تتألَّف من العرب وعناصر أُخرى من الأتراك والأكراد والتُّركمان والأرمن والموارنة، فضلاً على الطَّوائف الأُخرى، ذات العقائد الدِّينيَّة المُختلفة من أهل الذِّمَّة، وغيرهم، مُبيِّنة مكانة كُلِّ فئة من هذه الفئات، وعلاقاتها بعضهم بعضاً، من خلال مُمارستهم لحُقُوقهم وواجباتهم، بصفة المُواطنة، والولاء للوطن والإسلام، وإلى جانب هذا كُلِّه؛ سار على نهجهم ترويجها فيما يتعلَّق بموقف العرب المُسلمين من الطَّوائف والعناصر الأُخرى.

ومن الأُمُور المُهمَّة الأُخرى التي توصَّلتْ لها هذه الدِّراسة ـ من خلال البحث والتَّقصِّي ـ التَّعرُّف على أنواع الطَّعام والشَّراب التي كانت سائدة في دمشق خلال مُدَّة البحث، ولم يقتصر اهتمامها على هذا الجانب من حياة المُجتمع الدِّمشقي فحسب، بل تناول أنواع الملابس العامَّة، فضلاً عن مُستوى المعيشة في المُجتمع الدِّمشقي، وما يتَّصل بذلك من نشاط تجاري شهدتْهُ وقتذاك.

كما بيَّنتْ الدِّراسة أنَّ الصِّحَّة العامَّة كانت موضع اهتمام؛ إذْ تأكَّد ذلك في ثنايا البحث، من خلال تناول دراسة المُستشفيات والحمَّامات العامَّة، وشُرُوط النَّظافة فيها وأنواعها.

ومن الأُمُور المُهمَّة الأُخرى التي أوضحتْهَا، هي وسائل التّسلية واللّهو، التي كانت تُمارسها فئات المُجتمع المُختلفة وقتذاك، والتي شغلت أوقات فراغهم، وقد شملت هذه الوسائل سباقات الخيل، والمُراهنة، والصّيد، وتربية الطُّيور، فضلاً عن المجالس الخاصَّة والعامَّة، التي كانت من وسائل التّثقيف في العُلُوم المُختلفة في شُؤُون الدِّين، فضلاً عن مُمارسة الأُصُول الصحيحة في آداب المُحادثة والسُّلُوك، لكلا الجنسَيْن من الرِّجال والنّساء، والتي كانت تُعقَد على اختلاف مكانتهم الاجتماعيَّة، كما نال مركز وأهمِّيَّة الأُسرة في المُجتمع المكانة اللاَّئقة من خلال علاقة أفراد الأُسرة ببعضهم، ووُضُوح الدّور الذي يُمارسه الرَّجل بوَصفه ربَّ الأُسرة، وأحد أفراد المُجتمع، ومُقارنة ذلك بدور المرأة الفعَّال في بيتها، وفي الحياة العامَّة أيضاً، وقد ارتبط هذا كُلُّه بالأطفال وتربيتهم ومكانتهم في الأُسرة.

ولم تُغفل الدِّراسة - أيضاً - مظاهر العمارة والبناء في المُجتمع الدِّمشقي، من خلال الوصف الذي زوَّدتْنَا به المصادر، وانفردتْ بدُور وقُصُور وأبنية الخاصَّة وعلية القوم، ومَنْ التحق بخدمتهم، دُون أنْ تتناول تلك المصادر بالوصف دُور العامَّة، وشأنها في هذا الجانب إغفالها لمناحي حياتها المُختلفة، وهي سمة تميَّزت فيها مُعظم الموارد التَّاريخيَّة، ولعلَّ مردُّ ذلك يعود إلى أنَّ حال الوصف يحتاج إلى الأُبَّهة والفخامة وأنواع الفُنُون في البناء، وهي أُمُور لا تتوفَّر في دُور العامَّة ومساكنهم، التي تغلب عليها البساطة، فضلاً عن أنَّ تدوين التَّاريخ كان لإبراز دُور الخاصَّة ومُنجزاتهم وآثارهم، وإغفال دُور العامَّة، الذي كشفَتْهُ هذه الدِّراسة من خلال النُّصُوص والإشارات المُتناثرة هُنا وهُناك من بين السُّطُور.

مُلحق (1)

أُمراء دمشق 490 ـ 690

الخليفة	الأمير	سنة التّولية	سنة العَزْل
آ ـ السّلاجقة :		488	497
المُستظهر	دقّاق بن تتش	497	497
	طغتكين	512	522
	بُوري بن طغتكين	522	526
	إسماعيل بن بُوري	526	529
الرّاشد المُقتفي	محمود بن بُوري	529	533
	مُحَمَّد بن بُوري	533	534
	مُجِيرُ الدِّين بن مُحَمَّد	534	549
ب ـ الزّنكيُّون			
	نُور الدِّين زنكي (وناب عنه شيركوه)	549	569
	إسماعيل بن محمود	569	570
جـ ـ الأيُّوبيُّون			
	صلاح الدِّين يُوسف	570	589
	(وناب عنه شمس الدِّين بن المُقدّم)	570	
	طغتكين بن أيُّوب	570	
	تورانشاه بن أيُّوب	571	
	شمس الدِّين بن المُقدّم	572	
النّاصر لدين الله		575	622
	فروخشاه [1]	576	578

---

(1) فرُّوخشاه بن شاهنشاه، بن أبوسا، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 124، مُؤلّف مجهول، كنز الأخبار، ورقة 153، المُنجِّد، أُمراء الشّام، مُلحق ص196.

الخليفة	الأمير	سنة التّولية	سنة العَزْل
	الأفضل بن علي[1]	579	
	الصّفيُّ بن القابض	582	587
	علي بن صلاح الدِّين	589	590
	العزيز يُهاجم دمشق ليأخذها من أخيه	590	
	العزيز يُسبب العادل	592	
	المُعظَّم ينوب عن العادل		
	موت العزيز ومُهاجمة الأفضل دمشق	595	
	دمشق تستقرُّ للملك المُعظَّم	596	
	وفاة العادل	615	
	المُعظَّم	615	تُوفِّي 624
	ولي له		
	مفاخر إبراهيم شحنة دمشق[2]		
	العزيز خليل	617	
الظّاهر العبَّاس المُستنصر		622	623
		623	640
	النّاصر داود يملك دمشق	624	
	الكامل يُحاصر دمشق، ويُخرج النّاصر	626	
	الأشرف يأخذ دمشق من الكامل	626	
	الأشرف يستنيب أخاه الصّالح إسماعيل	627	
	تُوفِّي الأشرف وأوصى للصَّالح إسماعيل	635	
	الكامل يُخرج الصّالح إسماعيل	635	
	وفاة الكامل	635	
	تولِّي يُونس بن موردود	635	

(1) الصّفدي، أُمراء دمشق، ص118.

(2) ابن كثير، البداية والنّهاية، 130، 124.

الخليفة	الأمير	سنة التّولية	سنة العَزْل
	الملك الصّالح أيُّوب يملك دمشق	636	
	الصّالح إسماعيل يعود إلى دمشق	637	
المُستعصم باللّه		640 قبل	656
	خُطب للصَّالح أبوه بدمشق	640	
	الصّالح إسماعيل يترك دمشق للصَّالح أيُّوب على يد مُعيل الدِّين بن الشَّيخ	634	
	دُخُول الصّالح أيُّوب دمشق	644	
	جمال الدِّين بن يعمور يُنيب عن الصّالح	647	
	موت الصّالح أيُّوب	648	
	الملك النّاصر صاحب حلب يدخل دمشق	648	
	المغول بدمشق	656	657
د - المماليك		658	
	قُطز يطرد المغول		
	استناب		
	سنجر الحلبي[1] ومُجير الدِّين		
بيبرس		658	676
	سنجر الحلبي يدعو لنفسه، وخُرُوج الأُمراء على سنجر، ومجيء أيدكين البندقداري	659	
	طبيرس الوزيري[2]	659	660
	أقواش النّجيسي[3]	660	670
	علم الدِّين الحصني[4]	663	
الملك السّعيد		676 تُوفِّي	678

(1) وهُو أحد الأتراك الّذين استنابهم قُطز، ولَمَّا مات المُستعصم بالقلعة وضعه بيبرس في مكانه، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 236.

(2) علاء الدِّين طبيرس الوزيري، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 247.

(3) جمال الدِّين أقوش النّجفي، من أكابر الأمراء، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 147.

(4) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 259.

الخليفة	الأمير	سنة التّولية	سنة العَزْل
	عزّ الدِّين أيدمر[1]	670	678
قالوون		678 تُوفِّي	679
	سنقر الأشقر	678	
	بُويع بالسُّلطة بدمشق	678	
	ناب عنه ازدمر		
	انهزم سنقر أمام المصريِّين	679	
	سنجر الحلبي	679	
	لاجين المنصوري	679	
الأشرف خليل		690	693
	سنجر الشُّجاعي	690	691

(1) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 276.

مُلحق (2)

قُضاة دمشق (490 ـ 690)

اسم القاضي	سنة توليته	سنة عَزْله
الحُسين بن الحسن الشّافعي [1]	488	498
مُحَمَّد بن نصر الهروي [2]	512	519
يحيى بن علي القُرشي [3]	519	
سُلطان بن يحيى الدِّين [4]	530	
يحيى بن علي القُرشي [5]	534	
مُحَمَّد بن يحيى القُرشي [6]	534	
علي بن مُحَمَّد القُرشي [7]	564	
كمال الدِّين الشّهرزوري	555	572
الضّياء الشّهرزوري [8]	572	573
شرف الدِّين بن عصرون [9]	575	585
مُحيي الدِّين بن عصرون [10]	585	587
مُحيي الدِّين بن الزّكي [11]	587	598
الطّاهر بن مُحيي الدِّين [12]	598	612

(1) ابن طُولون، قُضاة الشّام، ص43.

(2) ابن طُولون، قُضاة الشّام، ص44.

(3) ابن تغري بردي، ، 5/ 66.

(4) الحنبلي، شذرات الذّهب، 4/ 213.

(5) ابن تغري بردي، ، 5/ 66.

(6) ابن تغري بردي، ، 5/ 272، الحنبلي، شذرات الذّهب، 4/ 611.

(7) الحنبلي، شذارت الذّهب، 4/ 213.

(8) ابن تغري، ، 5/ 6/ 79، الحنبلي، شذرات الذّهب 4/ 243

(9) ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 233، الحنبلي، شذرات الذّهب، 4/ 283.

(10) أبو شامة، الذّيل، ص52.

(11) ابن كثير، البداية والنّهاية، 12/ 346.

(12) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 68.

اسم القاضي	سنة توليته	سنة عَزْله
الجمال الحرستاني[1]	612	614
الظّاهر بن مُحيي الدّين	614	617
الجمال المصري[2]	618	623
شمس الدّين الخوني[3]	623	669
العماد الحسرستاني[4]	629	633
شمس الدّين بن سنيّ الدّولة[5]	633	635
شمس الدّين الشّيرازي[6]	635	638
الرّفيع الحنبلي[7]	638	641
صدر الدّين بن بني الدّولة[8]	641	657
كمال الدّين التّفليس[9]	657	658
محيي الدّين بن الزّكي	658	668
نجم الدّين بن سنّ الدّولة[10]	668	669
عزّ الدّين الأنصاري[11]	669	677
ابن خلكان	677	680
عزّ الدّين بن الصّائغ	680	685
شهاب الدّين الخوبي[12]	685	693

(1) أبو شامة، الذّيل، ص106، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 77.

(2) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 95.

(3) أبو شامة، الذّيل، ص148، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 115

(4) أبو شامة، ص229، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 132.

(5) أبو شامة، الذّيل، ص166، ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 151.

(6) أبو شامة، الذّيل، ص166، ابن كثير، 13/ 151.

(7) أبو شامة، الذّيل، ص173، الحنبلي، شذرات الذّهب، 5/ 214.

(8) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 267، الحنبلي، شذرات الذّهب 5/ 291.

(9) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 267، الحنبلي، شذرات الذّهب 13/ 297.

(10) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 297، الحنبلي، شذرات الذهب، 13/ 297.

(11) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 304، الحنبلي، شذرات الذّهب، 5/ 383.

(12) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 356.

مُلحق (3)

رجال الحسْبة في دمشق

1 ـ مُحَمَّد بن عقيل بن عبد الواحد بن أحمد السّلمي الدّمشقي[1].

2 ـ مُحَمَّد بن عبد الكريم بن يحيى بن عبَّاس الدّمشقي[2].

3 ـ علي بن المُظفَّر بن القاسم الرّبعي النّشبي الدّمشقي[3].

4 ـ مُحَمَّد بن الصّمد عبد الله بن حيدرة السّلمي الزّايداني[4].

5 ـ علي بن البجلي سراج الدِّين[5].

6 ـ مُظفَّر بن مُحَمَّد بن إلياس ابن الشّيرجي الأنصاري الدِّمشقي[6].

7 ـ مُحَمَّد بن عبد الحقّ بن خلف بن عبد الحقّ الدّمشقي[7].

8 ـ مُحَمَّد بن أحمد بن عنتر الدِّمشقي الصَّدر الأجل[8].

9 ـ أيُّوب بن مُحَمَّد بن عبد اللّطيف السّلمي[9]

10 ـ عيسى بن المُظفَّر بن مُحَمَّد البابي الأمصاري الدّمشقي[10].

11 ـ إبراهيم بن عبد المُعزّ بن سالم بن الموهبي الدّمشقي[11].

12 ـ يُوسف بن علي بن مُهاجر التّكريتي[12].

---

(1) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 163، الحنبلي، شذرات الذّهب، 5/ 213.

(2) ابن تغري بردي، ، 6/ 317، الحنبلي، شذرات الذّهب، 5/ 186.

(3) الحنبلي، شذرات الذّهب، 5/ 280.

(4) صالح مهدي، من رجال الحسْبة، بحث منشور ضمن ندوة الحسبة والمُحتسبة عند العرب، بغداد، 1988، ص193، نقلاً عن الذّهبي، تاريخ الإسلام، سنة 606 هـ.

(5) الغسّاني، العسجد المسبوك، ص639.

(6) المقريزي، السُّلُوك، 1/ 2/ 421، الحنبلي، شذرات الذّهب، 5/ 189.

(7) صالح مهدي، رجال الحسْبة، ص195، نقلاً عن كتاب الذّهبي، تاريخ الإسلام، أحداث سنة 660.

(8) صالح مهدي، المصدر نفسه، نقلاً عن تاريخ الإسلام للذّهبي، أحداث سنة 669.

(9) صالح مهدي، المصدر نفسه، نقلاً عن الذّهبي، أحداث سنة 661.

(10) ابن شاكر الكتبي، عيُون التّواريخ، 21/ 336.

(11) صالح مهدي، رجال الحسْبة، ص2195.

(12) ابن كثير، البداية والنّهاية، 13/ 342.

مُلحق (4)

الأبواب

أ ـ أبواب المدينة:

1 ـ باب تُوما[1].

2 ـ باب الجابية[2].

3 ـ باب الجينيق[3].

4 ـ باب الحديد[4].

5 ـ باب حارة الخاطب[5].

6 ـ باب السّلامة[6].

7 ـ الباب الشّرقي[7].

8 ـ الباب الصّغير[8].

9 ـ باب العمارة المسدود[9].

10 ـ باب الفراديس[10].

11 ـ باب الفرج[11].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 82، 84، 132، 160، 185 ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، 26/ 28، 30، 78، 80، 122، 133، 192.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 23، 77، 91، 142، 187، ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، 30، 34، 54، 92، 125، 125، 193.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 160، 186، ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 35.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 186، ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، 29، 36، 54.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 187.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 71، 84، 160، 164، ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، 35، 86، 113، 141.

(7) المصدر نفسه، 2/ 1 23، 65، 81، 82، 156، 185، ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، 30/ 54، 76، 95، 136.

(8) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 79، 161، 164، 195. ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، 72، 63، 73، 134، 152.

(9) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 77، 186.

(10) ابن عساكر، المصدر نفسه، 2/ 1/ 83، 58، 63، 86، ابن شدّاد، المصدر نفسه 29، 35، 119، 127، 144، 226، 332، 255، 322.

(11) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 76، 77، 186، ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، 36، 126، 36، 124، 166، 152، 296.

12 - باب كيسان[1] .

13 - باب المُربَّعة[2] .

ب - أبواب في المدينة:

1 - باب البريد[3] .

2 - باب الخضراء[4] .

3 - باب جيرون[5] .

4 - باب الخوّاصين[6] .

5 - باب دار البطّيخ[7] .

6 - باب الشّاغور[8] .

7 - باب القلعة[9] .

8 - باب درب القصّاعين[10] .

9 - باب زقاق عطّاف[11] .

10 - باب المصلّى[12] .

11 - باب القشر[13] .

12 - باب الزّيارة[14] .

13 - باب السّريجة[15] .

---

(1) ابن عساكر، المصدر نفسه، 2/ 1/ 65، 185، 199، ابن شدّاد، المصدر نفسه، 36، 124، 166، 152، 296 .

(2) المصدر نفسه، 3/ 1/ 187 .

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 75، 178، 157، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 26، 30، 79، 123، 193، 199، 238.

(4) ابن عساكر، المصدر نفسه، 2/ 20/ 157 .

(5) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 32، 159، 71، 72، ابن شدّاد، المصدر نفسه، 26، 29، 336 .

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 57، ابن شدّاد، المصدر نفسه، 95، 232 .

(7) ابن عساكر، المصدر نفسه 2/ 1/ 156 .

(8) ابن عساكر، 2/ 1/ 156، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 133 .

(9) ابن عساكر، المصدر نفسه، 2/ 1/ 78، 156 .

(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 154 .

(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 114 .

(12) ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 87 .

(13) ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 73، 231 .

(14) ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 73، 231 .

(15) ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 152 .

مُلحق (5)

الفنادق

1 ـ فُندق البيع[1].

2 ـ فُندق ابن حيَّة[2].

3 ـ فُندق غربي درب اللَّبَّان[3].

4 ـ فُندق سُوق البزُوريِّين[4].

5 ـ فُندق ابن مُوسى[5].

6 ـ فُندق دار جرير بن عبد الله النّحلي[6].

7 ـ فُندق الخشب[7].

8 ـ فُندق ابن العنازة[8].

9 ـ فُندق الفارقي[9].

10 ـ فُندق ابن أبي طاهر بن عفق الفارقي[10].

11 ـ فُندق ابن العبادة[11].

12 ـ فُندق الخشب[12].

13 ـ فُندق بني عبد المُطَّلب[13].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 155، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ، ص 99.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 138.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 157.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 155.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 138.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 135.

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 135.

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 93.

(9) المصدر نفسه 2/ 1/ 80.

(10) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 135.

(11) المصدر نفسه، ص 124.

(12) المصدر نفسه، ص 103.

(13) ابن عساكر، تاريخ مدينة، 4/ 1/ 143.

مُلحق (6)

المُستشفيات

1 ـ المُستشفى القديم[1].

2 ـ المُستشفى النُّوري الجديد[2].

3 ـ المُستشفى القيمري[3].

4 ـ المُستشفى الشّرقي[4].

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 158.

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 87.

(3) ابن طُولون، القلائد الجوهريَّة، ص 242.

(4) المصدر نفسه، ص 244.

مُلحق (7)

الحارات

1 ـ حارة الافترس[1].

2 ـ حارة البلاطة[2].

3 ـ حارة بين النَّهرَيْن[3].

4 ـ حارة الخاطب[4].

5 ـ حارة الغُرباء[5].

6 ـ حارة الثُّعبان[6].

7 ـ حارة اليهُود[7].

8 ـ حارة الفلاَّحين[8].

9 ـ حارة الكُوزيِّين[9].

10 ـ حارة الميدان[10].

11 ـ حارة الشَّمَّاعين[11].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 75، 157.
(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 76، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 123، 193.
(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 79، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، 133.
(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 60، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 37، 100.
(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 77.
(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 75.
(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 64، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 106، 293.
(8) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 92، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 154.
(9) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 92، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 154.
(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 92، ويذكرها ابن شدَّاد وبحارة المدينة، الأعلاق الخطيرة، ص 154.
(11) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 193.

12 ـ حارة الشّهرزوريّة[1] .

13 ـ حارة الغُرباء[2] .

14 ـ حارة الزّط[3] .

---

(1) المصدر نفسه، ص 165.

(2) المصدر نفسه، ص 125، 212، 242، 246.

(3) المصدر نفسه، ص 293.

مُلحق (8)

المحالّ (المحلاَّت)

1 ـ محلَّة الشّلاَّجة[1].

2 ـ محلَّة الفسقار[2].

3 ـ محلَّة الغواريق[3].

4 ـ محلَّة قبَّة اللّحم[4].

5 ـ محلَّة قصر الثّقفيّين[5].

6 ـ محلَّة القصَّاعين[6].

7 ـ محلَّة الكشيك[7].

8 ـ محلَّة المقسلاط[8].

9 ـ محلَّة النّيطون[9].

10 ـ محلَّة ميدان الحصى[10].

11 ـ محلَّة مسجد القصب[11].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 68، 70.

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 56، 57.

(3) المصدر نفسه، 1/ 1/ 69، 130، 132.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 59، 113، 155.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 76.

(6) المصدر نفسه، 2/ 56، 57، 154، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 94.

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 46، 58، 29، 30.

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 155.

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 132، 136.

(10) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص 87.

(11) المصدر نفسه، ص 86.

12 ـ محلّة السّفلين (السّقّاييّن)[1].

13 ـ محلّة جيرون[2].

14 ـ محلّة الجينيق[3].

15 ـ محلّة الدّيماس[4].

16 ـ محلّة الزّلاقة[5].

17 ـ محلّة الخشبيّين[6].

18 ـ محلّة السّبعة أنابيب[7].

19 ـ محلّة الشّاغور[8].

20 ـ محلّة الشّرف[9].

21 ـ محلّة القصيبة.

22 ـ محلّة قصر الحجّاج[10].

23 ـ محلّة النّيرب والنّيربان[11].

24 ـ محلّة السّهم[12]

---

(1) المصدر نفسه، ص 155.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 32، 72، 73، 141.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 69، 70، 71، 16.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 70، 30.

(5) المصدر نفسه 2/ 1/ 58، 114، 58، 155.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 83.

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 82، 141، 164.

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 79، 143، 161، 164.

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 176.

(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 92.

(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 90، 97، 110، 112، 164، 174.

(12) المصدر نفسه، 2/ 1/ 90، 176.

مُلحق (9)

الدُرُوب

1 ـ درب الأسدين[1] .

2 ـ درب الأندر[2] .

3 ـ درب الأنصار[3] .

4 ـ درب البروسين[4] .

5 ـ درب خلاد[5] .

6 ـ درب ابن البقَّال[6] .

7 ـ درب البقل[7] .

8 ـ درب البلاغة[8] .

9 ـ درب بوقة[9] .

10 ـ درب التّبّان[10] .

11 ـ درب التّمارين[11] .

12 ـ درب التّميمي[12] .

13 ـ درب الجبن[13] .

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 77، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص138 .

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 65، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص108 .

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 76، 157، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص123 .

(4) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 59، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص98 .

(5) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 65 .

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 134 .

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 60، 155، 163 .

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 64، 131، ويذكره ابن شدَّاد درب البيَّاعة، الأعلاق الخطيرة، ص106، 273 .

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 158 .

(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 63 .

(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 114، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص102، 273 .

(12) المصدر نفسه، 2/ 1/ 62، 130، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص100–101 .

(13) المصدر نفسه، 2/ 1/ 60، 61، 163، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص299 .

14 ـ درب الجمحي[1].

15 ـ درب الحبَّالين[2].

16 ـ درب الحجر[3].

17 ـ درب حمَّام العلوي[4].

18 ـ درب حميد ابن درَّة[5].

19 ـ درب حفيف[6].

20 ـ درب ابن بشر[7].

21 ـ درب الدّرفس[8].

22 ـ درب الدّيلم[9].

23 ـ درب ربيع[10].

24 ـ درب الرّيحان[11].

25 ـ درب الزّلاقة[12].

26 ـ درب سحنون[13].

27 ـ درب السُّوس[14].

28 ـ درب سُوق الحبَّالين[15].

---

(1) المصدر نفسه، 2/ 1/ 162، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص98، 102، 273.

(2) المصدر نفسه، 2/ 61، 130، 163، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص105، 106، 109، 182.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 64، 66، 156، 163.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 67، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص911.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 69، 131، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص113، 275.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 72، 159، 193.

(7) ويذكره ابن عساكر بدرب العميان أيضاً، في حين يذكره ابن شدَّاد درب ابن نصر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 34، الأعلاق الخطيرة، ص102.

(8) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 61.

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 61، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص11.

(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 59، 73، 158، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص98-99، 130-293.

(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 58 ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص197.

(12) المصدر نفسه، 2/ 1/ 233، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص105.

(13) ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص105.

(14) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 4/ 1/ 130، 166، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص96، ص112، 273.

(15) المصدر نفسه، 2/ 1/ 61، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص96، 112، 273.

29 ـ درب شابور[1].

30 ـ درب شدَّاد[2].

31 ـ درب الشَّعَّارين[3].

32 ـ درب ابن صميت[4].

33 ـ درب ابن طلحة[5].

34 ـ درب عجلان[6].

35 ـ درب القُدس[7].

36 ـ درب عرقل[8].

37 ـ درب عقبة الصُّوف[9].

38 ـ درب العلق أو العلف[10].

39 ـ درب القراني الالشّيخ[11].

40 ـ درب الفراش[12].

41 ـ درب فُندق البيع[13].

42 ـ درب الفواخير[14].

43 ـ درب القُرشيِّين[15].

---

(1) المصدر نفسه، 2/ 1/ 70، ويذكره ابن شدَّاد بدرب سابور، الأعلاق الخطيرة، ص114.

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 63.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 57، 156، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، 125، 242، 246، 248، 252.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 68، يذكره ابن شدَّاد بدرب طلحة بن عُمر، ص111، ص275.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 156.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 70، ويذكره ابن شدَّاد بدرب القُدس، الأعلاق الخطيرة، ص101.

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 61، ويذكره ابن شدَّاد بدرب القُدس، الأعلاق الخطيرة، ص101.

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 55، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص93.

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 159.

(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 68، 156، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص112.

(11) ويُسمَّى بدرب الشّيخ، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 20/ 1/ 63، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص105.

(12) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 62، 156، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، ص102، 103.

(13) المصدر نفسه، 2/ 1/ 59.

(14) المصدر نفسه، 2/ 1/ 64.

(15) المصدر نفسه، 2/ 1/ 59، 60، 110، 155، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، 98، 99، 273.

44 ـ درب القصَّاعين[1] .

45 ـ درب القلي[2] .

46 ـ درب كراز أو كرار[3] .

47 ـ درب قليد[4] .

48 ـ درب الكشيك[5] .

49 ـ درب كلكشة[6] .

50 ـ درب كليل[7] .

51 ـ درب كنيسة مريم[8] .

52 ـ درب كيسان[9] .

53 ـ درب اللَّبَّان[10] .

54 ـ درب الماخلف الحُصن[11] .

55 ـ درب ابن محريز[12]

56 ـ درب المدنيِّين[13] .

57 ـ درب مُعين[14] .

58 ـ درب ابن فيزو[15] .

---

(1) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 56 ، 154 ، ابن شدَّاد ، الأعلاق الخطيرة ، ص93 .

(2) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 72 ، 114 ، ابن شدَّاد ، الأعلاق الخطيرة ، ص117 ، 127 .

(3) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 69 ، ابن شدَّاد ، الأعلاق الخطيرة ، ص113 ، 114 ، 276 .

(4) المصدر نفسه ، 4/ 1/ 730 .

(5) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 73 ، 159 ، ابن شدَّاد ، الأعلاق الخطيرة ، ص119 .

(6) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 65 ، ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص 108 .

(7) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 64 .

(8) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 63 .

(9) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 64 .

(10) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 75 ، 157 .

(11) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 71 .

(12) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 58 .

(13) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 55

(14) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 75 ، 157 .

(15) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 74 .

59 ـ درب النّاقديّين[1] .

60 ـ درب النّملة[2] .

61 ـ درب الهاشمي[3] .

62 ـ درب نُمير[4] .

63 ـ درب النَّقَّاشة أو النَّقَّاشين[5] .

64 ـ درب بني العجم[6] .

65 ـ درب الدّارتي[7] .

---

(1) المصدر نفسه، 2/ 1/ 60، 155 .

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 59-162 .

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 235، ويذكره ابن شدّاد بدرب الهاشميّين، الأعلاق الخطيرة، 124، 1932 .

(4) ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، ص107 .

(5) المصدر نفسه، ص114، 176 .

(6) المصدر نفسه، ص295 .

(7) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 66، 156، ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة، ص19 .

مُلحق (10)

الأزقَّة

1 ـ زقاق الأسديِّين[1].

2 ـ زقاق الجبش[2].

3 ـ زقاق أبي كلاَّس.

4 ـ زقاق الدُّر[3].

5 ـ زقاق السلَّم[4].

6 ـ زقاق الغصر[5].

7 ـ زقاق صفوات[6].

8 ـ زقاق بني طلحة[7].

9 ـ زقاق الفحم[8].

10 ـ زقاق الغسل[9].

11 ـ زقاق عذاف[10].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 341

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 67، ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، 111.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 74، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص120.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص293.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 60، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص99.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 70، 159، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص115.

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 159.

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 76، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص122.

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 76، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص124.

(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 76.

12 ـ زقاق أزرة[1] .

13 ـ زقاق ابن باقي[2] .

14 ـ زقاق الجُوز[3] .

15 ـ زقاق الخصا[4] .

16 ـ زقاق الرُّمّان[5] .

17 ـ زقاق السّاقية[6] .

18 ـ زقاق سطرا[7] .

19 ـ زقاق المدفق[8] .

20 ـ زقاق المقربل[9] .

21 ـ زقاق البزُوريّين[10] .

22 ـ زقاق الشّاقيَّة[11] .

23 ـ زقاق المذفق (أو الموقف)[12] .

---

(1) المصدر نفسه، 2/ 1/ 56، 114، 134، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص143 .

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 88، 12، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص133 .

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 79، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص153 .

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 98، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص153 .

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 98، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 141 .

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 84، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 141

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 79 .

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 84، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 140 .

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 84، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 142 .

(10) ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 99.

(11) المصدر نفسه، ص333 .

(12) المصدر نفسه، ص133 .

مُلحق (11)

الطُّرُق

1 ـ طريق برزة[1].

2 ـ طريق بيت الهنا[2].

3 ـ طريق حرستا[3].

4 ـ طريق حوران[4]

طريق داريًا[5].

5 ـ طريق كفرسُوسة[6].

6 ـ طريق الكهف[7].

7 ـ طريق مغارة الدّم[8].

8 ـ طريق العظمى[9].

9 ـ طريق العلوي[10].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 583.

(2) المصدر نفسه، 3/ 1/ 83.

(3) المصدر نفسه، 3/ 1/ 83.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 91.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 91.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 91

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 88.

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 86.

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 92

(10) ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 294.

مُلحق (12)

الأسواق

1 - سُوق الأبارين[1].

2 - سُوق الأحد[2].

3 - سُوق الأساكفة العتق[3].

4 - سُوق الأطباقين[4].

5 - سُوق الأكفايين[5].

6 - سُوق الإيرين[6].

7 - سُوق البر[7].

8 - سُوق البزُوريِّن[8].

9 - سُوق البقل[9].

10 - سُوق الجلاديِّن[10].

11 - سُوق الحبَّالين[11].

12 - سُوق الحدَّادين[12].

13 - سُوق الحذَّائين[13].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 155.

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 70، 159، 160، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص116.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 71، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص ص29.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 73.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 59، 130، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 98.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 67.

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 57.

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 155، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 92.

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 62.

(10) المصدر نفسه، 21/ 1/ 59، 155، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 13.

(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 61.

(12) المصدر نفسه، 2/ 1م163.

(13) المصدر نفسه، 2/ 1/ 173.

14 ـ سُوق الحريمتين[1] .

15 ـ سُوق الخالدين[2] .

16 ـ سُوق الخَواصيِّين[3] .

17 ـ سُوق دار البطِّيخ[4] .

18 ـ سُوق درب الحجر[5] .

19 ـ سُوق الدَّقَّاقين[6] .

20 ـ سُوق الدّقيق[7] .

21 ـ سُوق الرَّطَّالين[8] .

22 ـ سُوق الرَّمَّاحين[9] .

23 ـ سُوق الرّيحان[10] .

24 ـ سُوق الزَّقَّاقين[11] .

25 ـ سُوق البراجين[12] .

26 ـ سُوق السّلالين[13] .

27 ـ سُوق الشّعر[14] .

28 ـ سُوق الصّرف[15] .

29 ـ سُوق الصَّفَّارين[16] .

---

(1) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 163 .

(2) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 139 .

(3) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 74 ، 154 ، 157 ، ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص 102-103 .

(4) المصدر نفسه ، 1/ 2/ 62 .

(5) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 62 .

(6) المصدر نفسه ، 1/ 2/ 62 .

(7) المصدر نفسه ، 1/ 2/ 62 .

(8) المصدر نفسه ، 1/ 2/ 62 .

(9) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، 2/ 1/ 58 .

(10) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 137 ، ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص 54 .

(11) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 69 .

(12) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 57 ، 71 ، ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص 95 .

(13) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 63 .

(14) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 48 ، ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص 74 .

(15) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 58 ، 155 ، وهو سُوق الصّرف الَّذي ذكره ابن شدَّاد ، الأعلاق الخطيرة ، ص97 .

(16) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 71 ، ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص 117 .

30 ـ سُوق الطّرائف[1] .

31 ـ سُوق الطّريفين[2] .

32 ـ سُوق الطّير[3] .

33 ـ سُوق العلبتين[4] .

34 ـ سُوق علي[5] .

35 ـ سُوق القوّامين[6] .

36 ـ سُوق العزل[7] .

37 ـ سُوق الفاكهة[8] .

38 ـ سُوق القبّابين[9] .

39 ـ سُوق القطائين[10] .

40 ـ سُوق القلانشين[11] .

41 ـ سُوق القمح[12] .

42 ـ سُوق القناديل[13] .

43 ـ السُّوق الكبير[14] .

44 ـ سُوق الكتّانين[15] .

---

(1) المصدر نفسه، 2/ 1/ 139 .

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 58.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 61، 70، 137 .

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 60، 159، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 200.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 58، 130-155 .

(6) المصدر نفسه، 22/ 1/ 135

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 68، 160، وسمّاه ابن شدّاد بسُوق الغزل القديم، ص112 .

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 1290، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 271-273 .

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 71.

(10) المصدر نفسه، 12/ 1/ 71 .

(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 57، 129، 542، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 95.

(12) المصدر نفسه، 2/ 1/ 74، 142، 158، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 120، 129، 256 .

(13) المصدر نفسه، 2/ 1/ 69 .

(14) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 59، 60، 73، 114، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 98، 99، 100، 119 .

(15) المصدر نفسه، 2/ 1/ 74 .

45 ـ سُوق اللُّؤلُؤ[1].

46 ـ سُوق المُطرِّزين[2].

47 ـ سُوق المُفاضليِّين[3].

48 ـ سُوق النَّحَّاسين[4].

49 ـ سُوق الفسقار[5].

50 ـ سُوق الخَيل[6].

51 ـ سُوق الجُبن[7].

52 ـ سُوق الذّوات[8].

53 ـ سُوق صاروجة[9].

54 ـ سُوق الطّير[10].

55 ـ سُوق علي[11].

56 ـ سُوق القيم[12].

57 ـ سُوق كنيسة مريم[13].

58 ـ سُوق المطرازين[14].

59 ـ سُوق عُكَّاظ[15].

---

(1) المصدر نفسه، 2/ 1/ 61، 71، 155، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 101، 116.

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 63، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 295.

(3) المصدر نفسه، 20/ 1/ 137.

(4) المصدر نفسه، 20/ 1/ 137.

(5) المصدر نفسه، 21/ 1/ 57، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 94 ـ 95.

(6) ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 159 ـ 165.

(7) المصدر نفسه، ص55.

(8) المصدر نفسه، ص155

(9) المصدر نفسه، ص128، 311.

(10) المصدر نفسه، 101، 105

(11) المصدر نفسه، 95، 96، 273، 292، 298.

(12) المصدر نفسه، 128، 134، 159.

(13) المصدر نفسه، ص105.

(14) المصدر نفسه، 295

(15) المصدر نفسه، 325.

مُلحق (13)

الحمَّامات

1 ـ حمَّام الأسديِّن[1] .
2 ـ حمَّام الأكافين[2] .
3 ـ حمَّام باب النَّطَّاقين[3] .
4 ـ حمَّام التَّميمي[4] .
5 ـ حمَّام الزَّيدين أو الزَّبدين[5] .
6 ـ حمَّام الجُبن[6] .
7 ـ حمَّام الجديد[7] .
8 ـ حمَّام الجمحي[8] .
9 ـ حمَّام ابن أبي الجديد[9] .
10 ـ حمَّام حديد[10] .
11 ـ حمَّام الحريمين[11] .
12 ـ حمَّام خالد[12] .
13 ـ حمَّام خطلبا[13] .

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 164 .
(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 130، 162
(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163 .
(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 162 .
(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163
(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 155، 163
(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 156، 62
(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 135، 162، 163 .
(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163 .
(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 69 .
(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163 .
(12) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163
(13) المصدر نفسه، 2/ 1/ 136

14 ـ حمّام حفيف[1].

15 ـ حمّام دار الوزير[2].

16 ـ حمّام درب البقل[3].

17 ـ حمّام درب الجُبن[4].

18 ـ حمّام درب الحجر[5].

19 ـ حمّام درب الحجر[6].

20 ـ حمّام الدّيوان[7].

21 ـ حمّام الحربة[8].

22 ـ حمّام العقيقي[9].

23 ـ حمّام ابن عبادة[10].

24 ـ حمّام أبي الطّيّب[11].

25 ـ حمّام طلحة[12].

26 ـ حمّام الضّحّاك[13].

27 ـ حمّام ابن صُغرى[14].

28 ـ حمّام الشّريف[15].

29 ـ حمّام سُويد[16].

---

(1) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163.

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 90

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 162

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 162.

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163.

(9) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 75، 158، 162.

(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 70.

(12) المصدر نفسه، 2/ 1/ 140.

(13) المصدر نفسه، 2/ 1/ 140

(14) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(15) المصدر نفسه، 2/ 1/ 64، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص ص292، 300.

(16) المصدر نفسه، 2/ 1/ 74، 163.

30 ـ حمّام السّلم[1] .
31 ـ حمّام السّلاريّة[2] .
32 ـ حمّام العلوي[3] .
33 ـ حمّام القاضي[4] .
34 ـ حمّام القصّاصين[5] .
35 ـ حمّام القصر[6] .
36 ـ حمّام القطيطة[7] .
37 ـ حمّام القلانسين[8] .
38 ـ حمّام القلعة[9] .
39 ـ حمّام اللّؤلؤة[10] .
40 ـ حمّام المطرّزين[11] .
41 ـ حمّام المنجنقي[12] .
42 ـ حمّام النّحّاسين[13] .
43 ـ حمّام مظكي[14] .
44 ـ حمّام ابن أبي قصر[15] .
45 ـ حمّام نُور الدّين[16] .

---

(1) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 163 .
(2) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 163 .
(3) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 67 ، 163 .
(4) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 162
(5) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 162 .
(6) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 162 .
(7) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 76 ، 57 ، 162 .
(8) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 163 .
(9) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 163 .
(10) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 163 ، وهو من حمّام البريدين ، ابن شدّاد ، المصدر نفسه ، ص 103 ، 294 .
(11) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 163 .
(12) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 164 .
(13) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، 2/ 1/ 163 ، ابن شدّاد ، المصدر نفسه ، ص 297 .
(14) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 71 ، 163 .
(15) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 155 .
(16) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 74 ، 162 ، ابن شدّاد ، المصدر نفسه ، ص 292 .

46 ـ حمَّام ابن أبي هشام[1].

47 ـ حمَّام الهاشميِّين[2].

48 ـ حمَّام أبي نصر[3].

49 ـ حمَّام ابن تميم[4].

50 ـ حمَّام تُوماس[5].

51 ـ حمَّام راحب الكلاَّس[6].

52 ـ حمَّام ابن زكي[7].

53 ـ حمَّام ابن صدقة[8].

54 ـ حمَّام ابن عيادة[9].

55 ـ حمَّام عُصفُور[10].

56 ـ حمَّام ابن العقيقي[11].

57 ـ حمَّام القاسم[12].

58 ـ حمَّام ابن فرقين[13].

59 ـ حمَّام القصر[14].

60 ـ حمَّام ابن مُعين[15].

---

(1) المصدر نفسه، 2/ 1/ 163.

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 140.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 155.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 82.

(12) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(13) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(14) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

(15) المصدر نفسه، 2/ 1/ 164.

مُلحق (14)
دُور الدَّولة والدُّور العامَّة

1 ـ دار الحُكْم[1].

2 ـ دار الوكالة[2].

3 ـ الدّيوان[3].

4 ـ ديوان الغُوطة[4].

5 ـ السّجن[5].

6 ـ الكتيق أو المطيق[6].

7 ـ القلعة[7].

8 ـ دار الخيل[8].

9 ـ اصطبل العمارة[9].

10 ـ دار النّطيح[10].

11 ـ السِّجن الجديد[11].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 158.
(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 57، 131، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 95، 148، 274.
(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 138، 162.
(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 139.
(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 138
(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 25.
(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 78، 56، 157، 186.
(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 25، 74، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 121.
(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 77، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 125.
(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 62، 130، 135، 156، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 102.
(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 130، 155، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 271.

12 ـ دار أم الميِّتين[1] .

13 ـ دار العزيز[2] .

14 ـ دار الأطعمة[3] .

15 ـ دار الجوكار[4] .

---

(1) المصدر نفسه ، 2/ 1/ 20 .

(2) ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص 138 .

(3) ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص 222 .

(4) ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص 129 .

مُلحق (15)

القُرى والمنازل

1 ـ أزرة[1] .

2 ـ الأوزاع[2] .

3 ـ بيت الآبار[3] .

4 ـ عين ثرماء[4] .

5 ـ قابون[5] .

6 ـ كَفَر بَطْنَا[6] .

7 ـ كَفَر سُوسَة[7] .

8 ـ طرميس[8] .

9 ـ داريًا[9] .

10 ـ الرّبوة[10] .

11 ـ سطر[11] .

12 ـ الشّعليين[12] .

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 88، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 147، 334 .

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 144 .

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 105 .

(4) ياقوت الحموي، مُعجم البُلدان، 4/ 135 .

(5) المصدر نفسه، 4/ 290 .

(6) المصدر نفسه، 4/ 468 .

(7) الحموي، مُعجم البُلدان، 4/ 469، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 131، 153 .

(8) الحموي، المصدر نفسه، 4/ 32 .

(9) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 105، 171، 172، 199، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 13، 153، 183، 184، عبد الجبَّار الخُولاني، تاريخ داريًّا، دمشق، 1950، ص7، وما بعدها .

(10) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 90، 96، 112، 179، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 150، 167، 179، 181، 305، 309، 333 .

(11) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 144، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 140، 121، 230 .

(12) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 93، 143 .

13 ـ الغُوطة[1] .

14 ـ فذايا[2] .

15 ـ الغراديس[3] .

16 ـ سرزة[4] .

17 ـ زيدين[5] .

18 ـ حمُوريّة[6] .

19 ـ حرشيا[7] .

20 ـ ظيرة[8] .

21 ـ العبَّاديّة[9] .

22 ـ البلاط[10] .

23 ـ سَوَا[11] .

24 ـ جرمانا[12] .

25 ـ جُوبر[13] .

26 ـ القطائع[14] .

27 ـ قينيّة[15] .

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 41، 99، 116، 142، 165، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 13، 44، 86، 172، 279، 305.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 81، 142.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 20، 186، 111، 144، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 135، 136، 183.

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 83، 99، 100، 101، 112، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 140، 172، 330.

(5) الحموي، مُعجم البُلدان، 3/ 150.

(6) المصدر نفسه، 2/ 306.

(7) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 83، 126، الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 242.

(8) الحموي، مُعجم البُلدان، 4/ 54.

(9) المصدر نفسه، 1/ 75.

(10) المصدر نفسه، 1/ 477.

(11) المصدر نفسه، 4/ 521.

(12) المصدر نفسه، 2/ 129.

(13) المصدر نفسه، 2/ 156.

(14) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 103، 143.

(15) ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 152.

28 ـ المزّة[1].

29 ـ المصصيّة[2].

30 ـ طرميس[3].

31 ـ شعيا[4].

32 ـ زَمَلْكَا[5].

33 ـ ديزمران[6].

34 ـ المُتطوِّر[7].

35 ـ واسط[8].

36 ـ اللُّؤلُوة الكُبرى والصُّغرى[9].

37 ـ الرّاهب[10].

38 ـ المرج[11].

39 ـ مرج الأشعري[12].

40 ـ بيت الأبيات[13].

41 ـ الزّعراية[14].

42 ـ الحارثيّة[15].

---

(1) المصدر نفسه، 13، 33، 130، 152، 181، 302، 321، 330.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 83.

(3) الحموي، مُعجم البُلدان، 4/ 232، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 345.

(4) الحموي، المصدر نفسه، 3/ 226.

(5) أو زَمَلْكَان، الحموي، المصدر نفسه، 3/ 150، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 268، 163.

(6) الحموي، مُعجم البُلدان، 2/ 533، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 63، 282.

(7) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 285، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 143، 124.

(8) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 1/ 1/ 142.

(9) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 144، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص243.

(10) المصدر نفسه، 2/ 1/ 143.

(11) ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 88/ 322، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق، ص244.

(12) ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 149، ويُسمّى كذلك مرج باب الحديد.

(13) ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 143.

(14) ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 162.

(15) المصدر نفسه، 162.

43 ـ الشَّمَّاسيَّة .

44 ـ الدُّولعيَّة[1] .

45 ـ اعزبيل[2] .

46 ـ داغية[3] .

47 ـ العَصْرونيَّة[4] .

48 ـ الصَّفوانيَّة[5] .

49 ـ صفاء دمشق[6] .

50 ـ الفقية .

---

(1) المصدر نفسه ، ص234 .

(2) المصدر نفسه ، ص164 .

(3) المصدر نفسه ، 164 .

(4) المصدر نفسه ، ص123 ، مُحَمَّد كُرد علي ، المصدر نفسه ، ص238 .

(5) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، 2/ 1/ 82 ، ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص218 .

(6) أو صفاء دمشق ، ابن شدَّاد ، المصدر نفسه ، ص 218 .

مُلحق (16)

الكنائس

1 ـ كنيسة بُولُص[1] .
2 ـ كنيسة العبَّاد[2] .
3 ـ كنيسة اليهُود[3] .
4 ـ كنيسة حميد بن درة[4] .
5 ـ كنيسة تُوما[5] .
6 ـ كنيسة سُوق الفاكهة أو دار البطِّيخ[6] .
7 ـ كنيسة دار بني المجلاج[7] .
8 ـ كنيسة دار بن زرتاق[8] .
9 ـ كنيسة دمشق أو مريحا[9] .
10 ـ كنيسة مريم[10] .
11 ـ كنيسة المصلبة[11] .
12 ـ كنيسة المقلاط[12] .

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 75، 229، / 131، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 82.
(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 130، 132، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 272، 272.
(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 263، 129، 131، 19، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 104، 27، 273.
(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 34، 130، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 55، 272، 175.
(5) المصدر نفسه، 2/ 219، 40/ 41، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 50، 51، 53.
(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 129، 30، 1.
(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 129، 131.
(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 130، 131.
(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 126، 127، 128، 129، 130، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 56، 631، 266، 272، 474.
(10) وتُسمَّى أيضاً مُوحا، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 130، 131.
(11) المصدر نفسه، 2/ 1/ 24، 93، 129، 131، 163، 165، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 55، 108.
(12) المصدر نفسه، 2/ 1/ 24، 65، 136، 131، 132، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 273.

13 ـ كنيسة بني نصر[1].

14 ـ كنيسة اليعقوبيِّين[2].

15 ـ كنيسة القلانسيِّين[3].

16 ـ كنيسة سُوق الجُبن[4].

17 ـ كنيسة بني قطيظار[5].

18 ـ كنيسة واراين أبي حكيم[6].

19 ـ كنيسة الرّاحب[7].

20 ـ كنائس الغُوطة[8].

---

(1) المصدر نفسه، 2/ 1/ 127.

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 60، 129، 130، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 11، 271، 272، 275.

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 17، 23، 130.

(4) المصدر نفسه، 20/ 1/ 24.

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 129، 130.

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 130، 132.

(7) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 1/ 41.

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 20، 41.

مُلحق (17)

الأديرة

1 ـ دير أبي أوفى[1] .

2 ـ دير خرجة بني قطر[2] .

3 ـ دير الحوراني[3] .

4 ـ دير الرُّهبان النّصارى[4] .

5 ـ دير السّروري[5] .

6 ـ دير سمعان[6] .

7 ـ دير شعبان[7] .

8 ـ دير أبي العبَّاس[8] .

9 ـ دير فران[9] .

10 ـ دير أبي بدير[10] .

11 ـ دير نجيل[11] .

---

(1) المصدر نفسه، 2/ 1/ 142 .

(2) المصدر نفسه، 2/ 1/ 146، 148، 150 .

(3) المصدر نفسه، 2/ 1/ 289، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 148 .

(4) المصدر نفسه، 2/ 1/ 87 .

(5) المصدر نفسه، 2/ 1/ 83، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 139 .

(6) المصدر نفسه، 2/ 1/ 42 .

(7) المصدر نفسه، 2/ 1/ 86، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 144 .

(8) المصدر نفسه، 2/ 1/ 88، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 148 .

(9) المصدر نفسه، 2/ 1/ 41، 104، 166، 172، ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص 63، 282، 283، 286، 336 .

(10) ابن شدَّاد، المصدر نفسه، ص ص161 .

(11) المصدر نفسه، ص163 .

12 ـ دير بُطرُس[1].

13 ـ دير بُولُص[2].

14 ـ دير الحجر[3].

15 ـ دير صلبيا[4].

---

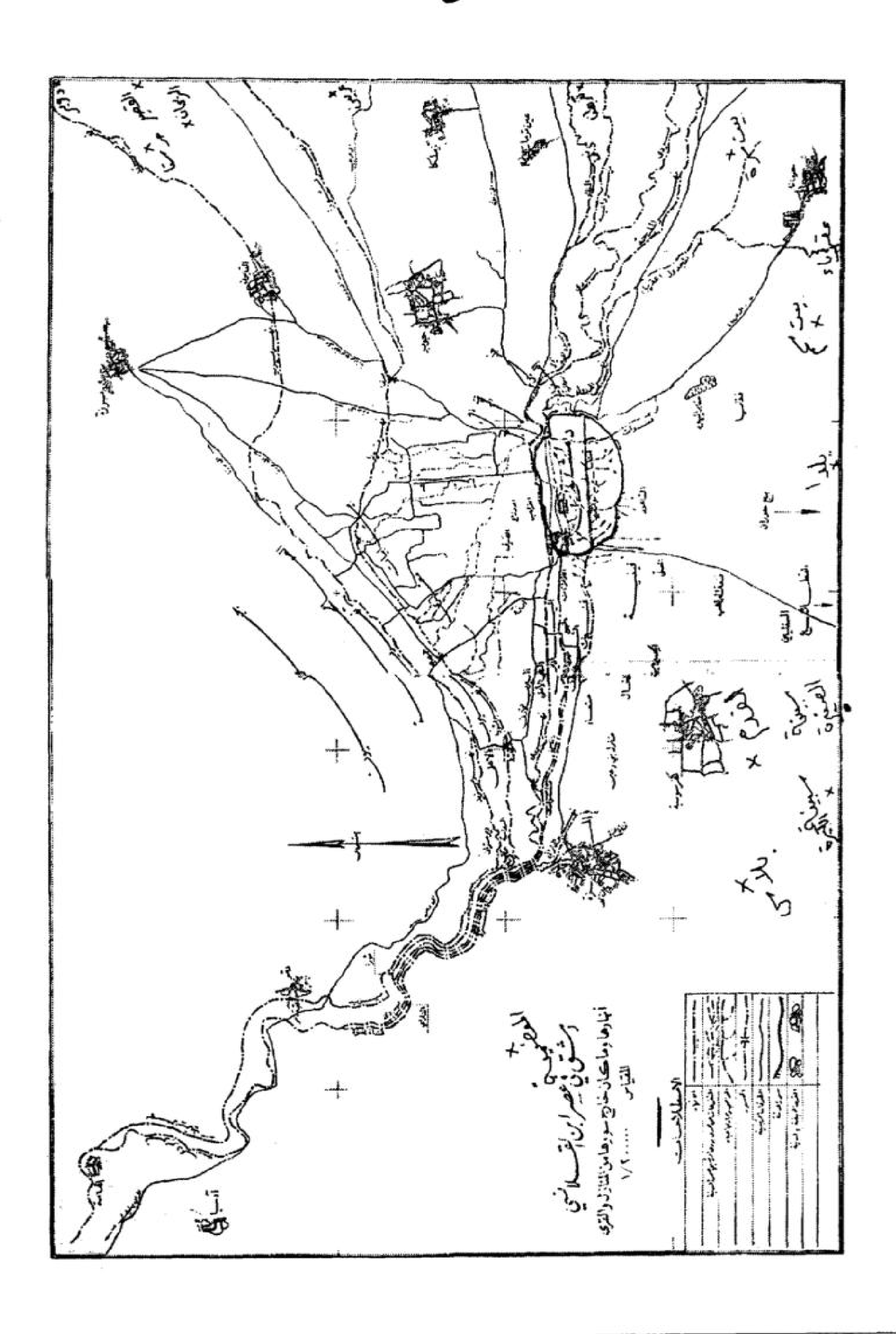
(1) المصدر نفسه، ص287.

(2) المصدر نفسه، ص287.

(3) المصدر نفسه، ص287.

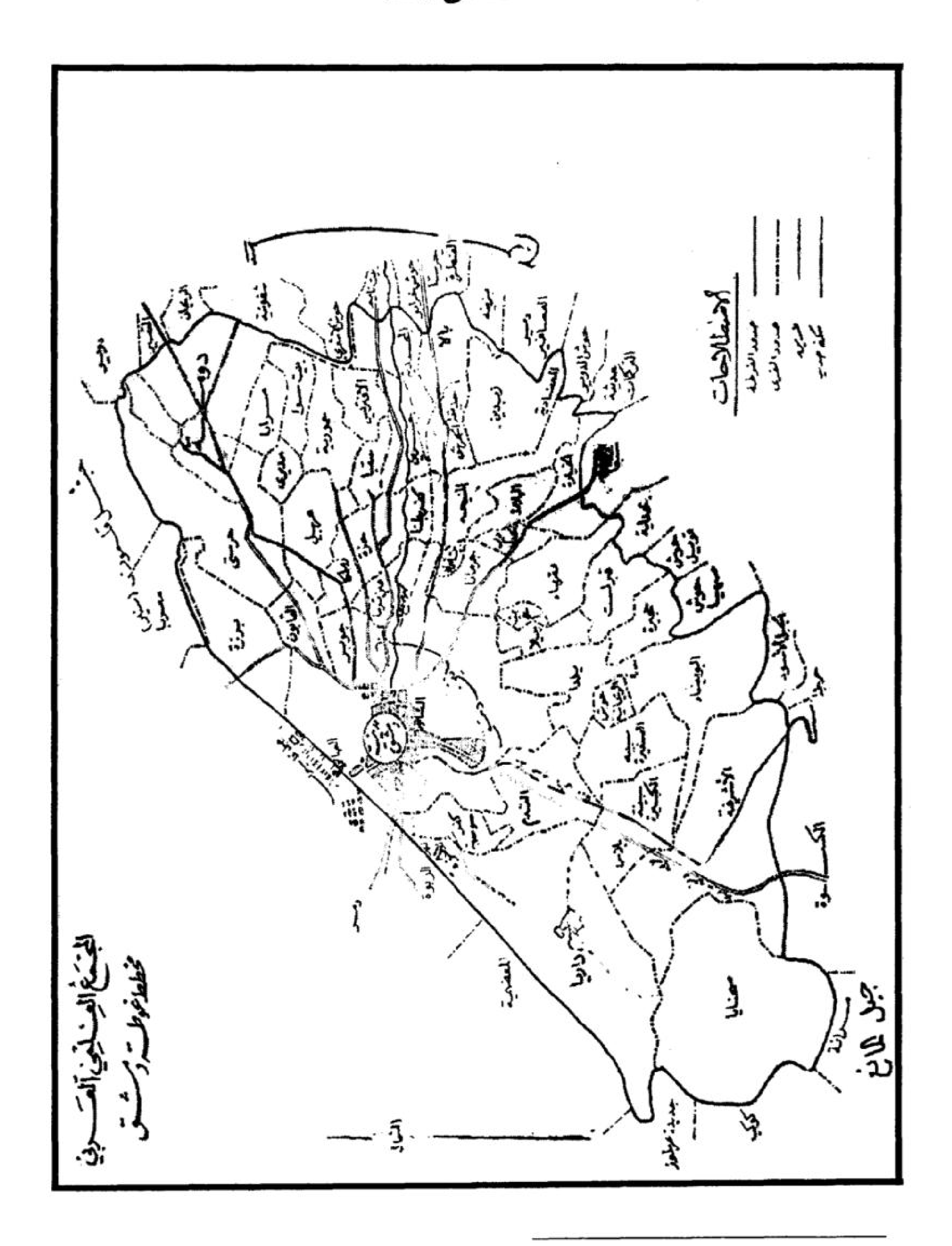
(4) ويُسمَّى دير خالد بن الوليد، أو دير الشّائحة، ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص 277، 278، 279.

مُلحق (18)[1]



(1) صلاح الدِّين المُنجِّد، تاريخ مدينة دمشق، مع إضافة الباحث بإشارة X.

ملحق (19)[1]

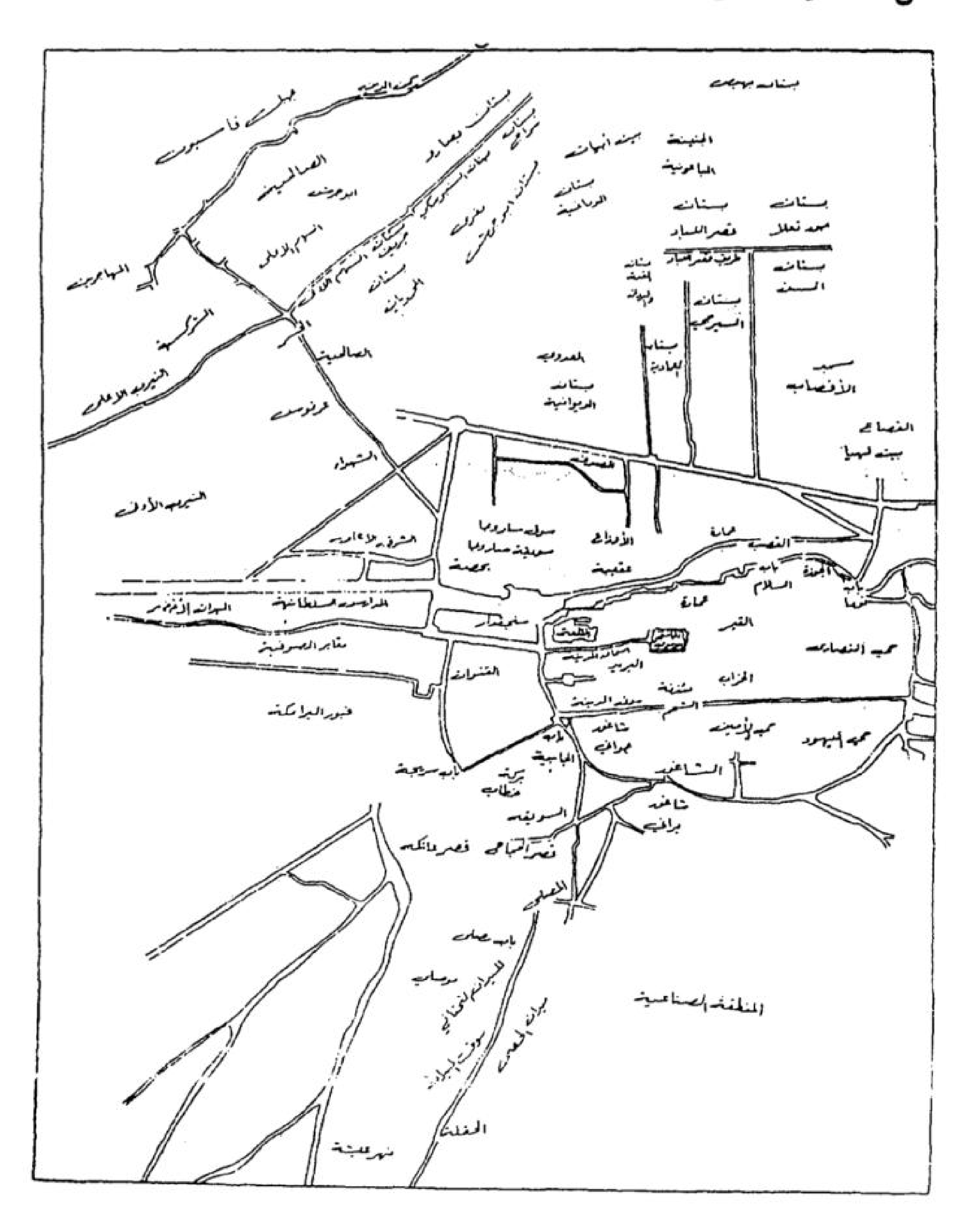


(1) عن المجمع العلمي العربي، دمشق، مع إضافة الباحث، مُحَمَّد كُرد علي، غُوطة دمشق.

مُلحق (20)

التَّوسُّع العُمراني في مدينة دمشق حتَّى أواخر الحُكْم الفاطمي لبلاد الشَّام

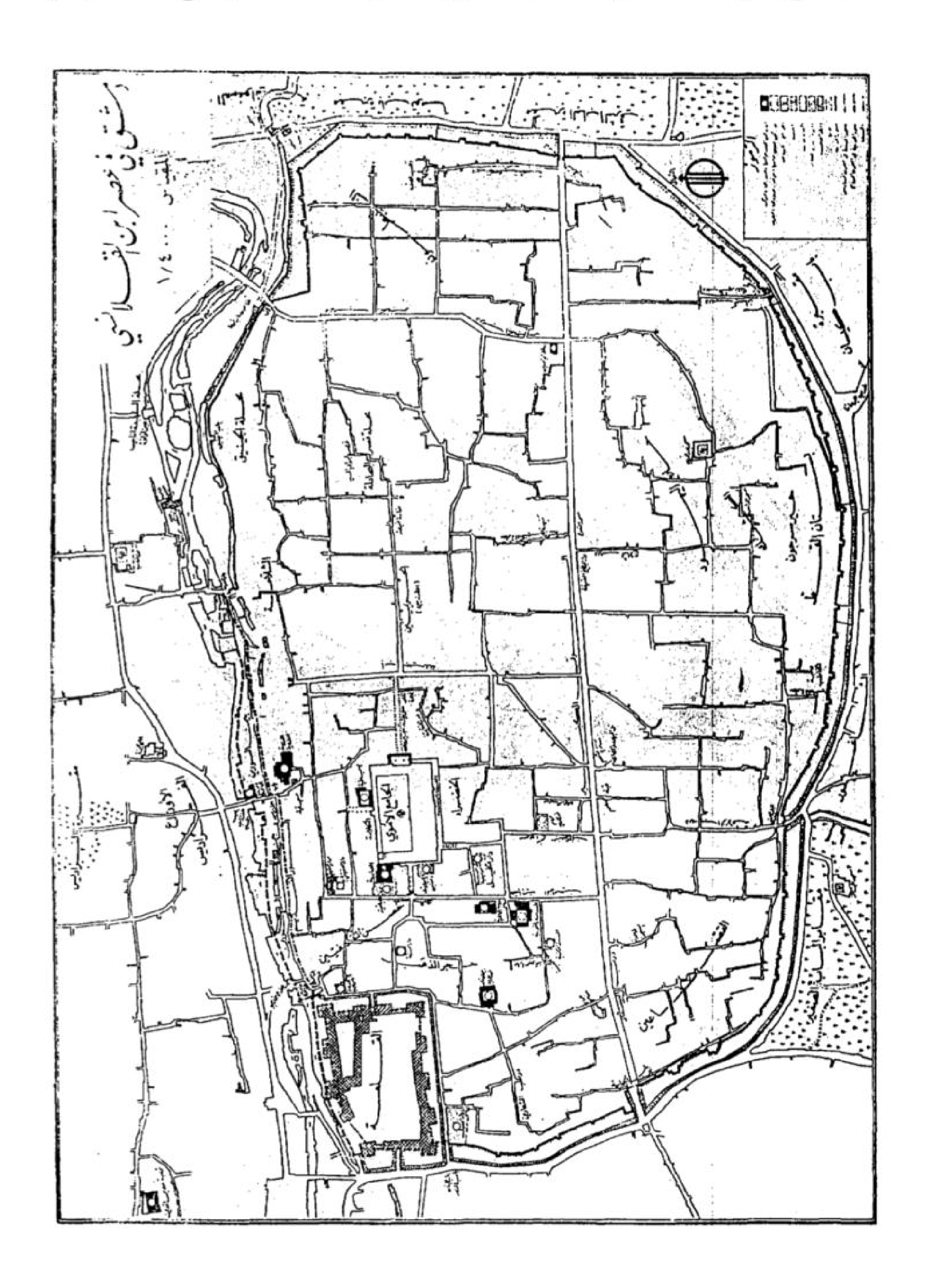
شكل (1) أحياء دمشق القديمة وتطوُّرها[1]



(1) المصدر، خربسات، التَّوسُّع العُمراني، عن بسام الجابي.

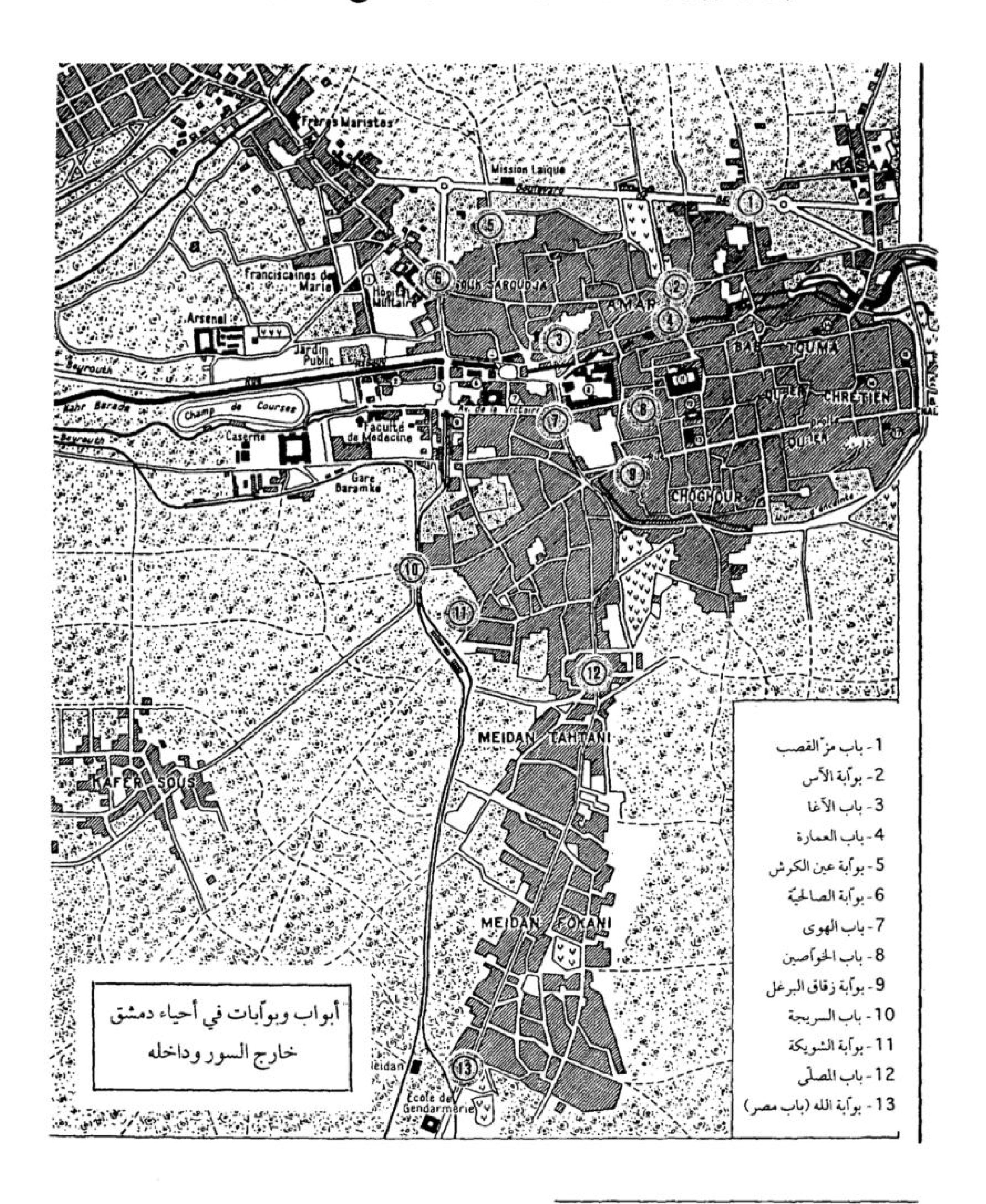
مُلحق (21)

أحياء وحارات دمشق داخل السُّور، خريسات، التَّوسُّع العُمراني.



مُلحق (22)

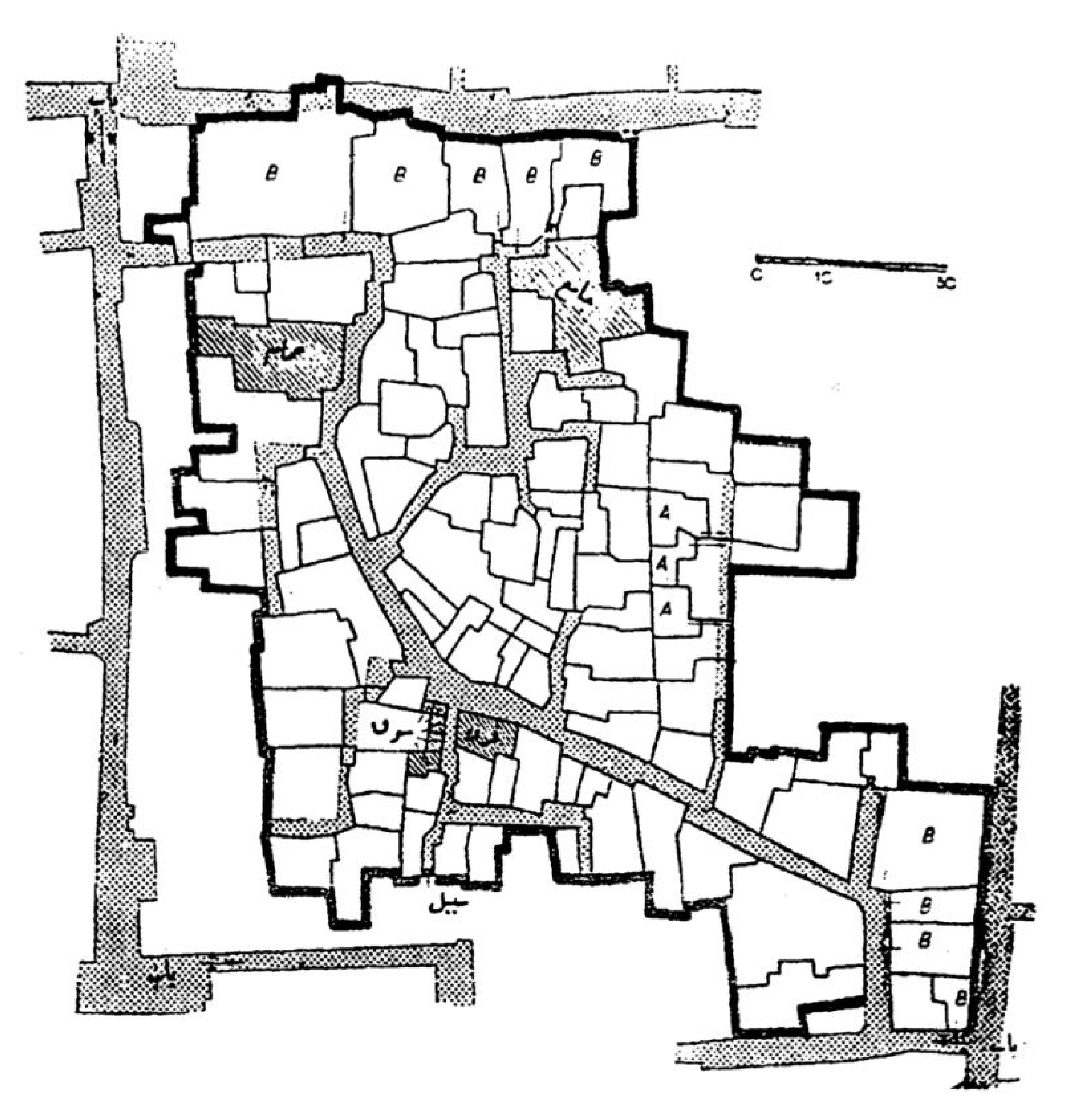
أبواب وبوّابات في أحياء دمشق خارج السُّور وداخله.(1)



---

(1) قُتيبة الشّهابي، أبواب دمشق.

المُلحق (23)[*]



سُوفاجيه، دمشق الشّام

الرسم.. مخطّط إحدى الحارات

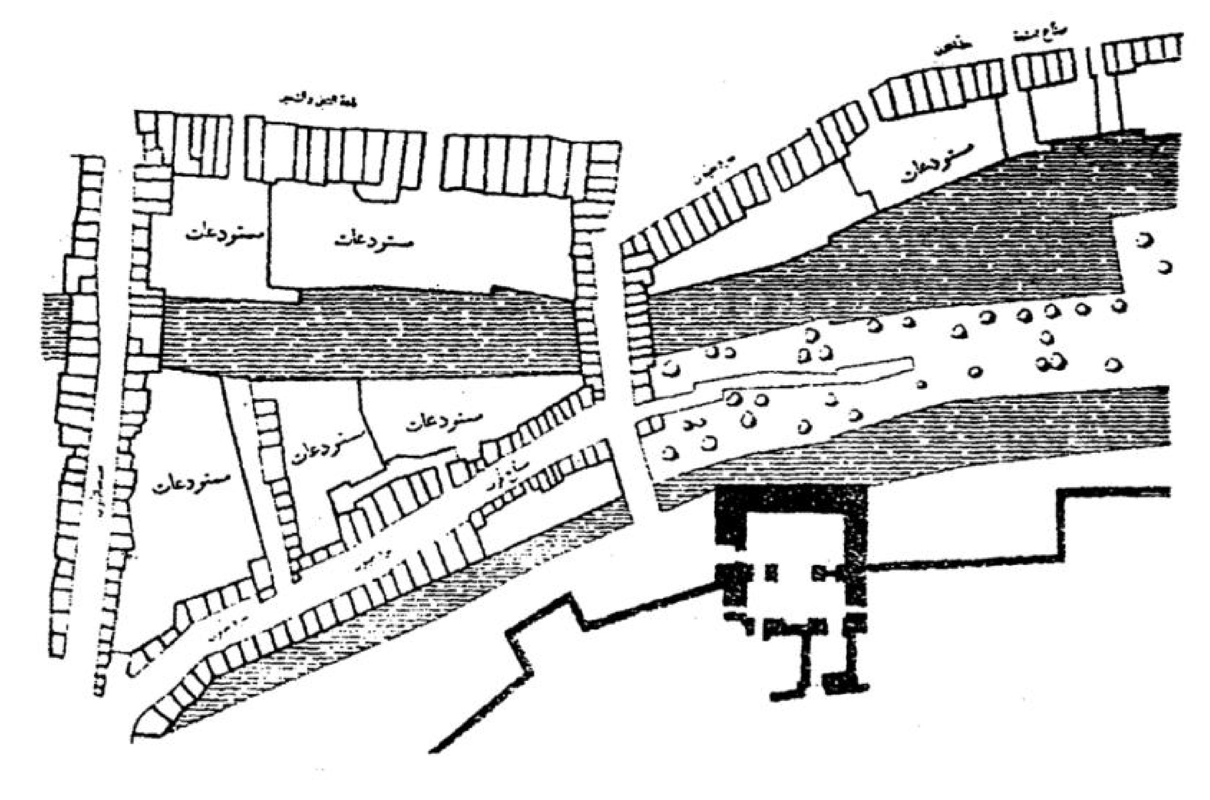
A : بيوت لا اتصال لها بالجادة العامّة.

B : بيوت لها واجهة على الجادة العامّة ولكن مداخلها في بعض الدخلات.

(*) أبواب قلعة دمشق وأحداثها التّاريخيّة، د. قتيبة الشّهابي، وزارة الثّقافة، دمشق، 1996.

تابع المُلحق (23)[*]



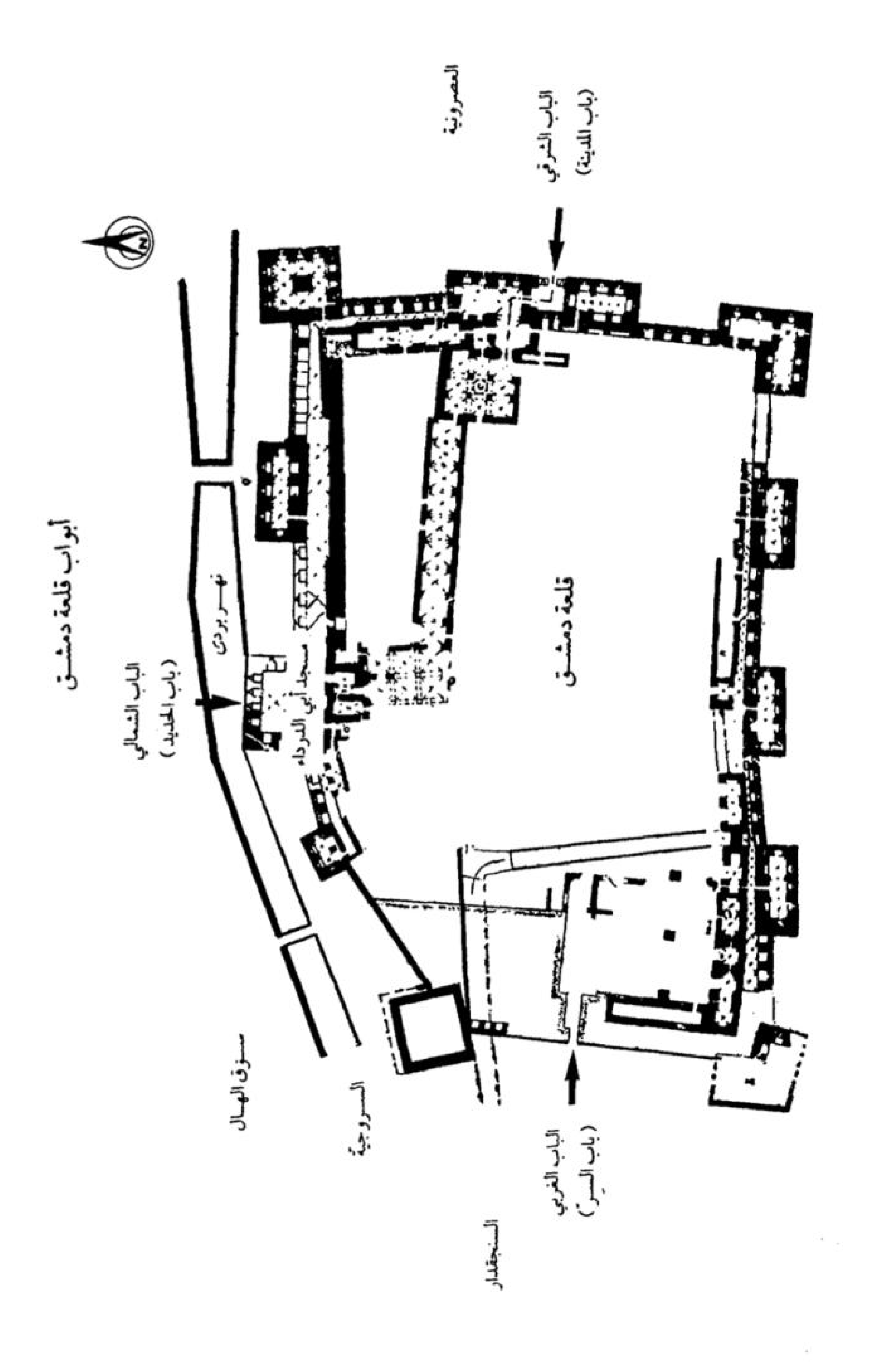


سُوفاجيه، دمشق الشَّام

تكون الأسواق « تكون الأسواق في القلعة »

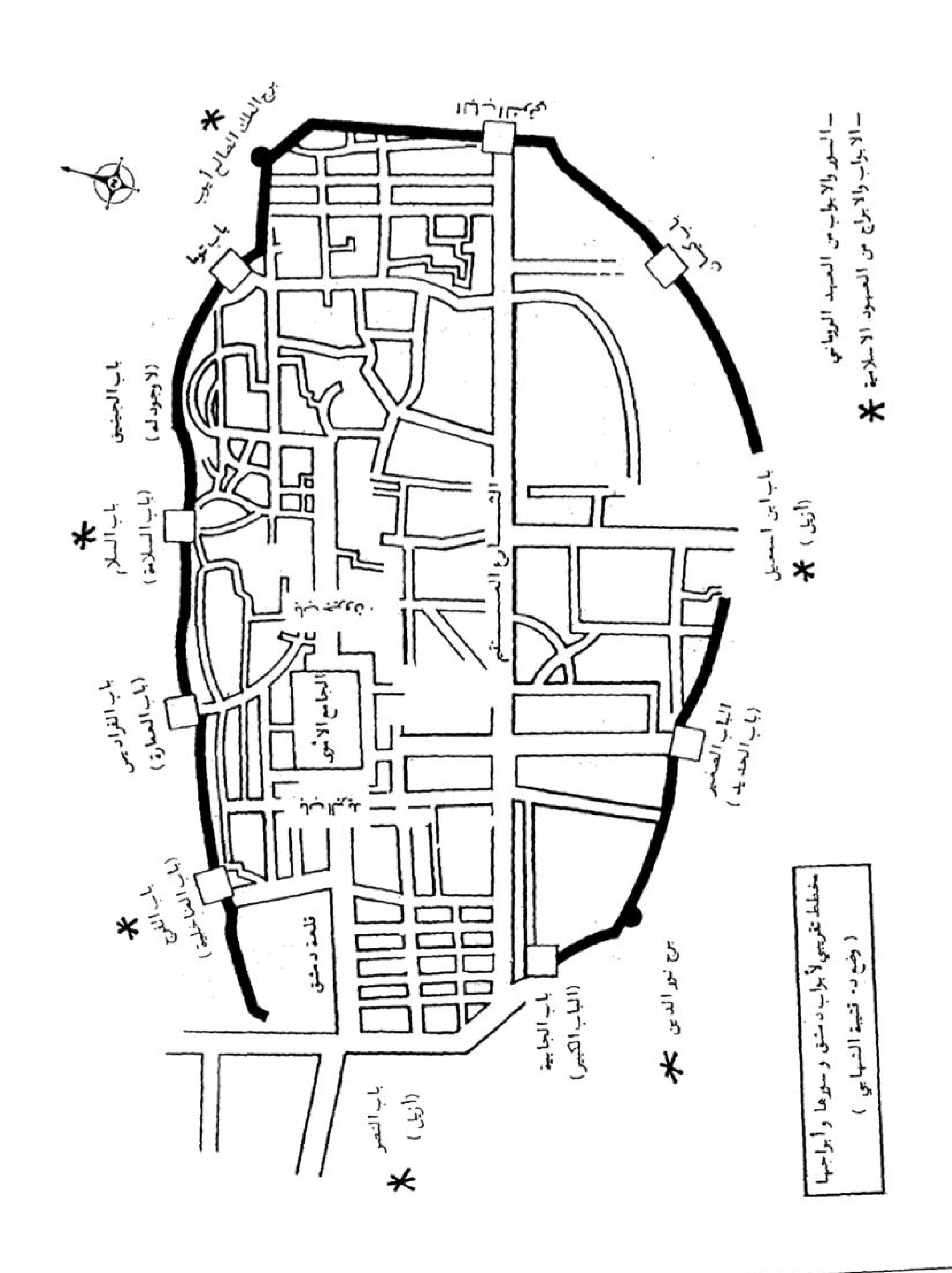
(*) أبواب قلعة دمشق وأحداثها التَّاريخيَّة، د. قتيبة الشَّهابي، وزارة الثَّقافة، دمشق، 1996.

المُلحق (24)(*)



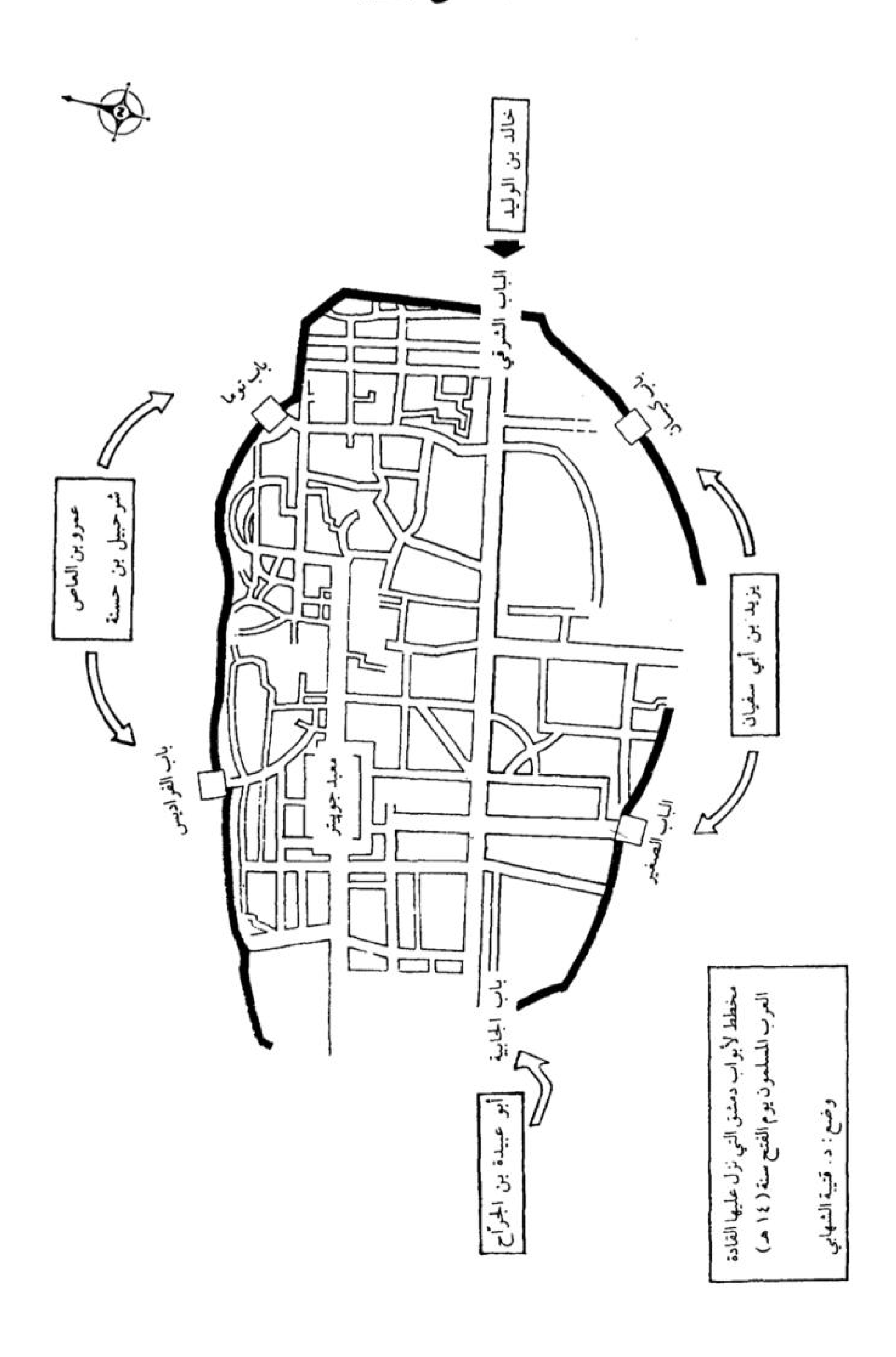
(*) أبواب قلعة دمشق وأحداثها التَّاريخيَّة، د. قتيبة الشَّهابي، وزارة الثَّقافة، دمشق، 1996.

تابع المُلحق (24)(*)



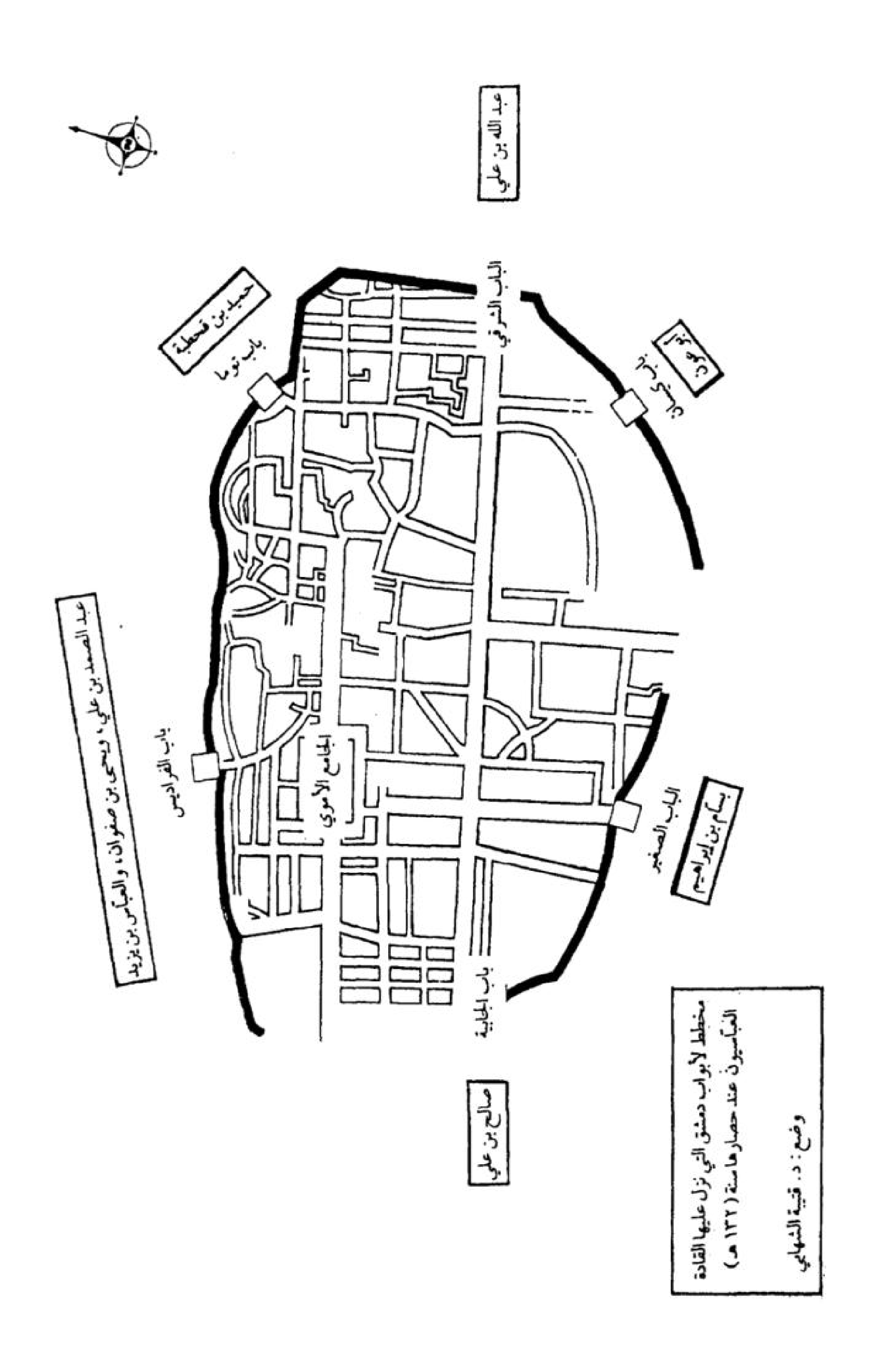
(*) أبواب قلعة دمشق وأحداثها التَّاريخيَّة، د. قتيبة الشَّهابي، وزارة الثَّقافة، دمشق، 1996.

المُلحق (25) (*)



(*) أبواب قلعة دمشق وأحداثها التَّاريخيَّة، د. قتيبة الشَّهابي، وزارة الثَّقافة، دمشق، 1996.

تابع المُلحق (25) (*)

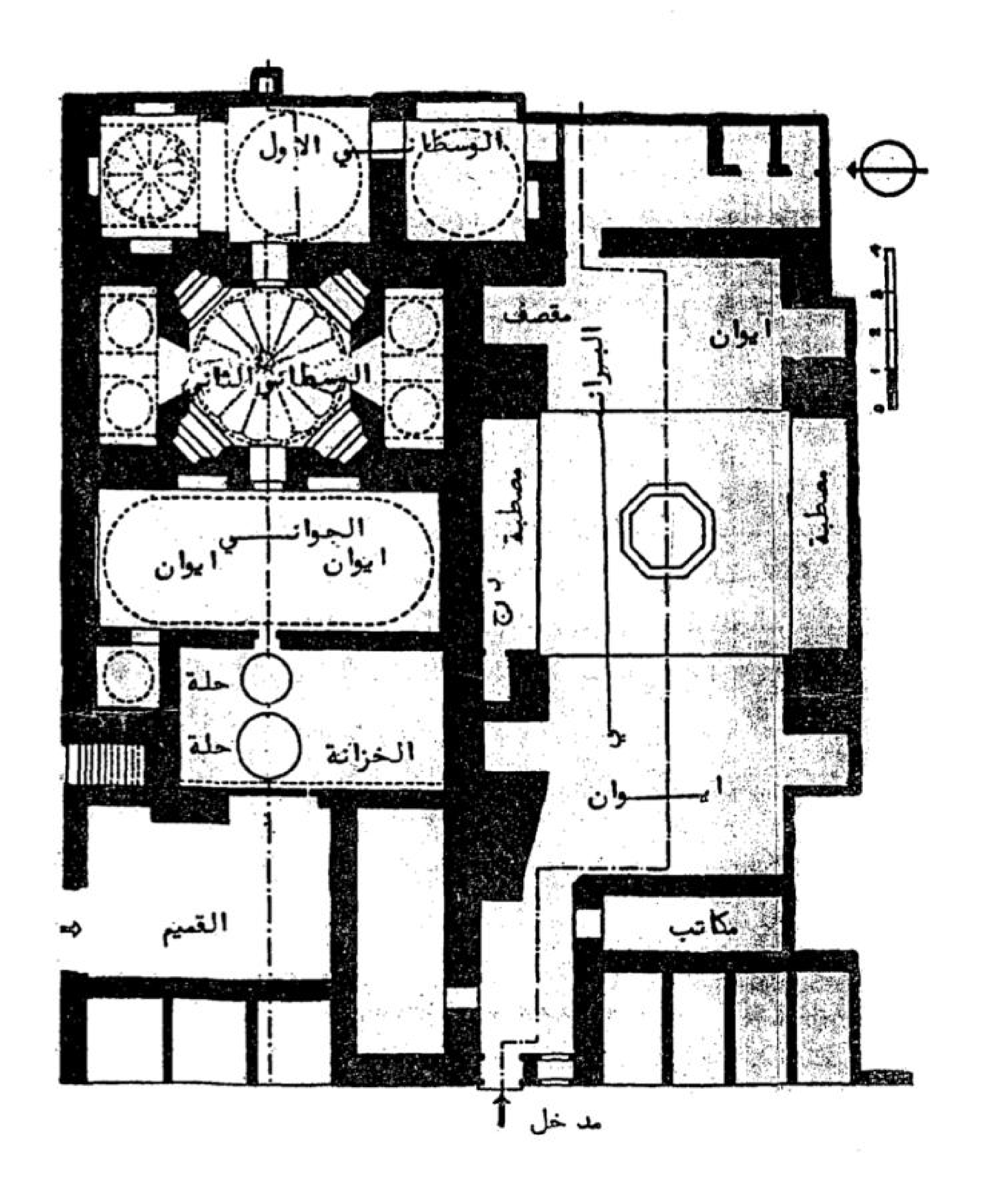


(*) أبواب قلعة دمشق وأحداثها التّاريخيّة، د. قتيبة الشّهابي، وزارة الثّقافة، دمشق، 1996.

المُلحق (26)

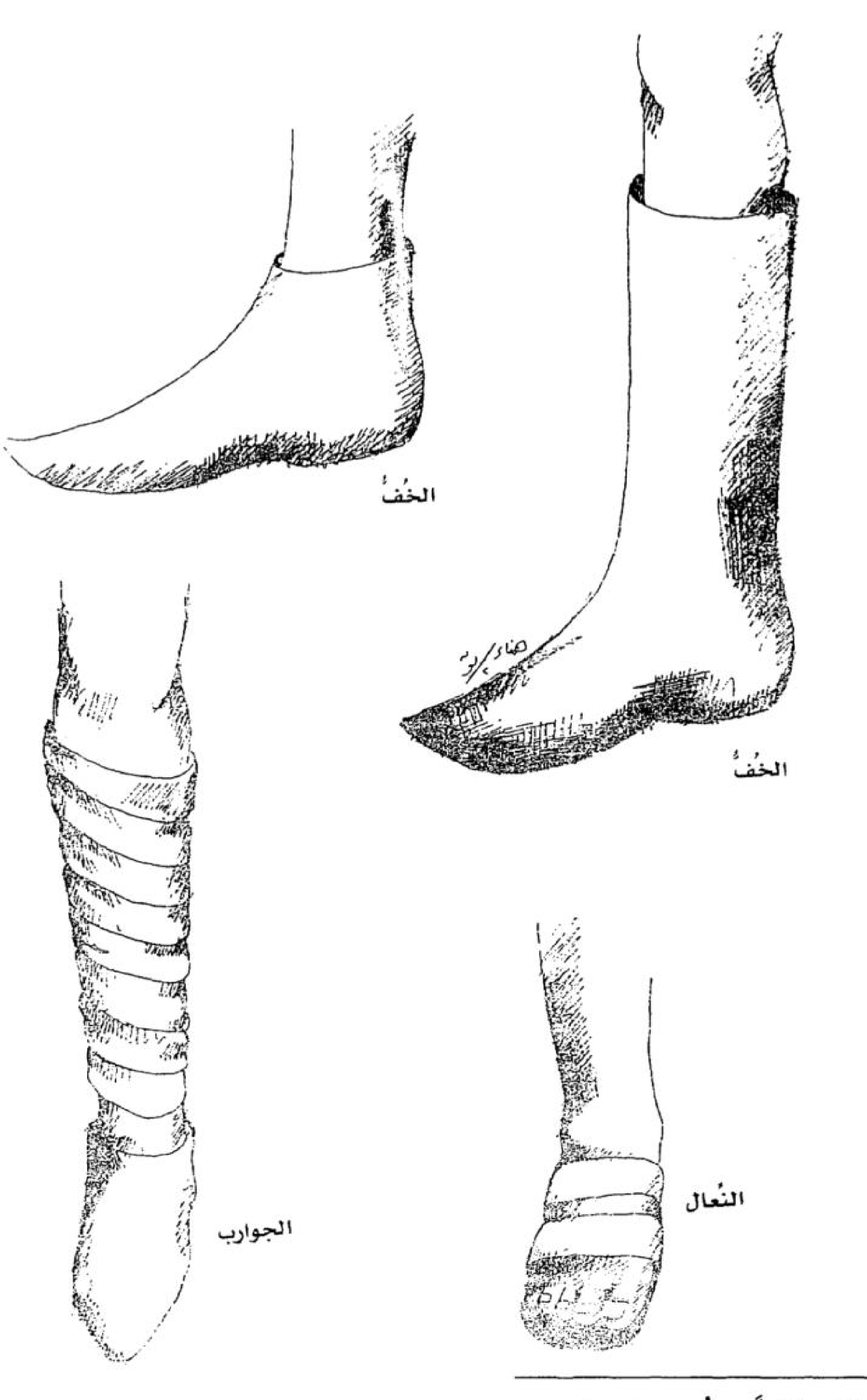
جادة البزوريَّة

مُخطَّط حمَّام نُور الدِّين عن ايكوشار بتصرّف(*)



(*) الحمامات الدمشقية، منير كيال، ص 170.

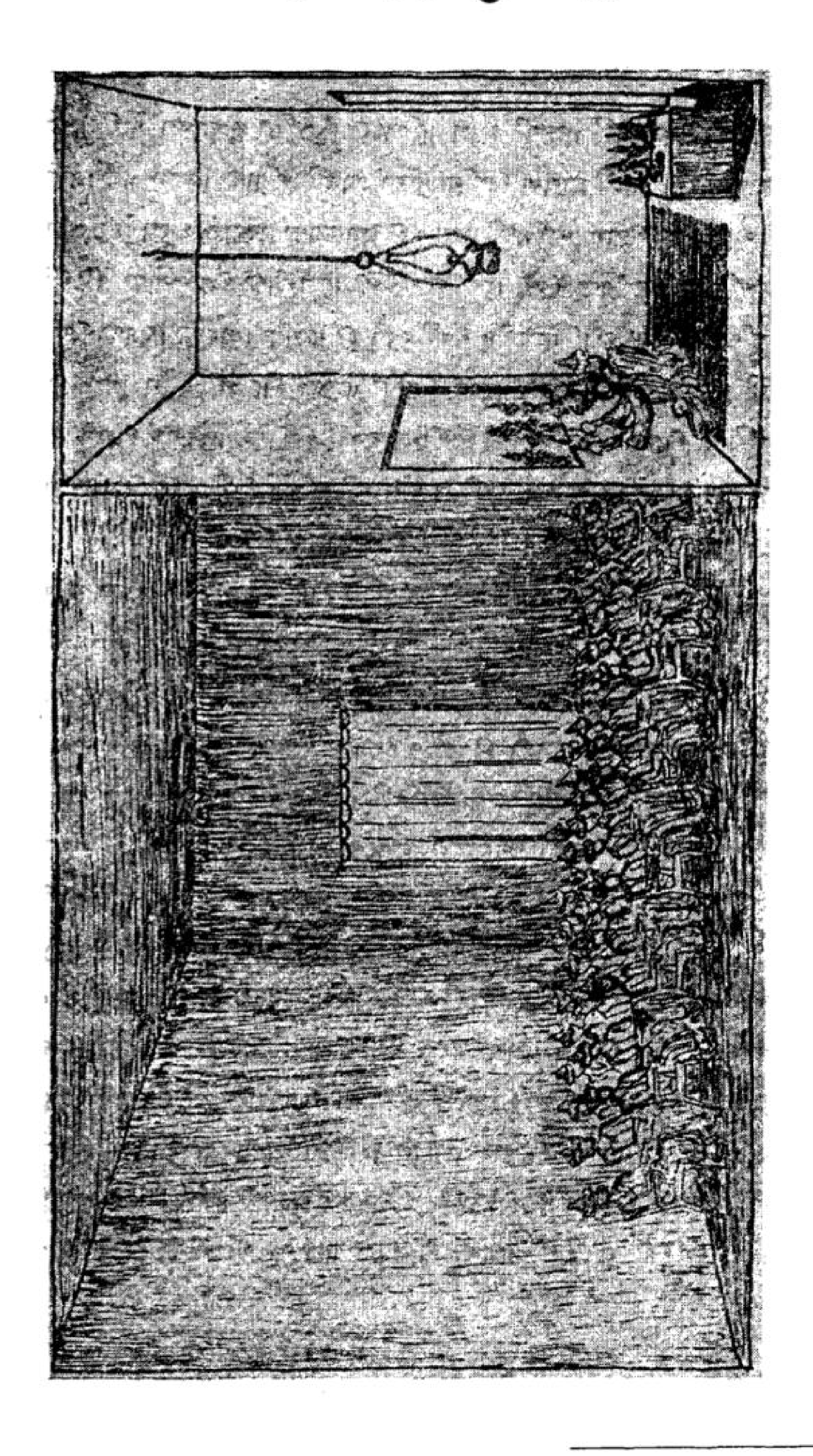
المُلحق (27) (*)



(*) الملابس العَرَبيَّة ، صُبحي رشيد رشدي .

المُلحق (28)

صُورة لمسرح خيال الظلّ (*)



صُورة لمسرح خيال الظلّ

(*) خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال، ابن دانيال.

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحُسين هبة الله (5710/ 1175):

1 ـ تاريخ مدينة دمشق، مخطوط بمكتبة أمير المُؤمنين، النَّجَف، تحت رَقْم (108/ 9/ 17).

العُمري، ياسين خير الله:

2 ـ روضة الأخبار في أفراد الأخبار، رقيقة (مايكرُوفيلم) مُصورَّة عن مخطوطة مكتبة المُتحف البريطاني)، نسخة المُجمَّع العلمي العراقي، تحت رَقْم 1318.

ابن فضل الله العُمري، شهاب الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن يحيى (ت749هـ/ 1349):

3 ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، رقيقة (مايكرُوفيلم) عن مكتبة السُّليمانيَّة في استنبول، نُسخة المجمع العلمي العراقي برَقْم 290/ 300.

مُؤلِّف مجهول:

4 ـ كنز الأخبار، رقيقة (مايكرُوفيلم) مُصورَّة عن مكتبة المُتحف البريطاني، نسخة المجمع العلمي العراقي تحت رَقْم 1218، القسم الثَّاني:

مُؤلِّف مجهول.

5 ـ كنز الأخبار، رقيقة بمركز صدَّام للمخطوطات، تحت رَقْم 16096/ 2.

ثانياً: ـ المصادر المطبوعة:

القُرآن الكريم.

الأبشيهي، شهاب الدِّين مُحَمَّد بن أحمد بن الفتح (ت850هـ/ 1446م):

1 ـ المُستطرف في كُلِّ فنٍّ مُستظرَف، مطبعة أُوفست، بغداد، 1986، وكذلك طبعة مصر، ب، ت.

ابن الأثير، عزِّ الدِّين علي بن مُحَمَّد الشّيباني، (ت630هـ/ 1233م):

2 ـ الكامل في التَّاريخ، دار الفكر، بَيْرُوت، 1978/ 1399هـ، وكذلك طبعة دار صادر، 1965/ 1385هـ.

3 ـ التَّاريخ الباهر في الدَّولة الأتابكيَّة، تحقيق عبد القادر طُليمات، مصر 1963م/ 1383هـ.

أخوان الصَّفا:

4 ـ رسائل أُخوان الصَّفا، دار صادر، بَيْرُوت، 1957.

الأربلي، أحمد بن زمر (ت726هـ/ 1325م):
5- مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحمّاماتها، تحقيق مُحَمَّد أحمد الدَّهَّان، دمشق، 1947م/ 1367هـ.
الأصطخري، إبراهيم بن مُحَمَّد (ت341هـ/ 1952م):
6- المسالك والممالك، تحقيق مُحَمَّد جابر عبد العال، دار العلم للملايين، بَيْرُوت ب، ت.
الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن (ت 356هـ/ 966م):
7- الأغاني، دار الفكْر للطِّباعة والنّشر والتّوزيع، ط1، 1986م/ 1407هـ.
الأصفهاني، عماد الدِّين أبي عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت 597هـ/ 1200م):
8- الفتح القسي في الفتح القُدسي، تحقيق مُحَمَّد محمود، القاهرة، ت، ت.
9- خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق شُكري فيصل، دمشق 1955م/ 1376هـ.
ابن أبي أُصَيْبعة، مُوفَّق الدِّين ابن العبَّاس أحمد بن القاسم (ت 668هـ/ 1270م):
10- عُيُون الأنباء في طبقات الأطبَّاء، تحقيق نزار رضا، بَيْرُوت، ب، ت.
ابن إياس، مُحَمَّد بن إياس الحنفي المصري (ت 930هـ/ 1524م):
11- بدائع الزُّهُور في وقائع الدُّهُور، ط1، بُولاق، مصر 1893م، 1311هـ.
البُخاري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة (ت 256/ 869م):
12- صحيح البُخاري، تحقيق قاسم الشّمَّاعي، ط1، بَيْرُوت، 1987م/ 1408هـ.
البدري، أبو البقاء مُحَمَّد الدِّمشقي (من عُلماء القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي):
13- نُزهة الأنام في محاسن الشَّام، القاهرة، 1922م/ 1341هـ.
ابن بطُّوطة، أبو عبد الله بن إبراهيم (ت779هـ/ 1377م):
14- رحلة ابن بطُّوطة، بَيْرُوت، 1964م/ 1384هـ.
البغدادي، صفيِّ الدِّين عبد المُؤمن بن عبد الحقِّ (ت 739هـ/ 1338م):
15- مراصد الاطِّلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي مُحَمَّد البجاوي، ط1، بَيْرُوت، 1954م/ 1374هـ.
البكري، أبو عُبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/ 1094م):
16- مُعجم ما استعجم، تحقيق مُصطفى السَّقَّا، القاهرة، 1947م/ 1367هـ.
البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ/ 892 م):
17- فُتُوح البُلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطَّبَّاع وعُمر الطَّبَّاع، ط1، بَيْرُوت، 1987م/ 1408هـ.

البنداري، قوام الدِّين أبو الفتح علي بن مُحَمَّد (ت 643هـ/ 1245م):
18 ـ سنا البرق الشَّاميّ، تحقيق فتحيَّة النّبراوي، مصر، 1979م/ 1400هـ.
البُوصيري، مُحَمَّد بن سعيد بن حمَّادي بن عبد الله (ت 696هـ/ 1296م):
19 ـ الدّيوان، تحقيق مُحَمَّد سيِّد الكيلاني، ط1، مصر، 1955م/ 1376هـ.
البيروني، مُحَمَّد بن أحمد (ت 441هـ/ 1048م):
20 ـ الآثار الباقية والقُرُون الخالية، تحقيق إدوارد ساجود لامبرك، 1923م/ 1342هـ.
التّرمذي، أبو عيسى بن عيسى بن سُورة (ت 279هـ/ 892 م):
21 ـ الجامع الصَّحيح وهُو سُنن التّرمذي، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر (المكتبة الإسلاميَّة)، ب، ت.
التّطيلي، بنيامين بن بُونه التّطيلي الأندلسي (ت569هـ/ 1173م):
22 ـ رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حدَّاد، ط1، بَيْرُوت، 1945م/ 1365ه.
ابن تغري بردي، جمال الدِّين أبو المحاسن يُوسُف الأتابكي (ت 874هـ/ 1469م):
23 ـ النُّجُوم الزّاهرة في مُلُوك مصر والقاهرة، المُؤسَّسة المصريَّة العامَّة، ب، ت.
التّنوخي، أبو علي المُحسن بن أبي القاسم علي بن مُحَمَّد (ت 384هـ/ 994م):
24 ـ الفرج بعد الشِّدَّة، بعناية عبُّود الشّالجي، بَيْرُوت، 1978م/ 1399هـ.
الجاحظ، أبو عُثمان عَمْرو بن بحر (ت 255هـ/ 868م):
25 ـ البُخلاء، تحقيق طه الجاوي، مصر، ت، ت، وكذلك طبعة القاهرة 1977م/ 1398هـ.
26 ـ البيان والتّبيين، تحقيق عبد السّلام هارون، ط5، القاهرة، 1985م/ 1406هـ.
27 ـ الحيوان، القاهرة، 1948/ 1368هـ.
28 ـ رسائل في مناقب التُّرك، بعناية عبد السّلام هارون، القاهرة، 1964/ 1384هـ.
ابن جُبير، أبو الحسن مُحَمَّد بن أحمد الكناني (ت 614هـ/ 1217م):
29 ـ رحلة ابن جُبير، بَيْرُوت، 1964م/ 1384هـ/ طبعة 1955م/ 1375هـ.
ابن الجُوزي، أبو الفرج عبدالرّحمن بن علي بن مُحَمَّد (ت 597هـ/ 1200م):
30 ـ المُنتظم في تاريخ المُلُوك والأُمم، بغداد، 1990، طبعة حيدر أباد 1358م.
ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت 852هـ/ 1448م):
31 ـ الإصابة في تمييز الصّحابة، تحقيق مُحَمَّد الزّيني، 1969م/ 1389هـ، وطبعة 1907م/ 1325هـ.
32 ـ الدُّرر الكامنة في أعيان المئة الثّامنة، تحقيق مُحَمَّد سيِّد جادالحقّ ب، ت.
الحرّ العاملي، مُحَمَّد بن الحسن (ت 1104هـ/ 1692م):
34 ـ أمل الأمل، تحقيق السَّيِّد مُحَمَّد الحُسيني، ط1، بغداد، 1965/ 1385.

الحموي، شهاب الدِّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرُّومي (ت 626هـ/ 1228م):
35 - مُعجم البُلدان، بَيْرُوت، 1956م/ 1376هـ.
36 - مُعجم الأُدباء، بَيْرُوت، ب، ت.
المُقتضب من كتاب جمهرة النَّسب ط1، بَيْرُوت، 1987.
الحنبلي، ابن العماد بن عبدالحقّ (1089هـ/ 1678م):
37 - شذرات الذَّهب في أخبار مَنْ ذَهَبَ، بَيْرُوت، ب، ت.
ابن حوقل، أبو الحسن مُحَمَّد بن علي (ت 367هـ/ 979م):
38 - صُورة الأرض، بَيْرُوت، 1956م/ 1367هـ.
أبو حيَّان التّوحيدي، علي بن مُحَمَّد بن العبَّاس (ت 400هـ/ 1009م):
39 - الإمتاع والمُؤانسة، مكتبة الحياة، بَيْرُوت، ب، ت.
40 - البصائر والذّخائر، تحقيق الكيلاني، دمشق، 1964/ 1384.
خسرو، ناصر:
41 - سفرنامة، ترجمة يحيى خشَّاب، بَيْرُوت، 1983م/ 1404هـ.
الخفاجي، شهاب الدِّين أحمد بن مُحَمَّد (ت 1069هـ/ 1658م):
42 - شفاء الغليل، تحقيق مُحَمَّد عبد المُنعم، المطبعة الوهَّابيَّة، 1865م/ 1282هـ.
ابن خلدون، عبد الرّحمن بن مُحَمَّد المغربي (ت808هـ/ 1345م):
43 - العبَر وديوان المُبتدأ والخبر، دار الكتاب العربي، 1958م/ 1378هـ.
المُقدِّمة، المكتبة التِّجاريَّة، ب، ت.
ابن خلكان، أبو العبَّاس شمس الدِّين أحمد بن محمد، (ت 681هـ/ 1282م):
44 - وفيَّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق مُحَمَّد مُحيي الدِّين عبد الحميد، بَيْرُوت، 1948م/ 1368هـ، وكذلك تحقيق إحسان عبَّاس، بَيْرُوت، 1969م/ 1389هـ.
الخوارزمي، ناصر بن عبد السَّيِّد بن علي المقريزي (ت 616هـ/ 1219م):
45 - المغرب في ترتيب المعرب، بَيْرُوت، ب، ت.
ابن دانيال، شمس الدِّين عبد الله بن دانيال (ت 760هـ/ 1358م):
46 - خيال الظِّلِّ وتمثيليَّات ابن دانيال، تحقيق إبراهيم حمادة، مصر 1963م/ 1383هـ.
الدّواداري، أبي بكر عبد الله بن أيبك (ت 760هـ/ 1334م):
47 - كنز الدُّرر وجامع الغُرر، تحقيق سعيد عبد الفتَّاح.

الدُّميري، كمال الدِّين (ت 808هـ/ 1345م):
48 - حياة الحيوان الكُبرى... مطبعة حجازي، القاهرة، ب، ت.
الذّهبي، أبو عبد الله شمس الدِّين مُحَمَّد بن أحمد (ت 748هـ/ 1347م):
49 - دُول الإسلام، ط2، حيدر أباد، 1945م/ 1365هـ.
50 - العبَر في خبر مَنْ غَبَرَ، تحقيق صلاح الدِّين المُنجِّد، الكُويت 1966م/ 1386هـ.
الرّازي، مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ/ 1267م):
51 - مُختار الصِّحاح، دار الكتاب العربي، بَيْرُوت، 1981م/ 1402هـ.
ابن رافع، أبو المعالي وحمد بن رافع (ت 774هـ/ 1372م):
52 - الوفيَّات، تحقيق صالح مهدي عبَّاس، ط1، بَيْرُوت، 1972، مطبعة الموصل، 1982م/ 1403هـ.
الرّبعي، أبو الحسن علي بن مُحَمَّد:
53 - مُجمل فضائل الشَّام ودمشق، تحقيق صلاح الدِّين المُنجِّد، دمشق 1950 - 1952م/ 1370 - 1372هـ.
الزُّبيدي، مُحَمَّد بن مُرتضى (1205هـ/ 1790م):
54 - تاج العروس، بَيْرُوت، 1966، 1986م.
55 - ترويح القُلُوب في ذكر مُلُوك بني أيُّوب، تحقيق صلاح الدِّين المُنجِّد، دمشق 1969م/ 1389هـ.
ابن السّاعي، علي ابن النّجب (674هـ/ 1576م):
56 - الجامع المُختصر وعُيُون السِّيَر، تحقيق مُصطفى جواد، بغداد، 1953م/ 1373هـ.
سبط ابن الجُوزي، أبو المُظفَّر يُوسُف بن قز أوغلي (ت 654هـ/ 1257م):
57 - مرآة الزّمان في تاريخ الأعيان، الهند، حيدر أباد، 1951/ 1371هـ.
السّبكي، مُوفَّق الدِّين بن عبد الوهَّاب بن علي (771هـ/ 1369م):
58 - طبقات الشَّافعيَّة الكبرى، تح: عبد الفتَّاح مُحَمَّد محمود مُحَمَّد، ط1، القاهرة ب، ت.
59 - مُعيد النّعم ومُبيد النّقم، تحقيق مُحَمَّد علي النَّجَّار، وآخرون، القاهرة، 1948/ 1368.
السّخاوي، مُحَمَّد بن عبد الرّحمن بن مُحمَّد، (ت 903هـ/ 1497م):
60 - التّبر المسبوك في ذيل المُلُوك، القاهرة، ب، ت.
61 - الضّوء اللاَّمع لأهل القرن التَّاسع، القاهرة، 1934/ 1353هـ.
ابن سيده، أبو المُحسن بن إسماعيل اللُّغوي الأندلسي (ت 665هـ/ 1266م):
62 - المُخصَّص، المكتب التِّجاريّ، بَيْرُوت، ب، ت.

السّيوطي، جلال الدِّين عبد الرّحمن بن الكمال الشّافعي (ت 911هـ/ 1505م):
63 ـ حُسن المُحاضرة في مُلُوك مصر والقاهرة، مصر، ب، ت.
أبو شامة، شهاب الدِّين عبد الرّحمن بن إسماعيل المقدسي الدِّمشقي (ت 665هـ/ 1216م):
64 ـ الرّوضتَيْن في أخبار الدّولتَيْن، تحقيق مُحَمَّد حلمي أحمد، القاهرة، 1956م، وكذلك طبعة 1962م/ 1382هـ.
65 ـ عُيُون الرّوضتَيْن في أخبار الدّولتَيْن، تحقيق أحمد البسيوني، دمشق 1991م/ 1412هـ.
66 ـ تراجم القرنَيْن السّادس والسّابع، المعروف بالذّيل على الرّوضتَيْن، تحقيق مُحَمَّد زاهد الكوثري، ط2، بَيْرُوت، 1974/ 1394هـ.
ابن شاكر الكتبي، مُحَمَّد بن شاكر (ت 764هـ/ 1362م):
67 ـ عُيُون التّواريخ، تحقيق د. فيصل السّامر ونبيلة عبد المُنعم، بغداد، 1980/ 1401 (ج20)، وكذلك طبعة بغداد، 1984/ 1405 (ج41).
ابن شدّاد، مُحَمَّد بن علي بن إبراهيم (ت 684هـ/ 1285م):
68 ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أُمراء الشّام والجزيرة، تحقيق سامي الدَّهّان، دمشق، 1956م/ 1376هـ.
ابن شدّاد، أبو المحاسن يُوسُف بن رافع الأسدي (ت 632هـ/ 1234م):
70 ـ سيرة صلاح الدِّين، تحقيق جمال الدِّين الشّيّال، القاهرة، 1962/ هـ، وكذلك طبعة 1964م/ 1384هـ.
الشّربيني، أحمد بن عبد المُؤمن (ت 620هـ/ 1222م):
71 ـ شرح مقامات الحريري، تحقيق مُحَمَّد عبد الحليم، ط3، مصر، 1953م، 1377هـ.
الشّهرستاني، مُحَمَّد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت 548/ 1153م):
72 ـ المِلَل والنِّحَل، تحقيق مُحَمَّد سيِّد الكيلاني، مصر، 1967/ 1387هـ.
شيخ الرّبوة، شمس الدِّين مُحَمَّد بن أبي بكر الدِّمشقي (ت 727هـ/ 1326م):
73 ـ تُحفة الدّهر في عجائب البرِّ والبحر، بُطرس بُورغ، 1865م/ 1282هـ.
الشّيرزي، عبد الرّحمن بن نصر (ت 589هـ/ 1193م):
74 ـ نهاية الرُّتبة في طَلَب الحُسبة، تحقيق السيِّد الباز العريني، بَيْرُوت، 1946م/ 1366هـ.
الصّابي، أبو الحسن بن هلال (ت 448هـ/ 1056م):
75 ـ رُسُوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عوّاد، بغداد، 1964م/ 1384هـ.
الصّفدي، صلاح الدِّين خليل بن أيبك (ت 764هـ/ 1363م):
76 ـ أُمراء الشّام في الإسلام، تحقيق صلاح الدِّين المُنجِّد، 2، بَيْرُوت، 1983م/ 1404هـ.

الصّقاعي، فضل الله (ت 725هـ/ 1325م):
77 ـ تالي وفيَّات الأعيان، تحقيق جاكلت سويلة، بَيْرُوت، 1974م/ 1394هـ.
الطّبرسي، رضيّ الدِّين أبو نصر بن الفضل (ت القرن 6هـ/ 12م):
78 ـ مكارم الأخلاق، بَيْرُوت، ب، ت.
الطّبري، مُحمَّد بن جرير (310هـ/ 1922م):
79 ـ تاريخ الرُّسُل والمُلُوك، تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1979م/ 1400هـ.
ابن طُولون، مُحَمَّد بن طُولون الصّالحي (ت 953هـ/ 1546م):
80 ـ القلائد الجوهريَّة في تاريخ الصَّالحيَّة، مُحَمَّد بن أحمد الدَّهّان، دمشق 1949م/ 1369هـ.
81 ـ فصُّ الخواتم فيما قيل في الولائم، تحقيق نزار أباظة، ط1، دمشق 1983م/ 1404هـ.
82 ـ قُضاة دمشق (الثَّغْر البسَّام في مَنْ ولي الشَّام)، تحقيق صلاح الدِّين المُنجِّد، دمشق، 1956م/ 1376هـ.
الظّاهري، عزّ الدِّين خليل بن شاهين (ت 873هـ/ 1467م):
83 ـ زُبدة كشف الممالك، باريس، 1894م/ 1312هـ.
العامري، مُحَمَّد بن يُوسُف:
84 ـ الإعلام بمناقب الإسلام، بعناية غُراب، القاهرة، 1961/ 1381.
أبو عُبيدة، مُعمَّر بن المُثنَّى (ت209هـ/ 824م):
85 ـ نقائض جرير والفرزدق، ليدن 1907/ 1325، وطبعة بغداد بالأُوفست.
ابن العديم، كمال الدِّين عُمر بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ/ 1261م):
86 ـ بُغية الطّلب في تاريخ حلب، تحقيق علي سويم، أنقرة، 1976م/ 1397هـ.
87 ـ زُبدة الطّلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدَّهّان، المعهد الفرنسي، دمشق، 1968م/ 1388هـ.
88 ـ الوصلة إلى الحبيب في ذكر الطَّيّبات والطِّيب، تحقيق سُلَيْمان محجوب ودُرِّيَّة الطِّيب، حلب، 1988م/ 1409هـ.
ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن هبة الله، (ت 571هـ/ 1175م):
89 ـ تاريخ مدينة دمشق، تحقيق صلاح الدِّين المُنجِّد، دمشق، 1954/ 1374.
ابن العميد، المكين جُرجيس العميد بن إلياس (ت 672هـ/ 1273م):
90 ـ أخبار الأيُّوبيِّين، المعهد الفرنسي، دمشق، 1958م/ 1378هـ.
العيني، بدر الدِّين محمود (ت 855هـ/ 1451م):
91 ـ الرّوض الزّاخر في سيرة الملك الظّاهر، تحقيق هانس أرنست، مصر 1962م/ 1382هـ.

الغزالي، أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت 505هـ/ 1111م):

92 ـ إحياء عُلُوم الدِّين، ط1، بَيْرُوت، 1986م/ 1407هـ، وبذيله المُغني على حمل الأسفار في الأسفار، لعبد الرَّحيم العراقي.

الغزولي، علاء الدِّين بن عبد الله البهائي:

93 ـ مطالع البُدُور في منازل السُّرُور، ط1، مطبعة الوطن، 1881 ـ 1882م/ 1299 ـ 1300هـ.

الغسَّاني، عماد الدِّين إسماعيل بن العبَّاس بن علي (ت 803هـ/ 1400م):

94 ـ العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخُلفاء والمُلُوك، تحقيق شاكر محمود عبد المُنعم، بغداد، 1975م/ 1395هـ.

الفارابي، أبو نصر مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت329هـ/ 940م):

95 ـ الحُرُوف، بعناية مُحسن مهدي، بَيْرُوت 1970م/ 1391هـ.

أبو الفداء، الملك المُؤيَّد عماد الدِّين إسماعيل (ت732هـ/ 1331م):

96 ـ تقويم البُلدان، باريس، 1890م/ 1308هـ.

97 ـ المُختصر في أخبار النَّشر، المطبعة الحُسينيَّة، مصر، 1977م/ 1325هـ، طبعة بَيْرُوت، ب، ت.

ابن الفُرات، ناصر الدِّين مُحَمَّد بن عبد الرَّحيم (ت 807هـ/ 1404م):

98 ـ تاريخ ابن الفُرات، تحقيق مُحَمَّد الشَّمَّاع، البصرة، 1969م/ 1389هـ.

ابن فضل الله العُمري، شهاب الدِّين أحمد بن يحيى، (ت 745هـ/ 1349م):

99 ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق دورونيا كرفولسكي، ط2، بَيْرُوت 1986م/ 1407هـ.

ابن الفوطي، كمال الدِّين عبد الرَّزَّاق بن تاج الدَّولة الشَّيباني (ت 712هـ/ 1331م):

100 ـ مَجْمع الآداب في مُعجم الألقاب، تحقيق مُصطفى جواد، دمشق، 1963م/ 1383هـ.

ابن قاضي شهبة، بدر الدِّين (ت 724هـ/ 1323م):

101 ـ الكواكب الدُّرِّيَّة في السِّيرة النُّوريَّة، تحقيق محمود زايد، بَيْرُوت، 1960م/ 1380هـ.

ابن قُتيبة، عبد الله بن مُسلم (ت 276هـ/ 889م):

102 ـ الشِّعر والشُّعراء، تحقيق مُحَمَّد المرزباني، دار التُّراث العربي، 1977م/ 1398هـ.

103 ـ عُيُون الأخبار، بَيْرُوت، ب، ت.

القزويني، زكريًا بن مُحَمَّد بن محمود (681هـ/ 1483):

104 ـ آثار البلاد وأخبار العباد، بَيْرُوت، 1960م/ 1380هـ.

ابن القلانسي، أبو يُعلى حمزة بن القلانسي (ت 555هـ/ 1155م):

105 ـ ذيل تاريخ دمشق، بَيْرُوت، 1908م/ 1326هـ.

القَلْقَشَنْدي، أبو عيسى أحمد بن علي (821هـ/ 1418م):
106 - صُبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مصر، 1914م/ 1334هـ، وطبعة أُخرى، ب. ت.
ابن الزّوني، ظهير الدِّين علي بن مُحَمَّد (ت 697هـ/ 1297م):
107 - مُختصر تاريخ الدُّول، تحقيق مُصطفى جواد، بغداد، 1972م/ 1393هـ.
ابن كثير، أبو الفدا الحافظ ابن كثير الدِّمشقي (ت 774هـ/ 1372م):
108 - البداية والنّهاية، تحقيق مُحَمَّد أبو ملحم وآخرون، ط3، بَيْرُوت، 1978م/ 1399هـ.
ابن كنان، مُحَمَّد بن عيسى (ت 1153هـ/ 1740م):
109 - المُرُوج السُّنْدُسيَّة الفسيحة، تحقيق مُحَمَّد أحمد الدَّهَّان، دمشق 1947م.
الماوردي، أبو الحسن علي مُحَمَّد بن حبيب (ت 450هـ/ 1058م):
110 - الأحكام السُّلطانيَّة والولايات الدِّينيَّة، مصر، ب. ت:
ابن المعمار، مُحَمَّد بن أبي مكرم، المعروف ابن البغدادي الحنبلي (ت 642هـ/ 1244م):
111 - الفُتُوَّة، تحقيق مُصطفى جواد وآخرون، 1958م/ 1378هـ.
المسعودي، علي بن الحُسين (ت 346هـ/ 957م):
112 - مُرُوج الذَّهب ومعادن الجوهر، تحقيق جاسم الشَّمَّاعي الرِّفاعي، بَيْرُوت، 1987م/ 1408هـ.
المقدسي، شمس الدِّين مُحَمَّد بن أحمد (ت 375هـ/ 1985م):
113 - أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، ليدن، 1906م/ 1324هـ.
المقريزي، تقيّ الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م):
114 - السُّلُوك لمعرفة دُول المُلُوك، تحقيق مُحَمَّد مُصطفى زيادة، القاهرة، 1956م/ 1376هـ.
115 - اتِّعاظ الحُنفا في أخبار الأئمَّة الفاطميِّين الخُلفا، القاهرة، 1948م/ 1368هـ.
116 - إغاثة الأُمَّة بكَشْف الغمَّة، تحقيق مُحَمَّد زيادة الشَّبَّان، مصر، 1930م/ 1349هـ.
117 - المواعظ والاعتبار بذكْر الخُطط والأخبار، المُسمَّى الخُطط المقريزيَّة، بغداد، 1970م/ 1390هـ.
ابن مماتي، أسعد بن مماتي (606هـ/ 1209م):
118 - قوانين الدّواوين، تحقيق عزيز موريال عطيَّة، مصر، 1943م/ 1362هـ.
ابن منظور جمال الدِّين مُحَمَّد بن مكرم الأنصاري (ت 711هـ/ 1311م):
119 - لسان العرب، الدّار المصريَّة للتَّأليف والتّرجمة، ب، ت.

ابن مُنقذ، أُسامة بن مُرشد الشّيزري (ت 584هـ/ 1188م):
120 ـ الاعتبار، نَشْر فيليب حتّي، 1930/ 1949.
ابن ميسر، مُحَمَّد بن علي بن يُوسُف (ت 677هـ/ 1278م):
121 ـ أخبار مصر، القاهرة، 1919م/ 1338هـ.
النّسفي، نجم الدِّين عُمر:
122 ـ القند في ذكْر عُلماء سمرقند، تحقيق مُحَمَّد العارياني، مكتبة الكوثر، المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة، 1991م/ 1412هـ.
أبو نعيم الأصفهاني، أحمد بن عبد الله (ت 430هـ/ 1138م):
123 ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السّعادة، مصر، 1937م/ 1356هـ.
النّعيمي، عبد القادر بن مُحَمَّد (ت 927هـ/ 1520م):
124 ـ الدّارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، (دمشق، ب. ت).
125 ـ دُور القُرآن في دمشق، تحقيق صلاح الدِّين المُنجِّد، بَيْرُوت، 1973م/ 1393هـ.
النُّويري، شهاب الدِّين أحمد (ت 733هـ/ 1332م):
126 ـ نهاية الأرب في فُنُون الأدب، القاهرة، 1976م/ 1396هـ.
ابن هشام أبو مُحَمَّد عبد الملك، (ت 218هـ/ 833م):
127 ـ السّيرة النّبويَّة، تحقيق مُصطفى السَّقَّا وآخرون، مكان الطّبع وتاريخه بلا.
الوشاء، أبو عُمر مُحَمَّد بن إسحاق بن يحيى (ت 325هـ/ 936م):
128 ـ الواشي أو الظَّرف والظُّرفاء، بَيْرُوت، 1965م/ 1385هـ.
ابن الوردي، عُمر بن المُظفَّر (ت 749هـ/ 1348م):
129 ـ تتمَّة المُختصر في تاريخ البشر، المعروف بـ: تاريخ ابن الوردي، المطبعة الوهَّابيَّة، 1877م/ 1285هـ.
ابن واصل، مُحَمَّد بن سالم نصر الله (ت 697هـ/ 1298م):
130 ـ مُفرِّج الكُرُوب في أخبار بني أيُّوب، تحقيق جمال الدِّين الشَّيَّال، مصر، 1953م/ 1373هـ.
131 ـ الجُزء الرَّابع، تحقيق سعيد عبد الفتَّاح عاشور وحسنين مُحَمَّد، القاهرة، 1982م/ 1403هـ.
اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح (ت 284هـ/ 897م):
132 ـ تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بَيْرُوت، ب. ت.
اليونيني، قُطب الدِّين أبو الفتح مُوسى بن مُحَمَّد بن أحمد (ت 726هـ/ 1326م):
133 ـ ذيل مرآة الزّمان، ط1، الهند، 1951م/ 1371هـ.

المراجع الحديثة:

أحمد، أحمد رمضان:

1- المُجتمع الإسلامي في بلاد الشَّام، القاهرة، 1977.

أرنولد، سيرتوماس:

2- الدَّعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط2، القاهرة 1957.

اشتور، آ:

3- التَّاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشَّرق الأوسط في العُصُور الوُسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دمشق، 1985.

انتهاوزن، ريتشارد:

4- فنّ التّصوير عند العرب، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التّكريتي، بغداد، 1974.

الأهل، عبد العزيز سيِّد:

5- أيَّام صلاح الدِّين، المكتب التِّجاريّ للطِّباعة والنّشر، ط1، 1961.

أياست، فيكيتا:

6- الشّرق الإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة منصور أبو الحسن، بَيْرُوت، 1986.

باركر، أونسنت:

7- الحُرُوب الصّليبيَّة، ترجمة الباز العريني، القاهرة، 1960.

الباشا، د. حسن:

8- الفُنُون الإسلاميَّة والوظائف على الآثار الإسلاميَّة، القاهرة، 1966.

9- مدخل إلى الآثار الإسلاميَّة، مصر، ب. ت.

10- الألقاب الإسلاميَّة في التَّاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، 1957.

11- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة، القاهرة، 1975.

باشا، د. مُحَمَّد موسى:

12- أدب الدُّوَل المُتتابعة، دار الفكْر الحديث، ط1، بَيْرُوت، 1967.

باقر، طه:

13- مُقدِّمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، 1956.

بدوي، د. أحمد أحمد:

14- الحياة العقليَّة في عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة بمصر والشّام، القاهرة، ب. ت.

بروكلمان، كارل:

15 ـ تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النَّجَّار، القاهرة، 1977.
16 ـ تاريخ الشُّعُوب الإسلاميَّة، ترجمة نبيه أمين فارس ومُنير البعلبكي، ط7، دار العلم للملايين، بَيْرُوت، 1977.
بلا، شارل:
17 ـ الجاحظ في بيئة البصرة، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دمشق، 1961.
بهنسي، عفيف:
18 ـ الشَّام لمحات آثاريَّة وفنِّيَّة، بغداد، 1980.
بيهم، مُحَمَّد جميل:
19 ـ المرأة في حضارة العرب، ط1، دار النّشر للجامعيِّين، 1962.
التّكريتي، د. محمود ياسين:
20 ـ الأيُّوبيُّون في الشَّام والجزيرة، بغداد، 1981.
تيمور، أحمد:
21 ـ خيال الظِّلّ واللّعب والتّماثيل المُصوَّرة عند العرب، ط1، القاهرة 1957.
أعلام المُهندسين في الإسلام، القاهرة، ب. ت.
الجندي، مُحَمَّد سالم:
22 ـ تاريخ معرَّة النُّعمان، تحقيق عُمر رضا كَحَّالة، دمشق، 1963.
ابن الحاج، مُحَمَّد بن مُحَمَّد:
23 ـ المدخل، ط1، المطبعة المصريَّة، بالأزهر، 1929.
حتِّي، د. فيليب:
24 ـ تاريخ سُوريا ولُبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، بَيْرُوت، 1959.
حدَّاد، د. جُورج:
25 ـ المدخل إلى تاريخ الحضارة، مطبعة الجامعة السُّوريَّة، 1958.
حسن، د. حسن إبراهيم:
26 ـ تاريخ الإسلام السِّياسي والاقتصادي، القاهرة، 1982.
27 ـ الفاطميُّون في مصر، بَيْرُوت، ب. ت.
حسن، د. زكي مُحَمَّد:
28 ـ فُنُون الإسلام، القاهرة، 1948.
حسن، د. علي إبراهيم:
29 ـ التَّاريخ الإسلامي العامّ، القاهرة، 1959.

الحصني، مُحَمَّد أديب آل تقي الدِّين:
30- مُنتخبات التَّواريخ الدِّمشقيَّة، دمشق، 1982.
حمزة، د. عبد اللَّطيف:
31- الحياة الفكْريَّة في مصر في العصر الأيُّوبي والمملوكي، القاهرة، ب.ت.
32- أدب الحُرُوب الصَّليبيَّة، ط1، مطبعة الاعتماد، مصر، 1938.
الحموي، مُحَمَّد سليم:
33- دمشق في العصر الأيُّوبي (مكان الطَّبع لا يُوجد).
حميد، عبد العزيز:
34- السُّتُّور أنواعها وطُرُق استخدامها عند العرب، بغداد، 1995.
خليل، د. عماد الدِّين:
35- عماد الدِّين زنكي، الموصل، 1985.
خيِّر، صفوح:
36- مدينة دمشق، 1969.
الدّسوقي، عُمر:
37- الفُتُوَّة عند العرب، مصر، ب. ت.
دكسن، د. عبد الأمير عبد:
38- الخلافة الأُمويَّة، بَيْرُوت، 1963.
دُوزي، رينهارت:
39- المُعجم المُفصَّل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، 1971.
ديوند، م. س:
40- الفُنُون الإسلاميَّة، ترجمة أحمد مُحَمَّد عيسى، ط2، مطر، 1958.
ول ديورانت.
41- قصَّة الحضارة، ترجمة مُحَمَّد بدران، ط1، القاهرة، 1965.
الدّيوه جي، سعيد:
42- دُور العلاج في الإسلام، الموصل، 1966.
الرّحيم، د. عبد الحُسين مهدي:
43- الخدمات العامَّة في بغداد، بغداد، 1987.

ويسلتر، جبك، س:
44 ـ الحضارة العربيَّة، ترجمة غُنيم عبدون، مصر، ب. ت.
الرّيحاني، أمين:
45 ـ النّكبات، ط2، بَيْرُوت، 1948.
زايوروف، ميخائيل:
46 ـ الصّليبيُّون في الشّرق، ترجمة إلياس شاهين، مُوسكُو/ 1986.
زامباور:
47 ـ مُعجم الأنساب والأُسَر الحاكمة، ترجمة السَّيِّد كاشف وآخرون، بَيْرُوت، ب. ت.
الزّركلي، خير الدِّين:
48 ـ الأعلام، ط2، بَيْرُوت، ب. ت.
زكّار، د. سُهيل:
49 ـ مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصّليبيَّة، ط1، بَيْرُوت، 1972.
زكريًّا، د. أحمد وصفي:
50 ـ عشائر الشّام، ط2، دمشق، 1983.
زكي، د. عبد الرّحمن:
51 ـ السّيف في العالم الإسلامي، القاهرة، 1957.
زيادة، د. نقولا:
52 ـ دمشق في عهد المماليك، دمشق، 1966.
زيدان، د. جُرجي:
53 ـ تاريخ التَّمدُّن الإسلامي، مُراجعة حُسين نصار، دار الهلال، ب. ت.
سعداوي، د. نظير حسّان:
54 ـ جيش مصر أيَّام صلاح الدِّين، القاهرة، 1956.
سلام، د. مُحَمَّد زغلول:
55 ـ الأدب في العصر الأيُّوبي، مصر، 1968.
سميل، ر. سي:
56 ـ الحُرُوب الصّليبيَّة، ترجمة سامي هاشم، بَيْرُوت، 1972.
سُوفاجيه، جان:
57 ـ دمشق الشّام، بَيْرُوت، 1936.

شلبي، محمود:
58- حياة صلاح الدِّين، ط2، بَيْرُوت، 1985.
الشّهابي، د. قُتيبة:
59- أيُّوب دمشق وأحداثها التّاريخيَّة، دمشق، 1996.
الصّفار، د. ابتسام مرهون وبدري فهد:
60- صُور من الحياة الاجتماعيَّة، النَّجَف، 1973.
صنو، الأب بُطرُس:
61- تاريخ الموارنة، بَيْرُوت، 1972.
طرخان، د. إبراهيم علي:
62- النُّظُم الإقطاعيَّة، القاهرة، 1968.
عاشور، د. سعيد عبد الفتَّاح:
63- الحركة الصّليبيَّة، ط4، القاهرة، 1982.
64- تاريخ العلاقات بين الشّرق والغرب في العُصُور الوُسطى، بَيْرُوت، 1972.
65- مصر والشَّام عصر الأيُّوبيُّون والمماليك، بَيْرُوت، 1972.
66- المُجتمع المصري، عصر السَّلاطين المماليك، القاهرة، 1962.
67- الظّاهر بيبرس، القاهرة، 1967.
68- بُحُوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ط1، القاهرة، 1987.
عاشور، د. سعيد عبد الفتَّاح وآخرون:
69- دراسات في تاريخ الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، الكُويت، 1987.
العادل، فيصل:
70- المُجتمع الشّامي، مجهول مكان الطّبع وتاريخه.
العالي، د. عبد السّلام:
71- الفلسفة السِّياسيَّة عند الفارابي، بَيْرُوت، 1979.
العاملي، السيِّد محسن الأمين:
72- أعيان الشّيعة، ط1، دمشق، 1949.
العبَّادي، د. عبد الحميد:
73- قيام دولة المماليك في مصر والقاهرة، 1969.

العبُّود، د. نافع توفيق:
74 ـ الدَّولة الخوارزميَّة، بغداد، 1978.
العُبيدي، د. صلاح الدِّين:
75 ـ الملابس العربيَّة الإسلاميَّة في العصر العبَّاسي، بغداد، 1976.
عُثمان، ومحمد عبد السَّتَّار:
76 ـ المدينة العربيَّة، الكُويت، 1988.
العريني، د. السَّيِّد الباز:
77 ـ الشّرق الأدنى في العُصُور الوُسطى، بَيْرُوت، 1967 ـ 1968.
العقَّاد، عبَّاس محمود:
78 ـ العبقريَّات الإسلاميَّة، بَيْرُوت، ب. ت.
علُّوش، د. جواد:
79 ـ أدباء حلّيون، بَيْرُوت، 1978.
علي، د. جواد:
80 ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1954.
العلي، زكيَّة عُمر:
81 ـ التّزيُّن والحلي عند العرب في العصر العبَّاسي، بغداد، 1980.
علي، مُحَمَّد كُرد:
82 ـ خُطط الشَّام، دمشق، 1925، طبعة 1970.
83 ـ غُوطة دمشق، دمشق، 1956.
84 ـ دمشق مدينة السِّحر والجمال، مصر، ب. ت.
العميد، د. ظاهر مُظفَّر:
85 ـ بغداد مدينة المنصور المُدوَّرة، مطبعة النَّجَف الأشرف، 1967.
عيسى، د. أحمد:
86 ـ تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بَيْرُوت، 1939، وكذلك طبعة 1981.
العش، أبو الفرج:
87 ـ آثارنا، ط1، دمشق، 1960.
الغزي، كامل بن حُسين بن مُصطفى.
88 ـ نهر الذَّهب في تاريخ حلب، حلب، 1962.

غنيم، أسميت:
89 ـ الدَّولة الأيُّوبيَّة والصّليبيُّون، الإسكندريَّة، 1985.
فارمر، هنري جُورج:
90 ـ تاريخ المُوسيقى العربيَّة، ترجمة حُسين نصَّار، مصر، ب. ت.
فنسنك، أي:
91 ـ المُعجم المُفهرس لألفاظ الحديث، ليدن، 1965.
فريمان، جرنفيل:
92 ـ التّقويمان الهجري والميلادي، ترجمة حُسام الدِّين الألوسي، مطبعة الجُمهُوريَّة، 1970.
فيصل، د. فهمي توفيق:
93 ـ الفاطميُّون والصّليبيُّون، بَيْرُوت، 1980.
قساطلي، نُعمان:
94 ـ الرّوضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء، ط2، دار الرّائد العربي، 1982.
قُطب، سيِّد:
95 ـ العدالة الاجتماعيَّة في الإسلام، دار الشُّرُوق، القاهرة، 1974.
كاهن، كلود:
96 ـ تاريخ العرب والشُّعُوب الإسلاميَّة، ط3، بَيْرُوت، 1983.
جب، هالمنتون:
97 ـ صلاح الدِّين الأيُّوبي، حرَّرها يُوسُف أنيس، بَيْرُوت، 1973.
كيَّال، منير:
98 ـ الحمَّامات الدِّمشقيَّة وتقاليدها، دمشق، 1964.
99 ـ فُنُون وصناعات دمشقيَّة، دمشق، ب. ت.
ماجد، عبد المُنعم ماجد:
100 ـ النّاصر صلاح الدِّين يُوسُف، مصر، 1958.
101 ـ تاريخ الحضارة العربيَّة في العُصُور الوُسطى، ط3، القاهرة، 1973.
ماهر، د. سعاد:
102 ـ مشهد الإمام علي (ع) بالنَّجَف، دار المعارف، القاهرة، 1969.
مُزهر، يُوسُف:
103 ـ تاريخ لُبنان العامّ، بَيْرُوت، 1958.

مُصطفى، د. شاكر:
104 ـ المُدُن في الإسلام، ط1، دار السّلاسل، الكُويت، 1988.
مدكور، د. إبراهيم:
105 ـ مُعجم العُلُوم الاجتماعيَّة، الهيئة المصريَّة، 1975.
المعاضيدي، د. خاشع عبادة:
106 ـ الحياة السِّياسيَّة في بلاد الشَّام، ط1، بغداد، 1976.
107 ـ دولة بني عقيل في الموصل، بغداد، 1968.
المُنجِّد، د. صلاح الدِّين:
108 ـ دمشق القديمة، دمشق، 1949.
109 ـ مدينة دمشق عند الجَغرافيِّين المُسلمين، بَيْرُوت، ب. ت.
مؤنس، د. حُسين:
110 ـ نُور الدِّين زنكي، ط1، القاهرة، 1959.
المؤمني، د. سعيد مُحَمَّد:
111 ـ القلاع الإسلاميَّة في الأُردن في الفترة الأيُّوبيَّة والمملوكيَّة، ط1، عمَّان، 1988.
رنسيمان، ستيفن:
112 ـ تاريخ الحُرُوب الصّليبيَّة، ترجمة السَّيِّد الباز العريني، بَيْرُوت، 1967.
النَّقَّاش، د. زكي:
113 ـ العلاقات الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة والاقتصاديَّة، بَيْرُوت، 1958.
نُوري، د. دُريد عبد القادر:
114 ـ سياسة صلاح الدِّين في مصر والشّام والجزيرة، بغداد، 1970.
هنتس، فالتر:
115 ـ المكاييل والأوزان الإسلاميَّة، ترجمة كامل العسلي، عمَّان، 1970.
يُوسُف، د. عبد القادر أحمد:
116 ـ العلاقات بين الشّرق والغرب بين القرنَيْن الحادي عشر والثّاني عشر، المكتبة العصريَّة صيدا، 1969.
يُونس، د. عبد الحميد:
117 ـ خيال الظِّلّ، مصر، 1965.

ثالثاً: البُحُوث والدّوريات:

أرنولد:

1 ـ الفنُّ الإسلامي وأثره على أُورُوبا، بحث منشور ضمن كتاب تُراث الإسلام، ط1، بَيْرُوت 1962.

حمارنة، د. سامي خلف:

2 ـ الطِّبُّ العربيُّ في فلسطين زمن الفاطميِّين والأيُّوبيِّين، بحث منشور ضمن أعمال المُؤتمر الدّولي لبلاد الشَّام، فلسطين، ب. ت.

جواد، د. مُصطفى:

3 ـ الفُتُوَّة وأطوارها وأثرها في توحيد المُسلمين، مجلَّة المُجمَّع العلمي العراقي، مُجلَّد 5، لسنة 1958.

خريسات، د. مُحَمَّد عبد القادر:

4 ـ التَّوسُّع العُمراني في مدينة دمشق حتَّى أواخر الحُكْم الفاطمي لبلاد الشَّام، المُؤتمر الدّولي لبلاد الشَّام، عمَّان، 1992.

داود، أ. نبيلة عبد المُنعم:

5 ـ أدب المائدة، بحث مُقدَّم إلى النّدوة القُطريَّة لتاريخ العُلُوم عند العرب، مركز إحياء التُّراث العلمي العربي، بغداد، 1986.

الدّويهي، البطريق استيفانوس:

6 ـ تاريخ الأزمنة، مجلَّة المشرق، مُجلَّد 44، لسنة 1951.

الرّيحاوي، د. عبد القادر:

7 ـ خُطط مدينة دمشق، بحث منشور مُقدَّم ضمن ندوة ابن عساكر، 1979.

زيادة، د. نقولا:

8 ـ سُوريا زمن الحُرُوب الصّليبيَّة، مجلَّة المُقتطف، 1935.

زيَّات، حبيب:

9 ـ اختيار المُلُوك الأيُّوبيِّين في رشوة النِّساء الفرنجيَّات، مجلَّة المشرق، مُجلَّد 36، لسنة 1938.

10 ـ أيَّام السَّبُّوت في عهد العبَّاسيِّين، مجلَّة المشرق، مُجلَّد، 36، لسنة 1948.

11ـ فنُّ الطّبخ والطّعام، مجلَّة المشرق، مُجلَّد 41، لسنة 1947م.

12 ـ النِّساء الفرنجيَّات في عصر الصّليبيِّين، مجلة المشرق، مُجلَّد 43، لسنة 1949.

زينو، سالم:

13 ـ حياة الصّليبيِّين ونُظُمهم، المجلَّة العسكريَّة، العدد 30، لسنة 1965.

السّامرَّائي، كمال:
14 ـ الطِّبُّ والأطبَّاء في القرن السّابع الهجري، مجلَّة المورد، مُجلَّد 24، العدد الأوَّل لسنة 1996.
شخاشيرو، مُحمَّد:
الشيَّال، د. جمال الدِّين:
15 ـ الجاسوسيَّة في عصر الحُرُوب الصّليبيَّة، مجلَّة المُقتطف لسنة 1941.
شيرو، مُحَمَّد شيخاه:
16 ـ العادات والأخلاق، بحث منشور ضمن كتاب خُطط الشَّام لُمحَمَّد كُرد علي، دمشق، 1925.
ص. ي:
17 ـ الصِّناعات السُّوريَّة زمن الحُرُوب الصّليبيَّة، مجلَّة المُقتطف، لسنة 1908.
صالحيَّة، د. مُحَمَّد عيسى:
18 ـ من وثائق الحَرَم القُدسي الشَّريف المملوكي، حوليَّات كُلِّيَّة الآداب، الحوليَّة السّادسة، جامعة الكُويت، 1985.
الطّراونة، د. طه:
19 ـ المرأة الصّليبيَّة، مجلَّة مُؤْتة، مُجلَّد8، لسنة 1993.
طلس، د. مُحَمَّد أسعد:
20 ـ الحياة الاجتماعيَّة عند العرب، مجلَّة المُجمَّع العلمي العراقي، لسنة 1951.
عاشور، د. سعيد عبد الفتَّاح:
21 ـ المجمع الإسلامي في بلاد الشَّام، بحث منشور ضمن أعمال المُؤتمر الدّولي لبلاد الشَّام، عمَّان، 1973.
العلي، صالح أحمد:
22 ـ الألبسة العربيَّة، مجلَّة المُجمَّع العلمي العراقي، مُجلَّد 17، لسنة 1966.
عبد المهدي، عبد الجليل:
23 ـ العُلُوم الدِّينيَّة واللّسانيَّة في ظلِّ المسجد الأقصى، بحث منشور ضمن أعمال مُؤتمر فلسطين، فلسطين، ب. ت.
عطيَّة، جميل:
24 ـ مفهوم الفنِّ والجمال عند مُفكِّري وفلاسفة الإسلام، مجلَّة آفاق عربيَّة، 1962.
فتح الله، جرجيس:
25 ـ إدارة المُستشفيات والمُراقبة الصِّحِّيَّة في المُجتمع الإسلامي، بحث منشور ضمن كتاب تُراث الإسلام، ط2، بَيْرُوت، 1962.

كرامرز، جي. أج:
26 ـ الجغرافية والتّجارة، بحث منشور ضمن كتاب تُراث الإسلام، ط2، بَيْرُوت، 1962.
مُعاذ، خالد:
27 ـ دمشق في عهد ابن عساكر، بحث مُقدَّم إلى ندوة ابن عساكر، دمشق، 1979.
المُنجِّد، صلاح الدِّين:
28 ـ حمَّامات دمشق، مجلَّة المشرق، مُجلَّد1، السَّنة 1942.
الياور، طلعت:
29 ـ الحمَّامات في المدينة العربيَّة الإسلاميَّة، بحث منشور ضمن أعمال ندوة الحمَّامات التي أقامها مركز إحياء التُّراث العلمي العربي، جامعة بغداد، 1991.
أليست، فيكيا:
30 ـ الحياة الاقتصاديَّة في دمشق، بحث مُقدَّم لندوة ابن عساكر، دمشق 1979.

رابعاً: ـ الموسوعات:

أرنولد:
1 ـ مادَّة خان، دائرة المعارف الإسلاميَّة، التَّرجمة العربيَّة.
الأُعليمي، مُحَمَّد حُسين الشَّيخ سلمان:
2 ـ مادَّة خان، دائرة المعارف والمُسمَّاة بمُقتبس الأثر، ط1، بَيْرُوت، 1927.
بارنولد:
3 ـ مادَّة خان، دائرة المعارف الإسلاميَّة، التَّرجمة العربيَّة.
البُستاني، بُطرس:
4 ـ مادَّة خان، دائرة المعارف، بَيْرُوت، 1876.
عبَّاس، صالح مهدي:
5 ـ النّشاط الثّقافي والحضاري لأعيان تكريت في الإسلام، موسوعة مدينة تكريت، بغداد، 1997.
فارمر:
6 ـ مادَّة صفيٍّ الدِّين عبد المُؤمن، دائرة المعارف الإسلاميَّة، التَّرجمة العربيَّة.
فالامنسي:
7 ـ مادَّة ديرمران، دائرة المعارف الإسلاميَّة، التَّرجمة العربيَّة.
الويس:
8 ـ مادَّة حمَّام، دائرة المعارف الإسلاميَّة، التَّرجمة العربيَّة.

منزل :
9 ـ مادَّة خيال الظِّلّ، دائرة المعارف الإسلاميَّة، التَّرجمة العربيَّة.
بيومين :
10 ـ مادَّة حمَّام، دائرة المعارف الإسلاميَّة، التَّرجمة العربيَّة.
هارتمان :
11 ـ مادَّة دمشق، دائرة المعارف الإسلاميَّة، التَّرجمة العربيَّة.
اليست :
12 ـ مادَّة خان، دائرة المعارف الإسلاميَّة، التَّرجمة العربيَّة.

خامساً: الرَّسائل الجامعيَّة:

أحمد، د. عايدة حسن :
1 ـ الوحدات التَّصميميَّة للمنسوجات، رسالة دُكتُوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، بغداد، 1996.
الألوسي، د. فاروق عبد الرَّزَّاق :
2 ـ الحياة الاجتماعيَّة في العراق في العصر الأُموي، رسالة دُكتُوراه، مطبوعة على الآلة الكاتبة، بغداد، 1995.
الجنابي، د. عجمي محمود :
3 ـ المُقاومة العربيَّة للغزو المغولي حتَّى معركة عَيْن جالوت، رسالة دُكتُوراه، مطبوعة على الآلة الكاتبة، بغداد، 1990.
الحيَّاني، د. مُحَمَّد فتحي :
4 ـ الأعلام خلال الحُرُوب الصَّليبيَّة، رسالة دُكتُوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، معهد التَّاريخ العربي، بغداد، 1995.
وهيب، د. فاروق عبَّاس :
5 ـ الحياة الاجتماعيَّة في دمشق خلال العصر الأُموي، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الطَّابعة، بغداد، 1986.

المصادر الأجنبيّة

Ali Mazahery, Lavie Quzidienndes Masulmanna Moyen Age, Paris 1961.

Belloc, The Cursadr The World Debet, London, 1937.

Claude Cahen, Le Syrie Du Nord Al'epoque Des Croisand, Paris, 1940.

Krey, A. C. The First Crusades, Prnceton, 1958.

Nocola Ziadeh, Urban Life In Syria Under The Early Mamluks, Beirut, 1973.

Poul Kahl, The Arab In Shadow At Playing, Egept.

Watt, W, Mantgamery, The Majesty That Was Islam, The Islamic World, London, 1976.

(Funduk) In Encyclopedia Of Islam (New Edition) By Prof. R. Letourneau.

(Hammam) In Encyclopedia Of Islam (New Edition) By Prof. A Hamilton.

(Khan) In Encyclopedia Of Islam (New Edition) By Prof. N. Elisseeff.